

السيرة النبوية

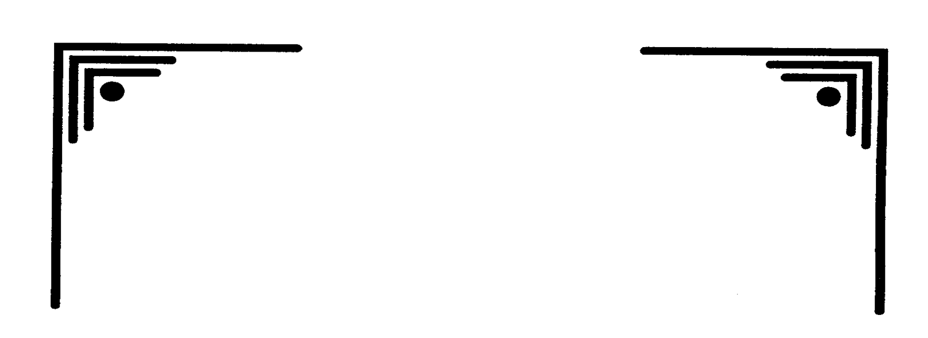
عرض وقائع وتحليل الأحداث
«دروس وعبر»

الجزء الثاني

تأليف
دكتورا علي محمد محمد الصلابي

الناشر
مكتبة الإيمان - بالمنصورة

مكتبة الإيمان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢



الفصل الثامن

غزوة بدر الكبرى





المبحث الأول

مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمون تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالاً عظيمة[١] لقريش ،يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلاً[٢]، فأرسل الرسول (ﷺ) بسبس ابن عمرو[٣]، لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله (ﷺ) أصحابه للخروج وقال لهم: «**هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**»[٤]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه (ﷺ) من المدينة لم يكن في نيته قتال وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءًا من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا[٥].

كلف رسول الله (ﷺ) عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس في المدينة عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة وعيّنه أميرًا عليها[٦].

أرسل النبي (ﷺ) اثنين من أصحابه[٧] إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه بخبرها[٨]، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي (ﷺ) في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة»[٩]، يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً[١٠]، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين[١١]، كانت قوات المسلمين في بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة

---

(١) قُدّرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ٥٠ ألف دينار . انظر: موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٨٦) .

(٢) جوامع السير لابن حزم ص١٠٧ .

(٣) ورد الاسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصَحفًا إلى بسيسة وصححه ابن حجر .

(٤) ابن هشام السيرة (٢/ ٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) انظر: حديث القران عن غزوات الرسول، د . محمد آل عابد (١/ ٤٣) .

(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠)، المستدرك للحاكم (٣/ ٦٣٢) .

(٧) هما عدي بن الزغباء، وبسبس بن عمرو، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٤) .

(٨) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٢) بإسناد صحيح .

(٩) فتح الباري (٧/ ٢٩٠-٢٩٢) .

(١٠) مسلم، شرح النووي (١٢/ ٨٤) .

(١١) البداية والنهاية (٣/ ٣١٤) وكذلك الطبقات، وخليفة بن خياط .

واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب والتي بلغ تعدادها ألفًا[(١٢)]، معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء النبي (ﷺ) وأصحابه[(١٣)]، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرًا يتعاقبون ركبوها[(١٤)].

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدر:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النبي (ﷺ) وأصحابه، فيها من العبر والمواعظ الشيء الكثير:

١- إرجاع البراء بن عازب وابن عمر لصغرهما:

وبعد خروج النبي (ﷺ) وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عير أبي سفيان، وصلوا إلى (بيوت السقيا) خارج المدينة، فعسكر فيها النبي (ﷺ) واستعرض (ﷺ) من خرج معه فردّ من ليس له قدرة على المضي مع جيش المسلمين، وملاقاة من يحتمل نشوب قتال معهم، فرد على هذا الأساس البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي (ﷺ) راغبين وعازمين على الاشتراك في الجهاد[(١٥)].

٢- ارجع فلن أستعين بمشرك:

وفي أثناء سير النبي (ﷺ) وصحبه، التحق أحد المشركين راغبًا بالقتال مع قومه، فرده الرسول (ﷺ) وقال: «ارجع فلن أستعين بمشرك» وكرر الرجل المحاولة فرفض الرسول حتى أسلم الرجل والتحق بالمسلمين»[(١٦)].

٣- مشاركة النبي (ﷺ) أصحابه في الصعاب:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير كان أبو لبابة وعلي ابن أبي طالب زميلي رسول الله (ﷺ) قال: وكانت عقبة رسول الله قال: فقالا: نحن نمشي عنك.

فقال: **«ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»**[(١٧)].

ثانيًا: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر:

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي (ﷺ) بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق الساحل، في نفس الوقت أرسل عمرو بن

---

(١٢) مسلم، بشرح النووي (١٢/ ٨٤).
(١٣) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠).
(١٤) المسند (١/ ٤١١)، مجمع الزوائد (٦/ ٦٩)، جوامع السير ص١٠٨.
(١٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٢٤).
(١٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٣٥٥).
(١٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٣٥٥).

ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها[١٨]، فقد كان أبو سفيان يقظًا حذرًا، يتلقط أخبار المسلمين ويسأل عن تحركاتهم، بل يتحسس أخبارهم بنفسه، فقد تقدم إلى بدر بنفسه وسأل من كان هناك :(هل رأيتم من أحد؟ قالوا: لا إلا رجلين قال: أروني مناخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففته فإذا هو فيه النوى. فقال: هذا والله علائف يثرب)[١٩]، فقد استطاع أن يعرف تحركات عدوه حتى خبر السرية الاستطلاعية عن طريق غذاء دوابها، بفحصه البعر الذي خلفته الإبل، إذ عرف أن الرجلين من المدينة أي من المسلمين، وبالتالي فقافلته في خطر، فأرسل عمرو بن ضمضم إلى قريش وغير طريق القافلة واتجه نحو ساحل البحر[٢٠].

كان وقع خبر القافلة شديدًا على قريش، التي اشتاط زعماؤها غضبًا لما يرونه من امتهان للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار، إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية[٢١].

لقد جاءهم عمرو بن ضمضم الغفاري بصورة مثيرة جدًا، يتأثر بها كل من رآها، أو سمع بها، إذ جاءهم وقد حول رحله وجدع أنف بعيره، وشق قميصه من قُبل ومن دبر، ودخل مكة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش: اللطيمة، اللطيمة[٢٢]، أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث[٢٣].

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وقد انشق بنو زهرة[٢٤]، وتخلف في الأصل بنو عدي فعاد بنو زهرة إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت بدر[٢٥].

---

(١٨) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(١٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).
(٢٠) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس ص٣٣، ٣٤.
(٢١) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٢٢) اللطيمة: القافلة المحملة بشتى أنواع البضاعة غير الطعام.
(٢٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢١).
(٢٤) نصحهم الأخنس بن شريق بذلك. انظر: ابن هشام (٢/ ٢٣١).
(٢٥) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٢٨٧).

ثالثاً: مشاورة النبي (ﷺ) لأصحابه:

لما بلغ النبي (ﷺ) نجاة القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي (ﷺ) استشار رسول الله (ﷺ) أصحابه في الأمر[٢٦]، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش حيث أنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا اقناع الرسول (ﷺ) بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن الكريم موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عموماً في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال، الآيات ٥-٨) وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو[٢٧] وكان للمقداد بن الأسود موقفاً متميزاً، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به[٢٨]: أتى النبي (ﷺ) وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤). ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك.

فرأيت الرسول أشرق وجهه وسره[٢٩] وفي رواية:[٣٠] قال المقداد: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) ولكن امض ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله.

وبعد ذلك عاد رسول الله (ﷺ) فقال: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**» وكان إنما يقصد الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول (ﷺ) خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي (ﷺ) من ذلك فنهض قائلاً: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: «أجل»، قال: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند

(٢٦) صحيح البخاري رقم (٣٩٥٢).

(٢٧) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٢٨٨).

(٢٨) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له مايقابل ذلك لكان حصوله أحب إليه.

(٢٩) البخاري، كتاب المغازي (٧/ ٢٨٧).

(٣٠) البخاري، كتاب التفسير (٨/ ٢٧٣).

اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر على بركة الله)[٣١].

سُرّ النبي (ﷺ) من مقالة سعد بن معاذ ونشطه ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: «**سيروا وأبشروا فإن الله (تعالى) قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**»[٣٢].

كانت كلمات سعد مشجعة لرسول الله (ﷺ) وملهبة لمشاعر الصحابة فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال، إن حرص النبي على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات، ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فأما إلى العلياء، وأما تحت الغبراء[٣٣].

رابعًا: المسير إلى لقاء العدو وجمع المعلومات عنه:

نظم النبي (ﷺ) جنده بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلّمة إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة[٣٤].

وقام (ﷺ) ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخًا من العرب، فسأله رسول الله (ﷺ) عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم؟ فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم». فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا -للمكان الذي به جيش المسلمين- وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا -للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً- ثم قال الشيخ: لقد أ خبرتكما عما أردتما، فأخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن من ماء». ثم انصرف النبي (ﷺ) وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟[٣٥].

وفي مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله (ﷺ) وأبو بكر، أرسل عليه الصلاة والسلام عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهما: «**أخبراني عن جيش قريش**» فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما: «**كم القوم؟**» قالا: كثير. قال: «**ما عدتهم؟**» قالا: لا ندري. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**كم**

---

(٣١) مسلم (٣/ ١٤٠٤) رقم (١٧٧٩).

(٣٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٢) بإسناد صحيح، المسند (٥/ ٢٥٩) رقم (٣٦٩٨).

(٣٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس ص٣٧.

(٣٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٧٢).

(٣٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

ينحــرون كل يوم؟» قال: يومًا تسعًا ويومًا عـشرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«القوم ما بين التسعمائة والألف»** فقال لهما: فمن فيهم مـن أشراف قريش؟ فذكرا عتبة بن ربيعـة وشيبة وأبا جـهل وأمية بن خلف في آخـرين من صناديد قريش، فأقـبل رسول الله (ﷺ) إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[٣٦].

كـــان من هدي الـنبي (ﷺ) حرصـه على معرفـة جيش العدو والوقـوف على أهدافه ومقاصـده، لأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبـة لمجابهته وصدّ عـدوانه، فقد كانت أساليبه في غزوة بدر في جمع المعلومات تارة بنفسه وأخرى بغيره ،وكان (ﷺ) يطبق مبـدأ الكتـمان في حـروبه، فقـد أرشد القـرآن الكريم المسلمين إلى أهميـة هذا المبـدأ قال (تعالى): **﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾** (سورة النساء، آية ٨٣).

وقد تحلى رسول الله (ﷺ) بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: (كان رسول الله (ﷺ) قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها. . .)[٣٧] وفي غزوة بدر ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

١- سؤاله (ﷺ) الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه، وعن قريش وجيشها.

٢- تورية الرسول (ﷺ) في إجابته على سؤال الشيخ: ممن أنتما؟ بقوله صلى الله عليه وسلم: «نحن من ماء». وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرسول (ﷺ) كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

٣- وفي انصرافه فور استجوابه كتمان - أيضًا- وهو دليل على مـا يتمتع به رسول الله (ﷺ) من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هـذا سببًا في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم: «من ماء»[٣٨].

٤- أمـــره (ﷺ) بقطع الأجراس من الإبل يـوم بدر، فعن عائشـة رضي الله عنها أن رسول الله (ﷺ) أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر[٣٩].

٥- كتمانه (ﷺ) خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (. . .إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا. . . . .)[٤٠].

وقد استدل الإمام النووي بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب وألا يبين القائد

---

(٣٦) مسلم (٣/ ١٤٠٤)، ابن هشام (٢/ ٢٢٩).
(٣٧) مسلم (٣/ ١٣٨٣)، رقم (١٧٦٧).
(٣٨) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).
(٣٩) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد محمد باوزير ص ١٠٠.
(٤٠) مسلم، كتاب الإمارة (٣/ ١٥١٠) رقم (١٩٠١).

الجهة التي يقصدها لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو[٤١].

ونلحظ أن التربية الأمنية في المنهاج النبوي مستمرة منذ الفترة السرية، والجهرية بمكة، ولم تنقطع مع بناء الدولة وأصبحت تنمو مع تطورها وخصوصًا في غزوات الرسول (ﷺ).

خامسًا: مشورة الحباب بن المنذر في بدر:

بعد أن جمع (ﷺ) معلومات دقيقة عن قوات قريش سار مسرعًا ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر؛ وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء بدر من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم - أي جيش المشركين- فننزله ونغوِّر -نخرب- ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فأخذ النبي (ﷺ) برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار[٤٢]، وهذا يصور مثلاً من حياة الرسول (ﷺ) مع أصحابه، حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله.

إن هذه الحرية التي ربّى عليها رسول الله (ﷺ) أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحًا باهرًا وإن كان حديث السن، لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد، لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه[٤٣].

ونلحظ عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول (ﷺ):

يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم

(٤١) شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٤٥).
(٤٢) انظر: مرويات غزوة بدر ص١٦٤. قصة الحباب تتقوى وترتفع إلى درجة الحسن.
(٤٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١١٠).

بين يدي قائده، فإن كـان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فـتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفـهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعـارض لرأي سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها، أو قائد من قوادها[٤٤].

سادساً: الوصف القرآني لخروج المشركين:

قال (تعالى): ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارهم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (سورة الأنفال، آية ٤٧).

ينهى المولى (عـز وجل) المؤمنين عن التشـبه بالكافـرين الذين خرجـوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس وتفسير الآية الكريمة:

١- ﴿بَطَـرًا﴾: قال القرطبي: (أي التقوية بنعم الله (عز وجل) ومـا ألبسه من العافية على المعاصي)[٤٥].

٢-﴿رِئَاء﴾: ومعناه القول أو الفعل الذي لا يقصد معه الإخلاص وإنما يقصد به التظاهر وحب الثناء.

٣- ﴿وَيَصُـدُّونَ عَن سَبِـيلِ اللَّه﴾: معطوفـًا على بطرًا، والسبيل: الطريق الذي فـيه سهولة، والمراد بسبيل الله: دينه لأنه يوصل الناس إلى الخير والصلاح.

فقد وصف (سبحانه) الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء:

الأول البطر، والثاني: ﴿وَرِئَاء النَّاسِ﴾، والثالث: قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّه﴾.

ونلحظ أن الله (تعـالى) عبر عن بطرهم بصـيغـة الاسم الدال على التمكين والثـبوت، وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث[٤٦].

قال الإمام الرازي: (إن أبا جهل ورهطه وشعيته، كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة، والعجب، وأمـا صدهم عن سبـيل الله فإنما حصـل في الزمان الذي أكرم فـيه النبي (ﷺ) بالنبوة، ولهذا السبب ذكـر البطر والرئاء بصيغة الاسم، وذكر الصد عن سبـيل الله بصيغة الفعل والله أعلم)[٤٧].

---

(٤٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ٢١).

(٤٥) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥).

(٤٦) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٦٥، ٦٦).

(٤٧) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ١٧٣) بتصرف يسير.

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبي أن المقصود بالآية: (يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني - وكان صديقًا لأبي جهل- بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع ما خف من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد. فوردوا بدرًا ولكن جرى ما جرى من هلاكهم)[٤٨].

سابعًا: موقف المشركين لما قدموا إلى بدر:

بين سبحانه وتعالى موقف المشركين لما قدموا إلى بدر قال تعالى: **﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (الأنفال، آية ١٩).

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم في بدر: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه فأحنه - أي أهلكه- الغداة. فكان المستفتح[٤٩].

ومعنى الآية: إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر. وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهكم الله بهم، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصرًا، ومعنى بقية الآية على هذا القول: **﴿إِن تَنتَهُواْ﴾** عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله (ﷺ) **﴿فَهُوَ﴾** أي الانتهاء **﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾** إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة **﴿نَعُدْ﴾** بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر **﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾** أي جماعتكم **﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾** أي لا تغني عنكم حال من الأحوال ولو في حال كثرتها، ثم قال: **﴿وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** ومن كان الله معه فهو المنصور. ومن كان الله عليه فهو المخذول[٥٠].

ولما وصل جيش مكة إلى بدر دبّ فيهم الخلاف وتزعزعت صفوفهم الداخلية، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله (ﷺ) إلى عتبة ابن ربيعة وهو على جمل أحمر، فقال: «**إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر أن يطيعوه يرشدوا**» وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم فإنكم ان فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه، فاجعلوا حقها برأسي وارجعوا ،فقال أبو جهل:

(٤٨) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥).
(٤٩) المسند (٥/ ٤٣١).
(٥٠) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٦٨).

انتفخ والله سحره[٥١] حين رأى محمدًا وأصحابه إنما محمد وأصحابه أكلة جزور لو قد التقينا.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قومًا يضربونكم ضربًا، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي وكأن وجههم السيوف...)[٥٢].

وهذا حكيم بن حزام يحدثنا عن يوم بدر وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه. قال: خرجنا حتى نزلنا العدوة التي ذكرها الله (عز وجل)، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت: يا أبا الوليد هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟

قال: أفعل ماذا؟

قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي[٥٣] وهو حليفك فتحمل ديته وترجع بالناس، فقال: أنت وذاك وأنا أتحمل بديته، واذهب إلى ابن الحنظلية[٥٤] - يعني أبا جهل- فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟

فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي[٥٥] واقف على رأسه وهو يقول: قد فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم فقلت له: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟

قال: أما وجد رسولاً غيرك؟

قلت: لا ولم أكن لأكون رسولاً لغيره.

قال حكيم: فخرجت مبادرًا إلى عتبة، لئلا يفوتني من الخبر شيء[٥٦]، فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريش لا يرى داعيًا لقتال محمد، وقد دعا قريشًا بترك محمد فإن كان صادقًا فيما يدعو إليه فعزه عز قريش وملكه ملكها، وستكون أسعد الناس به، وإن كان كاذبًا فسيذوب في العرب وتنهيه.

ولكن كبرياء الجاهلية دائمًا في كل زمان ومكان لا يمكن أن يترك الحق يتحرك؛ لأنها تعلم أن انتصاره معناه زوالها من الوجود وبقاؤه مكانها[٥٧].

وهذا عمير بن وهب الجمحي ترسله قريش ليحرز لهم أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني أنظر

---

(٥١) سحرك: رئتك، يقال ذلك للجبان.

(٥٢) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٧٦) وقال رواه البزار ورجاله ثقات.

(٥٣) تقدم ذكره في سرية عبد الله بن جحش.

(٥٤) ابن الحنظلية هو أبو جهل، وهي أسماء بنت مخربة من بني تميم.

(٥٥) المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدم.

(٥٦) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٥٧) انظر: مرويات غزوة بدر ص١٥٥.

أللقوم كمين أو مدد، قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يرَ شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجلٍ منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فرُوا رأيكم(٥٨)؟

وهذا أمية بن خلف رفض الخروج من مكة ابتداءً خوفًا من الموت، فأتاه أبوجهل فقال: يا أبا صفوان أنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال:

أما إذا غلبتني، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت له: أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله يقول: إنهم لقاتلوك(٥٩).

قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا ،فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله (عز وجل) ببدر(٦٠).

ومن دهاء أبي جهل لعنه الله أن سلط عقبة بن معيط على أمية بن خلف فأتاه عقبة بمجمرة حتى وضعها بين يديه فقال: إنما أنت من النساء.

فقال: قبحك الله(٦١).

لقد كانت القوة المعنوية لجيش مكة متزعزعة في النفوس، وإن كان مظهره القوة والعزم والثبات إلا أن في مخبره الخوف والجبن والتردد(٦٢).

وكانت لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثر على معنويات أهل مكة، فقد رأت في المنام أن رجلاً استنفر قريشًا، وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة فتفتتت ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبي جهل حتى قدم ضمضم وأعلمهم بخبر القافلة فسكنت مكة وتأولت الرؤيا(٦٣)، كما أن جهيم بن الصلت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجحفة، فقد رأى رجلاً أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له؛ ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية ابن خلف، وفلان وفلان، فعدد رجالاً من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لَبَّة بعيره،

---

(٥٨) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٩).

(٥٩) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٨) الطبعة السلفية، مصر.

(٦٠) انظر: مرويات غزوة بدر ص١٣٦.

(٦١) نفس المصدر ص١٣٧.

(٦٢) المصدر السابق ص١٣٨.

(٦٣) انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة للعمري ص٤١.

ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح[٦٤] من دمه، فلما بلغت أبا جهل هذه الرؤيا، قال: وهذا أيضًا نبي من بني المطلب، سيعلم غدًا من المقتول إن نحن التقينا[٦٥]، كانت تلك الرؤى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى في إضعاف النفسية القرشية المشركة.

ثامنًا: الوصف القرآني لمواقع المسلمين والمشركين في أرض المعركة:

قال (تعالى): ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، آية ٤٢).

هذه الآيات الكريمة توضح الأماكن في غزوة بدر وصور لنا (سبحانه وتعالى) الحالة التي كان عليها الجيشان يوم اللقاء، فقد كان المسلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة، وكانت أرضه رخوة تغوص فيها الأقدام، ولم يكن هناك ماء، وكان الكفار بالجانب الآخر من الوادي -الأبعد- من المدينة وكانت أرضه ثابتة، وكان فيها ماء، وكان ركب العير الذي يقوده أبو سفيان﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ بالقرب من ساحل البحر[٦٦].

فقد ذكر المولى عز وجل المؤمنين بنعمته عليهم فقال: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة فسرتم حتى كنتم ضُض أي بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة المنورة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي والكفار بالجانب الأبعد الأقصى الذي هو بعيد بالنسبة للمدينة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي وعير أبي سفيان ومن فيها كانت أسفل منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بعد ثلاثة أميال منكم.

وفي الآيات تصوير ما دبر (سبحانه) من أمر غزوة بدر، ليقضي أمرًا كان مفعولاً من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وأقلق قريشًا ما بلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم، فنفروا ليمنعوا عيرهم، وسبّب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا، وهؤلاء بالعدوة القصوى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان[٦٧].

وقوله (تعالى): ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ بيان لتدبير الله الحكيم، وإرادته النافذة أي ولو تواعدتم أنتم وهم على التلاقي للقتال هناك لاختلفتم في الميعاد؛ لكراهتكم للحرب على قلتكم وعدم إعدادكم شيئًا من

---

(٦٤) نضح: لطخ.

(٦٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).

(٦٦) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٧١).

(٦٧) انظر: تفسير الكشاف (٢/ ١٦٠) للزمخشري.

العدة لها، وانحصار همكم في أخذ العير، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضًا؛ لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله (ﷺ) ولا يأمنون نصر الله له؛ لأن كفر أكثرهم به كان عنادًا أو استكبارًا لا اعتقادًا . . . . ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي ولكن تلاقيتم هنالك على غير موعد ولا رغبة في القتال ليقضي الله أمرًا كان ثابتًا في علمه وحكمته أنه واقع لا بد منه وهو القتال المفضي إلى خزيهم ونصركم عليهم وإظهار دينه وصدق وعده لرسوله كما تقدم[٦٨] .

وقوله : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

قال الآلوسي: أي ليموت من يموت عن حجة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محل لتعليل بالأعداد، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة والحجج الغر المحجلة[٦٩] .

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييل قصد به الترغيب في الإيمان، والترهيب من الكفر، أي لا يخفى عليه شيء من أقوال أهل الإيمان عليم بما تنطوي عليه قلوبهم وضمائرهم، وسيجازي (سبحانه) كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب على حسب ما يعلم وما يسمع عنه[٧٠] .

●●●

(٦٨) انظر : تفسير الطبري (١٠/ ١١) .
(٦٩) انظر : تفسير الآلوسي (١٠/ ٧) بتصرف .
(٧٠) نفس المصدر (١٠/ ٧) بتصرف .



المبحث الثاني

النبي (ﷺ) والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النبي والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله (ﷺ) بناء عريش له يكون مقرًا لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ثم نلقي عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك) فأثنى النبي (ﷺ) خيرًا ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله (ﷺ) على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم[٧١].

ويستفاد من بناء العريش أمور منها:

١- لا بد أن يكون مكان القيادة مشرفًا على أرض المعركة، يتمكن القائد فيه من متابعة المعركة وإدارتها.

٢- ينبغي أن يكون مقر القيادة آمنًا بتوفر الحراسة الكافية له.

٣- ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرض لأي خطر.

٤- ينبغي أن يكون للقائد قوة احتياطية أخرى تعوض الخسائر التي قد تحدث في المعركة[٧٢].

ثانيًا: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المنن التي منّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس والمطر وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (سورة الأنفال، آية ١١).

قال القرطبي: (وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها فكان النوم عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم.

وعن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق،

(٧١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٣٣).

(٧٢) انظر: غزوة بدر الكبرى ص٦٦.

ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، سوى رسول الله (ﷺ) تحت شجرة يُصلي حتى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: الأمن منيم، والخوف مسهر(٧٣).

وبين (سبحانه وتعالى) أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقت لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار وذلك فضلاً منه وكرمًا، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتنبيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازي: (وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنبًا، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جرم عدّ (تعالى وتقدس) تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه....)(٧٤).

وقوله تعالى ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: نزل النبي (ﷺ) -يعني حين سار إلى بدر- والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصَةٌ -أي كثير مجتمعة- فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليكم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم(٧٥).

فقد بيّن (سبحانه) أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة فتطهروا به حسيًا ومعنويًا إذ ربط الله به على قلوبهم وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالاً متحركة لا زالت حتى اليوم ومن العسير المشي عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماسكت تلك الرمال وسهل السير عليها وانطفأ غبارها وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده(٧٦).

ثالثًا: خطة الرسول (ﷺ) في المعركة:

اخترع الرسول (ﷺ) في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوبًا جديدًا في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفًا من قبل حي، قاتل (ﷺ) بنظام الصفوف(٧٧)، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ

(٧٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٧).
(٧٤) انظر: تفسير الفخر الرازي (١٥/ ١٣٣).
(٧٥) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٩٥).
(٧٦) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٩١).
(٧٧) انظر: القيادة العسكرية، د. محمد الرشيد ص٤٠١.

مَّرْصُوصٌ﴾ (سورة الصف، آية ٤).

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعًا لقلة المقاتلين أو كثرتهم.

وتكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصدّ هجمات الفرسان وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدر:

١- إرهاب الأعداء ودلالة على حسن وترتيب النظام عند المسلمين.

٢- جعل في يد القائد الأعلى (ﷺ) قوة احتياطية عالج بها المواقف المفاجئة في صد هجوم معاكس أو ضرب كمين غير متوقع، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان ،ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة في غزوة بدر سبقًا عسكريًا تميزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان[٧٨].

يظهر للباحث في السيرة النبوية أن النبي (ﷺ) كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصة تلك التي لم يعهدها العرب من قبل، على نحو ما قام به النبي (ﷺ) في يوم بدر، وأحد وغيرهما.

فقد كانت العرب تقاتل بأسلوب الكر والفر وقد علق اللواء محمود شيت خطاب على كلا الأسلوبين القتاليين بقوله: (إن القتال بأسلوب الكر والفر، هو أن يهاجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو، النشابة منهم والذين يقاتلون بالسيوف ويطعنون بالرماح، مشاة وفرسانًا، فإن ثبت لهم العدو أو أحسوا بالضعف نكصوا ثم أعادوا تنظيمهم وكروا من جديد، وهكذا يكرون ويفرون حتى يكتب لهم النصر أو الاندحار.

والقتال بأسلوب الصف يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة صفوف أو أكثر، على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلمين مسلحة بالرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى مزودة بالنبال، لرمي المهاجمين من الأعداء.

وتبقى الصفوف بقيادة قائدها وسيطرته، إلى أن يفتقد هجوم أصحاب الكر والفر زخمه وشدته، عند ذاك تتقدم الصفوف متعاقبة متساندة للزحف على العدو ومطاردته عند هزيمته.

ويرى اللواء (خطاب) أن أسلوب الصف، يتميز عن أسلوب الكر والفر، بأنه يؤمن الترتيب (بالعمق)، فتبقى دائمًا بيد القائد قوة احتياطية يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان، كأن يصد هجومًا مقابلاً للعدو أو يضرب كمينًا لم يتوقعه، أو يحمي الأجنحة التي يهددها العدو بفرسانه أو مشاته، ثم يستثمر الفوز بهذا الاحتياط عند الحاجة[٧٩].

---

(٧٨) انظر: الرسول القائد، خطاب ص(١١١، ١١٦، ١١٧) .

(٧٩) انظر: غزوة بدر الكبرى الحاسمة، محمود خطاب ص(٢٣، ٢٤) .

وقد تحدث ابن خلدون عن الأساليب القتالية الجديدة، التي استحدثها النبي (ﷺ) في معاركه، والتي لم يكن للعرب عهد بها، فقال مشيرًا إلى ذلك: (وكان الحرب أول الأسلام كله زحفًا وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر. . . .)[٨٠].

وبين أفضلية الأساليب التي استحدثها النبي (ﷺ) بقوله: وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر؛ وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ،ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدمًا؛ فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته[٨١].

ومن جهة النظرة العسكرية، فإن هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وبراعته العسكرية، لأن التعليمات العسكرية التي كان يصدرها خلال تطبيقه لها، تطابق تمامًا الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة[٨٢].

وتفصيل ذلك :فقد اتبع (ﷺ) أسلوب الدفاع ولم يهاجم قوة قريش، وكانت توجيهاته التكتيكية التي نفذها جنوده بكل دقة سببًا في زعزعة مركز العدو وإضعاف نفسيته ،وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق الله على العدو برغم تفوقه[٨٣] بنسبة ٣ إلى ١، فقد كان (ﷺ) يتصرف في كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف ،وقد طبّق الرسول (ﷺ) في الجانب العسكري أسلوب القيادة التوجيهية في مكانها الصحيح، أما أخذه بالأسلوب الإقناعي في غزوة بدر فقد تجلّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضع متعددة، لأنه (ﷺ) لا يقود جنده بمقتضى السلطة، بل بالكفاءة والثقة، وهو (ﷺ) أيضًا لا يستبد برأيه، بل يتبع مبدأ الشورى وينزل على الرأي الذي يبدو صوابه، ومارس (ﷺ) في غزوة بدر أسلوب القيادة التوجيهية، فقد تجلى في أمور منها:

الأمر الأول: أمره (ﷺ) الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم، لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل»[٨٤].

الأمر الثاني: نهيه (ﷺ) عن سل السيوف إلى أن تتداخل الصفوف[٨٥] «ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»[٨٦].

الأمر الثالث: أمره (ﷺ) الصحابة بالاقتصاد في الرمي[٨٧] «واستبقوا نبلكم»[٨٨].

---

(٨٠) انظر: ابن خلدون المقدمة ص(٢٧٣) .
(٨١) انظر: ابن خلدون، المقدمة ص(٢٧١) .
(٨٢) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، محمد محفوظ ص(١٢١) .
(٨٣) انظر: مقومات النصر، د . أحمد أبو الشباب (٢/ ١٥٤) .
(٨٤) صحيح السيرة النبوية برواية أخرى ونفس المعنى ص(٢٣٩) .
(٨٥) انظر: غزوة بدر الكبرى ص(٦٣، ٦٤) لأبي فارس .
(٨٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٣٩) .
(٨٧) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس ص(٦٣، ٦٤) .
(٨٨) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدرًا رقم ٣٩٨٤، ٣٩٨٥ .

وعندما تقارن هذه التعليمات الحربية بالمبادئ الحديثة في الدفاع تجد أن رسول الله (ﷺ) كان سباقًا إليها من غير عكوف على الدرس ولا التحاق بالكليات الحربية، فالنبي (ﷺ) يرمي من وراء تعليماته- التي استعرضناها آنفًا -إلى تحقيق ما يعرف حديثًا بكبت النيران إلى اللحظة التي يصبح فيها العدو في المدى المؤثر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده (ﷺ) في قوله: «استبقوا نبلكم».

أ- فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهمل (ﷺ) فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو، فقد كان يستفيد من كل الظروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله (ﷺ) قبل بدء القتال يوم بدر، يقول المقريزي: (وأصبح (ﷺ) ببدر قبل أن تنزل قريش فطلعت الشمس وهو يصفّهم فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، فاستقبلوا الشمس)[٨٩].

وهذا التصرف يدل على حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم، لأن الحرب واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت في وجه المقاتل تسبّب له عَشا[٩٠] البصر فتقلّ مقاومته ومجابهته لعدوه[٩١]، وفيما فعله رسول الله (ﷺ) يوم بدر إشارة إلى أن الظروف الطبيعية كالشمس والريح والتضاريس الجغرافية وغيرها لها تأثير عظيم على موازين القوى في المعارك وهي من الأسباب التي طلب الله منا الأخذ بها لتحقيق النصر والصعود إلى المعالي[٩٢].

ب- سواد بن غزية في الصفوف:

كان (ﷺ) في بدر يعدل الصفوف ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية وقد خرج من الصف فطعنه (ﷺ) في بطنه وقال له: «استو يا سواد». فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله (ﷺ) عن بطنه وقال: «استقد»، فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد»، قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله بخير[٩٣].

ويستفاد من قصة سواد رضي الله عنه أمور منها:

١- حرص الإسلام على النظام.

٢- العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله (ﷺ) القود من نفسه.

---

(٨٩) انظر: القيادة العسكرية ص(٤٥٣).

(٩٠) سوء البصر بالليل والنهار يكون في الناس والدواب والإبل والطير.

(٩١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٧/ ١٧٥).

(٩٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ص(٤٥٤).

(٩٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٣٦).

٣- حب الجندي لقائده.

٤- تذكر الموت والشهادة.

٥- جسد رسول الله (ﷺ) مبارك، ومسه فيه بركة ولهذا حرص عليها سواد.

٦- بطن الرجل ليس بعورة بدليل أن النبي (ﷺ) كشف عنه ولو كان عورة لما كشف عنه[٩٤].

جـ- تحريض النبي (ﷺ) أصحابه على القتال:

كان رسول الله (ﷺ) يربي أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية راسخة ثابتة ثبات الشم الرواسي، فيملأ قلوبهم شجاعة وجرأة وأملاً في النصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القوية أسلوب الترغيب والترهيب، الترغيب في أجر المجاهدين الثابتين، والترهيب من التولي يوم الزحف، والفرار من ساحات الوغى، كما كان يحدثهم عن عوامل النصر وأسبابه ليأخذوا بها ويلتزموها، ويحذرهم من أسباب الهزيمة ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[٩٥].

وكان (ﷺ) يحثّ أصحابه على القتال ويحرضهم عليه امتثالاً لقوله (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ**﴾ (سورة الأنفال: ٦٥).

وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**».

فقال عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟.

قال: «نعم».

قال: بخ بخ (كلمة تعجب).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**».

قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «**فإنك من أهلها**».

فأخرج ثمرات من قرنه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[٩٦].

وفي رواية قال: قال أنس: فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

---

(٩٤) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس ص(٥٢).

(٩٥) انظر: المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ص١٤٠.

(٩٦) انظر: مختصر صحيح مسلم للمنذري (٢/ ٧٠) رقم (١١٥٧).

ركضاً إلى الله بغير زاد   إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد   وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

فقاتل رحمه الله حتى استشهد(٩٧)

ومن صور التعبئة المعنوية أنه (ﷺ) كان يبشرهم بقتل صناديد المشركين، وزيادة لهم في التطمين كان يحدد مكان قتلى كل واحد منهم(٩٨)، كما كان يبشر المؤمنين بالنصر قبل بدء القتال فيقول: «أبشر أبا بكر». ووقف رسول الله (ﷺ) يقول للصحابة رضوان الله عليهم: **«والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»**(٩٩).

وقد أثرت هذه التعبئة المعنوية في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم والذين جاءوا من بعدهم بإحسان(١٠٠).

وكان (ﷺ) يطلب من المسلمين ألا يتقدم أحد إلى شيء حتى يكون دونه، فعن أنس رضي الله عنه قال: (.. فانطلق رسول الله (ﷺ) وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون دونه»**(١٠١)، فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»**(١٠٢).

د- دعاؤه (ﷺ) واستغاثته:

قال تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ (الأنفال: ٩).

لما نظم (ﷺ) صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه واتجه رسول الله (ﷺ) إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده ويقول في دعائه: **«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً»** وما زال (ﷺ) يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذ أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك(١٠٣)

(٩٧) انظر: صفة الصفوة (١/ ٤٨٨)، زاد المعاد (٣/ ١٨٢).
(٩٨) انظر: جامع الأصول (٨/ ٢٠٢).
(٩٩) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٩).
(١٠٠) المدرسة العسكرية الإسلامية لأبي فارس ص١٤٣.
(١٠١) انظر: مسلم (٣/ ١٥١٠) رقم (١٩٠١).
(١٠٢) انظر: المنذري، مختصر صحيح مسلم (٢/ ٧٠) رقم (١١٥٧).
(١٠٣) انظر: مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر (٣/ ٣٨٤).

وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفي رواية ابن عباس قال: قال النبي (ﷺ) يوم بدر: «**اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد**» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك الله، فخرج (ﷺ) وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[١٠٤] (القمر: ٤٥).

وروى ابن إسحاق: أنه (ﷺ) قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**»[١٠٥]

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده والسجود والجثي بين يدي الله (سبحانه) لكي ينزل نصره ويبقى مشهد نبيه، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناط به المسؤولية وتلقى عليه أعباء القيادة[١٠٦].

هـ- وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى:

بعد أن دعا (ﷺ) ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش، فأخذ قبضة من التراب، وحصب بها وجوه المشركين وقال: «**شاهت الوجوه**»، ثم أمر (ﷺ) أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله[١٠٧] ولهذا قال الله تعالى: ىٔ ا ب ة)الأنفال: ١٧). ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال[١٠٨] ونلحظ أن الرسول (ﷺ) أخذ بالأسباب المادية والمعنوية وتوكل على الله، فكان النصر والتأييد من الله تعالى، فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكّل دراسة الأرض والطقس ووجود القيادة والثقة بها والروح المعنوية لبنات أساسية في صحة القرار العسكري، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين وكان الطقس مناسبًا للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه وبعضها كان من فعل رسول الله (ﷺ) أخذًا بالأسباب المطلوبة، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله، وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان، وذلك نموذج على ما يعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة، ووجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب[١٠٩].

(١٠٤) البخاري، كتاب المغازي، باب قصة بدر (٥/ ٦) رقم (٣٩٥٣).
(١٠٥) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٧).
(١٠٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٦).
(١٠٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).
(١٠٨) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٣).
(١٠٩) انظر: الأساس في السنّة وفقهها، السيرة النبوية (١/ ٤٧٤).



المبحث الثالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة ابن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، ولكن الرسول (ﷺ) أرجعهم لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي**»، وبارز حمزة شيبة فقتله وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكرّ حمزة وعلي على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وأتباعه إلى رسول الله (ﷺ) ولكن ما لبث أن استشهد متأثرًا بجراحه[110] وفي هؤلاء الستة نزل قوله تعالى: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ (سورة الحج، آية: ١٩-٢٤)

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاطوا غضبًا وهجموا على المسلمين هجومًا عامًا، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي (ﷺ) وكان شعار المسلمين: أحد أحد. ثم أمرهم النبي (ﷺ) بالهجوم المضاد محرضًا لهم على القتال وقائلاً لهم: «شدوا» وواعدًا من يقتل صابرًا محتسبًا بأن له الجنة، ومما زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ (سورة القمر، آية: ٤٥) وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليل المشركين في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين[111].

فقد كان (ﷺ) قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان رأى المشركين، عددهم قليل، وقد قصّ رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيرًا قال تعالى: ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ (الأنفال، آية: ٤٣).

المعنى أن النبي (ﷺ) رآهم - أي رأى المشركين - في منامه قليلاً، فقصّ ذلك على أصحابه فكان ذلك سببًا لثباتهم، قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيرًا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا، والمضارع في الآية بمعنى الماضي لأن

(١١٠) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٢٦).

(١١١) انظر: الرحيق المختوم ص١١٦-١١٨.

نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم[١١٢]، فقصّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيت لهم وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كل منهم عدد الآخر قليلاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٤) وإنما قللهم في أعين المسلمين تصديقًا لرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقينًا ويجدّوا في قتالهم ويثبتوا، قال: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفًا. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين: إنما هم أكلة جزور. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبتهم ونشطهم وجرأهم على قتال المشركين، ونزع الخوف - من قلوب المسلمين- من أعدائهم. ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلاً تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم[١١٣].

أولاً- إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين أن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال، آية: ١٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٢٣- ١٢٦).

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عددًا من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم[١١٤].

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل

(١١٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

(١١٣) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

(١١٤) انظر: موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩١).

من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم[١١٥]. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو خطم أنفه[١١٦]، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال: «صدقت» ذلك مدد من السماء الثالثة[١١٧]، ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: إن النبي (ﷺ) قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»[١١٨]، ومن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس ابن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح[١١٩] من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق[١٢٠] ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: «**اسكت فقد أيدك الله بملك كريم**»[١٢١]، ومن حديث أبي داود المازني قال: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري)[١٢٢].

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سببًا لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سببًا لنصر المسلمين: من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معانون من الله تعالى، وأيضًا بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوّى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا ما دلت عليه الآيات، وصرحت به الأحاديث النبوية[١٢٣].

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة مع أن واحدًا من الملائكة كجبريل عليه السلام قادر بتوفيق الله على إبادة الكفار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك فقال: لقد مضت سنة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأن الغلبة تكون وفقًا لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد من الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة من التأييد

---

(١١٥) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.
(١١٦) خطم: الخطم الأثر على الأنف.
(١١٧) مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة رقم (١٧٦٣).
(١١٨) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا رقم (٣٩٩٥).
(١١٩) الأجلح: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه.
(١٢٠) الأبلق: ارتفع التحجيل إلى فخذيه.
(١٢١) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٤٧.
(١٢٢) نفس المصدر ص٢٤٧.
(١٢٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٣١، ١٣٢).

والعون، ولكن تبقى المدافعة والتدافع يجريان وفقًا لسنن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التدافع، فالجهة الأقوى بكل معاني القول اللازمة للغلبة هي التي تغلب، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة، ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يستلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقفة على ما قدمه أولئك المؤمنون في قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل، وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسبابًا للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه.. إلخ ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار، وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب[١٢٤] قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (سورة التوبة، الآية: ١٤- ١٥).

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السموات العلى إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم.

إنه قوة عظمى، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء وإن كان ذلك على سبيل المغامرة، لبُعد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عددًا القوي إعدادًا، وجيش المؤمنين القليل عددًا الضعيف إعدادًا.

وهو في نفس الوقت عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذين شاهدهم بعضهم عيانًا، إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة، لا يعلمون عددها ولا يقدِّرون مدى قوتها ،وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة رضي الله عنهم في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك، فكان عاملاً قويًا في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم[١٢٥].

ثانيًا- انتصار المسلمين على المشركين وحديث رسول الله لأهل القليب:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون

---

(١٢٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢).
(١٢٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٤٥).

أرســـل (ﷺ) عبد الله بن رواحــة، وزيد بن حارثة، ليبشــرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين[١٢٦].

ومكث (ﷺ) في بدر ثلاثة أيام، فعن أنس رضي الله عنه قال: (أنه (ﷺ) كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة ليال...)[١٢٧] ولعل الحكمة في ذلك:

١- تصفية الموقف بالقـضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي يحـتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارّين هربًا إلى الجبال.

٢- دفن من استـشهد من جند الله مما لا تـكاد لا تخلو منه معركـة، فقد دفن شــهداء المسلمين في أرض المعركة ولم يرد ما يشيــر إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن أحد منهم خارج بدر[١٢٨].

٣- جمع الغنائم وحـفظها، وإسناد أمرها إلى من يقـوم بهذا الحفظ حـتى تؤدى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري، أحد بني مازن[١٢٩].

٤- إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيــها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليــه من النصــر المؤزر الذي لـم يكن داني القطوف، ســهل المنال، ويتــذاكـر أفــراده وجمــاعاته ما كان من أحــداث ومفاجــآت في الموقعة، مما كـان له أثر فعّال في استـجلاب النصر، ومـا كان من فـلان في شجاعـته وفـدائيته وجـرأته على اقتـحام المضائـق وتفريج الأزمات، وما تكشـفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفـر والتدبير المحكم الذي أخذ به العــدو، وما في ذلك من عبـر، واستذكار أوامـر القيادة العليـا وموقفــها في رسم الخطط، ومشــاركتها الـفعلية في تنفـيذها، ليكون من كل ذلك ضيـاء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

٥- مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم وعلى من بقي منهم مصروعًا بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليــه إتقاء لشره في المستقبل، كالذي كان في أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله (ﷺ) بإلقاء هؤلاء الأخباث في ركي[١٣٠] من قُلُب[١٣١] بدر

(١٢٦) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٣).
(١٢٧) انظر: صحيح السيرة النبوية ص ٢٥٠.
(١٢٨) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٢٩١).
(١٢٩) انظر: محمد رسول الله، صادق العرجون (٣/ ٤٥٣).
(١٣٠) ركي: حافة البئر.
(١٣١) قُلُب: أبيار وفرد بئر.

خبيث مخبث ثم وقف على شفة الركي[١٣٢]، وقد ورد أنه (ﷺ) وقف على القتلى فقال: **«بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني، وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس»**[١٣٣].

ثم أمر بهم، فسُحبوا إلى قليب من قلب بدر، فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: **«يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا، فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا»** فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ما تخاطب من أقوام قد جيّفوا؟ فقال: **«والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب»**[١٣٤] قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا، وتصغيرًا، ونقمة، وحسرة، وندمًا[١٣٥].

إن مناداة الرسول (ﷺ) لقتلى قريش بينت أمرًا عظيمًا، وهو أنهم بدؤوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنهم لا يجيبون ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث، حتى إنه (ﷺ) مرّ بقبرين، وقال: **«إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير»**[١٣٦] وذكر أن سبب تعذيبهما النم بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول[١٣٧].

ولا بد من التسليم بهذه الحقائق الغيبية، بعد أن تحدث عنها الصادق المصدوق وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون قال تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ (سورة غافر، آية: ٤٦).

وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٦٩).

---

(١٣٢) انظر: محمد رسول الله صادق عرجون (٣/ ٤٥٤).
(١٣٣) زاد المعاد (٣/ ١٨٧).
(١٣٤) أخرجه البخاري (٧/ ٢٣٤) في المغازي، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على كفار قريش.
(١٣٥) الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٤٧٩).
(١٣٦) رواه البخاري.
(١٣٧) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فضل الله ص٦٤.



المبحث الرابع

مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطغاة:

أ- مصرع أبي جهل بن هشام المخزومي:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما[(١٣٨)]، فغمزني[(١٣٩)] أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثالها.

قال: فلم أنشب[(١٤٠)] أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله (ﷺ) فأخبراه، فقال: **«أيكما قتله؟»** فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «كلاكما قتله»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء[(١٤١)]، وفي حديث أنس قال رسول الله (ﷺ) يوم بدر: **«من ينظر ما صنع أبو جهل؟»** فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه (ابنا عفراء حتى برد[(١٤٢)]، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال:)قتلتموه)[(١٤٣)]، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (أدركت أبا جهل يوم بدر صريعًا، فقلت: أي عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: وبما أخزاني؟ من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه، ثم أتيت النبي (ﷺ) فأخبرته، فقال: **«الله الذي لا إله إلا هو»**.

قلت: الله الذي لا إله إلا هو.

قال: **«فانطلق فاستثبت»** فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته.

---

(١٣٨) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.
(١٣٩) غمزني: قرصني.
(١٤٠) أنشب: ألبث.
(١٤١) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدرًا رقم (٣٩٨٨).
(١٤٢) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.
(١٤٣) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (٣٩٦٣).

فقال رسول الله (ﷺ): «**انطلق**» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه (ﷺ) قال: «**هذا فرعون هذه الأمة**»(١٤٤).

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل ما سمعاه من أنه كان يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله (ﷺ) إلى بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي جهل وهو في الرمق الأخير من الحوار فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة قد وقع صريعًا بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبرًا جبارًا حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته(١٤٥)، فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه (لقد ارتقيت مرتقىً صعبًا يا رويعي الغنم)(١٤٦).

(فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعًا في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشرفَتْ به على الهلاك الأبدي؛ ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل والخذلان على يدِ من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول، السابقين إلى مظلَّة الإيمان، وطُهر العقيدة، والتعبد لله بشرائعه، التي أنزلها رحمة للعالمين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيرًا له، ويقرِّعه تقريعًا يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعانًا في البطش به فيقتله به، ويمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث...)(١٤٧).

ب- مصرع أمية بن خلف:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي(١٤٨) بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو).

---

(١٤٤) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٤٢.
(١٤٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٥٨، ١٥٩، ١٦٠).
(١٤٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٤٧).
(١٤٧) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/٤٣١، ٤٣٢).
(١٤٨) الصاغية: صاغية الرجل ما يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه[١٤٩] حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا - وكان رجلاً ثقيلاً - فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتجللوه[١٥٠]، بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه[١٥١].

وفي رواية أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان أمية بن خلف لي صديقًا بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول نعم.

قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: قلت: نعم.

قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجبته فاتخذ معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم، ها لله؟

قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن[١٥٢].

ونلحظ من الروايات السابقة:

١- ما جرى من بلال رضي الله عنه حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة، فلما رآه في يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أسيرًا صرخ بأعلى صوته (لا نجوت إن نجا).

إنه موقف من مواقف التشفي في أعداء الله، والتشفي من كبار الكفرة الفجار في الحياة الدنيا نعمة يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك

(١٤٩) أحرزه: أحميه .

(١٥٠) تجللوه: طعنوه وأصابوه .

(١٥١) البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل مسلم حربيًا رقم (٢٣٠١) .

(١٥٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٣) سنده صحيح وقد صرح ابن اسحاق بالقولين .

الفجرة الطغاة قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٤- ١٥).

٢- إن فيما جرى لأمية بن خلف من قتل مفزع درسًا بليغًا للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم مآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة في الآخرة، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر[١٥٣]، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (سورة القصص، آية: ٥).

٣- وفي قول عبد الرحمن بن عوف: (يرحم الله بلال ذهبت أذرعي وفجعني بأسيري)[١٥٤] مع ما جري من بلالاً من معارضة وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم دليل على قوة الرباط الأخوي بين الصحابة الكرام[١٥٥].

٤- موقف لأم صفوان بنت أمية: قيل لأم صفوان بن أمية بعد إسلامها، وقد نظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا من ذكر من قتل على الشرك! قد أهان الله عليًا بضربة الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربه عليًا، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك[١٥٦]، وهذا الموقف يدل على قوة إيمانها، ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها[١٥٧].

وقولها عن ابنها علي: (قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا فقتل على غير ذلك) تعني أنه كان ممن عُرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مكرهين فلما التقى الصفان فتنوا حينما رأوا قلة المسلمين فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم[١٥٨]، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٩).

جـ- مصرع عبيد بن سعيد بن العاص على يد الزبير:

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: لقيت يوم بدر عبيد بن سعيد بن العاص وهو

(١٥٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٢، ١٥٣).
(١٥٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٤).
(١٥٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٣).
(١٥٦) نفس المصدر (٤/ ١٥٤).
(١٥٧) المصدر السابق (٤/ ١٥٤)
(١٥٨) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢١).

مدجج[١٥٩] لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه فطعنته في عينه فمات، قال هشام، فأخبرت أن الزبير قال: (لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها).

قال عروة: فسأله إياها رسول الله (ﷺ)فأعطاه، فلما قبض رسول الله (ﷺ)أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاها، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قتل[١٦٠].

)هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام رضي الله عنه في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جدًا لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف)[١٦١].

د- مصرع الأسود المخزومي:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأسود المخزومي، وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ[١٦٢]، قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تَشْخُبُ[١٦٣] رجله دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يُبرَّ يمينه وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض[١٦٤].

وقد سأل أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف عن الرجل المُعْلَمَ بريشة نعامة في صدره؟ فأجابه عبد الرحمن، ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[١٦٥]، وهذه شهادة من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني أنه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلا وتشريدًا[١٦٦].

وكان هذا أول من قتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين، فتصدى له بطل الإسلام حمزة فقضى

---

(١٥٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٤) .
(١٦٠) انظر: صحيح البخاري ، المغازي رقم (٣٩٩٨) .
(١٦١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٦٣) .
(١٦٢) أطن: أطار .
(١٦٣) تشخب: تسيل بصوت .
(١٦٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٧).
(١٦٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥١) .
(١٦٦) نفس المصدر (٤/ ١٥٢) .

عليه ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درسًا في الصميم[١٦٧].

ثانيًا: من مشاهد العظمة:

أ- استشهاد حارثة بن سراقة:

عن أنس رضي الله عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي (ﷺ) فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر، وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «**ويحك - أوهبلت- أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس**»[١٦٨]، وفي رواية: «**يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»[١٦٩].

ب- استشهاد عوف بن الحارث:

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة: (أن عوف بن مالك وهو ابن عفراء[١٧٠]، قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «**غمْسة يده في العدو حاسرًا**»[١٧١] فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[١٧٢].

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة وحرصهم على رضوان الله تعالى ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالآخرة وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث عنهم النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم[١٧٣].

جـ- سعد بن خيثمة وأبيه رضي الله عنهما:

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد فقال له أبوه: يا بني آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبت لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد[١٧٤].

وهذا الخبر يعطي صورة مشرقة عن بيوتات الصحابة في تنافسهم وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذا سعد بن خيثمة ووالده لا يستطيعان الخروج معًا لاحتياج أسرتهما

(١٦٧) المصدر السابق (٤/ ١٢١).
(١٦٨) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا رقم (٣٩٨٢).
(١٦٩) الأساس في السنّة السيرة النبوية (١/ ٤٧٥).
(١٧٠) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.
(١٧١) حاسرًا: غير لابس الدرع.
(١٧٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٤٥.
(١٧٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١).
(١٧٤) الإصابة (٢/ ٢٣، ٢٤) رقم (٣١١٨).

وعملهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في نيل الشهادة حتى اضطروا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعد رضي الله عنهما، وكان الابن في غاية الأدب مع والده ولكنه كان مشتاقًا إلى الجنة فأجاب بهذا الجواب البليغ :(يا أبت لو كان غير الجنة فعلت)[١٧٥].

هـ- عمير بن أبي وقاص:

لما سار رسول الله (ﷺ) إلى بدر وعرض عليه جيش بدر فرد عمير بن أبي وقاص فبكى عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لا يراه رسول الله (ﷺ) فقال سعد: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله (ﷺ) يوم بدر يتوارى فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله (ﷺ) فيستصغرني ويردني وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة[١٧٦] وقد استشهد بالفعل.

د- دعاء النبي (ﷺ) لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة:

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله (ﷺ) أمر بالقليب إلى أن قالت: (فلما أمر بهم فسحبوا عرف في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية، وأبوه يسحب إلى القليب فقال له رسول الله (ﷺ) : «**يا أبا حذيفة لكأنه ساءك ما كان في أبيك؟**» فقال: والله يا رسول الله ما شككت في الله وفي رسول الله ولكن إن كان حليمًا سديدًا ذا رأي، فكنت أرجو ألا يموت حتى يهديه الله عز وجل إلى الإسلام، فلما رأيت أن قد فات ذلك ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قال: «**فدعا له رسول الله بخير**»[١٧٧].

إن هذا الموقف يبين قوة التجاذب بين الإيمان في ذروة اليقين، والعاطفة البشرية في قمة الوفاء النبوي، فالإيمان لا يميت المشاعر البشرية ولكنه يهذبها، فيحولها من عصبية جاهلية إلى وفاء لا ينكره المنهج الرباني في تطبيقه العملي، فإيمان أبي حذيفة رضي الله عنه إيمان لا تهزه زلازل الأحداث، فهو إذ يرى أباه يقتل في أشراف قريش كافرًا، ويُلقي معهم في قليب بدر يأخذه أسف العاطفة البشرية وفاء لهذا الأب، ويظل أبو حذيفة مزملاً بإيمانه الراسخ رسوخ الأطواد الشامخات، فلا يزيد على أن يعروه الاكتئاب على ما فات أباه من خير يرجوه له بالهداية إلى الإسلام[١٧٨]، ولهذا المقصد النبيل الذي أثار حزن أبي حذيفة دعا له رسول الله (ﷺ) بخير[١٧٩].

(١٧٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٨٧) .

(١٧٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٥١، ٢٥٢ .

(١٧٧) انظر: السيرة النبوي لأبي فارس ص٣١٧ نقل عن صفة الصفوة (١/ ٢٩٤) والمستدرك (٣/ ١٨٨) والإصابة (٣/ ٣٥) .

(١٧٨) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٤٤٦) .

(١٧٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٧٤) .



المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي (ﷺ) فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله (تبارك وتعالى) العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون فأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله (ﷺ) لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حوّيناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله (ﷺ) خفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(الأنفال: ١) فقسمها رسول الله (ﷺ) على فَوَاق بين المسلمين(١٨٠) وفي رواية: قال عبادة بن الصامت عن الأنفال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله (تبارك وتعالى) من أيدينا فجعله إلى رسول الله (ﷺ)، فقسمه رسول الله فينا عن، سواء أي على سواء(١٨١)...

لقد خلّد الله (سبحانه وتعالى) ذكرى غزوة بدر في سورة الأنفال، وجاءت مفصلة عن أحداثها وأسبابها ونتائجها وتعرضت الآيات الكريمة لعلاج النفس البشرية وتربيتها على معاني الإيمان العميق والتكوين الدقيق، فبدأت السورة بتبيان حكم أثر من آثار القتال وهو الغنائم، فبينت أن هذه الغنائم لله والرسول، فالله هو مالك كل شيء، ورسوله هو خليفته، ثم أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر: بالتقوى، وإصلاح ذات البين، والطاعة لله والرسول (ﷺ)، وهي أوامر مهمة جدًا في موضوع الجهاد، فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهادًا، والجهاد يحتاج إلى وحدة صف، ومن ثم فلابد من إصلاح ذات البين، والانضباط هو الأساس في الجهاد، إذ لا جهاد بلا انضباط ثم بيَّن الله (عز وجل) أن الطاعة لله والرسول (ﷺ) علامة الإيمان.

ثم حدد الله (عز وجل) صفات المؤمنين الحقيقيين، وهذا الوصف والتحديد مهمان في موضوع الجهاد الإسلامي، لأن الإيمان الحقيقي هو الذي يقوم به الجهاد الإسلامي، لقد حدد الله (عز وجل) صفات المؤمنين:

---

(١٨٠) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٣).

(١٨١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٢).

الصفة الأولى: بأنهم إذا ذكر الله فزعت قلوبهم وخافت وفرقت.

الصفة الثانية: وإذا قرئ عليهم القرآن ازداد إيمانهم ونما.

والصفة الثالثة: هي التوكل على الله، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الخلق وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

والصفة الرابعة: إقامة الصلاة والمحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، ومن ذلك إسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي (ﷺ).

والصفة الخامسة: الإنفاق مما رزقهما الله، وذلك يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عباد الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه، ثم بين الله (عز جل) أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، وأن لهم عند الله منازل ومقامات ودرجات في الجنات، وأن الله يغفر لهم السيئات، ويشكر الحسنات، وبهذا تنتهي مقدمة السورة بعد أن رفعت الهمم لكل لوازم الجهاد، ونفت كل عوامل الخذلان، من اختلاف على غنائم، أو خلاف بسبب شيء داعية إلى الطاعة، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل[١٨٢]، قال (تعالى): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: ١، ٤).

يقول الأستاذ محمد الأمين المصري: لم تذكر الآيات شيئًا من أعمال المؤمنين في بدر ولكن ذكرت عتابًا أليمًا موجعًا يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم، وهناك نقاط أرسلت الآيات للتنبيه عليها وبينت نواحي الضعف فيها بيانًا جليًا قويًا، بتصوير ما في النفوس وصفًا دقيقًا رائعًا تشاهد العين فيه الحركات والخلجات، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان التي يهفو قلبه للوصول إليها. ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم، ويشعر الذوق السليم ها هنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب، ولكنه تصوير ما في النفوس تصويرًا يوقن معه العادي من الناس، أنه ما كان لمؤمن صحيح الإيمان أن يتصف بها، ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصور الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أي إسفاف: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ

(١٨٢) انظر: الأساس في التفسير (٤/ ٢١١٣، ٢١١٤).

إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١- ٤).

ما ذكرت الآيات عتابًا ولكنها ذكرت واقعًا وكان ذكر الواقع أبلغ من كل عتاب، قال (تعالى): ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾ وفحوى الخطاب ما كان لهم أن يسألوا هذا السؤال. وقد بين (سبحانه وتعالى) حقيقة خروجهم من المدينة قال (تعالى): ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ**﴾ وهذا وصف بالغ الغاية في تصوير الجزع والرعب، صورة أناس يساقون إلى الموت سوقًا لا مفر منه وهم يرون الموت بأم أعينهم، وقال (تعالى): ﴿**وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**﴾ وهذا تصوير لضعف في النفوس.. إلى أن يقول: دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أي شعور بالاستعلاء وصرفت عن أنفسهم كل معنى من معاني الغرور وبسطت أمامهم نفوسهم أو نفوس فريق منهم وما بينها وبين الإيمان الصحيح من درجات، وإذا جاء ذكر الثناء مصوراً بصورة المن والفضل بما أنعم الله ليس ثناء مستقلاً، الثناء عليهم أن الله منّ عليهم فاستجاب دعاءهم، ونزل عليهم الماء ليطهرهم وأنزل الملائكة لتثبتهم، وجمع بينهم وبين عدوهم لأمر كبير دبره الله وقدره[١٨٣].

بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم في قسمتها وسؤلهم عنها فساقت في ذلك أربع آيات عالجت بها نفوس المؤمنين، وتطهيرها من الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة[١٨٤].

ولأهمية هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السورة وإن كان اختلافهم في قسمة الأنفال متأخر في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدر وقتال الأعداء ومن سنة الله في كتابه أنه في ذكر القصص والواقع لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها[١٨٥].

كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال، هو الهتاف بتقوى الله (وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب) إنه لا يرد القلب البشري عن الشعور بتقوى الله، وخوفه وتلمس رضاه في الدنيا والأخرى. إن قلبًا لا يتعلق بالله يخشى غضبه، ويلتمس رضاه، لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض، ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق.

إن التقوى زمام هذه القلوب التي يمكن أن تُقاد منه طائفة ذلولة في يسر وفي هوادة، وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينهم ﴿ **فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ** ﴾.

وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ وأول الطاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال، فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على

---

(١٨٣) انظر: من هدي سورة الأنفال، د. محمد المصري ص(٩٥، ٩٦).
(١٨٤) انظر: من هدي سورة الأنفال ص(٦٧).
(١٨٥) نفس المصدر ص(٦٧، ٦٨).

الإطلاق، وارتدت ملكيتها ابتداءً لله والرسول، فانتهى حق التصرف فيها إلى الله ورسوله، فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله، طيبة قلوبهم، راضية نفوسهم، وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم، ويضعوا قلوبهم بعضهم لبعضهم[(١٨٦)].

هذه التربية الربانية تعيد زمام هذه النفوس مستسلمة لله (عز وجل) ولا تستعبدها نشوة الظفر، ولا استعلاء النصر، فتنسى ضعفها البشري وقصورها البشري، وتفكر بالاستعلاء والاستكبار على الآخرين.

وهذا العرض الرباني يؤكد حقيقة أكبر من النصر على المشركين يؤكد أن صلاح ذات البين، والانتصار الحقيقي على مسارب النفوس ومشارب القلوب، هو الأكبر في ميزان الله، وهو الأعظم في ميزان الله، ولا جدوى من نصر يعقبه صراع في الصف، واختلاف في القلوب.

وتبين الآيات أن قضية التقوى والإيمان تدخل في كافة شؤون حياة المسلم وبها ينبع تحركه في الحياة وجهاده لإعلاء كلمة الله (تعالى)[(١٨٧)].

لقد استجاب الصحابة الكرام لهذا التوجيه الرباني ونزلت الآيات تبين لرسول الله (ﷺ) كيف يتصرف في الأنفال.

بعد أن أصبحت الغنائم لله ورسوله بين المولى (عز وجل) كيف توزع هذه الغنائم قال (تعالى): ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١) وهذا بعد ما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثلت الآيات، فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ما غنموه مقسوم بينهم، والخمس لله ورسوله، وهذا الخمس نفسه مردود فيهم أيضًا، وموزّع على الجهات المذكورة - كما ثبت بالسنة.

إن التوجيه التربوي، في إرجاء إنزال جواب السؤال عن الغنائم، يشير إلى أن الأحكام الشرعية ينبغي أن يهيأ لها الجوّ النفسي الروحي المناسب، لتحتل مكانها اللائق في العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتي أطيب النتائج، إذ يتجلى فيها أكمل الحلول، وهكذا صرف المولى (جلّ شأنه) عبادة المسلمين عن التعلق بالغير، أولاً، وبالغنائم ثانيًا، ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلما تفرغوا للخالق، وأخلصوا في الجهاد، أكرمهم بالنصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله، بأكثر مما كانوا يودون[(١٨٨)]، فعن عبد الله ابن عمرو قال: (خرج رسول الله (ﷺ) يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من

(١٨٦) في ظلال القرآن الكريم (٣/ ١٤٧٣، ١٤٧٤).
(١٨٧) المنهج التربوي للسيرة النبوية التربية الجهادية للغضبان (١/ ٥٢).
(١٨٨) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٦١، ٦٢).

أصحابه، فلما انتهى إليها قال: «**اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم**». ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين، واكتسوا وشبعوا)[١٨٩].

ومن عدل النبي (ﷺ) في تقسيم الغنائم: إعطائه من هذه الغنيمة من تخلف بأمر رسول الله لمهام أوكلها إليهم فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم فكانوا كمن حضرها[١٩٠]، فكان (ﷺ) يراعي ظروف الجنود التي تمنعهم من المشاركة في القتال، لئن الله (تعالى) لم يكلف عباده شيئًا فوق طاقتهم قال (تعالى): ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ولذلك كان رسول الله (ﷺ) لا يكلف المسلمين فوق طاقتهم، سواء كان ذلك في السلم أو الحرب، وفي غزوة بدر أعفى النبي (ﷺ) بعض الصحابة لأن ظروفهم الأسرية تتطلب منهم القيام عليها ورعايتها، فقد أعفى عثمان بن عفان رضي الله عنه من الخروج يوم بدر لأن زوجته رقية كانت مريضة وبحاجة إلى من يرعى شؤونها، روى البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيب عثمان رضي الله عنه في غزوة بدر، فقال رضي الله عنه: (. . . وما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله (ﷺ) وكانت مريضة، فقال له رسول الله (ﷺ): «**إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه...**»[١٩١].

وأمر (ﷺ) أبا أمامة بالبقاء عند أمه حيث كانت مريضة وهي بحاجة إليه، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) أخبرهم بالخروج إلى بدر وأجمع الخروج معه فقال له خاله أبو بردة بن نيّار: أقمْ على أمك، يا ابن أختي فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك، فذكر ذلك للنبي (ﷺ) فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه وخرج بأبي بردة، فقدم النبي (ﷺ) وقد توفيت فصلى عليها.[١٩٢] إن هذه الأخلاق الرفيعة ومراعاة شعور الجنود وأحوالهم العائلية تولد قوة ترابط بين القيادة والجنود وتدخل تحت مفهوم فقه التمكين، وقد مارسه الرسول (ﷺ) في أعلى صوره.

ومن الصحابة الذين كانت لهم مهمات خاصة أو أصيبوا أثناء الطريق فردهم الرسول (ﷺ):

١- أبو لبابة: استخلفه على المدينة.

٢- عاصم بن عدي: أرسله (ﷺ) في مهمة لأهل العالية - في المدينة.

---

(١٨٩) سنن أبي داود (٥/ ٥٢٥) حسنه الألباني صحيح أبي داود.

(١٩٠) انظر: معين السيرة ص(٢١٤).

(١٩١) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٥) رقم (٣٦٩٩).

(١٩٢) انظر: الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد (٣/ ٣١).

٣- الحارث بن حاطب: أرسله (ﷺ) في مهمة إلى بني عمرو بن عوف.

٤- الحارث بن الصمة: وقع أثناء الطريق فكُسر فرد.

٥- خوات بن جبير: أصابه في الطريق حجر في ساقه فرده من الصفراء[١٩٣].

وكذلك أعطى لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم وبذلك كان للإسلام السبق في تكريم الشهداء ورعاية أبنائهم وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرنًا[١٩٤].

ثانيًا: الأسرى:

قال ابن عباس رضي الله عنه: .. فلما أسروا الأسارى قال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر وعمر: **«ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»** فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. فقال رسول الله (ﷺ): **«ما ترى يا ابن الخطاب؟»** قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله (ﷺ) ما قال أبوبكر، ولم يهوَ ما قلت: فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله (ﷺ): **«أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»** - شجرة قريبة من نبي الله (ﷺ) - وأنزل الله (عز وجل): ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى**﴾ إلى قوله ﴿**فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا**﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩) (فأحَلَّ الله لهم الغنيمة[١٩٥]

وفي رواية: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله (ﷺ): **«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟»** فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا. فقال العباس: قطعت رحمك، فدخل رسول الله (ﷺ) ولم يرد عليهم شيئًا. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله (ﷺ) فقال: **«إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر، كمثل إبراهيم عليه السلام إذ قال:** ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (المائدة: ١١٨) **وإن مثلك يا عمر، كمثل نوح إذ قال:** ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ (نوح : ٢٦).

(١٩٣) انظر: معين السيرة ص(٢١٥).

(١٩٤) انظر: السيرة النبوي لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

(١٩٥) مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم (٣ / ١٣٨٣).

وإن مثلك كمثل موسى إذ قال:﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾(يونس: ٨٨).

ثم قال (ﷺ): **«أنتم عالة، فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق»**.

قال عبد الله بن مسعود: فقلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام قال: فسكت. فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم، حتى قال: إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله: **﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾** (الأنفال: ٦٧) إلى آخر الآية[١٩٦].

وهذه الآية تضع قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حتى ترهب من قبل أعدائها وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات، حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها[١٩٧].

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه لما شرع الصحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسول الله (ﷺ) الكراهية في وجه سعد لما يضع الناس فقال له رسول الله: **«والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم»** قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان بالقتل أحب إليّ من استبقاء الرجل[١٩٨].

كانت معاملة النبي (ﷺ) للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم والأهداف الدعوية ولذلك تعددت أساليبه وتنوعت طرق تعامله عليه الصلاة والسلام، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المن عليهم.

أ- حفظ رسول الله (ﷺ) لجوار المطعم بن عدي:

قال رسول الله (ﷺ) في أسارى بدر: **«لو كان مطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتن لأطلقتهم له»**[١٩٩].

وهذا الحديث تعبير عن الوفاء والاعتراف بالجميل، فقد كان للمطعم مواقف تذكر بخير، فهو الذي دخل الرسول (ﷺ) في جواره حينما عاد من الطائف، كما كان من أشد القائمين على نقض الصحيفة يوم حصر المسلمون وبنو هاشم[٢٠٠].

وهذا يدل على قمة الوفاء لمواقف الرجال - ولو كانوا مشركين[٢٠١].

ب- مقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث:

---

(١٩٦) مسند الإمام أحمد (١/ ٣٧٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥).

(١٩٧) انظر: معين السيرة ص (٢٠٩).

(١٩٨) انظر: التربية الجهادية للغضبان (١/ ١٤١).

وإذا كان هذا الوفاء لرجل مثل المطعم بن عدي، فلا بد من الغرم مع مجرمي الحرب ورؤوس الفتنة، فقد كان عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام، ولا سيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورّعا على سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتلهما في هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية[٢٠٢] ولذلك أمر رسول الله (ﷺ) بقتلهما، عندما وصل إلى الصفراء[٢٠٣] أثناء رجوعه للمدينة، فلما سمع عقبة بن معيط بأمر قتله قال: يا ويلي علام أقتل يا معشر قريش من بين مَنْ ها هنا؟ فقال رسول الله (ﷺ): **«لعداوتك لله ولرسوله»** قال: يا محمد مَنُّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي، إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت عليَّ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، يا محمد، من للصبية؟ قال رسول الله (ﷺ): **«النار قدّمه يا عاصم فاضرب عنقه»**[٢٠٤]، فقدمه عاصم فضرب عنقه[٢٠٥]، وأما النضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله (ﷺ) وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله (ﷺ) مجلسًا فذكّر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه، في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلم إليَّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني[٢٠٦].

إن هذا الرجل المتعالي على الله والمتألي عليه، والذي يزعم أنه سينزل أحسن ما أنزل الله، والذي يزعم أنه أحسن حديثًا من محمد، لا بد لمثل من يمثل هذا التيار - وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين - لابد أن يُثأر لله ولرسوله منه، ومن أجل هذا لم يدخله رسول الله (ﷺ) ضمن نطاق الاستشارة[٢٠٧]، وأمر رسول الله (ﷺ) بقتله، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢٠٨].

وبمقتل هذين المجرمين تعلم المسلمون أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال للتساهل معهم، فهم زعماء الشر، وقادة الضلال، فلا هوادة معهم، لأنهم تجاوزوا حد العفو

(١٩٩) أبو داود في الجهاد، باب المن على الأسير رقم (٢٦٨٩) وإسناده صحيح .
(٢٠٠) انظر: معين السيرة ص(٢٠٨) . (٢٠١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٤) .
(٢٠٢) انظر: غزوة بدر الكبرى، محمد أحمد باشميل ص(١٦٢) .
(٢٠٣) الصفراء: واد كثير النخل والزرع والخير .
(٢٠٤) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٨٩) قال فيه: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .
(٢٠٥) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠) .
(٢٠٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٩، ٤٤٠) .
(٢٠٧) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٧) .
(٢٠٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٥) .

والصـــفح[٢٠٩] بأعمالهم الشنيعــة، فقد كان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكـثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاء للإسلام وأهله[٢١٠].

ب- الوصية بإكرام الأسرى جانب من المنهج النبوي الكريم:

ولما رجــع (ﷺ) إلى المدينة فرق الأسـرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيرًا»[٢١١] وبهذه التوصية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قول الله (تعالى): ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ (الإنسان: ٨) فهذا أبو عزيز بن عـمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا عمـا رأى قال: كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله (ﷺ): «**استوصـوا بالأسارى خيرًا**»، وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البر لوصية رسول الله (ﷺ)[٢١٢].

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا قال: كنت في رهـط من الأنصار- جزاهم الله خيرًا- كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بـالخبز وأكلوا التمر، والخبز معـهم قليل، والتمر زادهم حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعهـا إليّ. وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون[٢١٣].

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسـه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين وذكر به النبي (ﷺ) أصحابه فاتخذوه خلقًا، وكان لهم طبيعة قد أثّر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر بعيد وصول الأسرى إلى المدينة وتنفيذ وصية رسول الله (ﷺ)، وأسلم معه السائب بن عبيد[٢١٤] بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعـوة الإسلام إلى قلوبهم وطهـرت نفوسـهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهـليهم، يتحدثون عن محمد(ﷺ) ومكارم أخلاقه وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتـقوى، والإصلاح والخـير[٢١٥]، إن هذه المعاملة الكـريمة للأسرى شاهد على سـمو الإسلام في المجال الأخـلاقي، حيث نال أعداء الإسلام من معاملة الصـحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار[٢١٦].

د- فداء العباس عم النبي (ﷺ):

بعثت قـريش إلى رسول الله(ﷺ) في فداء أسراهم ففدى كـل قوم أسيرهم بما رضوا،

---

(٢٠٩) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).
(٢١٠) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٦).
(٢١١) نفس المصدر (٣/ ٣٠٧).
(٢١٢) مجمع الزوائد (٦/ ٨٦) وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.
(٢١٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١١٩).
(٢١٤) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٤).
(٢١٥) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٤).
(٢١٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ١٧٥، ١٧٦).

وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلمًا، فقال رسول الله (ﷺ): «**الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر**» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله. قال: «**فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم**». قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي. فقال رسول الله (ﷺ): «ذاك شيء أعطانا الله (تعالى) منك» ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأنزل الله (عز وجل) فيه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (الأنفال: ٧٠، ٧١).

قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبدا كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله (عز وجل)[٢١٧].

هذا والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة وإن كانت نزلت في العباس إلا أنها عامة في جميع الأسرى[٢١٨].

استأذن بعض الأنصار رسول الله (ﷺ) فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا العباس فداءه. فقال: «**والله لا تذرون منه درهمًا**»[٢١٩] أي لا تتركوا للعباس من الفداء شيئًا ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله (ﷺ) في قولهم لرسول الله: ابن اختنا[٢٢٠]، لتكون المنة عليهم في إطلاقه بخلاف لو قالوا: (عمك) لكانت المنة عليه(ﷺ). وهذا من قوة الذكاء وحسن الأدب في الخطاب، وإنما امتنع النبي(ﷺ) عن إجابتهم، لئلا يكون في الدين نوع محاباة[٢٢١].

وهنا يتعلم الأسرى والمسلمون أيضًا درسًا بليغًا في عدم محاباة ذوي القربى، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فقد أغلا رسول الله الفداء على عمه العباس[٢٢٢].

ورجع العباس لمكة، وقد دفع فداءه وأبناء أخويه، وأخفى إسلامه وأصبح يقود جهاز استخبارات الدولة الإسلامية بمكة بمهارة فائقة وقدرة نادرة، حتى انتهى دوره في فتح مكة،

---

(٢١٧) انظر: البخاري في المغازي، باب (١٢) حديث رقم(٤٠١٨).

(٢١٨) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٣٢).

(٢١٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري (٧/ ٣٢١) نقلاً عن المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٥).

(٢٢٠) لأن جدة العباس أم عبد المطلب من بني النجار من يثرب.

(٢٢١) انظر: سبل الرشاد للصاحلي (٤/ ١٣٥).

(٢٢٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

فأعلن إسلامه قبلها بساعات[٢٢٣] .

هـ- أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله(ﷺ) في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قال: فلما رآها رسول الله(ﷺ) رق لها رقة شديدة وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**» فقالوا: (نعم فأطلقوه وردوا عليها الذي لها)[٢٢٤] .

وكان رسول الله(ﷺ) أخذ عليه، أو وعده، أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله(ﷺ) زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «**كونا ببطن يأجج[٢٢٥] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها**»[٢٢٦].

إن أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول(ﷺ) لم يعرف عنه قط موقفًا في مقاومة الدعوة بأي لون من ألوانها، وقد كف يده ولسانه عن أصحاب رسول الله، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله(ﷺ) عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله، وفي بدر كان أبو العاص صهر رسول الله(ﷺ) من بين الأسرى الذين لم يسمع لهم في المعركة صوت، ولم يعرف لهم رأي، ولا شوهدت لهم في قتال جولة، وبعد أن بدأت قريش تفادي أسراها، أرسلت السيدة زينب بنت رسول الله(ﷺ) وزوج أبي العاص بمال تفديه به، ومع المال قلادة كانت أمها السيدة خديجة رضي الله عنها أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها لتتحلى بها، فلما رأى رسول الله(ﷺ) قلادة ابنته رق لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبويّة عنده(ﷺ) ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، فالنبي(ﷺ) أب، له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة، المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه رضي الله عنه متلطفًا يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم رجاء يدفعهم إلى العطاء ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي هو لها**» .

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة[٢٢٧] .

---

(٢٢٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٨) .

(٢٢٤) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٦١) .

(٢٢٥) اسم مكان على ثمانية أميال من مكة .

(٢٢٦) أبو داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال رقم (٢٦٩٢) .

(٢٢٧) انظر: محمد رسول الله ، عرجون (٣/ ٤٨٠، ٤٨٧) .

إن هذا الموقف وما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه (ﷺ) على ابنته، يحمل في طياته مقصدًا آخر، وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد، فقد كان (ﷺ) يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة[٢٢٨].

و- أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي بين الرحمة والحزم النبوي:

كان محتاجًا ذا بنات قال: يا رسول الله لقد عرفت ما لي من مال وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن علي، فمنّ عليه رسول الله (ﷺ) وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدًا فقال أبو عزة يمدح رسول الله (ﷺ) على ذلك:

من مبلغ عني الرسول محمد	**بأنك حق والمليك حميد**
وأنت امرؤ بوئت فينا (مباءة)[٢٢٩]	**لها درجات سهلة وصعود**
فإنك من حاربته لمحاربٌ	**شقي ومن سالمته لسعيد**
ولكن إذا ذكرتُ بدرًا وأهله	**تأوّبُ ما بي، حسرة وقعود**

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله فرجع إليهم، فلما كان يوم أحد أسر أيضًا، فسأل من النبي (ﷺ) أن يمن عليه أيضًا فقال النبي (ﷺ): «**لا أدعك تمسح عارضيك، وتقول: خدعت محمدًا مرتين**» ثم أمر به فضربت عنقه[٢٣٠].

فكان النبي (ﷺ) به رحيمًا وعفى عنه وأطلق سراحه بدون فداء لما ذكر أبو عزة فقره وما لديه من بنات يعولهن، ولكنه لم يف لرسول الله (ﷺ) بما عاهده عليه من لزوم السلم وعدم إثارة الحرب ضده، فوقع أسيرًا في معركة أحد، فكان موقف النبي (ﷺ) منه الحزم، فأمر بضرب عنقه.

ز- سهيل بن عمرو ووقوعه في الأسر وماذا قالت سودة رضي الله عنها:

قال عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه: (قُدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبي (ﷺ) عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء- وذلك قبل أن يضرب الحجاب - قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتي بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله (ﷺ) فيه، فإذا أبو يزيد سهيل ابن عمرو في ناحية الحجرة ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كرامًا... فما انتبهت إلا بقول رسول الله (ﷺ) من البيت: «**يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين**»، فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما

(٢٢٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨٣).

(٢٢٩) مباءة: مكانة رفيعة.

(٢٣٠) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١٣).

قلت)[٢٣١].

وقد فاوض مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، فلما فاوض المسلمين وانتهى إلى رضائهم قالوا: هات الذي لنا قال لهم مكرز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزًا عندهم، وجاء في حديث مرسل أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول الله (ﷺ) دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا في موطن آخر؟ فقال رسول الله (ﷺ): **«لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيًا»**[٢٣٢] ثم قال رسول الله لعمر: **«إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه»**[٢٣٣].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الذي قامه سهيل بمكة حين مات رسول الله (ﷺ) وارتد العرب، ونجم النفاق بالمدينة وغيرها، فقام بمكة فخطب الله وثبتهم على الدين الحنيف[٢٣٤] فقد قال في ذلك: يا معشر قريش، لا تكونوا آخر الناس إسلامًا وأولهم ردة، من رابنا ضربنا عنقه[٢٣٥].

فقد أبى رسول الله (ﷺ) أن ينزع ثنية سهيل، ورأى أن ذلك من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان وقال لعمر: **«لا أمثل به فيمثل الله بي، وإن كنت نبيًا»** وهذا نموذج من منهج رسالته (ﷺ) وضعه ليكون نبراسًا لأمته في انتصاراتها على أعدائها[٢٣٦].

س: التعليم مقابل الفداء:

قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله (ﷺ) فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة[٢٣٧]، وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يُعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه[٢٣٨]، وقبول النبي (ﷺ) تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾** (العلق: ١-٤) واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنّة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي (ﷺ) أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام[٢٣٩].

(٢٣١) انظر: السيرة النبوية، لمحمد الصوياني (٢/ ٢٠٠) وسنده صحيح.
(٢٣٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١) وقال ابن كثير: مرسل بل معضل.
(٢٣٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١). (٢٣٤) نفس المصدر (٣/ ٣١١).
(٢٣٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨١).
(٢٣٦) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٤).
(٢٣٧) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٦١).
(٢٣٨) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٤).
(٢٣٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

ط- حكم الأسرى:

إن حكم الأسرى في الإسلام مفوض إلى رأي الإمام ليختار حكمًا من أربعة، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامة والأحكام الأربعة هي:

١- القتل: وقد قتل رسول الله (ﷺ) عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث.

٢- المن: وهو إطلاق الأسير بدون مقابل، وهذا ما فعله رسول الله مع أبي عزة الجمحي.

٣- الفداء: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال، وهذا ما حدث مع العباس عم النبي (ﷺ) ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم.

٤- الاسترقاق: وقد حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يقتل المحاربون وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء(٢٤٠).

●●●

(٢٤٠) انظر: غزوة بدر الكبرى ص(١٠١).



المبحث السادس

نتائج غزوة بدر ومحاولة اغتيال النبي (ﷺ)

أولاً نتائج غزوة بدر:

١- كانت من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وأصبح على من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم على فعلته، وتعززت مكانة الرسول في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المتشككون بالدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام، لذا ظهر النفاق والمكر والخداع، فأعلنوا إسلامهم ظاهرًا أمام النبي (ﷺ) وأصحابه، فدخلوا في عداد المسلمين، وأبقوا على الكفر باطنًا، فظلوا في عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم للمسلمين، قال (تعالى): ﴿**مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾ (النساء: ١٤٣). ومن أجل هذا الموقف المتذبذب، شنّع الله عليهم، وسمّع بهم في كثير من آياته، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب، قال (تعالى): ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**﴾(النساء : ١٤٥).

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله (سبحانه وتعالى) وبرسوله الكريم (ﷺ)، واشتداد ساعدهم وقوتهم، ودخول عدد كبير من مشركي قريش في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون في مكة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب، فازدادوا إيمانًا على إيمانهم وثباتًا على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك، فقد كسب المسلمون مهارة عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وشهرة واسعة في داخل الجزيرة العربية وخارجها، إذ أصبحوا قوة يحسب لها حسابها في بلاد العرب، فلا تهدد زعامة قريش وحدها، بل زعامة كافة القبائل العربية المنتشرة في مختلف الأصقاع والأماكن، كما أصبح للدولة الجديدة مصدر للدخل من غنائم الجهاد، وبذلك انتعش حال المسلمين المادي والاقتصادي، بما أفاء الله عليهم من غنائم، بعد بؤس وفقر شديدين داما تسعة عشر شهرًا[٢٤١].

٢- أما قريش، فكانت خسارتها فادحة، فإضافة إلى مقتل أبي جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، وعتبة بن ربيعة وغيرهم من زعماء الكفر الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعة وقوة وبأسًا، ولم تكن بدر خسارة حربية لقريش فحسب، بل خسارة معنوية أيضًا، ذلك أن

---

(٢٤١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي ص(٢٧٤، ٢٧٥).

المدينة لم تعـد تهدد تجارتهـا فقط، بل أصبـحت تهدد أيضًـا سيادتهـا ونفوذها في الحـجاز كله[٢٤٢]، كان خبر الهزيمة على أهل مكة كالصاعقة ولم يصدقوا ذلك في بداية الأمر. قال ابن إسحـاق (رحمه الله): وكـان أول من قدم بمكة بمصـاب قريش الحيـسمان بن عـبد الله الخزاعي فقالوا له: ما وراءك؟

قال: قتل عـتبة بن ربيعة، وشـيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشـام، وأمية بن خلف، وزمعـة بن الأسود، ونبيـه ومنبه ابنا الحجـاج، وأبو البختـري ابن هشام، فلما جـعل يعدد أشراف قريش قال: صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا فسلوه عنّي؟

فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟

قال: هو ذاك جالس في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا[٢٤٣].

وهذا أبو رافع مـولى رسول الله (ﷺ) يقص علينا أثر خبـر هزيمة قريش على أبي لهب لعنه الله حيث قال: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمت أم الفضـل وأسلمتُ، وكان العبـاس يهاب قومـه ويكره أن يخالفـهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كـثير متفرق في قومـه، وكان أبولهب -عدو الله- قد تخلف عن بدر فبعث مـكانه رجلاً، فلما جاء الخـبر عن مصاب أصـحاب بدر من قريش كَبَـتهُ الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزة.

قال: كنت رجـلاً ضعيفًـا، وكنت أعمل القداح وأنْحَتـها في حجرة زمـزم، فوالله أني لجالس فيها أنحت القداح وعندي أم الفضل (زوج العباس بن عبد المطلب) جالسة وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشرٍّ حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قـال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال: أبو لهب: هلمّ إليّ فعندك لعمري الخبر، قال: جلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابنَ أخي أخبرني، كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهـم أكتافنا يقـودوننا كيف شاؤوا ويأسـروننا كيف شـاؤوا، وايمُ الله مع ذلك ما لُمتُ الناس: لقينا رجالاً بيضًـا على خيل بُلق بين السماء والأرض والله ما تُلق شيـئًا، ويقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجـرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بهـا وجهي ضربة شديدة، قال: وثاورته فاحـتملني وضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني - وكنت رجـلاً ضعيفًـا- فقامت أم الفضل إلـى عمود من عمـد الحجرة فأخـذته فضربته به ضـربه فَلَعَتْ في رأسه شجـة منكرة، وقالت: استـضعفتـه أن غاب عنه سيده، فقام موليًا ذليـلاً ثم مات بعد سبع ليال بالعدسة[٢٤٤] فقـتلته[٢٤٥] وأم الفـضل بن

---

(٢٤٢) المصدر نفسه ص(٣٧٥، ٣٧٦). (٢٤٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٥٧).

(٢٤٤) العدسة: قرحة قاتلة كالطاعون. وقد عدس الرجل: إذا أصابه ذلك.

(٢٤٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٥٨).

الحارث زوج العباس بن عبد المطلب، وأخت ميمونة أم المؤمنين وخالة خالد بن الوليد، وهي أول امرأة أسلمت بعد خديجة(٢٤٦) رضي الله عنهن.

لقد تركت غزوة بدر بنفوس أهل مكة المشركين كمدًا وأحزانًا وآلامًا بسبب هزيمتهم ومن فقدوا وأسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بعلة ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابنًا له وأسر له ابنٌ آخر، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة على قتل عزيز أو قريب، أو أسر أسير، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتى إن بعضهم حرم نفسه الاغتسال(٢٤٧)، حتى يأخذ بالثأر ممن أذلوهم، وقتلوا أشرافهم وصناديدهم، وانتظروا يترقبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم، فكان ذلك في أحد(٢٤٨).

٣- أما اليهود، فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدر، وأن تقوى شوكتهم فيها، وأن يعزّ الإسلام ويظهر على دينهم، ويكون لرسوله دونهم الحُظوة والمكانة، فصمموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه النبي (ﷺ) عندما قدم المدينة، وأظهروا عداوتهم التي كانت كامنة في نفوسهم، وأخذوا يجاهرون بها القول ويعلنون، ثم راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله، ويعملون للقضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم(٢٤٩) وبدؤوا يتحرشون بالنبي (ﷺ) والمسلمين، وما كان النبي (ﷺ) ليخفى عليه شيء من ذلك، فقد كان يراقبهم عن حذر ويقظة، حتى استخفوا بالمقررات الخلقية، والحرمات التي يعتز بها المسلمون، واستعلنوا بالعداوة، فلم يكن بدّ من حربهم وإجلائهم عن المدينة- كما سنفصل ذلك فيما بعد إن شاء الله(٢٥٠).

ثانيًا: محاولة اغتيال النبي (ﷺ) وإسلام عمير بن وهب (شيطان قريش):

قال عروة بن الزبير: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر، بعد مصاب أهل بدر بيسير وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله (ﷺ) وأصحابه، ويلقون منه عناء(٢٥١) وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: (والله إنْ في العيش بعدهم خير).

قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَينٌ عليّ ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الضيعة(٢٥٢)، بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة(٢٥٣) ابني أسير في

(٢٤٦) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر ص(١٦٢).
(٢٤٧) هو أبو سفيان بن حرب نذر إلا يمس رأسه من ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.
(٢٤٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).
(٢٤٩) انظر: التاريخ السياسي العسكري ص(٢٧٤).
(٢٥٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).
(٢٥١) عناء: التعب. (٢٥٢) الضيعة: الضياع والتشتت.
(٢٥٣) العلة: السبب.

أيديهم.

قال: فاغتنمـها صفوان بن أمية فـقال: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيـالك مع عيالي أواسـيـهم[٢٥٤] ما بقوا، لا يسعني شيء ويعـجز عنهم، فقال له عميـر: فاكتم عليَّ شأني وشأنك.

قال: سأفعل.

قال: ثم أمر عـمير سيفـه، فشُحذ وسم، ثم انطلق حـتى قدم المدينة، فبينمـا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكـرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمـر إلى عمير بن وهب وقد أنـاخ راحلته على باب المسجد متـوشحًا سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عـمير بن وهب، ما جاء إلا لشر وهو الذي حرش بيننا، وحرزنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله (ﷺ) فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه.

قال: «**فأدخله عليّ**»، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة[٢٥٥] سيفه في عنقه فلببه[٢٥٦] بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله (ﷺ) فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون.

ثم دخل به على رسول الله (ﷺ)، فلما رآه رسول (ﷺ) وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «**أرسله يا عمر، ادن يا عمير**».

فدنا ثم قال: انعموا صباحًا، وكـانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله (ﷺ): «**أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة**»[٢٥٧].

فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

فقال: «**فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا.

قال «**أصدقني، ما الذي جئت له؟**».

قال: ما جئت إلا لذلك.

قـــال: «بل قعـدت أنت وصفوان بن أمـية في الحجـر، فذكرتما أصـحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دَيْنٌ عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان

---

(٢٥٤) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.
(٢٥٥) حمالة السيف: ما يربط به السيف على الجسم.
(٢٥٦) لببه: قيده.
(٢٥٧) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٥٩).

ابن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك لرسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول الله (ﷺ): «ففقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره» ففعلوه.

ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله - (عز وجل)- ، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم. قال: فأذن له رسول الله (ﷺ) فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا[٢٥٨].

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- حرص المشركين على التصفية الجسدية للدعاة، فهذا صفوان بن أمية وعمير بن وهب يتفقانِ على قتل النبي (ﷺ)، وهذا يرشدنا إلى أن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة، وتدبير المؤامرات لقتلهم، وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[٢٥٩]، وقد يستغل الأغنياء المترفون من أعداء الدعوة حاجة الفقراء وفقرهم فيوجهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم، وإن أدى ذلك إلى هلاكهم، فها هو صفوان قد استغل فقر عمير وقلة ذات يده ودَينه ليرسله إلى هلاكه[٢٦٠].

٢- ظهور الحس الأمني الرفيع الذي تميز به الصحابة رضي الله عنهم، فقد انتبه عمر بن الخطاب لمجيء عمير بن وهب وحذر منه، وأعلن أنه شيطان ما جاء إلا لشر، فقد كان تاريخه معروف لدى عمر، فقد كان يؤذي المسلمين في مكة وهو الذي حرّض على قتال المسلمين في بدر، وعمل على جمع معلومات عن عددهم، ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرسول (ﷺ)، فمن جهته فقد أمسك بحمالة لسيف عمير الذي في عنقه بشدة فعطله عن إمكانية استخدامه سيفه للاعتداء على الرسول (ﷺ) وأمر نفرًا من الصحابة

---

(٢٥٨) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٦٠).
(٢٥٩) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٥٩).
(٢٦٠) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس ص(٨٢).

بحراسة النبي (ﷺ).

٣- الاعتزاز بتعاليم هذا الدين، فقد رفض (ﷺ) أن يتعامل بتحية الجاهلية، ولم يرد على تحية عمير حين قال له: انعموا صباحًا، وأخبره بأنه لا يحيي بتحية أهل الجاهلية لأن الله (تعالى) أكرم المسلمين بتحية أهل الجنة.

٤- سمو أخلاق النبي (ﷺ)، فقد أحسن إلى عمير وتجاوز عنه وعفا عنه مع أنه جاء ليقتله[٢٦١]، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير وقال لأصحابه: **«فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن وأطلقوا أسيره»**[٢٦٢].

٥- قوة إيمان عمير، فقد قرر أن يواجه مكة كلها بالإسلام وقد أذن له رسول الله (ﷺ)، وفعل، وواجه، وتحدى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناس كثير، وكان حين تعد الرجال يطرحه عمر رضي الله عنه ممن يزن عنده ألف رجل، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر، عمرو بن العاص رضي الله عنهم الذين كان كل واحد منهم بألف[٢٦٣].

●●●

---

(٢٦١) نفس المصدر ص(٨٣).

(٢٦٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٦٠).

(٢٦٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٣).



المبحث السابع

بعض الدروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النصر من الله (تعالى):

إن حقيقة النصر في بدر كان من الله (تعالى)، قال (سبحانه) : ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران: ١٣٣). فقد بيَّن (سبحانه وتعالى) أن النصر لايكون إلا من عند الله (تعالى) في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ١٢٦) وقوله (تعالى): ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٠)

في هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله (عز وجل) والمعنى ليس النصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزة التي لا ترام[٢٦٤] و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته (سبحانه وتعالى)[٢٦٥].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون لكن يجب ألا يغتروا بها وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب حتى يمده الله بنصره وتوفيقه ثم بين (سبحانه) مظاهر فضله على المؤمنين وأن النصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النبي (ﷺ) المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته، وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين ويعلمهم الاعتماد عليه قال (تعالى): ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٧).

ولما بين (سبحانه وتعالى) في أن النصر كان من عنده، وضح بعض الحكم من ذلك النصر، قال (تعالى): ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٧-١٢٨).

وأمر (سبحانه وتعالى) المؤمنين أن يتذكروا دائمًا تلك النعمة العظيمة نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر قال (تعالى): ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم

---

(٢٦٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤١١/١).

(٢٦٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣٠٣/٢) نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم (٩٧/١ - ١٠٥).

مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٦).

ثانيا: يوم الفرقان:

سمى يوم بدر يوم الفرقان ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله (تعالى) ليوم بدر بأنه يوم الفرقان في قوله (تعالى): ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١).

فقال: كانت غزوة بدر التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده فرقانًا بين الحق والباطل كما يقول المفسرون إجمالاً، وفرقانًا بمعنى أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيرًا.

كانت فرقانًا بين الحق والباطل فعلاً.. ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء، والأشياء.. الحق الذي يتمثل في تفرد الله (سبحانه) بالألوهية، والسلطان والتدبير والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة، ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان.

لقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد، كانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير.. فرقانًا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات، وكانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك.. فرقانًا بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء، وللقيم والأوضاع، وللشرائع والقوانين، وللتقاليد والعادات.. وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره، ولا متسلط سواه، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إياه، فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقانًا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية: عهد المصابرة والصبر والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع. والإسلام بوصفه تصويرًا جديدًا للحياة، ومنهجًا جديدًا للوجود الإنساني ونظامًا جديدًا للحياة، ومنهجًا جديدًا للوجود الإنساني،

ونظامًا جـديدًا للمجتمع، وشكلاً جـديدًا للدولة، بوصفه إعـلانًا عامًا لتحـرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته(٢٦٦).

إلى أن قال: .وأخيرًا فلقد كـانت بدر فرقانًا بين الحق والباطل بمدلول آخر، ذلك المدلول الذي يوحي به قـول الله (تعالى): ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٧، ٨)، لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين، إنما خـرجوا يريدون عيـر أبي سفيـان واغتنام القافـلة. فأراد الله لهم غيـر ما أرادوا. أراد لهم أن تفلت منهم قـافلة أبي سفيـان (غير ذات الشـوكة) وأن يلاقوا نفـير أبي جهل)ذات الشوكـة) وأن تكون معركة وقـتال وقتل وأسر، ولا تكون قافلة وغـنيمة ورحلة مريحة، وقد قـال الله (سبحانه) إنه صنع هذا: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ وكـانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة.. إن الحق لا يحق وإن الباطل لا يبطل - في المجتمع الإنساني - بمجرد البيان النظري للحق والباطل، ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حق وهذا باطل، إن الحق لا يحق، وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطـان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحـق ويظهـروا ويهـزم جند البـاطل ويندحروا.. فهـذا الدين منهج حركي واقعي، لا مـجرد نظرية للمعرفـة والجدل، أو لمجرد الاعتقاد السلبي!

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقـعة، وكان هذا النصر العملي فرقـانًا واقعيًا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قـول الله (تعالى) في معرض بيان إرادته - (سبحانه)- من وراء المعركة، ومـن وراء إخراج الرسول (ﷺ) من بيته بالحق، ومـن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة.

ولقد كان هذا كله فرقانًا بين منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبـيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم.. وإنه لـفرقان ندرك اليوم ضرورته، حينمـا ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنـفسهم مسلمين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقـومون بدعوة الناس إلى هذا الدين! وهكذا كان يوم بدر﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال: ٤١).

بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميـقة. والله على كل شيء قدير، وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء، مثل لا يجـادل فيه مجادل، ولا يماري فـيه ممار.. مثل من الواقع المشهود، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله وأن الله على كل شيء قدير(٢٦٧).

---

(٢٦٦) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢١، ١٥٢٢).

(٢٦٧) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢٣، ١٥٢٤).

ثالثا: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صورًا مشرقة في الولاء والبراء، وجعلت خطًا فاصلاً بين الحق والباطل، فكانت الفرقان النفسي والمادي والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني فعاشها الصحابة واقعًا ماديًا وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت القيم الجاهلية، فالتقى الابن بأبيه والأخ بأخيه:

١- كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة في صف المشركين وقد قتلوا جميعًا في المبارزة الأولى.

٢- كان أبو بكر الصديق في صف المسلمين.. وكان ابنه عبد الرحمن في صف المشركين.

٣- كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين ثم وقع أسيرًا في يد أحد الأنصار فقال مصعب للأنصاري: شدّ يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك. تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك(٢٦٨)، إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي(٢٦٩).

٤- كان شعار المسلمين في بدر (أحد، أحد) وهذا يعني أن القتال في سبيل عقيدة تتمثل بالعبودية للإله الواحد، فلا العصبية ولا القبلية ولا الأحقاد والضغائن ولا الثأر هو الباعث والمحرك ولكنه الإيمان بالله وحده.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر واحدة في مضمونها(٢٧٠) وللإيمان فقه عظيم، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله (ﷺ) إلى المدينة، هاجر إليها كل من استطاع ذلك من المسلمين في مكة، وحبس من كان مضطهدًا ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صف المشركين منهم: عبدالله بن سهيل بن عمرو، والحارث ابن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله (ﷺ) فشهد الم عركة، وكان أحد الصحابة الذين نالوا هذا الشرف العظيم(٢٧١).

وأما الآخرون فلم يفعلوا ذلك، وشهدوا المعركة في صف المشركين وقد أصيبوا جميعًا(٢٧٢)، فقتلوا تحت راية الكفر، فنزل في حقهم قوله (تعالى): ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ

(٢٦٨) انظر: البداية والنهاية (٣/٣٠٧).
(٢٦٩) انظر: معين السيرة ص(٢١٣).
(٢٧٠) نفس المصدر ص(٢١٣).
(٢٧١) انظر: معين السيرة ص(٢١٧).
(٢٧٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٥٣).

الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ (النساء: ٩٧).

قال ابن عباس: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة - وكانوا يستخفون بالإسلام - فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾** إنهم لم يعذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صف المؤمنين متوفرة، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصفين، ولن يعدموا - لو أرادوا - الفرصة في الانتقال إلى رسول الله (ﷺ) كما فعل عبد الله بن سهيل [(٢٧٣)].

إن للإيمان مستلزمات تعبر عن صدقه وقوته، ومن مستلزماته استعلاؤه على كل القيم مما سواه، فإذا كان كذلك كان لصاحبه الأثر الفعال، والقوة الفاعلة في بناء الحق والخير الذي أراده الله، إن الإيمان يصبغ السلوك، فإذا به يشع من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة والابتسامة، ومن خلال السمت والانفعال، ولذا لم يعذر الذين كانوا في صف المشركين لأن الإيمان الذي ادعوه لم توجد مستلزماته فلم يؤت ثماره [(٢٧٤)].

ولهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصحابة الكرام في بدر مُثُلاً عليا لصدق الإيمان، التي تدل على أنهم آثروا رضاء الله ورسوله على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا يعجب المسلم ثناء الله (تعالى) على هذه المواقف الصادقة في قوله (تعالى): **﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (المجادلة: ٢٢).

رابعاً: المعجزات التي ظهرت في بدر وما حولها:

من المعجزات التي ظهرت على يدي رسول الله (ﷺ) في بدر، إخباره عن بعض المغيبات ومن المعلوم أن علم الغيب مختص بالله (تعالى) وحده، وقد أضافه الله (تعالى) إلى نفسه الكريمة في غير ما آية من كتابه العزيز، قال (تعالى): **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾** (النمل: ٦٥).

وقال (تعالى): **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** (الأنعام: ٥٩).

ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه، فقد قال (تعالى): **﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ**

(٢٧٣) انظر: معين السيرة ص(٢١٧).

(٢٧٤) انظر: معين السيرة ص(٢١٨).

لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٥٠). وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة تفيد أن الله (تعالى) استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم، ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم قال (تعالى): ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٧٩).

وقال (تعالى): ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (سورة الجن، آية: ٢٦- ٢٧) فتخلص من ذلك أن ما وقع على لسان رسول الله (ﷺ) من الإخبار بالمغيبات فيوحي من الله (تعالى) وهو إعلام الله عز وجل لرسوله (ﷺ) للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته وقد اشتهر وانتشر أمره (ﷺ) بإطلاع الله له على المغيبات[٢٧٥] وكان لأحداث غزوة بدر نصيب من تلك المعجزات الغيبية منها:

أ- قتل أمية بن خلف:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انطلق سعد بن معاذ معتمرًا، قال: فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت؟ فبينما سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة، فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنًا وقد آويتم محمدًا وأصحابه؟ فقال: نعم. فتلاحيا[٢٧٦] بينهما فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك وجعل يمسكه فغضب سعد فقال: دعنا عنك فإني سمعت محمدًا (ﷺ) يزعم أنه قاتلك. قال: إياي؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث. فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمدًا يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد. قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال فأراد ألا يخرج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسر يوما أو يومين، فسار معهم يومين فقتله الله[٢٧٧].

ب- مصارع الطغاة:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال،

(٢٧٥) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٤٥٣).

(٢٧٦) تلاحيا: تلاوما وتنازعا. انظر: النهاية (٤/ ٢٤٣). (٢٧٧) البخاري. انظر: الفتح (٦/ ٣٦٣٢).

وكنت رجلاً حديد البصر[٢٧٨]، فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيري. قال: فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل يقول: لا يراه، قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي. ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله (ﷺ) كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: **«هذا مصرع فلان غداً، إن شاء الله»** قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حد رسول الله (ﷺ)[٢٧٩].

جـ- إخبار العباس بن عبد المطلب بالمال الذي دفنه وإعلام عمير بن وهب بالحديث الذي حدث بينه وبين صفوان:

ومن ذلك: لما طلب رسول الله (ﷺ) من عمه دفع الفداء، وأجابه العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، فقال له: **«أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»**، قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا الأمر ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، وما حدث به عمير بن وهب لما جاء متظاهرًا بفداء ابنه، وهو يريد قتل النبي باتفاق مع صفوان بن أمية، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سببًا في إسلامه وصدق إيمانه[٢٨٠].

وذكر ابن القيم في زاد المعاد: أن سيف عكاشة بن محصن انقطع يومئذ، فأعطاه النبي (ﷺ) جذلاً من حطب، فقال: «دونك هذا»، فلما أخذه عكاشة وهزه، عاد في يده سيفًا طويلاً شديدًا أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر[٢٨١]، وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهم يوم بدر، ففقئت عيني، فبصق فيها رسول الله (ﷺ) ودعا لي، فما آذاني منها شيء[٢٨٢].

قال الدكتور أبو شهبة: وما ينبغي لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارها واضحة جلية في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات أنه نبي يوحى إليه، فقد أخبر بمغيبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء، وغير خفي ما يحدثه من انقلاب عود أو عرجون في يد صاحبه سيفًا بتارًا في إيمانه وتقوية يقينه، وجهاده به جهادًا لا يعرف التردد أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيف خرقت به العادة وصار مثلاً وذكرى في الأولين والآخرين[٢٨٣].

خامسًا: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدر -في الأحداث التي- سبقتها أراد مشرك أن يلحق بجيش المسلمين وطلب

---

(٢٧٨) حديد البصر: أي نافذ.

(٢٧٩) مسلم رقم (٢٨٧٣).

(٢٨٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

(٢٨١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) وذكر المحقق أن ابن اسحاق ذكرها من غير سند.

(٢٨٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

(٢٨٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

من النبي (ﷺ) الموافقة على قبوله معهم، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه فقال (ﷺ): **«ارجع فلن أستعين بمشرك»**(٢٨٤)، فالحديث يبين أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروط معينة وهي: تحقق المصلحة أو رجحانها بهذه الاستعانة، وألا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وأن يكون تابعًا للقيادة الإسلامية، لا متبوعًا، ومقودًا فيها لا قائدًا لها، وألا تكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقية لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة.

وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله (ﷺ) اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش، إذ لا حاجة به أصلاً وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي (ﷺ) بالمشرك عبد الله بن أريقط، الذي استأجره النبي (ﷺ) وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ليدلهما على الطريق إليها . . . ، وهكذا على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل (ﷺ) حماية عمه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمن أجاروهم(٢٨٥)، وضبط هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقه دقيق وإيمان عميق.

سادسًا: حذيفة بن اليمان، وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما:

أ- حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله (ﷺ) فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيران إلى المدينة ولا تقاتلا مع محمد (ﷺ)، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله (ﷺ) فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فيما ترى؟ قال: **«نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم»** فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرًا(٢٨٦).

هذه صورة مشرقة في حرص النبي (ﷺ) لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرفيعة وإن كان في ذلك إجحاف بالمسلمين ومفوت لهم جهد بعض أفراد المجاهدين.

ب- أسيد بن الحضير:

عندما رجع رسول الله (ﷺ) إلى المدينة قادمًا من بدر لقي بالروحاء رؤوس الناس

(٢٨٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٣٥٥).

(٢٨٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢٨٦) انظر: المستدرك للحاكم (٣/ ٢٠١، ٢٠٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

يهنؤونه بما فتح الله عليه، فقال أسيد بن الحضير: يا رسول الله الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًا، ولكن ظننت أنها عير ولو ظننت إنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله (ﷺ): «صدقت»(٢٨٧).

سابعًا: الحرب الإعلامية في بدر:

قال حسان رضي الله عنه:

فما نخشى بحول الله قوما ... وإن كثروا وأجمعت الزحوف

إذا ما ألبوا جمعًا علينا ... كفانا حدهم رب رؤف

سمونا يوم بدر بالعوالي ... سراعًا ما تضعفنا الحتوف(٢٨٨)

فلم تُرَ عصبة في الناس أنكى ... لمن عادوا إذا لقحت كشوف

ولكنا توكلنا وقُلنا ... مآثرنا ومعقلنا السيوف

لقيناهم بها لما سمونا ... ونحن عصبة وهم ألوف(٢٨٩)

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه:

لما حامت فوارسكم ببدر ... ولا صبروا به عند اللِّقاء

وردناه بنور لله يجلو ... دجى الظلماء عنا والغطاء

رسول الله يقدمنا بأمر ... من أمر الله أُحكَم بالقضاء

فما ظفرت فوارسكم ببدر ... وما رجعوا إليكم بالسواء

فلا تعجل أبا سفيان وارقب ... جياد الخيل تطلع من كداء

بنصر الله روحُ القدس فيها ... وميكالٌ، فيا طيبَ الملاء(٢٩٠)(٢٩١)

كان النبي (ﷺ) يحث شعراء المسلمين على القيام بواجبهم فيَ الدفاع عن المسلمين وإخافة الأعداء بشعرهم، فقد كان الشعر يمثل الحملات الإعلامية المؤثرة في دنيا العرب فيرفع أقوامًا ويخفض آخرين ويشعل الحروب ويطفئها(٢٩٢) كانت بوادر الحرب الإعلامية قد اندلعت منذ الهجرة، غير أن ظهورها أكثر بدأ مع حركة السرايا قبيل بدر، لكنها انفجرت انفجارًا ضخمًا بعد بدر، لأن الجانب الإعلامي للقبائل المجاورة كان هدفًا مهمًا من أهداف الفريقين، ويظهر أن القصائد سرعان ما تطير بها الركبان بين يثرب ومكة، فيأتي الرد من

---

(٢٨٧) انظر: البداية والنهاية (٣/٣٠٥).

(٢٨٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٦). الحتوف: جمع حتف وهو الموت.

(٢٨٩) هذا محمول على المبالغة لأن جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

(٢٩٠) أي: ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.

(٢٩١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٠).

(٢٩٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٩٩).

الطرف الآخر، فعند النصر تكثر أشعار الفريق المنتصر بينما تكثر المراثي عند الفريق الثاني، وكان الصف الإسلامي يضم شعراء متخصصين، كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكان أشدهم على الكفار حسان(٢٩٣).

●●●

(٢٩٣) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية ص٣٥٤، ٣٥٥ .



المبحث الثامن

أهم الأحداث التي وقعت بين غزوتي بدر وأحد

في أعقاب غزوة بدر أخذت الهيبة العسكرية للمسلمين مداها الكبير في دائرة واسعة في الجزيرة العربية، وأحس ضعفاء المشركين بالخطر وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام، وبدأت النفوس تتطلع إلى الإيمان فتوسعت دائرة الدخول في الإسلام، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقًا أو خديعة، وبهذا كله أصبحت الدولة الجديدة أمام أوضاع جديدة من المكر والتألب والتحالفات، ولكن تأييد الله تعالى ثم جهاز أمن الدولة المتيقظ أفشل مخططات أعداء الإسلام[٢٩٤].

أولاً: الغزوات التي قادها رسول الله (ﷺ) بعد بدر وقبل أحد:

أ- ماء الكدر في بني سليم:

غزا النبي (ﷺ) بعد سبع ليال من عودته إلى المدينة من غزوة بدر، وبلغ ماء الكدر في ديار بني سليم الذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنه لم يلق حربًا فأقام ثلاث ليال على الماء ثم رجع إلى المدينة[٢٩٥]، كان سبب تلك الغزوة تجمع أفراد بني سليم لمقاتلة المسلمين والاعتداء عليهم بعد معركة بدر مباشرة، ولكن رسول الله (ﷺ) فاجأهم بهجوم سريع غير متوقع، فهرب بنو سليم وتفرقوا على رؤوس الجبال، وبقيت إبلهم مع راع لها يدعى يسار، فاستاق رسول الله (ﷺ) الإبل مع راعيها، وعند موضع صرار، على ثلاثة أميال من المدينة، قسّم النبي (ﷺ) الإبل التي كان عددها خمسمائة بعير على أصحابه، فأصاب الواحد منهم بعيرين، ونال النبي (ﷺ) خُمْسَها، وكان يسار من نصيبه، ولكنه أعتقه بعد ذلك[٢٩٦].

ب- غزوة السويق:

قدم أبو سفيان بمائتي فارس من مكة وسلك طريق النجدية حتى نزلوا حي بني النضير ليلاً واستقبلهم سلاّم بن مشكم سيد بني النضير، فأطعمهم وأسقاهم وكشف لهم عن أسرار المسلمين، وتدارس معهم إحدى الطرق لإيقاع الأذى بالمسلمين، ثم قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُريض- واد بالمدينة في طرف حرة وأقم - فقتل رجلين وأحرق نخلا وفر عائدًا إلى مكة، فتعقبه رسول الله (ﷺ) في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار، ولكنه لم يتمكن من إدراكهم، لأن أبا سفيان ورجاله قد جدّوا في الهرب، وجعلوا يتخففون من أثقالهم ويلقون السويق[٢٩٧] التي كانوا يحملونها لغذائهم، وكان المسلمون يمرون بهذه الجرب فيأخذونها، حتى رجعوا بسويق كثير، لذا سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، وعاد رسول الله (ﷺ) إلى

---

(٢٩٤) انظر: الأساس في السنّة وفقهها، السيرة النبوية (١/ ٥١٢).

(٢٩٥) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٢٩٦).

(٢٩٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص٢٧٧.

(٢٩٧) السويق: هو أن تحمّص الحنطة والشعير ثم يطحن باللبن والعسل والسمن.

المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حربًا[٢٩٨].

جـ- غزوة ذي أمر:

جاءت الأخبار من قبل رجال الاستخبارات الإسلامية تفيد بأن رجال قبيلتي ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمرّ بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربي، يريدون حرب رسول الله (ﷺ)، والإغارة على المدينة، فاستعمل النبي (ﷺ) على المدينة عثمان بن عفان وخرج في أربعمائة وخمسين من المسلمين بين راكب وراجل، فأصابوا رجلاً بذي القَصَّة يقال له: جبّار من بني ثعلبة، كان يحمل أخبارًا عن قومه أسرّ بها إلى رسول الله (ﷺ)، وقد دخل في الإسلام، وانضمّ إلى بلال ليتفقه في الدين[٢٩٩]، أما المشركون من بني ثعلبة ومحارب ما لبثوا أن فرّوا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين، وبقي رسول الله (ﷺ) في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيدًا من أحد وعاد بعدها إلى المدينة[٣٠٠] وفي هذه الغزوة أسلم دعثور بن الحارث الذي كان سيدًا مطاعًا بعد أن حدثت له معجزة على يدي رسول الله (ﷺ)، فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطر كثير فابتلت ثياب رسول الله (ﷺ) فنزل تحت شجرة ونشر ثيابه لتجف، واستطاع دعثور أن ينفرد برسول الله بسيفه، فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال: **«الله»** ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله (ﷺ) فقال: **«من يمنعك مني»**. قال :لا أحد وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعًا أبدًا. فأعطاه رسول الله (ﷺ) سيفه فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك، ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجل طويل فدفع صدري فوقعت لظهري فعرفت أنه ملك وشهدت أن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليه جمعًا وجعل يدعو قومه إلى الإسلام[٣٠١] ونزل في ذلك قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾** (سورة المائدة، آية: ١١).

د- غزوة بحران[٣٠٢]:

كانت هذه الغزوة في شهر جمادي الأولى من السنة الثالثة للهجرة، وقد خرج النبي (ﷺ) في ثلاثمائة من المسلمين حتى بلغ بحران بين مكة والمدينة يريد قتال بني سليم فوجدهم قد تفرقوا، فانصرف عنهم، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عشر ليال[٣٠٣].

---

(٢٩٨) انظر: السيرة لابن هشام (٣/ ٥١)، التاريخ السياسي والعسكري ص٢٧٨، ٢٧٩ .

(٢٩٩) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣)، التاريخ الإسلامي والعسكري ص٢٧٩ .

(٣٠٠) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص٢٧٩ .

(٣٠١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣) .

(٣٠٢) بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران) وبعضهم بضمها .

(٣٠٣) انظر: المجتمع المدني للعمري ص٦١، التاريخ السياسي والعسكري ص٢٨٠ .

ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلامية على رصد تحركات العدو، ومعرفة قوته، وخططه، ومدده لكي تحطم هذه التجمعات المناوئة للدولة الإسلامية الفتية قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل، وتصبح خطرًا على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصحراء المترامية الأطراف كانت دورات تدريبية تربوية للصحابة الكرام، وسعدت سرايا الصحابة بقيادة النبي (ﷺ) لها، فقد كانت تلك الدورات العملية التدريبية القتالية التربوية مستمرة وتمتد من خمسة أيام إلى شهر، تتم فيها الحياة الجماعية، ويتربى جنود الإسلام على السمع والطاعة، والتدريب المتقن، ويكتسبوا خبرات جديدة تساعدهم على تحطيم الباطل وتقوية الحق.

لقد كان المنهاج النبوي الكريم يهتم بتربية الصحابة في ميادين النزال، ولا يغفل عن المسجد النبوي ودوره في صقل النفوس، وتنوير العقول، وتهذيب الأخلاق من خلال وجود المربي العظيم (ﷺ) الذي أصبحت تعاليمه تشع في أوساط المجتمع من خلال القدوة، والعبادة الخاشعة لله عز وجل، فالمنهاج النبوي الكريم جمع بين الدورات المسجدية، التربوية، والدورات العسكرية التربوية المكثفة لكي يقوي المجتمع الجديد، وترص صفوفه، ويكسب الخبرات لكي تقوم بنشر الإسلام في الآفاق[٣٠٤].

هـ- سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة:

أصبح مشركو مكة بعد هزيمتهم في بدر، يبحثو عن طريق أخرى لتجارتهم للشام، فأشار بعضهم إلى طريق نجد العراق، وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تجّار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزّى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم، فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلامي يدعى سليط بن النعمان رضي الله عنه[٣٠٥]، فبعث زيد بن حارثة في مائة راكب لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماء يقال له القَرَدة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العير وما عليها، وأسروا دليلها فُرات بن حيّان الذي أسلم بين يدي النبي (ﷺ)، وعادوا إلى المدينة، فخمسها رسول الله (ﷺ) ووزع الباقي بين أفراد السرية[٣٠٦].

ثانيًا: غزوة بني قينقاع:

ذكر الزهري أنها وقعت في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنها وقعت يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية[٣٠٧]، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله (ﷺ) وسيرته على أنها وقعت بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة

(٣٠٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ١١٨، ١١٩).
(٣٠٥) نفس المصدر (٣/ ١٣٢).
(٣٠٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٦).
(٣٠٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٩).

التي أبرمها الرسول (ﷺ) معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول (ﷺ) والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[٣٠٨]، وقد جمعهم النبي (ﷺ) في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ماأصاب قريشًا في بدر[٣٠٩]، غير أنهم واجهوا النبي (ﷺ) بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت إنا نحن الناس، وإنك لم تلق مثلنا[٣١٠].

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحًا عدائيًا، وتحدٍّ واستعلاء واستعداد للقتال، فأنزل الله (سبحانه وتعالى) فيهم قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٢-١٣).

أ- الأسباب المباشرة للغزو:

لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله (ﷺ) لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ لها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[٣١١].

فحين علم رسول الله (ﷺ) بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة[٣١٢] وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، واستخلف (ﷺ) على المدينة أبا لبابة ابن عبد المنذر العمري[٣١٣] واسمه بشير[٣١٤]. وحين سار إليهم رسول الله (ﷺ) نبذ إليهم

(٣٠٨) انظر: موسوعة نظرة النعيم (١/ ٢٦٩).
(٣٠٩) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٧٦).
(٣١٠) نفس المصدر (١/ ٢٧٦).
(٣١١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤).
(٣١٢) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٧٦)، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٨، ٢٩).
(٣١٣) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٨١). (٣١٤) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٧٩).

العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٥٨).

ب- ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدمه (ﷺ) تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي (ﷺ) خمس عشرة ليلة - كما ذكر ابن هشام[٣١٥] واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه (ﷺ)، فقد فاجأهم (ﷺ) بهذا بأسلوب الحصار، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله (ﷺ) وبأنهم قوم يختلفون بأسًا وشدة عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله (ﷺ)[٣١٦]، فأمر بهم فربطوا، فكانوا يكتفون أكتافًا، واستعمل رسول الله (ﷺ) على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي[٣١٧].

جـ- مصير يهود بني قينقاع:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلّ حلفاءه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم: فقال المنذر: أتحلون قومًا ربطهم رسول الله (ﷺ)؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه[٣١٨] فاضطر عبد الله بن أبي بن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي (ﷺ) بفك أسرهم[٣١٩]، فأتى رسول الله (ﷺ)، فقال: يا محمد، أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج- قال: فأبطأ عليه رسول الله (ﷺ)، فقال: يا محمد أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب ودرع رسول الله (ﷺ) فقال له رسول الله (ﷺ): **«أرسلني»**، وغضب رسول الله (ﷺ) حتى رأوا لوجهه ظللاً[٣٢٠]، ثم قال: **«ويحك أرسلني»**، قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله (ﷺ): **«هم لك»**[٣٢١].

فخلى رسول الله (ﷺ) سبيلهم ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله (ﷺ) والمسلمون ما كان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رضي الله عنه[٣٢٢] وحاول ابن أبي بن سلول أن يحدث رسول الله (ﷺ) في يهود بني قينقاع لكي

---

(٣١٥) انظر: سيرة إبن هشام (٣/ ٥٥).
(٣١٦) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٤).
(٣١٧) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٨٠).
(٣١٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).
(٣١٩) نفس المصدر (٥/ ٣٣).
(٣٢٠) ظللا: جمع ظلة وهي السحابة، استعارها لتغيير الوجه عند الغضب.
(٣٢١) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٨١).
(٣٢٢) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٨١).

يُقرّهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله (ﷺ) عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله (ﷺ) لك، فدفعه ابن أبي، فغلّظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم(٣٢٣).

ويظهر في هذا الخبر فقه النبي (ﷺ) السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أبي يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام(٣٢٤).

وهناك بُعدٌ آخر حيث حرص (ﷺ) أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين حيث أن بعض الأنصار حديثي عهد بالإسلام، ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم(٣٢٥)، ولذلك سلك (ﷺ) معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنبًا للفتنة وإظهارًا لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولا يتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحًا باهرًا، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه(٣٢٦)، بل أرادوا قتله كما سيأتي بإذن الله تعالى.

د- تبرؤ عبادة بن الصامت منهم:

لما نقضت العهد بنو قينقاع وكان عبادة بن الصامت أحد بني عوف - لهم من حلف بني قينقاع مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي مشى لرسول الله (ﷺ) وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله (ﷺ) من حلفهم وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله (ﷺ) والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم(٣٢٧)، ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله (ﷺ) عبادة بن الصامت أن يجليهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج - ونحن مواليك - فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله (ﷺ) فقلت: يا رسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف فقال عبد الله بن أبي: تبرأت من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكّره مواطن قد أبلَوا فيها، فقال عبادة: يا أبا الحباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمُعْصمٌ بأمر سنرى غيَّه غدًا، فقالت قينقاع: يا محمد، إن لنا دينًا في الناس، قال النبي (ﷺ): **«عجّلوا وضعوا»**، وأخذهم عبادة بالرحيل

---

(٣٢٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٠).
(٣٢٤) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان، ٢٤٧.
(٣٢٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).
(٣٢٦) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٨).
(٣٢٧) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).

والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولا ساعة من نهار لكم ثلاث لا أزيد عليها هذا أمر رسول الله (ﷺ)، ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وبلغ خلف الذباب ثم رجع، ولحقوا بأذرعات(٣٢٨).

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة وأشدهم بأسًا، وأكثرهم عددًا وعدة، ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبها وخضدت شوكتها(٣٢٩).

هـ- الآيات التي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود، وبراءة عبادة بن الصامت منهم:

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** (سورة المائدة، الآيات: ٥١- ٥٦) قال ابن عطية في هذه الآيات: لما انقضت بدر وشجر أمر بني قينقاع أراد رسول الله (ﷺ) قتلهم، فقام دونهم عبد الله بن أبي بن سلول وكان حليفًا لهم، وكان لعبادة بن الصامت من حلفهم مثل ما لعبد الله، فلما رأى عبادة منزع رسول الله (ﷺ)، وما سلكته اليهود من المشاقة لله ورسوله، جاء إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله. إني أبرأ إلى الله من حلف يهود وولائهم، ولا أوالي إلا الله ورسوله، وقال عبد الله بن أبي: أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود، فإني لا بد لي منهم، إني رجل أخاف الدوائر(٣٣٠).

إن الفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق، ومرد عليه، وبين عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي تربى على المنهاج النبوي، فصفت نفسه، وتطهر قلبه، وقوي إيمانه، وتنور عقله، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية، والأهواء، والمصالح الذاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة، فكان مثلاً حيًا للمسلم الصادق، المخلص لعقيدته(٣٣١).

---

(٣٢٨) نفس المصدر (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣٢٩) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٩).

(٣٣٠) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٧٧، ٤٧٨).

(٣٣١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٢).

ثالثًا: تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية، مقتل كعب بن الأشرف:

إن خطر المحرضين على الفتنة، لا يقل عن خطر الذين يشهرون السيوف لقتال المسلمين، إذ لولا هؤلاء المحرضين لما قامت الفتنة، لذلك أخذ رسول الله (ﷺ) يتتبع هؤلاء المحرضين ويقتلهم إطفاء لنار الفتنة، وتمكينًا للحق، وقد قتل منهم خلقًا بعد موقعة بدر(٣٣٢). منهم:

أ- عصماء بنت مروان:

التي كانت تحرض على النبي وتعيب الإسلام فقد أقدم عمير بن عدي الخطمي رضي الله عنه على قتلها، وحين سأل النبي (ﷺ) بعد ذلك عما إذا كان عليه شيء؟ قال له النبي (ﷺ): **«نصرت الله ورسوله يا عمير»**(٣٣٣)، ثم قال: **«لا ينتطح فيها عنزان»**(٣٣٤)، وقد أسلم نتيجة ذلك عدد من بني خطمة وجهر بالإسلام منهم من كان يستخفي(٣٣٥).

ب- مقتل أبي عفك اليهودي:

كان أبو عفك شيخًا كبيرًا من بني عمرو بن عوف وكان يهوديًا، يحرض على رسول الله (ﷺ) ويقول الشعر، فقال رسول الله (ﷺ): **«من لي بهذا الخبيث؟»** فخرج له الصحابي سالم بن عمير فقتله(٣٣٦).

وأهم حدث في تصفية المحرضين على الدولة ما بين بدر وأحد هو مقتل كعب ابن الأشرف.

جـ- مقتل كعب بن الأشرف:

ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نبهان من قبيلة طيئ، كان أبوه قد أصاب دمًا في الجاهلية فقدم المدينة وحالف يهود بني النضير وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعب(٣٣٧)، وكان شاعرًا، ناصب الإسلام وقد غاظه انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر، فسافر إلى مكة يهجو النبي (ﷺ) ويحرّض قريش على الثأر لقتلاهم الذين كان ينوح عليهم ويبكيهم في شعره، ويدعو إلى القضاء على الرسول والمسلمين(٣٣٨) ومما قاله من

(٣٣٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي ص١٣٨.

(٣٣٣) سنن أبي داود (٤/٥٢٨- ٥٢٩).

(٣٣٤) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن سبَّ النبي (٤/٥٢٨، ٥٢٩).

(٣٣٥) انظر: نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/٢٩٥).

(٣٣٦) نفس المصدر (١/٢٩٦).

(٣٣٧) انظر: السيرة لابن هشام (٣/٥٨).

(٣٣٨) انظر: نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/٢٩٨).

الشعر في قتلى بدر من المشركين:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قُتلت سُراةُ الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب بها من أبيض ماجد ... ذي بهجة تأوي إليه الضّيع
ويقول أقوام أذل بسخطهم[٣٣٩] ... إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا، فليت الأرض ساعة قُتّلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدّع
نبئت أن بني كنانة كلهم ... خشعوا لقول أبي الوليد وجدّعوا[٣٤٠]

واستمر كعب بن الأشرف في أذية رسول الله (ﷺ) بالهجاء وتشجيع قريش لمحاربة المسلمين، واستغواهم على رسول الله (ﷺ)، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ قال: أنتم أهدى منهم سبيلا[٣٤١]، ثم خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله (ﷺ) معلنًا بعداوته وهجائه[٣٤٢].

ولما قدم المدينة أعلن معاداة النبي (ﷺ) وشرع في هجائه وبلغت به الوقاحة والصلف أن يمتد لسانه إلى نساء المسلمين، وشبب بأم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العباس عم النبي (ﷺ) فقال فيها:

أذاهب أنت لم تَحْلُل بمنقبة ... وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت ... من ذي القوارير والحنّاء والكتم[٣٤٣]
إحدى بني عامر هام الفؤاد بها ... ولو تشاء شَفَتْ كعبًا من السّقم
لم أر شمسا بليلٍ قبلها طلعت ... حتى تبدت لنا في ليلة الظُّلَم[٣٤٤]

١- حسان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسول الله (ﷺ) يحث حسانًا للتصدي لكعب بن الأشرف، فكان (ﷺ) يعلم حسانًا أين نزل ابن الأشرف في مكة؟ فعندما نزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضميرة السهمي وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، فأبلغ (ﷺ) حسان بن ثابت بذلك فهجاهم لإيوائهم ابن الأشرف، فلما بلغ عاتكة بنت أسيد هجاء حسان نبذت رحل اليهودي كعب بن الأشرف، وقالت لزوجها: ما لنا ولهذا اليهودي؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسان[٣٤٥]؟

---

(٣٣٩) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص١٥٨.
(٣٤٠) نفس المصدر ص١٥٨.
(٣٤١) المصدر السابق ص١٥٨.
(٣٤٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص١٥٨.
(٣٤٣) رادعة: أي يفوح منها أثر الطيب والزعفران والكتم نبت يخلط بالحناء فيخضب به الشعر فيبقى لونه.
(٣٤٤) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص١٦٠.
(٣٤٥) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/١١١).

وتحول كعب إلى أناس آخرين، وكان كلما تحول إلى قوم آخرين دعا رسول الله (ﷺ) حسان وأخبره أين نزل ابن الأشرف فيهجو من نزل عندهم فيطردونه، وظل يلاحقه حتى لفظه كل بيت هناك فعاد إلى المدينة راغمًا بعد أن ضاقت في وجهه السبل ينتظر مصيره المحتوم وجزاؤه الذي يستحقه[٣٤٦].

كانت الحرب الإعلامية التي شنها حسان ضد كعب بن الأشرف قد حققت أهدافها وهذه بعض الأبيات التي قالها حسان بن ثابت رضي الله عنه في الرد على كعب بن الأشرف:

أبَكَى لكَعْبٍ ثم عُلَّ[٣٤٧] بعبرة ... منه وعاش مجدعًا لا يسمع؟
ولقد رأيت ببطن بدر منهم ... قتلى تسح لها العيون وتدمع
فابك فقد أبكيت عبدا راضعًا ... شبه الكُليب إلى الكُلَيْبة يَتْبَع
ولقد شفى الرحمان منا سيدًا ... وأهان قومًا قاتلوه وصُرِّعوا
ونجا وأفلت منهم من قَلْبُه ... شَغَفٌ يظل لخوفه يتصدع[٣٤٨]

٢- جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهودي ابن الأشرف بجرائم كثيرة، وخيانات عديدة وإساءات متعددة لرسول الله (ﷺ) وللمسلمين والمسلمات القانتات العابدات، وكل جريمة من هذه الجرائم تعد نقضًا للعهد تستوجب عقوبة القتل، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلها في هذا اليهودي الشرير[٣٤٩]؟

إن ابن الأشرف بهجائه للنبي (ﷺ) وإظهاره التعاطف مع أعداء المسلمين ورثاء قتلاهم وتحريضهم على المسلمين يكون قد نقض العهد وصار محاربًا مهدور الدم؛ ولذلك[٣٥٠] أمر النبي (ﷺ) بقتله وقد فصل البخاري خبر مقتله، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من لكعب ابن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»**، فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟

قال: **«نعم»**.

قال: فائذن لي أن أقول شيئًا.

قال: **«قل»**.

فأتاه محمد بن مسلمة[٣٥١] فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، وإني

(٣٤٦) نفس المصدر (١/ ١١١).
(٣٤٧) عل، من العلل، وهو الشرب بعد الشرب، يريد البكاء بعد البكاء.
(٣٤٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٥٩).
(٣٤٩) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١١١).
(٣٥٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٤).
(٣٥١) الذي كتب في السيرة النبوية لابن هشام أن الذي جاء كعب بن الأشرف أبو نائلة واسمه سلكان بن سلامة.

قد أتيتك استسلفك، قال: وأيضًا والله لتملنه قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أو وسقين.

فقال: أرهنوني.

قالوا: أي شيء تريد؟

قال: أرهنوا نساءكم.

قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فأرهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين؟ هذا عار علينا، ولكن نرهنك الأمة. قال سفيان: يعنى السلاح.

فواعداه أن يأتياه، فجاء ليلاً ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟

فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة.

قالت: أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم.

قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة..

وجاء محمد بن مسلمة برجلين(٣٥٢)، وقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه فنزل منهم متوشحًا وهو ينفخ منه ريح الطيب.. فقال: أتاذن لي أن أشم رأسك؟

قال: نعم فشمه، ثم أشم أصحابه.

ثم قال: أتأذن لي؟

قال: نعم فلما استمكن منه قال: دونكم. فقتلوه، ثم أتوا النبي (ﷺ) فأخبروه(٣٥٣).

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام أن محمد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف لا يأكل ولا يشرب إلاً ما يُعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله (ﷺ)، فدعاه، فقال له: «**لم تركت الطعام والشراب**»؟

فقال: يا رسول الله ، قلت لك قولاً لا أدري هل أفين لك به أم لا؟

---

(٣٥٢) وفي كتب السيرة أن الذين قاموا بقتله خمسة نفر هم: محمد بن مسلمة، وسلطان بن سلامة ابن وقش، وهو أبو نائلة، أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش، أحد بني عبد الأشهل وأبو عيسى بن جبر أحد بني حارثة هؤلاء قدموا أبا نائلة ليحدث كعب بن الأشرف .

(٣٥٣) البخاري في المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف رقم ٤٠٣٧ .

فقال رسول الله (ﷺ): «إنما عليك الجهد».

فقال: لا بد لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم»(٣٥٤).

وجاء في السيرة النبوية عن ابن إسحاق، بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي (ﷺ) مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم»(٣٥٥).

إن في مقتل كعب بن الأشرف دروسًا وعبرًا وفوائدًا في فقه النبي (ﷺ) في تعامله مع خصوم الإسلام والدولة الإسلامية، فقد اتضح أن عقوبة الناقض للعهد القتل وهذا ما حكم به النبي (ﷺ)، وعقوبة المعاهد الذي يشتم الرسول (ﷺ) ويؤذيه بهجاء أو غيره هي القتل وهذا ما كان لابن الأشرف، ويؤخذ من هذا أن شاتم الرسول (ﷺ) سواء كان معاهدًا أو غيره تضرب عنقه عقوبة له، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية في تفصيل هذه الاحكام في كتابه القيم الصارم المسلول على شاتم الرسول (ﷺ).

يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرسول (ﷺ) باليهودي ابن الأشرف أن الحكم قد تقتضي المصلحة العامة للمسلمين أن ينفذ سرًا، ويتأكد هذا إن كان يترتب على تنفيذه بغير هذه الصورة السرية فتنة أو خطر قد يكلف المسلمين باهظًا(٣٥٦). وقد بينت هذه الصورة على أن مواجهة الكفار أعداء الإسلام ومحاربي الدولة الإسلامية لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنما يتعدى ذلك إلى كل عمل تحصل به النكاية بالأعداء ما لم يكن إثمًا، وقد يوفر القضاء على رجل له دوره البارز في حرب المسلمين جهودًا كبيرة وخسائر فادحة يتكبدها المسلمون.

وهذا مشروط بالأمن من الفتنة، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكة، وقوة ودولة، بحيث لا يترتب على نوعية هذا العمل فتك بالمسلمين، واجتثاث الدعاة من بلدانهم، وإفساد في مجتمعاتهم(٣٥٧)، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلامي وتعجل الصدام المسلح واستدلوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة ولا حجة لهم فيها لأن ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين شوكة ودولة، أما هم فليس لهم دولة ولا شوكة، ثم كان ذلك إعزاز للدين وإرهابًا للكافرين وكانت كلها مصالح لا مفسدة معها، أما ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث فإنها يعقبها من الشر والفساد واستباحة دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ما لا يخفى على بصير(٣٥٨).

إن النبي (ﷺ) لم يقم بمحاولة تصفية لأي أحد من المشركين في مكة مع القدرة على

(٣٥٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٣٥٥) نفس المصدر (٣/ ٦٢).

(٣٥٦) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١١٥).

(٣٥٧) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ٥٤).

(٣٥٨) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية ص٢٠٥.

قتل زعماء الشرك كأبي جهل، وأمية بن خلف، وعتبة، ولو أشار إلى حمزة أو عمر بذلك أو غيرهم من الصحابة، لقاموا بتنفيذ ذلك، ولكن الهدي النبوي الكريم يعلمنا أن فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكة وقوة، كما أن هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحة من أهلها، واستيعاب فقه المصالح والمفاسد وهذا يحتاج إلى علماء راسخين حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرأي العام دوره الكبير في قرارات الدول، وحيث احتمالات توسع الأضرار(٣٥٩).

نلحظ قيمة الكلمة عند الصحابة رضي الله عنهم في موقف محمد بن مسلمة رضي الله عنه بعد أن أعطى كلمة لرسول الله (ﷺ) يتعهد فيها بقتل اليهودي بن الأشرف، ثم إبطاءه في ذلك أعيته الحيلة بقيام صعوبات في سبيل تحقيق ما وعد حيث امتنع عن الطعام والشراب وأصابه الغم والحزن لأنه قال قولاً يخشى ألا يستطيع الوفاء به، ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة أن كثير من الناس يعطون عهودًا ومواثيق ولا يقدرون قيمتها ويخفرون ذمتهم، ويتراجعون عن عهودهم ومواثيقهم وتبقى حبر على ورق، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادئ ومواقف يبتغى بها وجه الله، بل هم أصحاب مصالح ومنافع يخشى عليهم أن يعيدوها من دون الله.

إن أصحاب الدعوات يؤثرون أن تندق أعناقهم وأن تضوي أجسامهم وتزهق أرواحهم على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم، يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم(٣٦٠).

في قول رسول الله (ﷺ) : «**إنما عليك الجهد**» (٣٦١) فيه توجيه نبوي كريم أن النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجهد والصبر عند الابتلاء قال تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة هود، آية ٤٩). وعلى المسلم أن يفرغ كل ما في وسعه من جهد فكري وطاقة جسمية في سبيل تحقيق ما وعد، ثم يتوكل على الله بعد ذلك في النتائج(٣٦٢).

وفي قوله (ﷺ) : «**قولوا ما بدا لكم**» (٣٦٣)، فقه نبوي كريم؛ فقد قالوا كلامًا هو في الأحوال العادية كفر، ومن هنا تعرف أنه من أجل تحقيق المهام العسكرية فلا حدود للكلام الذي يقال، ولكن تأتي هنا مسألة أخرى وهي: ما إذا كان النجاح في المهام العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز أو يقتضي ترك فرائض فما العمل؟ المعروف أنه ليس هناك من الذنوب أعظم من الكفر والشرك، فإذا جاز التظاهر بالكفر لذلك فمن باب أولى جواز غيره، على أن يتأكد

---

(٣٥٩) انظر: الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية (٢/ ٥٣٧).
(٣٦٠) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١١٩).
(٣٦١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).
(٣٦٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٠).
(٣٦٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

طريقًا للوصول إلى الهدف أو يغلب الظن على ذلك، وعلى أن يقتصر فيه على الحد الذي لا بد منه، سواء كانت الوسيلة تأخير فريضة أو ارتكاب محظور، على أن هذا وهذا مقيدان بالفتوى فهناك محظورات لا يصح فعلها بحال، كالزنا واللواط[٣٦٤].

هناك بعض القضايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهلون لأن يفتوا فيها، خصوصًا في الظروف الاستثنائية والحالات الاضطرارية وفي المحكات السياسية والعسكرية لأنها تحتاج إلى الموازنات والفتاوى الاستثنائية التي لا يستطيعها كل إنسان، فالأحكام الأصلية ليست مجهولة، وإنما الأحكام الاستثنائية التي تقتضيها الظروف الاستثنائية تحتاج إلى علماء ربانيين، وفقهاء راسخين لهم القدرة على فهم مقاصد الشريعة، وواقعهم الذي يعيشون فيه[٣٦٥].

وفي قوله (ﷺ): «**قولوا ما بدا لكم**»، فقه عظيم يوضحه قوله (ﷺ): «**الحرب خدعة**»[٣٦٦].

قوله (ﷺ): «**انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم**»[٣٦٧] كان لهذا التذكير بالإخلاص في الجهاد، انطلقوا على اسم الله والدعاء لهم بالتوفيق والعون كل ذلك كان حافزًا على الثبات ورافعًا للمعنويات فلم يعبؤوا بقوة ابن الأشرف ومن حوله من الناس لأنهم استشعروا معية الله لهم ودعاء الرسول (ﷺ) ربه بإعانتهم وتحقيق مسعاهم، ونلحظ في الهدي النبوي الأخذ بكافة الأسباب المادية، والتخطيط السديد، ولا يُنسى جانب الدعاء النبوي الكريم، فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصولة بهم إلى نجاح مقصودهم، لأن المسلم مأمور بالجمع بين التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب التي شرعها الله سبحانه[٣٦٨] ولذلك كانت خطة محمد بن مسلمة مع إخوانه محكمة وأتقنوا فقه سنّة الأخذ بالأسباب، **فقد كانت الأسباب التي ساعدت على نجاح الخطة كالتالي:**

أن أبا نائلة كان أخاه من الرضاعة وهو يطمئن إليه ولا يتوجس منه خيفة.

وفي بعض الروايات، طمأن أبو نائلة كعب بن الأشرف وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشعر قبل أن يحدثه عن حاجته.

ولم يحدثه عن حاجته إلى كعب حتى أخرج كعب الذي عنده كان من سبل التوفيق، ولو بقي أولئك النفر لربما قد كشفوا حقيقة الأمر وحذروا كعبًا من عاقبته، فحديثهم معه على انفراد كان في غاية التوفيق.

تظاهرهم بالنيل والتبرم والتظلم من الرسول (ﷺ) طمأن كعب بن الأشرف.

---

(٣٦٤) انظر: الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).
(٣٦٥) نفس المصدر (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).
(٣٦٦) صحيح مسلم رقم ١٧٤٠ ص١٣٦٢.
(٣٦٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).
(٣٦٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٥٦).

فكرة رهن السلاح كانت في غاية التوفيق حتى يكون اصطحابهم للسلاح غير مريب ولا يبعث على الريبة، ذلك لأنهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب، وفي نفس الوقت يستطيعون أن يستخدموا هذا السلاح في أي وقت التقوا به.

أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكامًا في الخطة بحيث يتسنى لهم في أي وقت من الليل أن يأتوه ويطرقوا عليه الباب دون أن يشك فيهم وفي نيتهم.

اطمئنان ابن الأشرف إلى أبي نائلة ومحمد بن مسلمة جعله يخرج في وقت لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادة تحسبًا لقتال عدو على حين غرة وغفلة(٣٦٩).

أن خطة إبعاد ابن الأشرف عن بيته إلى مكان يخلو به دون رقيب أو نصير كانت موفقة.

استدراج أبي نائلة لابن الأشرف وشمه طيب رأسه وإمساكه بشعره ليشمه كان موفقًا وتقدمه ليمسك بهذا الرأس الخبيث ويتمكن منه لتكون الفرصة سانحة لتنفيذ حكم الله في هذا اليهودي اللعين(٣٧٠).

وتظهر قدرة الصحابة الفائقة على الحفاظ على السرية، وذلك من كتمان هذه الخطة مع كثرة من في المدينة من اليهود والمنافقين ومع تأخر تنفيذها وكون النبي (ﷺ) عرض هذا الأمر في مشهد من الصحابة وجرت فيه مشورة، وهذا دليل على قوة إيمان هؤلاء الصحابة وإخلاصهم لدينهم(٣٧١).

وقام هؤلاء المغاوير بتنفيذ أدوار الخطة المحكمة التي اتفقوا عليها وأدركوا مقصودهم الأسمى، ورسول الله (ﷺ) معهم بإحساسه الكبير ومشاعره الفياضة، فقد كانوا يقومون بتفيذ العملية بعقولهم وأجسامهم، ورسول الله (ﷺ) يتولى قيادتها العليا بالاتصال بالله تعالى ودعائه لهم بالنصر والإعانة(٣٧٢).

٣- أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود:

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله (ﷺ) يشتكون ويحتجون على ما فعله أصحابه، فلم يحفل النبي (ﷺ) بهم، بل أكد مقتله الذي كان نتيجة حتمية لموقفه المعادي، وقد أوقعت هذه الحادثة الرعب في نفوس اليهود جميعهم، فلم يعد أحد من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه، كما لم يعد أحد من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين(٣٧٣)، واضطر اليهود لتجديد المعاهدة، وكان لمقتل كعب

---

(٣٦٩) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٢).

(٣٧٠) نفس المصدر (١/ ١٢٢).

(٣٧١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٥٦).

(٣٧٢) نفس المصدر (٥/ ٥٧).

(٣٧٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص١٨٨.

ابن الأشرف أثر عميق في نفوسهم، فمضوا يكيدون للإسلام -كما سيتبين من الأحداث- ومن الجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) لم يؤاخذ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف واكتفى بقتله جزاء غدره وجدد المعاهدة معهم[٣٧٤]، ومن الفقه النبوي في معاملة اليهود، نستفيد أن العلاج الأمثل لليهود هو زجرهم وإرهابهم وقتل أهل الفتن فيهم ومطاردتهم لأنهم أهل شرور لا يتخلصون منها ولا يتوقفون عنها[٣٧٥].

رابعًا: بعض المناسبات الاجتماعية:

أ- زواج النبي (ﷺ) بحفصة بنت عمر:

قال عمر رضي الله عنه: حين تأيمت[٣٧٦] حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله (ﷺ) فتوفي في المدينة، فقال عمر: (أتيت عثمان ابن عفان فعرضت عليه حفصة بنت عمر، قال: فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليال، ثم لقيني فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلم يرجع إليَّ شيئًا، فكنت عليه أوجد مني على عثمان.

فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله (ﷺ) فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئًا؟

قال عمر: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي، إلا أني كنت علمت أن رسول الله (ﷺ) قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله (ﷺ)، ولو تركها رسول الله قبلتها)[٣٧٧].

ب- زواج علي رضي الله عنه بفاطمة رضي الله عنها:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خُطبت فاطمة إلى رسول الله (ﷺ) فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله (ﷺ)؟ قلت: لا. قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله (ﷺ) فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟! فقالت: إنك إن جئت رسول الله (ﷺ) زوجك.

قال: فوالله ما زلت ترجيني حتى دخلت على رسول الله (ﷺ) فلما أن قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة.

فقال رسول الله (ﷺ): «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكت، فقال: «لعلك جئت

---

(٣٧٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٤).
(٣٧٥) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٦).
(٣٧٦) تأيمت: مات عنها زوجها.
(٣٧٧) البخاري، كتاب النكاح، رقم ٥١٢٢.

تخطب فاطمة؟».

فقلت: نعم.

فقال: «وهل عندك من شيء تستحلها به؟».

فقلت: لا والله يا رسول الله.

فقال: «ما فعلت درع سلحتكها؟ فوالذي نفس علي بيده إنها لحطمية ما قيمتها أربعة دراهم».

فقلت: عندي.

فقال: «قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها». فإنها كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله (ﷺ)[٣٧٨]، وقد جهز رسول الله (ﷺ) فاطمة في خميل[٣٧٩] وقربة ووسادة أدم[٣٨٠]، حشوها إذخر[٣٨١][٣٨٢].

وهكذا كانت حياتهم في غاية البساطة بعيدة عن التعقيد وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده[٣٨٣]، وهذه القصة تصور لنا حال السيدة فاطمة من التعب وموقف رسول الله (ﷺ) منها عندما طلبت منه أن يعطيها خادمًا من السبي، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: (قال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت[٣٨٤] حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وجاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه[٣٨٥]، فقالت: أنا والله قد طحنت حتى مجلت يدي[٣٨٦].

فأتيت النبي (ﷺ) فقال: «ما جاء بك أي بنية؟» قالت: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت. فقال: ما فعلت؟ قال: استحييت أن أسأله. فأتينا جميعًا. فقال علي: يا رسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت: فاطمة قد طحنت حتى مجلت يداي وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا، فقال رسول الله (ﷺ): «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى[٣٨٧] بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم» فرجعا فأتاهما النبي (ﷺ) وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رؤوسهما تكشفت

---

(٣٧٨) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٦٠) إسناده حسن.

(٣٧٩) خميل: القطيفة.

(٣٨٠) الأدم: الجلد.

(٣٨١) إذخر: نبات له رائحة عطرية.

(٣٨٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٢٦٧).

(٣٨٣) انظر: معين السيرة ص(٢٥٥).

(٣٨٤) سنوت: استقيت.

(٣٨٥) أي اسأليه خادمًا.

(٣٨٦) مجلت يدي: ثخن جلدها وتعجر.

(٣٨٧) تطوى: طوى من الجوع فهو طاو خالي البطن جائع لم يأكل.

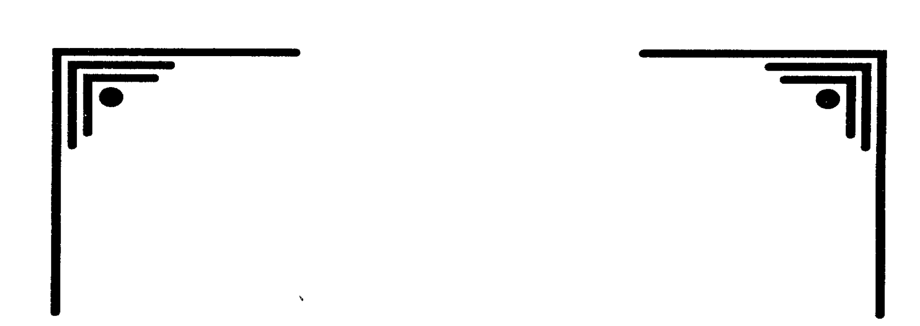
أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «مكانكما». ثم قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قال: بلى. فقال: «كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام» فقال: «تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشر، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثًا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين وكبرا أربعًا وثلاثين»[٣٨٨].

وهكذا كان الهدي النبوي في تربية أهل بيته وأقربائه ،لقد أخفقت مساعي السيدة فاطمة وعلي رضي الله عنهما للحصول على خادم، لأن النبي يريد عليه الصلاة والسلام أن يبيعه، وينفق ثمنه على أهل الصفة الذي يتلوون من الجوع، فهم أيضًا من خاصة رسول الله (ﷺ) مثل علي وفاطمة، والطعام مقدم على الخدمة[٣٨٩]، ولقد تأثر علي رضي الله عنه بهذه التربية النبوية، ويمر الزمن بالفتى على فيصبح خليفة المسلمين، فإذا به من آثار هذه التربية يترفع عن الدنيا وزخارفها وبيده كنوز الأرض وخيراتها، لأن ذكر الله يملأ قلبه ويغمر وجوده، ولقد حافظ على وصية رسول الله له ،وقد حدثنا عن ذلك فقال: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن .فسأله أحد أصحابه :ولا ليلة صفين فقال: ولا ليلة صفين[٣٩٠]، وكان كما وصفه ضرار بن ضمرة في مجلس معاوية: (. . . .يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب. . .)[٣٩١].

●●●

---

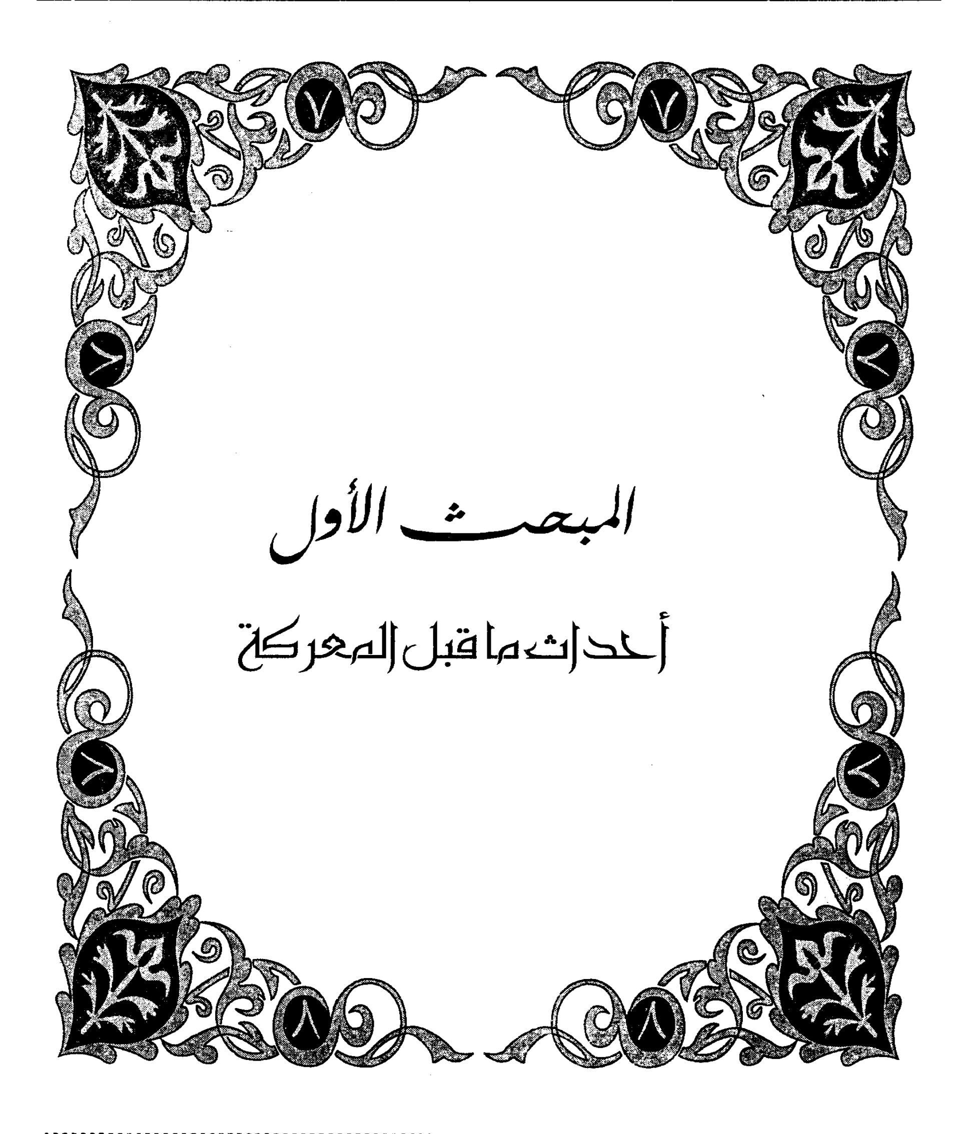
(٣٨٨) انظر: الفتح الرباني (١٧/ ٢٦٠) رقم (٩٠).
(٣٨٩) انظر: التربية القيادية (٣/ ١٠٠).
(٣٩٠) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ١٥٩).
(٣٩١) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٨٤).



الفصل التاسع

غزوة أُحد





المبحث الأول

أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أحد متعددة منها: الديني، والاجتماعي، والاقتصادي والسياسي.

أ- سبب ديني:

فقد أخبر المولى عز وجل أن المشركين ينفقــون أموالهم في الصد عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمــام الدعوة الإسلامية، ومنع الناس من الدخول في الإســلام والسعي للقضاء على الإسلام والمسلمين ودولتهم الناشئة قال (تعالى): ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾ (سورة الأنفال، الآية ٣٦).

قال الطبري: يصرفون أموالهم وينفقونها؛ ليمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام(١).

وقال ابن كثير: أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق(٢).

وقال الشوكاني: والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار فــي إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله (ﷺ) وجمع الجيوش لذلك(٣).

من هذا يظهر أن أهم أسباب غزوة أحــد هو السبب الديني الذي كان من أهداف قريش للصد عن ســبيل الله، واتباع طريق الحــق، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومــحاربة الرسول (ﷺ) والقضاء على الدعوة الإسلامية(٤).

ب- سبب اجتماعي:

كان للهزيمة الكبــيرة في بدر، وقتل السادة والأشــراف من قريش وقعًا كبــيرًا من الخزي والعار الذي لحق بهم، وجعلهم يشعرون بالمذلة والهــزيمة؛ ولذلك بذلوا قصارى جهدهم في غسل هذه الذلة والمهــانة التي لصقت بهم؛ ولذلك شــرعوا في جمع المال لحــرب رسول الله (ﷺ) فور عودتهم من بدر، قال ابن إسحاق: (لما أصــيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فَلُّهُم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة -وكذلك كانوا يصنعون- فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشًا لقتال رسول الــلــه (ﷺ)، فمــشى عبد الله بن ربيعــة، وعكرمة بن أبي جهل، والحــارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم

---

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، محمد بامدحج ص٧١.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤١) طبع دار السلام.
(٣) انظر: فتح القدير (٣٠٩).
(٤) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٧١.

يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك[٥].

ودعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًا يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ لها فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق[٦].

ج- سبب اقتصادي:

كانت حركة السرايا التي تقوم بها الدولة الإسلامية قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصارًا اقتصاديًا قويًا، وكان الاقتصاد المكي قائمًا على رحلتي الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها، ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها، وقطع أحد جناحي هاتين الرحلتين ضر للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمة على سلع اليمن، وتجارتهم إلى اليمن قائمة على سلع الشام[٧] قال تعالى: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ (سورة قريش).

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أمية: (إن محمدًا وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، قد وادعهم[٨]، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في ديارنا هذه ما لنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى الحبشة)[٩].

د- سبب سياسي:

فقد أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدر، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمة لها، فلا بد من رد الاعتبار والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وضحايا، هذه أهم الأسباب التي جعلت قريش تبادر إلى المواجهة العسكرية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة[١٠].

ثانيًا: خروج قريش من مكة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثة من

---

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٨).
(٦) نفس المصدر (٣/ ٧٩).
(٧) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٧٤.
(٨) وادعهم: أي صالحهم وسالمهم.
(٩) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٩٥- ١٩٦).
(١٠) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٧٥.

الهجرة[١١]، وعبأت جيشها المكون من ثلاثة آلاف مقاتل مصحبين معهم النساء والعبيد ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها[١٢]، ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة. وخرجوا بالظعن[١٣]، التماس الحفيظة، لئلا يفروا.

فخرج أبو سفيان، وهو قائد الناس بهند بنت عتبة بن ربيعة[١٤]، وخرج صفوان ابن أمية بن خلف ببرزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث ابن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة[١٥]. . . .فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة، على شفير الوادي مما يلي المدينة[١٦].

كانت التعبئة القرشية قد سبقتها حملة إعلامية ضخمة تولى كبرها، أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزبعرى وقد حققت نتائج كبيرة[١٧]، وبلغت النفقات الحربية لجيش قريش خمسين ألف دينار ذهبًا[١٨].

ثالثا: الاستخبارات النبوية تتابع حركة العدو:

كان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي (ﷺ)، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مساحتها إلى خمسمائة كيلومترًا- في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي (ﷺ) وهو في مسجد قباء[١٩].

كان النبي (ﷺ) يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس، قال ابن عبد البر: (وكان رضي الله عنه يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله (ﷺ) وكان المسلمون يتقوّون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله (ﷺ) أن مقامك في مكة خير)[٢٠].

كانت المعلومات التي قدمها العباس لرسول الله (ﷺ) دقيقة فقد جاء في رسالته: (إن قريشًا قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعًا إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم

---

(١١) البداية والنهاية (٤/ ١١)، الواقدي، المغازي (١/ ١٩٩).

(١٢) الأحابيش: من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم.

(١٣) الظعن: النساء، واحدتها ظعينة والظعينة المرأة في الهودج.

(١٤) انظر: الإصابة (٨/ ٣٤٦) رقم ١١٨٦٠.

(١٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٠).

(١٦) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٧٨.

(١٧) انظر: غزوة أحد لأبي فارس ص١٧.

(١٨) نفس المصدر ص١٦

(١٩) انظر: الرحيق المختوم ص ٢٥٠ للمباركفوري.

(٢٠) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨١٢).

ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا[٢١] من السلاح[٢٢].

فقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

١- معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة.

٢- حجم الجيش وقدراته القتالية وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

لم يكتف النبي (ﷺ) بمعلومات المخابرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين بأهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة؛ ولذلك أرسل (ﷺ) الحُباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَدَه ورجع، فسأله رسول الله (ﷺ): «ما رأيت؟» قال: رأيت يا رسول الله عددًا، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: «هل رأيت ظعنا؟» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار[٢٣]... فقال رسول الله (ﷺ): «أردْن أن يحرِّضن القوم ويذكرونهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول»[٢٤].

كما أرسل (ﷺ) أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة يتسنطان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم[٢٥].

وبعد أن تأكد من المعلومات حرص (ﷺ) على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي خوفًا من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أبي بن كعب رسالة العباس أمره (ﷺ) بكتمان الأمر، وعاد مسرعًا إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار في كيفية مواجهة الموقف، وكان (ﷺ) قد أطلع سيد الأنصار سعد بن الربيع على خبر رسالة العباس فقال: والله إني لأرجو أن يكون خيرًا، فاستكتمه إياه، فلما خرج رسول الله (ﷺ) من عند سعد، قالت له امرأته ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أم لك وأنت وذاك، فقالت: قد سمعت ما قال لك، فأخبرته بما أسر به الرسول (ﷺ) فاسترجع سعد، وقال: يا رسول الله، إني خفت أن يفشو الخبر فترى أني أنا المفشي له وقد استكتمتني إياه، فقال رسول الله (ﷺ): «خلِّ عنها»[٢٦].

---

(٢١) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح.

(٢٢) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٤).

(٢٣) الأكبار: جمع كَبَر: والكَبَر، هو: الطبل الذي له وجه واحد وهو فارس معرب.

(٢٤) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٧- ٢٠٨).

(٢٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٨٧).

(٢٦) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٨٩).

وفي هذه الحادثة درس بالغ للعسكريين وتحذيرهم من اطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية، وخططهم وأوامرهم، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار لأن إفشاءها يهدد الأمة ومستقبلها بكارثة كبرى.

إن تاريخ الأمم والشعوب في القديم والحديث يحدثنا أن كثيرًا من الهزائم والمآسي والآلام قد حلت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجة خائنة، أو خائن في ثوب صديق أو قريب في الظاهر عدو في الحقيقة والواقع[٢٧].

رابعًا: مشاورته (ﷺ) لأصحابه:

بعد أن جمع (ﷺ) المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه رضيالله عنهم وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي (ﷺ) البقاء في المدينة، وقال: «**إنا في جُنَّة حصينة**»[٢٨]، فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول[٢٩] مع رأي رسول الله (ﷺ) إلا أن رجالاً من المسلمين ممن كان فاته بدر قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: (وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول رسول الله (ﷺ) ورأيه، ولو رضُوا بالذي أمرهم كان ذلك ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدرًا، قد علموا الذي سبق لأهل بدر من الفضيلة)[٣٠].

وقال ابن إسحاق: فلم يزل الناس برسول الله (ﷺ) الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله (ﷺ) بيته ، فلبس لأمته[٣١]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله (ﷺ) بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله (ﷺ): (أمرنا لأمرك تبع)، فأتى حمزة فقال له: (يا نبي الله إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله (ﷺ): «**إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**»[٣٢].

كان رأي من يرى الخروج إلى خارج المدينة مبني على أمور منها:

١- أن الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثانية على نصرة الرسول (ﷺ)، فكان أغلبهم يرى أن المكوث داخل المدينة تقاعس عن الوفاء بهذا العهد.

٢- أن الأقلية من المهاجرين كانت ترى أنها أحق من الأنصار في الدفاع عن المدينة ومهاجمة قريش وصدها عن زروع الأنصار.

---

(٢٧) انظر: غزوة أحد لأبي فارس ص٢٢ .
(٢٨) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٠) .
(٢٩) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص(٨٢) .
(٣٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤) .
(٣١) لأمة الحرب: عدتها .
(٣٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١) .

٣- أن الذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرقون شوقًا من أجل ملاقاة الأعداء طمعًا في حصول الشهادة في سبيل الله.

٤- أن الأكثرين كانوا يرون أن في محاصرة قريش للمدينة ظفرًا يجب ألا تحلم به، كما توقعوا أن وقت الحصار سيطول أمده فيصبح المسلمون مهددين بقطع المؤن عنهم(٣٣).

أما من وجهة نظر من يرى البقاء في المدينة فهو مبني على التخطيط الحربي الآتي:

١- أن جيش مكة لم يكن موحد العناصر، وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمنًا طويلاً إذ لا بد من ظهور الخلاف بينهم إن عاجلاً أو آجلاً.

٢- أن مهاجمة المدن المُصممة على الدفاع عن حياضها وقلاعها وبيضتها أمر بعيد المنال وخصوصًا إذا تشابه السلاح عن كلا الجيشين، وقد كان يوم أحد متشابهًا.

٣- أن المدافعين إذا كانوا بين أهليهم فإنهم يستبسلون في الدفاع عن أبنائهم وحماية نسائهم وبناتهم وأعراضهم.

٤- مشاركة النساء والأبناء في القتال وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

٥- استخدام المدافعين أسلحة لها أثر في صفوف الأعداء مثل الأحجار وغيرها وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم(٣٤).

من الواضح أن الرسول (ﷺ) عوّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول (ﷺ) أحدًا لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلا بد أن يطبق الرسول (ﷺ) التوجيه القرآني﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩). لتعتاد على ممارسة الشورى وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأي إلا أنه ليس لهم فرضه على القائد فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول (ﷺ) عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درسًا آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع(٣٥).

كان النبي (ﷺ) قد عزم على الخروج وقد أعلن حالة الطوارئ العامة، وتجهز الجميع

---

(٣٣) انظر: غزوة أحد، أحمد عز الدين ص٥١، ٥٢ .

(٣٤) انظر: القيادة العسكرية للرشيد ص٣٧٤ .

(٣٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٠) .

للقتال، وأمضوا ليلتهم في حذر كل يصحب سلاحه ولا يفارقه حتى عند نومه، وأمر (ﷺ) بحراسة المدينة، واختار خمسين من أشداء المسلمين ومحاربيهم بقيادة محمد بن مسلمة رضي الله عنه، واهتم الصحابة بحراسة رسول الله، فبات سعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وسعد بن عبادة في عدة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ليلة الجمعة مدججين بالسلاح في باب المسجد يحرسون رسول الله (ﷺ)[٣٦].

خامسًا: خروج جيش المسلمين إلى أحد:

أ- من الأسباب المهمة التي اتخذها (ﷺ) لملاقاة أعدائه.

اختياره لوقت التحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئًا، والحركة قليلة وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء - غالبًا- في نوم عميق، لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذ منهم مجهودًا كبيرًا.

ومن المعروف: من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات العالية والحركة الثقيلة، قال الواقدي رحمه الله: ونام رسول الله (ﷺ) حتى أدلج، فلما كان في السَّحَر قال: «**أين الأدلاء؟**»[٣٧] ثم إنه (ﷺ) اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهو السِّرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال (ﷺ) لأصحابه: «من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به في مال لربعي بن قيظي - وفي رواية ابن هشام لمربع بن قيظي- ، وكان رجلاً منافقًا ضرير البصر، فلما أحس برسول الله (ﷺ) ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بني الأشهل[٣٨] قبل نهي رسول الله عنه، فضربه بالقوس في رأسه فشجه[٣٩].

ولا شك في أن مروره (ﷺ) بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه (ﷺ) على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير، لأن الطرق العامة تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين، وهذا أمر محذور، فالرسول (ﷺ) علم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يتمكن الأعداء من معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم لجيوشهم في مهب الرياح.

---

(٣٦) انظر: غزوة أحد ص٣٤، ٣٥ لأبي فارس.
(٣٧) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢١٧).
(٣٨) بنو الأشهل: حي من الأنصار.
(٣٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٣).

وفي هذا الخبر تطبيق عملي لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إذا تعارضت المصالح، فالرسول (ﷺ)حينما مر بالجيش في أرض المنافق مربع بن قيظي وترتب على ذلك إفساد المزرعة لكن فيه مصلحة للجيش باختصار الطريق لهم إلى أحد، فبين (ﷺ)أن ما يكون به مصلحة للدين مقدم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان مصلحة عامة ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين في هذا الموقف مصلحة عامة وهي مقدمة على المصلحة الخاصة، وهي مصلحة المال[٤٠] وقد رتب الشارع الحكيم مقاصد الشرع في تحقيق المنافع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها[٤١]، فإذا نظرنا إلى كليات الدين الخمس وأهميتها وجدنا أن هذه الكليات متدرجة حسب الأهمية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فما يكون به حفظ الدين مقدم على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما يكون به حفظ النفس مقدم على ما به يكون حفظ العقل، وما به يكون حفظ النسل مقدم على ما به حفظ المال، والترتيب بهذا الشكل من هذه الكليات يحظى باتفاق العلماء[٤٢].

إن العلماء المتعمقين في دراسة السيرة النبوية والهدي النبوي الكريم قد استنبطوا قواعد مهمة في تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة منهم، الشاطبي، والعز بن عبد السلام، فقد قال الشاطبي: (الضابط في ذلك :التوازن بين المصلحة والمفسدة فما رجح منها غلب، وإن استويا كان محل إشكال، وخلاف بين العلماء قائم من مسألة انخرام المناسبة تلزم راجحة أو مساوية)[٤٣] وقال العز بن عبد السلام: (وتقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن، ودرء المفاسد الراجحة على المفاسد المرجوحة محمود حسن، اتفق الحكماء على ذلك، وكذلك الشرائع ... فإن تساوت الرتب تخيّر، وإن تفاوتت الرتب استعمل الترجيح عند عرفانه)[٤٤]، وقال في موضع آخر: والضابط أنه مهما ظهرت المصلحة الخلية عن المفاسد يسعى في تحصيلها، ومهما ظهرت المفاسد الخلية عن المصالح يسعى في درئها[٤٥].

ب- انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشوط[٤٦]، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضًا على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: (أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا)[٤٧] وكان هدفه

---

(٤٠) انظر: غزوة أحد ، دراسة دعوية ص١٦٨ .
(٤١) انظر: ضوابط المصلحة ، محمد رمضان البوطي ص٢٣ .
(٤٢) انظر: المقاصد العامة للشريعة، يوسف حامد العالم ص١٦٦ .
(٤٣) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٦٥١) .
(٤٤) انظر: قواعد الأحكام (١/ ٦- ٧) .
(٤٥) نفس المصدر (١/ ٤٧) .
(٤٦) الشواط: اسم حائط - أي بستان- بين المدينة وأحد . (٤٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤) .

الرئيس من هذا التمرد أن يُحدث بلبلة واضطرابًا في الجيش الإسلامي لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على خيانة عظيمة، وبغض للإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الله الجيش ليظهر الخبيث من الطيب، حتى لا يختلط المخلص بالمغرض، والمؤمن بالمنافق[٤٨]، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٧٩).

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن يفضحهم القرآن[٤٩].

ج- موقف عبد الله بن عمرو بن حرام من انخذال المنافقين:

حاول عبد الله بن حرام رضي الله عنه إقناع المنافقين بالعودة فأبوا، فقال: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم؛ فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه[٥٠]. وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآيتان ١٦٦- ١٦٧).

د- بنو سلمة، وبنو حارثة:

ولما رجع ابن أبي بن سلول وأصحابه همت بنو سَلِمة وبنو حارثة أن ترجعا، ولكن الله ثبتهما وعصمهما، وفي ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٢٢) قال جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فينا، بني سَلِمة، وبني حارثة وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٥١] (سورة آل عمران، الآية ١٢٢).

لقد أثر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ففكروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألم بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى فدفع عنهم الوهن، فثبتوا مع المؤمنين.

---

(٤٨) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٨٤ .

(٤٩) انظر: مرويات غزوة أحد ، حسين أحمد ص٧١ .

(٥٠) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٧٧ .

(٥١) البخاري في المغازي، باب إذ همت طائفتان رقم ٤٠٥١ .

وقد ظهر رأيان في أوساط الصحابة تجاه موقف ابن سلول؛ فالأول: يرى قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم وانشقاقهم عن الجيش، والثاني: لا يرى قتلهم، وقد بين القرآن الكريم موقف الفريقين[٥٢] في الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (سورة النساء، الآية ٨٨).

د- الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله (ﷺ) إلى مكان يدعى الشيخين رأى كتيبة لها صوت وجلبة فقال: ما هذه؟

فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن سلول بن أبي من يهود فقال (ﷺ): «**لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك**»[٥٣] وهذا أصل وضعه النبي (ﷺ) في عدم الركون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[٥٤].

هـ- رد النبي (ﷺ) بعض الصحابة لصغر سنهم:

رد النبي (ﷺ) في معسكره بالشيخين جماعة من الفتيان لصغر أعمارهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشر أو دون ذلك، منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة ابن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، بلغ عددهم أربعة عشر صبيًا وقد ثبت أن ابن عمر كان منهم[٥٥]، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، فبلغ ذلك سمرة بن جندب، فذهب إلى زوج أمه مرّي بن سنان بن ثعلبة عم أبي سعيد الخدري وهو الذي ربى سمرة في حجره يبكي وقال له: يا أبت أجاز رسول الله (ﷺ) رافعًا وردني، وأنا أصرع رافعًا، فرجع زوج أمه ذلك إلى النبي (ﷺ)، فالتفت النبي (ﷺ) إلى رافع وسمرة فقال لهما: «**تصارعا**»، فصرع سمرة رافعًا فأجازه كما أجاز رافعًا وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه[٥٦].

ونلحظ أن رسول الله (ﷺ) أجاز رافعًا وسمرة لامتياز عسكري امتازوا به على أقرانهم، ورد صغار السن خشية ألا يكون لهم صبر على ضرب السيوف، ورمي السهام، وطعن الرماح، فيفروا من المعركة إذا حمي الوطيس، فيحدث فرارهم خلخة في صفوف المسلمين[٥٧].

ونلحظ أن المجتمع الإسلامي يضج بالحركة، ويسعى للشهادة شيبًا، وشبابًا، وحتى

---

(٥٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٣/ ٣٨٢).
(٥٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٧٨.
(٥٤) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٥٦١).
(٥٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٣).
(٥٦) انظر: محمد رسول الله، (٣/ ٥٧١).
(٥٧) نفس المصدر (٣/ ٥٧٢).

الصبيان يقبلون على الموت ببسالة، ورغبة في الشهادة، تبعث على الدهشة، دون أن يجبرهم قانون التجنيد، أو تدفع بهم قيادة إلى ميدان القتال، وهذا يدل على أثر المنهج النبوي الكريم في تربية شرائح الأمة المتعددة على حب الآخرة والترفع عن أمور الدنيا.

سادسًا: خطة الرسول (ﷺ) لمواجهة كفار مكة:

أ- وضع الخطة:

وضع الرسول (ﷺ)خطة محكمة لمواجهة المشركين من قريش حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب من يصلح للقتال، ورد من لم يكن صالحًا، واختار خمسين منهم للرماية وشدد الوصية عليهم، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، وأعطى اللواء لأحد أفراد الكتيبة، وهذه الكتائب هي:

١- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير رضي الله عنه.

٢- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير رضي الله عنه.

٣- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذررضي الله عنه[٥٨].

ب- هديه (ﷺ) قبل المعركة:

وكان (ﷺ) من هديه أن يحرض أصحابه على قتال الأعداء، ويحثهم على التحلي بالصبر في ميادين القتال؛ لكي تتقوى روحهم المعنوية ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم ومن ذلك ما فعله يوم أحد، وفي ذلك يقول الواقدي: ثم قام رسول الله (ﷺ) فخطب الناس: **«ا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ثم وطّن نفسه له على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله رشده، فإن الله مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي آمركم فإني حريص على رشدكم، فإن الاختلاف والتنازع والتشبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحب الله ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر»**[٥٩].

ويتضح من هذه الخطبة عدة أهداف منها:

١- الحث على الجد والنشاط في ميدان الجهاد.

٢- الحث على الصبر عند قتال الأعداء.

٣- بيان مساوئ الاختلاف والتنازع[٦٠].

إن هذا الهدي المبارك الذي سنه (ﷺ) يعلمنا حقائق ثابتة وهي أن الجيوش مهما عظم

(٥٨) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٨٩ .

(٥٩) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٢١- ٢٢٢) .

(٦٠) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ص٤٦٩ .

تسليحها وتنظيمها فإن ذلك لا يغني شيئًا إلا إذا حملته نفوس قوية تحرص على الموت أشد من حرصها على الحياة، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتوجيه وغرس حب الجهاد والشهادة في نفوسهم.

ج- أهمية جبل أحد:

أدرك الرسول (ﷺ) أهمية جبل أحد لحماية جيش المسلمين، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد جعل الرسول (ﷺ) ظهورهم إلى الجبل ووجوههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير[٦١] ووضعهم فوق جبل عينين المقابل لجبل أحد، وذلك يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»[٦٢].

قال رسول الله (ﷺ) للجيش: «**لا تبرحوا حتى أوذنكم**»، وقال: «**لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال**».

وقال لأمير الرماة: «**انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا**». وقال للرماة: «**الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا وأرشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدّم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم**»[٦٣].

سيطر المسلمون على المرتفعات وتركوا الوادي لجيش مكة ليواجه أحد وظهره إلى المدينة، وأصبحت مهمة الرماة في النقاط التالية: احتلال الموقع، حماية المسلمين من الخلف، صد الخيل عن المسلمين[٦٤].

د- تسوية الصفوف، وتنظيم الجيش،

تقدم رسول الله (ﷺ) وأصحابه وصفّهم على هيئة صفوف الصلاة، وجعل رسول الله (ﷺ) يمشي على رجليه يُسوي تلك الصفوف، ويبوئ أصحابه للقتال يقول: تقدم يا فلان، وتأخر يا فلان، فهو يقوِّمهم......، حتى استوت الصفوف)[٦٥]، فوضع (ﷺ) في مقدمة الصفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرسول (ﷺ) بهذا الأسلوب لأنه أبلغ في قتال الأعداء[٦٦].

---

(٦١) انظر: الإصابة (٢/٢٧٨).

(٦٢) انظر: البخاري في المغازي، باب غزوة أحد رقم ٤٠٤٣.

(٦٣) انظر: السيرة الحلبية (٢/٤٩٦).

(٦٤) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٩٠.

(٦٥) انظر: الواقدي، المغازي (١/٢١٩).

(٦٦) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، محمد فرج ص٣٥٥، ٣٥٦.

س- عدم القتال إلا بأمر من القائد:

قال الطبـري: فجعل ظـهره وعسكره إلى أحـد، وقال: «**لا يقـاتلن أحـد حـتى نأمـره بالقتال**»[٦٧].

وفي هذا التوجيه فائدة مهمة وهي توحيد القيادة والمسؤولية لأنه (ﷺ) أدرى بالمصلحة.

●●●

(٦٧) انظر: تاريخ الطبري (٢/٥٠٧).



المبحث الثاني

في قلب المعركة

أولاً: بدء القتال واشتداده، وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال حاول أبو سفيان أن يوجد شرخًا وتصدعًا في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: (خلو بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتال) فردوا عليه بما يكره[٦٨].

ولما فشلت المحاولة الأولى لجأت قريش إلى محاولة أخرى عن طريق عميل خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الراهب، حيث حاول أبو عامر الراهب أن يستزل بعض الأنصار، فقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق. فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديدًا، ورماهم بالحجارة[٦٩].

وبدأ القتال بمبارزة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وطلحة بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أحد، يقول صاحب السيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان وكان بيده لواء المشركين وطلب المبارزة مرارًا فلم يخرج إليه أحد فقال: يا أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟ فخرج إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له علي رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار أو يعجلني بسيفك إلى الجنة، فضربه علي فقطع رجله، فوقع على الأرض فانكشفت عورته، فقال: يا ابن عمي، أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يجهز عليه، فكبر رسول الله، وقال لعلي بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه[٧٠].

والتحم الجيشان واشتد القتال، وشرع رسول الله يشحذ في همم أصحابه، ويعمل على رفع معنوياتهم وأخذ سيفًا وقال: «**من يأخذ مني هذا؟**» فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا أنا قال: «**فمن يأخذه بحقه**» قال: فأحجم القوم، فقال: سماك بن خرشة أبو دجانة: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**أن تضرب به العدو حتى ينحني**»، قال: أنا آخذه بحقه. فدفعه إليه.وكان رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب - أي يمشي مشية المتكبر- وحين رآه رسول الله (ﷺ) يتبختر بين الصفين قال: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن**»[٧١].

(٦٨) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ١٢٠).

(٦٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٩٢).

(٧٠) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٧، ٤٩٨)، تفسير الطبري (٧/ ٢١٨).

(٧١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٤٧٠).

وهذا الزبير بن العوام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أحد قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله (ﷺ) السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه وسألته أياه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع، فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكيول [٧٢] ... أضرب بسيف الله والرسول [٧٣]

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله وكان في المشركين رجل لا يدع جريحًا إلا ذفف[٧٤] عليه فجعل كل منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها فقلت: الله ورسوله أعلم[٧٥]، قال ابن إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يحمس الناس حماسًا شديدًا فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة[٧٦].

ثانيًا: مخالفة الرماة لأمر الرسول (ﷺ):

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين وكان شعارهم أمت، أمت، واستماتوا في قتال بطولي ملحمي سجل فيه أبطال الإسلام صورًا رائعة في البطولة والشجاعة[٧٧]، وسجل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب ابن عمير، وأبو دجانة وأبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير[٧٨] وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة[٧٩] وفي ذلك يقول الله (سبحانه وتعالى) في كتابه العزيز: **﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** (سورة آل عمران: ١٥٢).

ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها ورأوا الغنائم في أرض المعركة

---

(٧٢) الكيول: مؤخرة الصفوف.
(٧٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٧).
(٧٤) ذفف: أجهز عليه.
(٧٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٨).
(٧٦) نفس المصدر (٤/ ١٨).
(٧٧) انظر: نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٣٠٣).
(٧٨) نفس المصدر (١/ ٣٠٣).
(٧٩) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٠٣).

جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم ظنًا منهم أن المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جبير: (الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله (ﷺ)؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة[٨٠] .ثم انطلقوا يجمعون الغنائم ولم يعبؤوا بقول أميرهم، ووصف ابن عباس رضي الله عنهما حالة الرماة في ذلك الموقف، فقال: (فلما غنم النبي (ﷺ) وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة جميعًا فدخلوا في المعسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله (ﷺ) فهم كذا- وشبك بين أصابع يديه- والتبسوا فلما أخل الرماة تلك الخَلَة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي (ﷺ) فضرب بعضهم بعضًا، والتبسوا وقتل من المسلمين ناس كثير)[٨١] .

ورأى خالد بن الوليد - وكان على خيالة المشركين- الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتل من جديد وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، فأصبحوا يقاتلون متفرقين، فلا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان - والد حذيفة بن اليمان- خطأ، وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول (ﷺ) وشاع أنه قتل[٨٢]، واختلط الحابل بالنابل واشتدت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كل من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريبًا من النبي (ﷺ) فرموه بحجر كسر أنفه الشريف ورباعيته[٨٣]، وشجه[٨٤] في وجهه الكريم فأثقله وتفجر الدم[٨٥] منه (ﷺ)، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟**» فأنزل الله عز وجل: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٢٨)، وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديد الشبه برسول الله (ﷺ) فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمدًا[٨٦] . وشاع أن محمدًا قد قتل فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة[٨٧]، ففر جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله

(٨٠) البخاري، كتاب الجهاد، رقم ٣٠٣٩ .
(٨١) مسند أحمد (١/ ٢٨٧) رقم ٢٦٠٨ .
(٨٢) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص٩٨ .
(٨٣) الرباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنية والناب .
(٨٤) الشج: كسر في الرأس .
(٨٥) انظر: فقه السيرة للغزالي ص٢٩٤ .
(٨٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١) .
(٨٧) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص(١٠٠) .

(ﷺ) قد مات؛ ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهود بدرًا والذي قال في ذلك: (والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله (ﷺ) ليرين الله كيف أصنع) وقد صدق في وعده، مرّ يوم أحد على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن ربَّ محمد لم يقتل، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء - يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين- ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استشهد، فوجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه[٨٨]، وفي هذا وأمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٢٣).

أما أولئك النفر الذين فروا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي (ﷺ) لهم بالصمود والثبات فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سور آل عمران، الآية ١٥٣).

ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي (ﷺ) الذي شاع في ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول (ﷺ) وأنه حي هو الصحابي كعب بن مالك الذي رفع صوته بالبشرى فأمره النبي (ﷺ) بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك[٨٩]. وقد نص القرآن الكريم على أن الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فرت، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٥٥).

ثالثًا: خطة الرسول (ﷺ) في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين والهدف الرئيس فيه شخص النبي (ﷺ)، لم يتزحزح عليه الصلاة والسلام من موقفه ،والصحابة يسقطون واحدًا تلو الواحد بين يديه وحصر رسول الله (ﷺ) في قلب المشركين، وليس معه إلا تسعة من أصحابه سبعة منهم من الأنصار، وكان الهدف أن يفك هذا الحصار وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل الأنصار في الدفاع عن رسول الله (ﷺ)واستشهدوا واحدًا بعد الآخر[٩٠]، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله حتى أثخن وأصيب بسهم شلت يمينه[٩١]، وأراد

---

(٨٨) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ص١٠١ .
(٨٩) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١١٢) .
(٩٠) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٠٤) .
(٩١) البخاري، رقم (٣٧٢٤) .

النبي (ﷺ) إلى صخرة فلم يستطع، فقعد طلحه تحته حتى استوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعت النبي (ﷺ) يقول: **«أوجب طلحة»**[٩٢]، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله (ﷺ) وكان يناوله النبال ويقول له: **«إرم يا سعد، فداك أبي وأمي»**[٩٣]، كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي (ﷺ): **«لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة»**[٩٤] وقد كان متترسًا على رسول الله بحجفة، وكان راميًا شديد النزع[٩٥]، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه الجعبة[٩٦] من النبل، فيقول رسول الله (ﷺ): **«انثرها لأبي طلحة»** ثم يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت، لا تشرف إلى القوم[٩٧]، ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك[٩٨][٩٩].

ووقفت نسيبة بنت كعب تذب عن رسول الله (ﷺ) بالسيف وترمي بالقوس وأصيبت بجراح كبيرة، وترس أبو دجانة دون رسول الله (ﷺ) بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه حتى كثر فيه النبل[١٠٠].

والتف حول الرسول (ﷺ) في تلك اللحظات العصيبة أبو بكر وأبو عبيدة وقام أبو عبيدة بنزع السهمين من وجه النبي (ﷺ) بأسنانه ثم توارد مجموعة من الأبطال المسلمين، حيث بلغوا قرابة الثلاثين يذودون عن رسول الله (ﷺ) منهم قتادة، وثابت بن الدحداح وسهل بن حنيف، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام.

واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجومًا مضادًا قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف وعاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد[١٠١] ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، وانسحب النبي (ﷺ) بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أحد، وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله (ﷺ) وما أصابهم رغم نجاحهم في رد المشركين[١٠٢]، فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيرًا ثم أفاقوا آمنين مطمئنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ

(٩٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٩٦.
(٩٣) نفس المصدر ص٢٩٥.
(٩٤) المسند والفتح الرباني (٢٢/٥٨٩) بإسناده رجاله ثقات.
(٩٥) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٩٦.
(٩٦) الجعبة: الكنانة التي تجعل فيها السهام.
(٩٧) لا تشرف: لا تتطلع.
(٩٨) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السهام من نحرك لأصاب بها دونك.
(٩٩) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٩٦.
(١٠٠) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥، ٣٦).
(١٠١) انظر: السيرة النبوية لمنير الغضبان ص٤٦٨، ٤٧٠.
(١٠٢) انظر: نظرة النعيم (١/٣٠٥).

طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٥٤).

وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون[١٠٣].

أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصر حاسم وأجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين وجلودهم، وخاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتفوا حول النبي (ﷺ) ولذلك كفوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قواتهم[١٠٤].

رابعًا: من شهداء أحد:

أ- حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه سيد الشهداء عند الله (تعالى) يوم القيامة:

قاتل أسد الله حمزة قتالاً ضاريًا، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤوس نفر من حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، وبينما هو على هذه الحال من الشجاعة والإقدام كمن له وحشي حتى تمكن منه ثم رماه بحربته، فأصاب منه مقتلاً، ولندع وحشيًا يخبرنا عن هذا المشهد المؤلم، قال وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عديّ بن الخيار ببدر، قال لي مولاي جُبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، فلما خرج الناس عام عينين- وعينين جبل بجبال أحد، بينه وبينه واد- خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ قال فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله (ﷺ)؟ ثم شدّ عليه، فكان كأمس الذاهب قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّيته[١٠٥] حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به[١٠٦]، فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام ثم خرجت إلى الطائف فأرسلوا إلى رسول الله (ﷺ) فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل[١٠٧] قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله (ﷺ)، فلما رآني قال: **«أنت وحشي؟»** قلت: نعم، قال: **«أنت قتلت حمزة؟»** قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك، قال: **«فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟»** قال: فخرجت فلما قبض رسول الله (ﷺ) فخرج مسيلمة الكذاب قلت لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق[١٠٨] ثائر

---

(١٠٣) نفس المصدر (١/ ٣٠٥)

(١٠٤) المصدر السابق (١/ ٣٠٦).

(١٠٥) فأضعها في ثنيته: أي في عاتقه.

(١٠٦) ذاك العهد به: كناية عن موته.

(١٠٧) لا يهيج الرسل: أي لاينالهم منه مكروه. (١٠٨) أورق: لونه كالرماد.

الرأس قال: فرميته بحربتي فأضعهـا بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته قال: قـال عبد الله بن الفضل فأخبرني سليمان ابن يسار أنه سمع عبـد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهـر بيت وأمير المؤمنين قتله العبد الأسود[١٠٩].

١- سؤال النبي (ﷺ) عن مقتل حمزة رضي الله عنه:

بعد انتهاء المعركة سأل رسول الله (ﷺ) أصحابه: من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل: أنا رأيت مقتله، قال: «**فانطلق أرناه**» فخرج رسول الله (ﷺ) حتى وقف على حمزة فرآه وقد شق بطنه، وقد مثل به، فقـال: يا رسول الله، مثل به والله[١١٠]، وفي رواية (لما بلغ النبي (ﷺ) قتل حمزة بكى فلما نظر إليه شهق)[١١١] ووقف بين ظهراني القتلى فقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، كفنوهم في دمـائهم؛ فإنه ليس جرح يجـرح في الله إلا جاء يوم القيـامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرآنا فاجعلوه في اللحد**»[١١٢].

وباستشهاد حـمزة وأصحاب رسول الله (ﷺ) في أحد تحقـقت رؤية رسول الله (ﷺ) فقـد أخبر أصحـابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أحد فـقال: «**رأيت في سـيـفي ذي الفـقـار فـلاً**[١١٣]**، فأولته فلاً يكون فيكم (أي انهزامًا) ورأيت أني مردف كـبشًا، فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصـينة، فأولتها المدينة، ورأيت بقرًا تذبح، فبقـر والله خير، فبـقر والله خير**» فكان الذي قال رسول الله (ﷺ)[١١٤].

٢- صبر صفية بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: إنه لما كان يوم أحـد أقبلت امرأة تسعى حتى كادت أن تشـرف على القتلى، قـال: فكره النبي (ﷺ) أن تراهم فـقال: المرأة المرأة. قال الـزبير فتوسمت أنها صفـية قال: فخرجت أسعى إليها، قال: فأدركتـها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلدمت[١١٥] في صدري وكانت امرأة جلدة قالت: **إليك عني لا أرض لك، فقلت: إن** رسول الله (ﷺ) عزم عليك.

قال: فوقـفت وأخرجت ثوبين معها فقـالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمـزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما ،قال: فجئنا بـالثوبين لنكفن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتـيل فعل به كما فـعل بحمزة، قال: فـوجدنا غضاضة وخنى أن يكـفن حمزة في

---

(١٠٩) البخاري، المغازي رقم ٤٠٧٢ .
(١١٠) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٨٣ .
(١١١) نفس المصدر ص٢٨٤ .
(١١٢) المصدر السابق ص٢٨٣ .
(١١٣) الفل: الثلم في السيف .
(١١٤) الترمذي، كتاب السير في النفل، رقم ١٥٦١ .
(١١٥) لدمت: ضربت ودفعت .

ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما، فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له[116].

٣- من شعر صفية في بكاء حمزة:

أسائلة أصحاب أحد مخافةً	**بناتُ أبي من أعْجَم[117] وخَبير**
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى	**وزير رسول الله خير وزير**
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة	**إلى جنّة يحيا بها وسُرور**
فذلك ما كنّا نرجّي ونرْتجي	**لحمزة يوم الحشر خير مصير**
فوالله لا أنساك ما هبت الصّبا	**بكاء وحزنًا محضري ومسيري**
على أسد الله الذي كان مِدْرَهًا[118]	**يذود عن الإسلام كلّ كفور**
فيا ليت شلْوى[119] عند ذاكَ وأعظمي	**لدى أضبع تعتادني ونسور**
أقول وقد أعْلى النَّعي عشيرتي	**جزى الله خيرًا من أخ ونصير[120]**

٤- حمزة لا بواكي له:

لما رجع رسول الله (ﷺ) من أحد سمع نساء الأنصار يبكين فقال: **«لكن حمزة لا بواكي له»** فبلغ ذلك نساء الأنصار فبكين حمزة فنام رسول الله (ﷺ) ثم استيقظ وهن يبكين فقال: **«يا ويحهن، مازلن يبكين منذ اليوم فليبكين، ولا يبكين على هالك بعد اليوم»**[121]

وبذلك حرّمت النياحة على الميت وبعد فترة من الزمن نزل الوحي يشدّد تحريم النياحة على الميت يجعلها من كبائر الذنوب وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين والمؤمنات.. يتتبع آثار الجاهلية لكي يمحوها، ويغرس مكانها تعاليم الإسلام[122] قال (ﷺ): **«النياحة على الميت من أمر الجاهلية، وإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت، فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران، ثم يغلي عليها بدروع من لهب النار»**[123] وقال (ﷺ): **«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت»**[124]، فتوقف النواح ولم تتوقف الدموع.

---

(١١٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٨٥.
(١١٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٥).
(١١٨) مدرها: الذي يدفع عن القوم.
(١١٩) الشلْو: البقية: تعتادني: تتعاهدني.
(١٢٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٥).
(١٢١) انظر: صحيح ابن ماجه للألباني (١/ ٢٦٥).
(١٢٢) انظر: السيرة النبوية للصوياني (٣/ ٩٠).
(١٢٣) انظر: صحيح الجامع الصغير للألباني (٢/ ١١٥١).
(١٢٤) انظر: صحيح الجامع للألباني (١/ ٩٠).

٥- رسول الله (ﷺ) يسمي غلامًا للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منا غلامًا، فقالوا: ما نسميّه؟ فقال النبي (ﷺ): **«سموه بأحب الأسماء إليّ، حمزة بن عبد المطلب»**(١٢٥)، فحمزة متجذر في القلب النبوي، عالق بالذاكرة الكريمة ... ولكن الله سبحانه ينزل على نبيه (ﷺ) فيما بعد أحب الأسماء إليه.. فيقولها (ﷺ) لمن حوله: **«إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»**(١٢٦).

٦- فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني(١٢٧):

في هذا التوجيه الكريم لا يوجد فيه شيء من المؤاخذة والتأثيم لوحشي وإنما هو تذكير له بأن رؤيته إياه تجلب له شيئًا من المتاعب النفسية، وتحرك في نفسه ذكريات حادث القتل وما تبعه من تمثيل شنيع بعمه، فتثير عنده حزازات بشرية ربما لا يكون من المستطاع منعها ومقاومتها إلا بشيء من العسر والعنت الشديد مما قد يشغل النبي (ﷺ) ويقلقه(١٢٨)، فأشار عليه (ﷺ) بأن يغيب وجهه حتى يفقد مصدر التذكير بتلك المصيبة(١٢٩) وفي رواية صحيحة قال وحشي: أتيت النبي (ﷺ) فقال لي: **«وحشي»** قلت: نعم، قال: **«قتلت حمزة؟»**، قلت: نعم الحمد لله الذي أكرمه بيدي ولم يهني بيده، فقالت له قريش: أتحبه وهو قاتل حمزة؟ فقلت: يا رسول الله فاستغفر لي، فتفل رسول الله (ﷺ) في الأرض ثلاثة، ودفع في صدري ثلاثة وقال: **«وحشي اخرج فقاتل في سبيل الله، كما قاتلت لتصد عن سبيل الله»**(١٣٠) فهذا من التوجيه الإرشادي النبوي إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ومحادة الله تعالى ورسوله، وذكر القتال في سبيل الله بيان للأمر الأنسب في التكفير، وفيه حضٌّ من النبي (ﷺ) لإعلاء راية الجهاد، ولعل مخرج وحشي إلى اليمامة وقتله مسيلمة الكذاب كان أثرًا من آثار توجيه النبي (ﷺ) إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ الذنوب، ويطهِّر الآثام.

وقد أدرك وحشي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب: قتلت خير الناس -يعني سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب- وقتلت شر الناس مسيلمة الكذاب(١٣١).

ب- مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال خباب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله (ﷺ) ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله فمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير

---

(١٢٥) وراه الحاكم (٣/١٩٦) سنده حسن.

(١٢٦) مسلم، كتاب الأدب رقم ٢١٣٢.

(١٢٧) البخاري، المغازي رقم ٤٠٧٢.

(١٢٨) انظر: محمد رسول الله (٣/٦٠٣) عرجون.

(١٢٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/١٤١).

(١٣٠) رواه الطبراني في الكبير، إسناده حسن (٢٢/١٣٩) رقم ٣٧٠ نقلاً عن صحيح السيرة النبوية ص٢٨٦.

(١٣١) انظر: محمد رسول الله (٣/٦٠٢) عرجون.

قتل يوم أحـد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينـا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينـا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله (ﷺ): «**غطوا رأسه،واجعلوا عـلى رجليه الأذخر**»[(١٣٢)]، ومنا من أينعت له ثمرته فهـو يهديها[(١٣٣)]، ومن حديث عبد الرحـمن بن عوف أنه أتي بطعام وكان صائمًا، فقـال: قتل مصعب بن عمير، وهو خـير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وأراه قال: وقـتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الـدنيا -أو قال: أعطينا من الدنيـا ما أعطينا - وقـد خشـينا أن تكون حـسناتنا عجلت لـنا، ثم جعل يبكي حـتى ترك الطعام[(١٣٤)]، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله (ﷺ) حين انصرف من أحد مر على مصـعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فـوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾** (سورة الأحزاب، آية:٢٣). ثم قال رسول الله (ﷺ): «**أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه**»[(١٣٥)].

ج- سعد بن الربيع رضي الله عنه:

هذا الذي استكتـمه رسول الله (ﷺ) خبر مسيـر قريش وكان رسول الله (ﷺ) يحـبه، فلما انتهت معـركة أحد قال رسول الله (ﷺ): «**من رجل ينظر ما فعـل سعد بن الربيع أفي الأحـياء هو أم في الأمـوات؟**» لأن النـبي (ﷺ) قد رأى الأسنة شرعت إليـه، فقال أبي بن كعب رضي الله عنه: أنا أنظره لك يا رسول الله، فقال له: «**إن رأيت سعد بن الربيع فأقرأه مني السلام وقل له: يقول لك رسـول الله (ﷺ) كيف يجدك؟**» فنظر أبي فوجـده جريحًا به رمق.

فقال له: إن رسول الله (ﷺ) أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة وقـد أنفذت إلى مقاتلي[(١٣٦)]، وفي رواية صحيـحة قال: على رسول الله وعليك السلام، قل له: يا رسول الـله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله (ﷺ) وفيكم شفر[(١٣٧)] يطرف، قال: وفاضت نفـسه رحمـه الله[(١٣٨)]، وهذا نصح لله ورسـوله في سكرات الموت يدل على قـوة الإيمان، والحرص على الوفاء بالبيعة لم يتأثر بالموت ولا آلام القروح.

---

(١٣٢) الأذخر: نوع من العشب.
(١٣٣) البخاري في الجنائز رقم ١٢٨٦.
(١٣٤) البخاري في الجنائز رقم ١٢٧٤، ١٢٧٥.
(١٣٥) انظر: المستدرك (٣/ ٢٠٠) صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
(١٣٦) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٣٢).
(١٣٧) شفر: العين.
(١٣٨) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٩٤.

د- عبد الله بن جحش رضي الله عنه:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله، فخلوا في ناحية فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو، فلقني رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمن عبد الله بن جحش، ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا، قلت: من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: يا بني كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط[(١٣٩)]، وفي هذا الخبر جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله، وتمنيه ذلك وليس هذا من تمني الموت المنهي عنه[(١٤٠)].

هـ - حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه (غسيل الملائكة):

لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض، فصاح وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شدّاد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: «إني رأيت الملائكة تغسِّله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة» فقال رسول الله (ﷺ): «**فاسألوا أهله ما شأنه؟**» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[(١٤١)]، فقال رسول الله (ﷺ): «**فلذلك غسلته الملائكة**»[(١٤٢)].

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أحد. وكان قد استأذن رسول الله (ﷺ) أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلّى بالصبح غدا يريد رسول الله (ﷺ) ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها. وتَعْلَق بعبد الله بن حنظلة ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد فولدت له محمد بن ثابت بن قيس[(١٤٣)].

---

(١٣٩) نفس المصدر، ٢٩٣.
(١٤٠) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٢).
(١٤١) أي: سمع منادي رسول الله يدعو للخروج لملاقاة العدو.
(١٤٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٢٨٩.
(١٤٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٣).

وفي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

١- في تعلق جميلة بنت عبد الله بن أبي بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخطّاب، لكنها تعلقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولدًا ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عليا في الصلاح أولاً ثم بما ترجوه من نيله الشهادة. ولقد حصل لها ما أمّلت به فحملت منه وولدت ولدًا ذكرًا سمِّي عبد الله، وكان له ذكر بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

٢- في حرص حنظلة القوي على مقارعة أعداء الله الذي يتمثل في سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذي لم يتمكن معه من غسل الجنابة.

٣- شجاعته الفائقة تظهر في تصديه لقائد المشركين أبي سفيان بن حرب والقائد غالبًا يكون حوله من يحميه، وهو فارس وحنظلة راجل.

٤- تشريف رباني كريم في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه المزن في صحاف الفضة.

٥- معجزة نبوية في إخبار الصحابة عما قامت به الملائكة من تغسيل حيث رأى (ﷺ) الملائكة وهي تغسل ولم ير الصحابة ذلك[١٤٤].

٦- إذا كان الشهيد جنبًا، غسل، كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر[١٤٥].

و- عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه:

أصر عبد الله بن عمرو بن حرام على الخروج في غزوة أحد، فخاطب ابنه جابر بقوله: يا جابر.. لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي[١٤٦].

وقال لابنه أيضًا: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي (ﷺ) وإني لا أترك بعدي أعزّ علي منك غير نفس رسول الله (ﷺ) وإن عليَّ دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيرًا[١٤٧].

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشهادة في سبيل الله، فقد قتل في معركة أحد، وهذا جابر يحدثنا عن ذلك حيث يقول: (لما قتل أبي يوم أحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله (ﷺ) ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال النبي (ﷺ) **«تبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه»**[١٤٨].

---

(١٤٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٢٩، ١٣٠).
(١٤٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٤).
(١٤٦) البخاري رقم (٤٠٩٧).
(١٤٧) البخاري رقم (١٣٥١).
(١٤٨) البخاري رقم (١٢٤٤).

وقال رسول الله (ﷺ) **«يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟»** قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً ودينًا. قال (ﷺ): **«أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟»** قال: بلى يا رسول الله، قال (ﷺ): **«ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وكلّم أباك كفاحًا يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك فقال: يا عبدي .. تمنّ عليّ أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. فقال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون قال: يا رب .. فأبلغ من ورائي»** (١٤٩).

فأنزل الله تعالى: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ١٦٩) وقد رأى عبد الله بن عمرو بن حرام رؤية في منامه قبل أحد قال: رأيت في النوم قبل أحد، مبشّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نَسْرَحُ فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى ثم أُحييتُ، فذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: **«هذه الشهادة يا أبا جابر»** (١٥٠)، وقد تحققت تلك الرؤيا بفضل الله ومنه.

ز- خيثمة أبو سعد رضي الله عنه:

قال خيثمة أبو سعد، وكان ابنه استشهد مع رسول الله (ﷺ) يوم بدر: لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصًا، حتى ساهمتُ ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنّي، ورقّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقةَ سعد في الجنة، فدعا له رسول الله (ﷺ) بذلك فقتل بأحد شهيدًا(١٥١).

ح- وهب المزني وابن أخيه رضي الله عنهما:

أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغنم لهما من جبل مُزَينة، فوجدا المدينة خلوًا فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأحد، خرج رسول الله (ﷺ) يقاتل المشركين من قريش. فقالا: لا نبتغي أثرًا بعد عين فخرجا حتى أتيا النبي (ﷺ) بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله (ﷺ) وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من ورائهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله (ﷺ): **«من لهذه الفرقة؟»** فقال وهب ابن قابوس: أنا يا رسول الله. فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع.

فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله (ﷺ): **«من لهذه الكتيبة؟»** فقال المزني: أنا يا رسول الله. فقام فذبها بالسيف حتى ولّوا، ثم رجع المُزَنيّ. ثم طلعت كتيبة أخرى فقال:

---

(١٤٩) صحيح ابن ماجه للألباني رقم ١٩٠، (٢٨٠٠).
(١٥٠) انظر: زاد المعاد (٣/٢٠٨).
(١٥١) نفس المصدر (٣/٢٠٨).

«من يقوم لهؤلاء؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله. فقال: «قُم، وأبشر بالجنة»، فقام المزني مسرورًا يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله (ﷺ) ينظر إلى المسلمين، حتى خرج من أقصاهم ورسول الله (ﷺ) يقول: «**اللهم ارحمه**» ثم يرجع فيهم فما زال كذلك، وهم مُحدقون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومثل به أقبح المثل يومئذ. ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إنّ أحبَّ ميتة أموت لما مات عليها المزني(١٥٢).

وكان بلال بن الحارث المزني يُحدّث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقُسمت بيننا غنائمنا، فأسقط فتى من آل قابوس من مُزينة(١٥٣)، فجئت سعدًا حين فرغ من نومه فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال: مرحبًا بك من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس. قال سعد: ما أنت يا فتى من المُزني الذي قتل يوم أحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحبًا وأهلاً وأنْعَمَ الله بك عَيْنًا، ذلك الرجل شهدتُ منه يوم أحد مشهدًا ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية، ورسول الله (ﷺ) وسطنا والكتائب تطلع من كل ناحية، وإنّ رسول الله (ﷺ) ليرمي ببصره في الناس يتوسمّهم(١٥٤) يقول: «**من لهذه الكتيبة؟**» كلّ ذلك يقول المزنيّ: أنا يا رسول الله! كل ذلك يرده، فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله (ﷺ): «**قم وأبشر بالجنة!**» قال سعد: وقمت على أثره، يعلم الله أني أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فخضنا حَومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه رحمه الله وودت والله أني كنت أصبت يومئذ معه، ولكن أجلي استأخر ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضّله وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيت رسول الله (ﷺ) واقفًا عليه وهو مقتول، وهو يقول: «**رضي الله عنك فإني عنك راض**». ثم رأيت رسول الله (ﷺ) قام على قدميه وقد نال النبي (ﷺ) من الجراح ما ناله وإني لأعلم أن القيام ليشقُ عليه على قبره حتى وُضع في لحده، وعليه بُرْدة لها أعلام خضر، فمدّ رسول الله (ﷺ) البُردة على رأسه فخمّره، وأدرجه فيها طولاً وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحَرْمَل فجعلناه على رجليه وهو في لحده، ثم انصرف. فما حالٌ أموتُ عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المُزَني(١٥٥).

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه فهذا وهب المزني وابن أخيه تركا الأغنام بالمدينة والتحقوا بصفوف المسلمين وحرصوا على نيل الشهادة، فأكرمهم الله بها، وقد كانت تلك الملحمة

---

(١٥٢) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥).
(١٥٣) نفس المصدر (١/ ٢٧٧).
(١٥٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٧).
(١٥٥) نفس المصدر (١/ ٢٧٧).

التي سطرها المزني محفورة في ذاكرة الصحابة، فهـذا سعد بن أبي وقاص يتذكرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريبًا على غزوة أحد لمجرد سماع اسم رجل من عشيرة المزني، ويتمنى أن يموت ويلقى الله على مثل حالة المزني.

ط- عمرو بن الجموح رضي الله عنه:

كان عـمرو بن الجمـوح رضي الله عنه أعرج شديـد العرج، وكان له بنون أربعـة مثل الأُسْد يشهدون مع رسول الله (ﷺ) المشاهد، وهم خلاد ومُعوذ ومُعاذ وأبو أيمن، فلما كان يوم أُحد أرادوا حبسه وقالوا: إن الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله (ﷺ) فقال: إن بني يريدون أن يحبسـوني عن هذا الوجه وللخـروج معك فـيه، فوالله إنـي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله (ﷺ): «**أما أنت فقد غذرك الله تعالى فلا جهاد عليك**»، وقال لبنيه: «**ما عليكم ألاّ تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة**»، فخرج وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم لا تردّني إلى أهلي خائبًا، فقتل شهيدًا.

وفي رواية أتى عمرو بن الجموح رضي الله عنه إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول: أرأيت إن قاتلت في سبـيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيـحة في الجنة - وكانت رجله عرجاء - فقال رسول الله (ﷺ): «**نعـم**» فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر بهم رسول الله (ﷺ) فجُعلوا في قبر واحد(١٥٦).

وفي هذا الخـبر دليل على أن من عـذره الله في التخلف عـن الجهاد لمـرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج(١٥٧).

وفيه دليل على شجاعة عمرو بن الجموح ورغبته في نيل الشهادة وصدقه في طلبها وقد أكرمه الله بذلك.

ي- أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش رضي الله عنهم:

لما خرج رسـول الله (ﷺ) إلى أحد، رُفع حُسَيْل بن جابر، وهـو اليمان أبو حذيفة ابن اليمـان وثابت بن وقش في الآطام(١٥٨)، مع النساء والصبيان، فقـال أحدهما لصاحبه وهما شيـخان كبـيران: لا أبا لك، ما تـنتظر؟ فوالله ما بقي لواحـد منا من عمـره إلا ظمأ(١٥٩) حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غد(١٦٠)، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله (ﷺ)، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله (ﷺ)؟

فأخذا أسـيافهما ثم خرجـا حتى دخلا في الناس ولم يُعلم بهمـا، فأمّا ثابت بن وقش

---

(١٥٦) انظر: المسند (٥/ ٢٩٩)، السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠١).
(١٥٧) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(١٥٨) الآطام: الحصون.
(١٥٩) ظمأ حمار: أي مقدار ما بين شربتي حمار.
(١٦٠) أي نموت اليوم أو غدًا.

فقتله المشـركون، وأما حسيل بن جابر فـاختلفت عليه أسيافُ المسلمين فقـتلوه ولا يعرفونه، فقـال حذيفة: أبي، فقـالوا: والله إن عرفناه، وصدقـوا. قال حذيفة: يغـفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله (ﷺ) أن يديه، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسـول الله (ﷺ)[١٦١] خيرًا وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفـوس الشيوخ الكبار الذين عذرهم الله في الجهاد وكيف تركوا الحـصون وخرجوا إلى ساحات الوغى طلبًا للشهادة وحـبًا وشوقًا للقاء الله تعـالى، وفيه موقف عظيم لحذيفـة حيث تصدق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالمغفرة لكونهم قتلوا والده خطأ، وفيه أيضًا: أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد يظنونه كافـرًا، فعلى الإمام ديته من بيت المال، لأن رسول الله (ﷺ) أراد أن يدي اليمان أبا حذيفة، فامتنع من أخذ الدية، وتصدق بها على المسلمين[١٦٢].

ك- الأمور بخواتيمها:

إن الأمور بخـواتيمهـا وقد وقع في غزوة أحـد ما يحقـق هذه القاعدة الهـامة في هذا الدين، فـقد وقع حـادثان، يؤكدان هذا الأمـر، وفيـهـما عظة وعـبرة لكل مـسلم متـعظ ومعتبر[١٦٣].

١- شأن الأصيرم رضي الله عنه:

واسمـه عمرو بن ثابـت بن وقش، عرض عليه الإسـلام فلم يسلم، وروى قصـته أبو هريرة رضي الله عنه: إن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله (ﷺ) وأصحابه بأحد فقـال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأحد، فـقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأحد، فسأل عن قومـه فقيل: بأحد، فبدا له الإسلام فأسلم، وأخذ سيـفه، ورمحه، وأخذ لأمته وركب فرسه فعدا حـتى دخل في عُرْض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت. فـقاتل حتى أثخنته الجراحة، فبينمـا رجال من بني عبد الأشهل يلتمـسون قتلاهم في المعـركة إذا هم به، فقـالوا: والله إن هذا للأصيرم، ما جـاء به؟ لقد تركناه وإنه منكر لهـذا الحديـث، فسـألوه: ما جـاء بك؟ أحَدَبٌ على قـومك أم رغبـة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله (ﷺ) وأسلمت ثم أخذت سيفي فـغدوت مع رسول الله (ﷺ)، ثم قاتلت حتى أصابني مـا أصابني وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله (ﷺ) فقال: **«إنه من أهل الجنة»**.

وقيل: مات فدخل الجنة ومـا صلى من صلاة، فقال النبي (ﷺ): **«عملاً يسـيرًا وأجرًا كـثيرًا»**[١٦٤]، وكان أبو هريرة يقول: حـدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يُصلِّ قط فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو قال: هو أُصيرم بن عبد الأشهل[١٦٥].

---

(١٦١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٩٨).

(١٦٢) انظر: زاد المعاد (٣/٢١٨).

(١٦٣) انظر: غزوة أحد لأبي فارس ص١١٧.

(١٦٤) انظر: البخاري، الجهاد، رقم ٢٨٠٨. (١٦٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٠،١٠١).

٢- شأن مخيريق:

لما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله (ﷺ) يقاتل المشركين، جمع قومه اليهود وقال لهم: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم.

فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله (ﷺ)، فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله (ﷺ): مخيريق خير يهود[١٦٦].

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذهبي في التجريد وابن حجر في الإصابة عن الواقدي[١٦٧] أن مخيريق مات مسلمًا، وذكر السهيلي في الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقبًا على رواية ابن إسحاق عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: **«مخيريق خير يهود»** قال: ومخيريق مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النصارى ولا خير اليهود لأن أفعل من كذا، إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنهم نسبوا إلى يهوذا ابن يعقوب ثم عربت الذال دالا[١٦٨]، وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبد الله الشقاري في كتابه ا"ليهود في السنة المطهرة"وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتكالب عليه[١٦٩].

ل- إنما الأعمال بالنيات:

كان ممن قاتل مع المسلمين يوم أحد رجل يدعى قزمان، كان يعرف بالشجاعة، وكان رسول الله (ﷺ) يقول إذا ذُكر له: إنه من أهل النار، فتأخر يوم أحد فعيَّرته نساء بني ظَفَر، فأتى رسول الله (ﷺ) وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلا كأنها الرماح ويكتُّ كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحه، فوقع، فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغَيداق هنيئًا لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، فلولا ذلك ما قاتلت. فذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: **«إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»**[١٧٠].

---

(١٦٦) انظر: المغازي للواقدي (١/٢٦٣)، والسيرة لابن هشام (٣/٩٩).
(١٦٧) انظر: تجريد أسماء الصحابة (٢/٧٠)، الإصابة (٣/٣٩٣).
(١٦٨) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٤/٤٠٨، ٤٠٩).
(١٦٩) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/٣٠٦).
(١٧٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٩٩)، غزوة أحد دراسة دعوية ص١١٣.

وفي هذا الخبر بيان لمكان النية في الجهاد، وأنه من قاتل حمية عن قومه أو ليقال: شجاع . . . ولم تكن أعماله لله تعالى لا يقبل الله منه.

خامسًا: من دلائل النبوة:

١- عين قتادة بن النعمان رضي الله عنه:

أصيبت عين قتادة رضي الله عنه حتى سقطت على وجنتيه فردها رسول الله (ﷺ) بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما، وأصبحت لا ترمد إذا رمدت الأخرى(١٧١)، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فسأله من أنت؟

فقال له مرتجلاً:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه	فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها	فيا حسنها عينا ويا حسن ما خد

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن	شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته(١٧٢).

٢- مقتل أبي بن خلف:

كان أبي بن خلف يلقى رسول الله بمكة، فيقول: يا محمد، إن عندي العَوْد، فرسًا أعْلفه كل يوم، أقتلك عليه، فقال رسول الله (ﷺ): «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**»، فلما كان يوم أحد، وأسند رسول الله (ﷺ) في الشِّعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لا نجوتُ إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله (ﷺ): «دعوه». فلما دنا تناول رسول الله (ﷺ) الحربة من الحارث بن الصِّمة، فلما أخذها رسول الله (ﷺ) منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشَّعراء(١٧٣) عن ظهر البعير إذا انتفض بها ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ(١٧٤) منها عن فرسه مرارًا، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خَدْشا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بَصَق عليّ لقتلني، فمات عدو الله بسرف(١٧٥) وهم قافلون به إلى مكة(١٧٦).

(١٧١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٨).
(١٧٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥).
(١٧٣) الشَّعراء: ذباب له لدغ.
(١٧٤) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.
(١٧٥) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.
(١٧٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٣، ٩٤).

وفي هذا الخبر مثل رفيع على شجاعة رسول الله (ﷺ)، فقد كان أبي بن خلف مدجج بالسلاح ومتدرعًا بالحديد الواقي ومع ذلك استطاع رسول الله (ﷺ) أن يطعنه بالرمح من فرجة صغيرة في عنقه بين الدرع والبيضة، وهذا يدل على قدرة رسول الله القتالية ودقته في إصابة الهدف، وفي هذا الخبر معجزة للنبي فقد أخبر أبيًا بأنه سوف يقتله بمشيئة الله وتم ذلك، وفي الخبر عبرة في إيمان المشركين بصدق النبي (ﷺ) وأنه إذا قال شيئًا وقع فقد كان أبي بن خلف على يقين بأنه سيموت من تلك الطعنة، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم وعبادة أهوائهم[١٧٧] وقد خلد حسان بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أبي يوم بارزه الرسول

أتيت إليه تحمل رمّ عظم ... وتوعده وأنت به جهول[١٧٨]

●●●

(١٧٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٦٩).
(١٧٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٤).



المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرسول (ﷺ) وأصحابه:

قال البراء رضي الله عنه: وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله (ﷺ): «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء القوم قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه فقال: كذبت يا عدوّ الله، أبقى الله عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: اعلُ هُبل[١٧٩]، فقال النبي (ﷺ): «أجيبوه». قالوا ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عزى لكم. فقال النبي (ﷺ): «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مُثْلةً لم آمُر بها ولم تَسُؤني[١٨٠] وفي رواية قال عمر: (لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار)[١٨١].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله (ﷺ) وأبي بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنه في علمهم أنهم أهل الإسلام وبه قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون أنه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولاً تصغيرًا له حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر وردوا عليه بشجاعة[١٨٢].

وفي هذا يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبشركه، تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن حزبه وجنده ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روى أنه نهاهم عن إجابته، وقال: «لا تجيبوه» لأن كلامهم لم يكن برد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال: كذبت يا عدو الله، فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يؤذيهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنه، وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه، والفتّ في عضده ما ليس في

---

(١٧٩) أعل هبل: ظهر دينك.

(١٨٠) البخاري، المغازي، رقم ٤٠٤٣، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

(١٨١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

(١٨٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

جوابه حين سأل عنهم واحدًا واحدًا، فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي (ﷺ) حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عمر، فرد بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانيًا أحسن، وأيضًا فإن في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانة له، وتصغيرًا لشأنه، فلما منّته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر ما حصل، كان في جوابه إهانة له، وتحقير، وإذلال، ولم يكن هذا مخالفًا لقول النبي (ﷺ): **«لا تجيبوه»** فإنه إنما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانيًا(١٨٣).

ثانيا: تفقد الرسول (ﷺ) الشهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ذهب الرسول (ﷺ) ليتفقد أصحابه رضي الله عنهم، فمر على بعضهم، ومنهم حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وحنظلة ابن أبي عامر، وسعد بن الربيع والأصيرم، وبقية الصحابة رضي الله عنهم فلما أشرف عليهم رسول الله (ﷺ) قال: **«أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله بعثه يوم القيامة يدمي جرحه ،اللون لون دم، والريح ريح المسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر»**(١٨٤).

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاري : أن النبي (ﷺ) كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: **«أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟»** فإذا أشير له إلى واحد قدّمه في اللحد، وقال: **«أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة»**، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا(١٨٥).

وأمر رسول الله (ﷺ) أن يدفنوا حيث صرعوا، وأعيد من أخذ ليدفن داخل المدينة(١٨٦).

ولما رأى رسول الله (ﷺ) حمزة بن عبد المطلب وقد مثل به حزن حزنًا شديدًا، وبكى حتى نشغ(١٨٧) من البكاء(١٨٨) وقال (ﷺ): **«لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»** فلما رأى المسلمون حزن رسول الله (ﷺ) وغيظه

---

(١٨٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(١٨٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٩).

(١٨٥) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٣٠٧٩).

(١٨٦) سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، كتاب الجنائز، باب أين يدفن الشهيد (٤/ ٧٩) رقم (٢٠٠٦).

(١٨٧) النشغ: الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغَشْيَ.

(١٨٨) انظر: مختصر سيرة الرسول، لمحمد عبد الوهاب، ص(٣٣١).

على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن ظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مُثلَة لم يمثلها أحد من العرب[١٨٩]، فنزل قول الله تعالى: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾** (سورة النحل، آية: ١٢٦). لقد ارتكب المشركون صوراً من الوحشية، حيث قاموا بالتمثيل في قتلى المسلمين فبقروا بطون كثير من القتلى وجدعوا أنوفهم، وقطعوا الآذان ومذاكير بعضهم[١٩٠] ومع ذلك صبر رسول الله (ﷺ) وأصحابه واستجابوا لتوجيه المولى عز وجل، فعفا وصبر وكفّر عن يمينه ونهى عن المثلة، روى ابن إسحاق بسنده عن سمرة بن جندب قال: (ما قام رسول الله (ﷺ) في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة)[١٩١].

ثالثاً: دعاء الرسول (ﷺ) يوم أحد:

صلى رسول الله (ﷺ) بأصحابه الظهر قاعدًا لكثرة ما نزف من دمه، وصلى وراءه المسلمون قعود، وتوجه النبي (ﷺ) بعد الصلاة إلى الله بالدعاء والثناء على ما نالهم من الجهد والبلاء، فقال لأصحابه: **«استووا، حتى أثني على ربي عز وجل»** فصاروا خلفه صفوفًا ثم دعا بهذه الكلمات الدالة على عمق الإيمان[١٩٢] فقال (ﷺ): **«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق»**[١٩٣] ثم ركب فرسه ورجع إلى المدينة[١٩٤].

وهذا أمر عظيم شرعه رسول الله (ﷺ) لأمته لكي يطلبوا النصر والتوفيق من رب العالمين، وبين لأمته أن الدعاء مطلوب في ساعة النصر والفتح، وفي ساعة الهزيمة، لأن الدعاء مخ العبادة، كما أنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ويجعل القلوب متعلقة بخالقها، فينزل عليها السكينة والثبات والاطمئنان، ويمدها بقوة روحية عظيمة، فترتفع المعنويات نحو المعالي وتتطلع إلى ما عند الله (تعالى).

(١٨٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٦).
(١٩٠) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص١٠٤.
(١٩١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٧).
(١٩٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢١٠).
(١٩٣) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٢١، ١٢٢) وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
(١٩٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٤).

في أعقاب المعركة، يتخذ النبي (ﷺ) أهبته وينظم المسلمين، صفوفًا، لكي يثني على ربه عز وجل، إنه لموقف عظيم، يجلي إيمانًا عميقًا، ويكشف عن العبودية المطلقة لرب العالمين الفعال لما يريد. فهو القابض والباسط، والمعطي والمانع، لا راد ولا معقب لحكمه.

إن هذا الموقف من أعظم مواقف العبودية التي تسمو بالعابدين، وتجلّ المعبود، كأعظم ما يكون الإجلال والإكبار، وأبرز ما يكون الحمد والثناء[١٩٥].

رابعًا: معرفة وجهة العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسول الله (ﷺ) علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتجاه العدو، فقال له: «**اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم**» قال علي: فخرجت في أثرهم ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة[١٩٦]، فرجع علي رضي الله عنه وأخبر رسول الله بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدة دروس وعبر منها:

يقظة الرسول (ﷺ)، ومراقبته الدقيقة لتحركات العدو، وقدرته (ﷺ) على تقدير الأمور، وظهور قوته المعنوية العالية ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النبي (ﷺ) بعلي رضي الله عنه ومعرفته بمعادن الرجال، وفيه شجاعة علي رضي الله عنه، لأن هذا الجيش لو أبصره ما تورع في محاولة قتله[١٩٧] ونلحظ أن النبي (ﷺ) أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت، تفقد خلالها الجرحى والشهداء، وأمر بدفنهم، ودعا ربه وأثنى عليه سبحانه، وأرسل علي ليتتبع خبر القوم، كل ذلك من أجل أن يحافظ على النصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أحد، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنصر أسبابًا، وللهزيمة أسبابًا، فمن أخذ بأسباب النصر، وصدق التوكل على الله (سبحانه وتعالى) حقيقة التوكل نال النصر بإذن الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ (سورة الفتح، آية: ٢٣).

ويتجلى فقه النبي (ﷺ) في ممارسة سنة الأخذ بالأسباب في غزوة حمراء الأسد.

خامسًا: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الروايات: أن النبي (ﷺ) تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه حتى

---

(١٩٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فيض الله، ص١٣٢، ١٣٣.
(١٩٦) انظر: البداية والنهاية (٤١/٤).
(١٩٧) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص(٩٥، ٩٦).

بعد رجوعهم إلى مكة وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمد وجنده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أحد وبلغوا الرّوحاء(١٩٨)، قال أبو سفيان: لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ)(١٩٩) وتفيد هذه الرواية خبر استطلاع الرسول (ﷺ) أعدائه حتى بعد انتهاء المعركة وذلك لكي يطمئن على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة خرج بمن حضره يوم أحد من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان أحد يوم السبت للنصف من شوال فلما كان الغد يوم الأحد سادس عشر من شوال: أذّن مؤذن رسول الله (ﷺ) في الناس بطلب العدو وألا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مرهبًا للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم(٢٠٠)، وقد استجاب أصحاب النبي (ﷺ) لنداء الجهاد حتى الذين أصيبوا بالجروح، فهذا رجل من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أحدًا أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله (ﷺ) بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله (ﷺ)؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله (ﷺ)، وكنت أيسر جرحًا منه، فكان إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة (نوبة) حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون(٢٠١).

وسار رسول الله (ﷺ) إلى حمراء الأسد واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدى المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله، وكان رسول الله (ﷺ) قد أمر بإشعال النيران فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمائة نار(٢٠٢).

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله (ﷺ) فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذّله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه، فقد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة(٢٠٣)، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه

---

(١٩٨) الروّحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلومترًا في طريق مكة.

(١٩٩) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١٢١) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجوّاز.

(٢٠٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٠).

(٢٠١) نفس المصدر (٤/ ٥٠).

(٢٠٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس ص(١٤٤)، نقلاً عن الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٤٣).

(٢٠٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).

أبياتًا من شعر:

قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي — إذ سالت الأرض بالجرد (٢٠٤) الأبابيل

تُرْدي (٢٠٥) بأسد كرام لا تنابلة (٢٠٦) — عند اللقاء ولا ميل (٢٠٧) معازيل (٢٠٨)

فظلت عدوًا أظن الأرض مائلة — لما سمو برئيس غير مخذول

فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم — إذا تغطمطت البطحاء بالجيل (٢٠٩)

إني نذير لأهل البسل ضاحية — لكل ذي أربة منهم ومعقول

من جيش أحمد لا وخش (٢١٠) تنابله — وليس يوصف ما أنذرت بالقيل (٢١١)

فثنى ذلك أبو سفيان ومن معه، وحاول أبو سفيان أن يغطي انسحابه هذا بشن حرب نفسية على المسلمين، لعله يرهبهم فأرسل مع ركب عبد القيس وكانوا يريدون المدينة للميرة رسالة إلى رسول الله (ﷺ) مفادها أن أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود، وواعد أبو سفيان الركب أن يعطيهم زبيبًا عندما يأتوه في سوق عكاظ، ومر الركب برسول الله (ﷺ) وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال هو والمسلمون: حسبنا الله ونعم الوكيل(٢١٢)، واستمر المسلمون في معسكرهم وآثرت قريش السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة ،بروح قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود في المدينة وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجل ظواهرها(٢١٣) بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم

---

(٢٠٤) الجرد: جمع أجرد وهو الضرسي قصير الشعر، والأبابيل: الفرق الكثيرة .

(٢٠٥) تردى: تسرع .

(٢٠٦) تنابلة: جمع تنبال وهو القصير .

(٢٠٧) الميل: جمع أميل، وهو الجبان .

(٢٠٨) معازيل: جمع معزال وهو من لا رُمح معه .

(٢٠٩) تغطمطت: اضطربت وثارت .

(٢١٠) وخش: رديء .

(٢١١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥١) .

(٢١٢) تاريخ الإسلام للذهبي ، المغازي، ص(٢٢٦) .

(٢١٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص(١٤٢) .

مؤمنين﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٧٢- ١٧٥) ووقع في أسر النبي (ﷺ) قبل رجوعه إلى المدينة أبو عزة الجمحي الشاعر فقتل صبرًا؛ لأنه أخلف وعده للرسول (ﷺ) بألا يقاتل ضده عندما منّ عليه ببدر وأطلقه فعاد فقاتل في أحد، وقد حاول أبو عزة أن يتخلص من القتل وقال: يا رسول الله أقلني، فقال رسول الله (ﷺ): **(لا والله، لا تمسح عارضيك[٢١٤] بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين، اضرب عنقه يا زبير)**[٢١٥]، فضرب عنقه، فقال النبي (ﷺ) حينئذ: **(لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)**[٢١٦]. فصار هذا الحديث مثلاً ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السياسة الشرعية، لأن هذا الشاعر من المفسدين في الأرض، الداعين إلى الفتنة، ولأن في المنّ عليه تمكينًا له من أن يعود حربًا على المسلمين.

ولم يؤسر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي[٢١٧].

وأما عدد القتلى من المسلمين في أحد فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيدًا من المسلمين ويؤيد هذا تفسير قوله تعالى: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** سورة آل عمران، آية: ١٦٥) أنها نزلت تسلية للمؤمنين عمن أصيب منهم يوم أحد، قال ابن عطية رحمه الله: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفرًا، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدر سبعين وأسروا سبعين[٢١٨] أما عدد الذين قتلوا يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون قتيلاً[٢١٩].

كان خروج رسول الله (ﷺ) لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد يهدف لتحقيق مجموعة من المقاصد المهمة منها:

١- ألا يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الذين خرجوا يوم أحد هو الشعور بالهزيمة.

٢- إعلامهم أن لهم الكرَّة على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضعف والفشل واستجابوا لدعوة الله ورسوله.

٣- تجرئة الصحابة على قتال أعدائهم.

٤- إعلامهم أن ما أصابهم في ذلك اليوم إنما هو محنة وابتلاء اقتضتها إرادة الله، وحكمته، وأنهم أقوياء وأن خصومهم الغالبين في الظاهر ضعفاء[٢٢٠].

---

(٢١٤) عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب (٢/ ٧٤٢).

(٢١٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٦).

(٢١٦) البخاري، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المرء (٧/ ١٣٤) رقم (٦١٣٣).

(٢١٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣).

(٢١٨) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٤١١).

(٢١٩) مرويات غزوة أحد للباكري، ص(٣٦٧، ٣٦٩).

(٢٢٠) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٥١٩).

كما أن في خروج النبي (ﷺ) إلى حمراء الأسد إشارة نبوية إلى أهمية استعمال الحرب النفسية للتأثير على معنويات الخصوم، حيث خرج (ﷺ) بجنوده إلى حمراء الأسد ومكث فيها ثلاثة أيام وأمر بإيقاد النيران فكانت تشاهد من مكان بعيد وملأت الأرجاء بأنوارها، حتى خُيِّل لقريش أن جيش المسلمين ذو عدد كبير لا طاقة لهم به فانصرفوا وقد ملأ الرعب أفئدتهم[٢٢١].

قال ابن سعد: (ومضى رسول الله (ﷺ) بأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد.. وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه فكبت الله تعالى بذلك عدوهم)[٢٢٢].

سادسًا: مشاركة نساء المسلمين في معركة أحد:

كانت غزوة أحد أول معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وكان لهذا أثر بالغ في سقي المحاربين وتضميد الجرحى، وقد ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ويداوين الجرحى، ومنهن من قامت برد ضربات المشركين الموجهة للرسول (ﷺ) وممن شاركن في غزوة أحد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، وأم عمارة، وحَمْنَة بنت جَحْش الأسدية، وأم سُلَيْط، وأم سُلَيْم، ونسوة من الأنصار[٢٢٣] قال ثعلبة بن أبي مالك رضي الله عنه: (إن عمر بن الخطاب قسم مُرُوطًا بين نساء المدينة، فبقي مِرْطٌ جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعْطِ هذا ابنة رسول الله التي عندك يريدون أم كلثوم بنت علي، فقال عمر رضي الله عنه: أم سَليط أحق به من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله (ﷺ)، فإنها كانت تزفر[٢٢٤] لنا القرب يوم أحد[٢٢٥].

أ- سقي العطشى من المجاهدين:

عن أنس رضي الله عنه قال: (لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي (ﷺ) قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمِّرتان أرى خَدَمَ سوقهن تنقزان[٢٢٦] القرب - وقال غيره: تنقلان القِرَبَ - على متونهما ثم تضرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئا فتفرغانه في أفواه القوم[٢٢٧].

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه: (رأيت أم سليم بنت ملحان وعائشة على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد، وكانت حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي

---

(٢٢١) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص٥١.

(٢٢٢) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/٤٩).

(٢٢٣) مسلم، كتاب الجهاد، باب غزو النساء رقم (١٧٧٩).

(٢٢٤) تزفر: تحمل القرب مملؤة بالماء.

(٢٢٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٠٧١).

(٢٢٦) تنقزان: أي تحملان وتقفزان بها وثبًا.

(٢٢٧) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء رقم (٢٨٨٠).

الجرحى، وكانت أم أيمن، تسقي الجرحى)[٢٢٨].

ب- مداواة الجرحى ومواساة المصابين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى[٢٢٩].

وأخرج عبد الرزاق عن الزهري: (كان النساء يشهدن مع النبي (ﷺ) المشاهد ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى)[٢٣٠] وعن الرُبيِّع بنت مَعَوِّذ قالت: كنا مع النبي (ﷺ) نسقي القوم، ونداوي الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة، وفي رواية: كنا نغزو مع النبي (ﷺ) فنسقي القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة[٢٣١]. وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد رضي الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله، فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله، ومن كان يسكب الماء وبما دُووي. قال: كانت فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله (ﷺ) تغسله، وعلي يسكب الماء بالمجَنْ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم.[٢٣٢].

جـ- الدفاع عن الإسلام ورسوله بالسيف:

لم تقاتل المشركين يوم أحد إلا أم عمارة نسيبة المازنية رضي الله عنها وهذا ضمرة بن سعيد يحدث عن جدّته، وكانت قد شهدت أحدًا تسقي الماء قالت: سمعت النبي (ﷺ) يقول: «**لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان**»، وكان يراها تُقاتل يومئذ أشدّ القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحًا فلما حضرتها الوفاة كنت فيمن غسّلها، فعددت جراحها جرحًا جرحًا فوجدتها ثلاثة عشر جرحًا. وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها - وكان أعظم جراحها، لقد داوته سنة - ثم ناد منادي النبي (ﷺ): إلى حمراء الأسد! فشدّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثنا ليلنا نكمّد الجراح حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله (ﷺ) من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني[٢٣٣] - أخو أم عمارة - يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها فسر النبي (ﷺ) بذلك[٢٣٤].

وقد علق الأستاذ حسين الباكري عن مشاركة نسيبة بنت كعب في القتال فقال: وخروج المرأة للقتال مع الرجال لم يثبت في ذلك منه شيء غير قصة نسيبة ،وقتال نسيبة إنما كان

---

(٢٢٨) انظر: المغازي للواقدي (١/٢٤٩).
(٢٢٩) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء رقم (١٧٧٩).
(٢٣٠) البخاري فتح الباري لابن حجر (٦/٩٢) عند حديث رقم (٢٨٨٠).
(٢٣١) البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٢٨٨٢، ٢٨٨٣).
(٢٣٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٠٧٥).
(٢٣٣) أخو أم عمارة. انظر: الذهبي سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٨).
(٢٣٤) المغازي للواقدي (١/٢٦٩، ٢٧٠).

اضطراريًا حين رأت أن رسول الله أصبح في خطر حين انكشف عنه الناس، فأم عمارة إذا كانت في موقف أصبح حمل السلاح واجبًا على من يقدر على حمله رجلاً كان أو امرأة(٢٣٥).

وعلق الدكتور أكرم ضياء العمري على الآثار الدالة على مشاركة النساء في أحد بقوله: وهذه الآثار تدل على جواز الانتفاع بالنساء عند الضرورة لمداواة الجرحى وخدمتهم إذا أمنت فتنتهن مع لزومهن الستر والصيانة، ولهن أن يدافعن عن أنفسهن بالقتال إذا تعرض لهن الأعداء، مع أن الجهاد فرض على الرجال وحدهم إلا إذا داهم العدو ديار المسلمين فيجب قتاله من الجميع رجالاً ونساء(٢٣٦).

وأما الأستاذ محمد أحمد باشميل فقد قال: وقد كانت معركة أحد أول معركة قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين في الإسلام، ومن الثابت أن امرأة واحدة فقط اشتركت في هذه المعركة، وهي تدافع عن رسول الله (ﷺ)، كما أنه من الثابت أيضًا أن المرأة التي اشتركت في معركة أحد، لم تخرج بقصد القتال فهي لم تكن مجندة فيها كالرجال، وإنما خرجت لتنظر ما يصنع الناس لتقوم بأية مساعدة يمكنها القيام بها للمسلمين كإغاثة الجرحى بالماء وما شابه ذلك، يضاف إلى هذا أن هذه المرأة التي خاضت معركة أحد هي امرأة قد تخطت سن الشباب، كما أنها لم تخرج إلى المعركة إلاّ مع زوجها وابنيها الذين كانوا من الجند الذين قاتلوا في المعركة، يضاف إلى هذا الرصيد الهائل الذي لديها من المناعة الخلقية والتربية الدينية، فلا يقاس على هذه الصحابية الجليلة مجنّدات هذا الزمان اللواتي يرتدين لباس الميدان وعنصر الإغراء والفتنة هو أهم عنصر يتميزن به ويحرصن على إظهاره للرجال فأين الثرى من الثريا؟؟

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحد من رجال هذا الزمان من ناحية الشهامة والاستقامة والعفة والرجولة، فكل المحاربين الذين اشتركت معهم امرأة في معركة أحد كانوا صفوة الأمة الإسلامية ورمز نبلها وشهامتها وعنوان رجولتها واستقامتها . . فلا يصح مطلقًا جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أحد قاعدة تقاس عليها (من الناحية الشرعية) إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر لتقاتل بجانب الرجل (كعنصر أساسي من عناصر الجيش) فالقياس في هذه الحالة قياس مع الفارق وهو قياس باطل قطعًا(٢٣٧).

سابعًا: دروس في الصبر تقدمها الصحابيات للأمة:

أ- صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لما استشهد أخوها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في أحد وجاءت لتنظر إليه وقد مثل به المشركون فجدعوا أنفه وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه ومذاكيره، فقال رسول الله (ﷺ)

---

(٢٣٥) انظر: مرويات غزوة أحد، ص٢٥٤ .

(٢٣٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩١) .

(٢٣٧) انظر: غزوة أحد، محمد باشميل، ص١٧١، ١٧٢، ١٧٣ .

لابنها الزبير بن العوام: «**القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها**» ، فقال لها: يا أمه إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير بن العوام رضي الله عنه إلى رسول الله فأخبره بذلك، قال: «**خل سبيلها**» ، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت[٢٣٨] ، واستغفرت له[٢٣٩] .

ب- حمنة بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله (ﷺ) من دفن أصحابه رضي الله عنهم ركب فرسه وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حَمْنَةُ بنت جحش، فقال لها رسول الله (ﷺ) : «**يا حمنة: احتسبي**» ، قالت: من يا رسول الله؟ قال: «**خالك حمزة ابن عبد المطلب**» ، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئًا له الشهادة، ثم قال لها: «**احتسبي**» ، قالت: منْ يا رسول الله؟ قال: «**زوجك مصعب بن عمير**» ، قالت: وا حزناه، وصاحت وولولت، فقال رسول الله (ﷺ) : «**إن زوج المرأة منها لبمكان**» ، لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها، وصياحها على زوجها ثم قال لها: «**ولم قلت هذا؟**» قالت: يا رسول الله، ذكرت يُتْمُ بنيه فراعني فدعا لها رسول الله (ﷺ) ، ولوَلَدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف[٢٤٠] ، فتزوجت طلحة بن عبيد الله فولدت منه محمدًا وعمران[٢٤١] ، وكان محمد بن طلحة أوصل الناس لولدها[٢٤٢] .

جـ- المرأة الدينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: مر رسول الله (ﷺ) بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله (ﷺ) بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله (ﷺ)؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[٢٤٣] ، تريد صغيرة وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين.

د- أم سعد بن معاذ وهي كبشة بنت عبيد الخزرجية رضي الله عنها:

خرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله (ﷺ) ، ورسول الله (ﷺ) واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمِّي فقال رسول الله: «مرحبًا بها»، فدنت حتى تأمّلت رسول الله فقالت: أما إذا رأيتك سالمًا، فقد أشوَت[٢٤٤]

---

(٢٣٨) استرجعت: قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢٣٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٨) .

(٢٤٠) انظر: البداية والنهاية (٤/٤٧)، غزوة أحد دارسة دعوية ، ص٢٣٦ .

(٢٤١) انظر: الإصابة (٨/٨٨) رقم ١١٠٦٠ .

(٢٤٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس ، ص١٠٩ .

(٢٤٣) انظر: البداية والنهاية (٤/٤٨) .

(٢٤٤) أشوَت: صارت صغيرة خفيفة .

المصيبة، فعزّاها رسول الله (ﷺ) بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: «يا أم سعد، أبشري وبشرِّي أهليهم أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا- وهم اثنا عشر رجلاً- وقد شُفِّعوا في أهليهم». قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يا رسول الله لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله (ﷺ): «**اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجْبُر مصيبتهم، وأحسن الخَلَف على من خُلِّفوا**»[٢٤٥].

• • •

(٢٤٥) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣١٥-٣١٦).



المبحث الرابع

بعض الدروس والعبر والفوائد

لقد وصف القرآن الكريم غزوة أحد وصفًا دقيقًا، وكان التصوير القرآني للغزوة أقوى حيوية ووضوحًا من الروايات التي جاءت في الغزوة، كما أن أسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة، والمسكنة والواعظة كان رائعًا وقويًا، فبين القرآن الكريم نفوس جيش النبي (ﷺ)، وهذا تميز لحديث القرآن عن الغزوة، ينفرد به عن سنا جاء في كتب السيرة فسلط القرآن الكريم الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم، والناظر عمومًا في منهج القرآن في التعقيب على غزوة أحد، يجد الدقة والعمق والشمول... يقول سيد قطب: الدقة في تناول كل موقف، وكل حركة، وكل خالجة، والعمق في التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينة، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث.

كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجًا عميقًا عنيفًا، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف، والتعقيب فهو وصف حي، يستحضر المشاهد - كما لو كانت تتحرك - ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ، والإيحاء المثير[٢٤٦].

إن حركة النبي (ﷺ) في تربية الأمة وإقامة الدولة والتمكين لدين الله، يعتبر انعكاسًا في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم التي سيطرت على مشاعره وأفكاره وأحاسيسه (ﷺ)، ولذلك نجد أن النبي (ﷺ) في علاجه لأثر الهزيمة في أحد تابع للمنهج القرآني الكريم، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النقاط المهمة في هذا المنهج.

أولاً: تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:

قال تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُواْ وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٧-١٣٩) إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله -سبحانه- وتعالى لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في محنة غزوة أحد، بل خاطبهم بهذه الآيات التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم[٢٤٧].

قال القرطبي: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين[٢٤٨].

ففي الآيات السابقة دعوة للتأمل في مصير الأمم السابقة التي كذبت بدعوة الله تعالى

(٢٤٦) في ظلال القرآن (١/ ٥٣٢).

(٢٤٧) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٠).

(٢٤٨) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢١٦).

وكيف جرت فيهم سنته على حسب عادته؟ وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره.

وجاء التعبير بلفظ كيف الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى التعجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المؤمنين، لأن هؤلاء المكذبين مكن الله لهم في الأرض ومنحهم الكثير من نعمه.. ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طغيانهم(٢٤٩).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ دعاهم إلى ترك الضعف، ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن، لأنهم هم الأعلون بسبب إيمانهم.

ثانيا: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٤٠-١٤٣).

بين لهم أن الجروح والقتلى يجب ألا تؤثر في جسدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى(٢٥٠).

وقال صاحب الكشاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى ألا تضعفوا(٢٥١).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنه كان يوم أحد بيوم بدر، قتل المؤمنون يوم أحد، اتخذ الله منهم شهداء، وغلب رسول الله (ﷺ) يوم بدر المشركين فجعل الدولة عليهم(٢٥٢).

وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ .... إلخ، محذوف والتقدير: إن يمسكم قرح فاصبروا عليه واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم، فقد مسهم قرح مثله قبل ذلك.

(٢٤٩) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩١).
(٢٥٠) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٤).
(٢٥١) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٤٦٥).
(٢٥٢) انظر: تفسير الرازي (٤/ ١٠٥).

وعبر عما أصاب المسلمين في أحد بصيغة المضارع (يمسسكم) لقربه من زمن الحال، وعما أصاب المشركين بصيغة الماضي لبعده، لأن ما أصابهم كان في غزوة بدر.

وقوله: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ بيان لسنة الله الجارية في كونه وتسلية للمؤمنين عما أصابهم في أحد[٢٥٣].

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ قال القرطبي: معناه وإنما كانت هذه المداولة ليُرَى المؤمن من المنافق فيميز بعضهم من بعض[٢٥٤] وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال ابن كثير: يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته[٢٥٥].

ثم ختم سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم ذكر -سبحانه- حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحد فقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ من المحص بمعنى التنقية والتخليص أو من التمحيص بمعنى الابتلاء والاختبار.

وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ﴾ من المحق وهو محو الشيء والذهاب به قال الطبري: والمعنى: وليختبر الله الذين صدقوا الله ورسوله فيبتليهم بإزالة المشركين منهم حتى يتبين المؤمن منهم المخلص الصحيح الإيمان من المنافق[٢٥٦].

وقال ابن كثير: قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.

وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم[٢٥٧] والمعنى: ولقد فعل -سبحانه- ما فعل في غزوة أحد، لكي يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكي يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم.

وقد ذكر الله تعالى أربع حكم لما حدث للمؤمنين في غزوة أحد وهي: تحقق علم الله تعالى وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشهادة التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدًا رويدًا[٢٥٨].

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ

---

(٢٥٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٥).
(٢٥٤) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢١٨).
(٢٥٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٨).
(٢٥٦) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٠٧).
(٢٥٧) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٨).
(٢٥٨) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٩).

الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٤٢) والمعنى: أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم؟ لا حتى **﴿يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾** أي علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء **﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾**[٢٥٩].

وقال ابن كثير: أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء[٢٦٠]، ثم قال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ١٤٣).

قال ابن كثير: قد كنتم – أيها المؤمنون– قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا[٢٦١].

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في (أحد) على عكس ما نزل في بدر من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر فقال في غزوة بدر **﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** (سورة الأنفال، آية: ٦٧-٦٨).

وقال في أحد: **﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ١٥٢) وفي هذا حكمة عملية، وتربية قرآنية، يحسن أن يلتزمها أهل التربية والقائمون على التوجيه[٢٦٢].

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: **﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ١٤٦-١٤٨).

قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزموا يوم أحد وتركوا القتال لما

---

(٢٥٩) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٠).

(٢٦٠) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٩).

(٢٦١) نفس المصدر (١/ ٤٠٩).

(٢٦٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص(١٣٧).

سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعذرهم الله على فرارهم وتركهم القتال[٢٦٣].

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعات كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم، وفي هذا تعريض بالمسلمين الذين أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله (ﷺ)، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: **﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ١٤٧). وهذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربانيين هضم لها واعتراف منهم بالتقصير ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدّم على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم النصر عن زكاة وطهارة وخضوع، وفي هذا تعليم للمسلمين إلى أهمية التضرع، والاستغفار وتحقيق التوبة وتظهر أهمية ذلك في إنزال النصر على الأعداء **﴿فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى الله ،وإحسانهم في موقف الجهاد وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخص الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده[٢٦٤].

خامساً: مخالفة ولي الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرماة لأمر النبي (ﷺ) ووقوعهم في الخطأ الفظيع الذي قلب الموازين، وأدى إلى الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسلمين ولكي نعرف أهمية الطاعة لولي الأمر، نلحظ أن انخزال عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين لم يؤثر على المسلمين، بينما الخطأ الذي ارتكبه الرماة الذين أحسن الرسول (ﷺ) تربيتهم وأسند لكل واحد منهم عملاً ثم خالفوا أمره (ﷺ) كان ضرره على المسلمين عامة، حيث سلط الله عليهم عدوهم، وذلك بسبب عصيان الأوامر ثم اختلطت أمورهم وتفرقت كلمتهم، أن يقضي على الدعوة الإسلامية وهي في مهدها.

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثلوا لأوامر الرسول (ﷺ)، وانقادوا لتعليمات قائدهم وأميرهم عبد الله ابن جبير رضي الله عنه، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره (ﷺ) ونزل الرماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقية الصحابة[٢٦٥] رضي الله عنهم، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى**

---

(٢٦٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٠).

(٢٦٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٤).

(٢٦٥) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية ، ص٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩ ,

﴿إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٢).

يقول الشيخ محمد بن عثيمين: (ومن آثار عدم الطاعة ما حصل من معصية بعض الصحابة رضي الله عنهم، والنبي (ﷺ) بين أظهرهم، وهم يجاهدون في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله .. والذي حصل أنه لما كانت الغلبة للمؤمنين، ورأى بعض الرماة أن المشركين انهزموا، تركوا الموضع الذي أمرهم النبي (ﷺ) ألا يبرحوه، وذهبوا مع الناس، وبهذا كر العدو عليهم من الخلف، وحصل ما حصل من الابتلاء والتمحيص للمؤمنين، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٢). هذه المعصية الذي فات بها نصر انعقدت أسبابه، وبدأت أوائله، هي معصية واحدة، والرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟ ولهذا نقول: إن المعاصي من آثارها أن الله يسلط بعض الظالمين على بعض بما كانوا يكسبون، ويفوتهم من أسباب النصر والعزة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم[٢٦٦].

إن طاعة ولي الأمر أمر ضروري تأتي بعد طاعة الله ورسوله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩) قال العلماء: (نزلت الآية في الرعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا ولاة الأمر، الفاعلين لذلك، في قسمهم وحكمهم، ومغازيهم، وغير ذلك)[٢٦٧].

إن طاعة ولي الأمر (أصل عظيم من أصول الواجبات الدينية حتى أدرجها الأئمة في جملة العقائد الإيمانية)[٢٦٨].

ولها أهمية في تربية الأمة وإقامة الدولة ويمكن أن نلخص أهمية الطاعة في النقاط الآتية:

١- الامتثال لأمر الله عز وجل وطاعته فيما أمر قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩).

٢- إن طاعة ولي الأمر وسيلة وليست غاية، وسيلة لإقامة شرع الله في الأرض،

---

(٢٦٦) انظر: الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع، محمد بن الكثيمين نقلاً عن غزوة أحد، ص٢١١ .
(٢٦٧) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٦) .
(٢٦٨) بدائع السالك في طبائع الملك لابن الأزرق (١/ ٧٧) .

وإحقاق الحق، وإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتحقيق خيرية هذه الأمة وإعلاء كلمة التوحيد، وإفراد العبودية لله (عز وجل).

٣- إجتماع كلمة المسلمين، لأن في الخلاف فساد أحوالهم في دينهم ودنياهم(٢٦٩).

٤- أن يستعينوا بها على إظهار دينهم، وطاعة ربهم.

٥- أن فيها سعادة الدنيا.

ولهذا كان من أصول مذهب أهل السنة والجماعة أننا: (لا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله (عز وجل) فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة)(٢٧٠).

سادسًا: خطورة إيثار الدنيا على الآخرة:

وردت نصوص عديدة من آيات وأحاديث تبين منزلة الدنيا عند الله وتصف زخارفها وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذر من الحرص عليها قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٤).

وقد حذر الرسول الكريم (ﷺ) أمته من الاغترار بالدنيا، والحرص الشديد عليها في أكثر من موضع، وذلك لما لهذا الحرص من أثره السيئ على الأمة عامة وعلى من يحملون لواء الدعوة خاصة، ومن ذلك:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(٢٧١) ويظهر للباحث أثر الحرص على الدنيا في غزوة أحد.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: (أدركوا الناس و نبي الله لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم) وقال بعضهم: (لا نريم(٢٧٢) حتى يأذن لنا النبي (ﷺ)»(٢٧٣) فنزلت: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٢).

قال الطبري: قوله (سبحانه): ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٢) يعني الغنيمة قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحدًا من أصحاب رسول الله (ﷺ) يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد(٢٧٤) ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾(سورة آل عمران، آية: ١٥٢).

(٢٦٩) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٢٠٠.

(٢٧٠) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، تحقيق د. عبد الله التركي (٢/٥٤٠).

(٢٧١) مسلم، رقم ٢٧٤٢.

(٢٧٢) لا نريم: لا نبرح المكان.

(٢٧٣) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤). (٢٧٤) نفس المصدر (٣/ ٤٧٤).

إن الذي حدث في أحد عبرة عظيمة للدعاة وتعليمًا لهم بأن حب الدنيا قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان ويخفى عليهم، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخرة ومتطلبات الفوز بنعيمها ويعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى الرماة أوامر الرسول (ﷺ) الصريحة بتأويل ساقط، يرفعه هوى النفس وحب الدنيا فيخالفون الشرع وينسون المحكم من أوامره، كل هذا يحدث ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية، وعلى رأسها حب الدنيا وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدعاة التفتيش الدائم الدقيق في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع، ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها[٢٧٥].

سابعًا: التعلق والارتباط بالدين:

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان، ألا إن محمدًا قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا. وإنما كان قد ضرب رسول الله (ﷺ) فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله (ﷺ) قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** (سورة آل عمران، آية ١٤٤). أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه[٢٧٦].

وقد جاء في تفسير الآية السابقة: إن الرسل ليست باقية في أقوامها أبدًا فكل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائمًا مع قومه. فلا خلود لأحد في هذه الدنيا. ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف موت النبي (ﷺ) أو قتله: **﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾** أي رجعتم القهقرى وقعدتم عن الجهاد، والانقلاب على الأعقاب يعني الأدبار عما كان رسول الله (ﷺ) يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته، **﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حيًا أو ميتًا[٢٧٧].

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب التي حدثت للمسلمين يوم أحد أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله (ﷺ)، فهذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله ربًا معبودًا وحده وبين بقاء شخص النبي (ﷺ) خالد فيهم خالطه الحب المغلوب بالعاطفة، الربط بين الرسالة الخالدة وبين الرسول (ﷺ) البشر الذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصحابة رضي الله عنهم من الفوضى والدهشة والاستغراب، ومتابعة الرسول

---

(٢٧٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٩٧).

(٢٧٦) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤١٠).

(٢٧٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٠).

(ﷺ) أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة، وتبليغ الدعوة ونصرة الحق، وهذا التأسي هو الجانب الأغر من جوانب منهج رسالة الإسلام، لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض، وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي (ﷺ) في هذه الدنيا لا يلحقه فناء بموت أو قتل، وإيجاب متابعة الرسول (ﷺ) والتأسي به علما وعملاً هما الوشيجة العظمى لتماسك المجتمع المسلم، ولا سيما الدعاة إلى الله من أتباعه[٢٧٨].

قال ابن القيم: إن غزوة أحد كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله (ﷺ) فثبتهم، ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله (ﷺ)، أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو لا يموت، فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به فكل نفس ذائقة الموت، وما نُعت محمد (ﷺ) ليخلَّد، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه، سواء مات رسول الله (ﷺ) أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان: إن محمدًا قد قتل، فقال: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ١٤٤)، والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله (ﷺ)، وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله، وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم[٢٧٩].

قال القرطبي: (فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء)[٢٨٠] وكلامه رحمه الله نفيس جدًا، فالذين ظنوا من قبل أن الإسلام قد انتهى بموت النبي (ﷺ)، والذين يظنون أن ظهور الإسلام ودعوته متوقف على شخص بعينه، فهؤلاء وأولئك قد أخطأوا ولم يقدروا هذا الدين قدره ولم يوفوه حقه، لأن ظهور هذا الدين وهيمنته على كل الأديان، هو قدر الله (عز وجل) وسنته، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** (سورة التوبة، آية: ٣٣).
فسبب ظهور هذا الدين أنه حق وأنه هدى[٢٨١].

في غزوة أحد ،نزل التشريع الإلهي بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة

---

(٢٧٨) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٣/ ٦١٦).

(٢٧٩) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٤).

(٢٨٠) انظر: تفسيرالقرطبي (٤/ ٢٢٢).

(٢٨١) انظر: مرض النبي ووفاته وأثر ذلك على الأمة، خالد أبو صالح، ص٢٠ نقلاً عن غزوة أحد دراسة دعوية، ص١٩١

أحد وعند موت الرسول (ﷺ) جاء التطبيق حيث (لما توفي رسول الله (ﷺ) أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم[٢٨٢] رسول الله (ﷺ) وهو مغشّى بثوب حبرة[٢٨٣]، فكشف عن وجهه (ﷺ)، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها)[٢٨٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر رضي الله عنه فقال أبو بكر رضي الله عنه: أما بعد من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾(سورة آل عمران، آية: ١٤٤). وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر رضي الله عنه قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضي الله عنه تلاها فعقرت[٢٨٥]، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي (ﷺ) قد مات[٢٨٦].

ثامنًا: معاملة النبي (ﷺ) للرماة الذين أخطأوا والمنافقين الذين انخذلوا:

أ- الرماة:

إن الرماة الذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أحد لم يخرجهم الرسول (ﷺ) خارج الصف، ولم يقل لهم: إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر، بعد ما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف. بل قبل ضعفهم هذا في رحمة وعفو وفي سماحة، ثم شمل (سبحانه وتعالى) برعايته وعفوه جميع الذين اشتركوا في هذه الغزوة، رغم ما وقع من بعضهم من أخطاء جسيمة وما ترتب عليه من خسائر فادحة، فعفا (سبحانه وتعالى) عفوًا غسل به خطاياهم ومحا به آثار تلك الخطايا قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٢). وهناك أمر مهم يتصل بهذا العفو قد يترك أثرًا في نفوسهم يعوقها بعض الشيء ذلك هو موقف رسول الله (ﷺ) مما حدث منهم، إنهم

(٢٨٢) فتيمّم: قصد.

(٢٨٣) الحبرة: نوع من برود اليمن مخططة غالية الثمن.

(٢٨٤) البخاري، كتاب المغازي، باب مرض رسول الله ووفاته رقم ٢٢٥٢.

(٢٨٥) عقرت: دهشت وتحيرت، وسقطت.

(٢٨٦) انظر: البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٥٢).

يشعرون أن الرسول (ﷺ) هو وحده الذي تحمل نتيجة تلك الأخطاء فلابد أن ينالوا منه عفوًا تطيب به نفوسهم، وتتم به نعمة الله عليهم، لهذا أمر الله (سبحانه وتعالى) نبيه (ﷺ) بأن يعفو عنهم وحثه على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفًا له عن الاستفادة من خبراتهم ومشورتهم[٢٨٧] قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩).

ب- انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين، كان يريد أن يحدث بلبلة واضطرابًا في الجيش الإسلامي، لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته وعمله هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام، وغدر به في أحلك الظروف، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخزال إلا أنهم رفضوا دعوته[٢٨٨] وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٦٦-١٦٧).

فبالرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد، لقلة جيش المسلمين وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول (ﷺ) ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم، ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس[٢٨٩] وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول، فعندما رجع رسول الله من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحث الناس على طاعة رسول الله (ﷺ). قال الإمام الزهري: كان عبد الله بن أبي له مقام بقومه كل جمعة لا ينكسر له شرفًا في نفسه وفي قومه وكان فيهم شريفًا إذا جلس رسول الله (ﷺ) يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجرًا[٢٩٠]، إن قمت أشدد أمره، فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إلي رجال من

(٢٨٧) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٢١٨.
(٢٨٨) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٢١٩.
(٢٨٩) نفس المصدر، ص٢٢٠.
(٢٩٠) بُجرًا: شرًا.

أصحابه يجبذونني ويعنفونني لكأنما قلت بُجرًا أن قمت أشدد أمره قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله. قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي(٢٩١).

تاسعًا: «أحد جبل نحبه ويحبنا»:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أن النبي (ﷺ) طلع له أحد فقال: **«هذا جبل يحبنا ونحبه»**(٢٩٢).

وهذا يدل على دقة شعور النبي (ﷺ) حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلاً أعلى على التخلق بخلق الوفاء؟

ألا وإن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء، ويُفضي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإذا كان وفاؤه (ﷺ) للجماد قد سَمَى حتى حاز أرقى العبارات وأرقَّها فأخْلقْ ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلاً عن من تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى(٢٩٣).

والحديث النبوي الشريف فيه كثير من المعاني منها ما ذكره الحميدي ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشامي حيث قال: والإنسان كثيرًا ما يربط بين المصيبة وبين مكانها أو زمانها.. وحتى لا تنسحب هذه العادة وتستمر بعد أن جاء الإسلام كان هذا القول الكريم بيانًا للحق، وابتعادًا عن الطيرة والتشاؤم، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السيئة في نفس الإنسان ،ولا شك أن المسلمين سيقفون على أحد يتذكرون تلك المعركة فحتى لا يرتبط بفكرهم ذلك المعنى السيئ، بيّن لهم أن المكان والزمان مخلوقات لله لا علاقة لهما ولا أثر بما يحدث فيهما، وإنما الأمور بيد الله تعالى، والاستشهاد في سبيل الله كرامة لصاحبه لا مصيبة، وهكذا تتساوق المفاهيم في إطارها الإيماني وإذا (أحد) يكرم ويحب انطلاقًا من هذا القول الكريم، وكيف لا يكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزة وأصحابه ممن اختارهم الله في ذلك اليوم فجادوا بأنفسهم ابتغاء مرضاته(٢٩٤).

عاشرًا: الملائكة في أحد:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: رأيت عن يمين رسول الله (ﷺ) وعن شماله، يوم أحد، رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد -يعني جبريل وميكائيل- عليهما السلام(٢٩٥).

---

(٢٩١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣).

(٢٩٢) انظر: صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٨٤.

(٢٩٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ١٩٨).

(٢٩٤) انظر: معين السيرة النبوية، ص٤٢٧.

(٢٩٥) مسلم، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل (٤/ ١٨٠٢).

وهذا خاص بالدفاع عن النبي (ﷺ) لأن الله تكفل بعصمته من الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أحد سوى هذا القتال، وإن وعدهم الله تعالى أن يمدهم، لأنه جعل وعده معلقًا على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد[٢٩٦]، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٢٤-١٢٥).

الحادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال، وآل عمران:

تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر بشيء من التفصيل، وتحدثت سورة آل عمران عن غزوة أحد لكي تتعلم الأمة كثيرًا من المفاهيم، تتعلق بمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النصر والهزيمة، ومفهوم الربح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنفاق، ومفهوم المحنة والمحق، . . . ومن المفاهيم التي تعلمها الصحابة رضي الله عنهم من خلال أحداث بدر وأحد وسورتي الأنفال، وآل عمران، قوانين النصر والهزيمة، وهذه القوانين قد بينتها الآيات الكريمة ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ- النصر ابتداء وانتهاء بيد الله (عز وجل)، وليس ملكًا لأحد من الخلق، يهبهالله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء، مثله مثل الرزق، والأجل والعمل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ١٠).

ب- وحين يقدّر الله تعالى النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٦٠).

ج- ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله (عز وجل) نحن بحاجة إلى فقهها، فلابد أن تكون الراية خالصة لله (سبحانه) عند الذين يمثلون جنده قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة محمد، آية: ٧).

ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

د- ووحدة الصف ووحدة الكلمة أساس في النصر، وتفريق الكلمة والاختلاف في الرأي دمار وهزيمة قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٦).

هـ- وطاعة أمر الله تعالى ورسوله وعدم الخروج عليها أساس في النصر، أما المعصية

(٢٩٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩١).

(٢٩٧) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٤٦١، ٤٦٢.

فتقود إلى الهزيمة قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٦).

و- وحب الدنيا والتهافت عليها يفقد الأمة عون الله ونصره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾..... (سورة آل عمران، آية: ١٥٢).

ز- ونقص العدد والعدة، ليس هو سبب الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٢٣).

ح- ولكن لا بد من الإعداد المادي والمعنوي لمواجهة العدو[٢٩٧] قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٠).

ط- والثبات عند المواجهة، والصبر عند اللقاء من العوامل الرئيسية في النصر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٥).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ١٥).

ي- ولا شيء يعين على الثبات والصبر عند اللقاء. مثل ذكر الله الكثير باتجاه القلب إلى الله وحده منزّل النصر، وطلب العون منه، والتوكل عليه، وعدم الاعتماد على العدد أو العدة أو الذات والتبرؤ من الحول والقوة، هو عامل أساسي من عوامل النصر[٢٩٨] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٥).

الثاني عشر: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم:

قال رسول الله (ﷺ): «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال (عز وجل): أنا أبلغهم عنكم». فأنزل الله (عز وجل) على رسوله (ﷺ) هذه الآيات[٢٩٩] قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ

---

(٢٩٨) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٤٦٣.

(٢٩٩) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٧٠).

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٦٩-١٧١).

وقد جاء في تفسير الآيات السابقة ما رواه الواحدي عن سعيد بن جبير أنه قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير يوم أحد، ورأوا ما رزقوا من الخير، قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رغبة فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [(٣٠٠)].

وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

قال: أما إنا سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر. لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث تشاء. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى تقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[(٣٠١)].

الثالث عشر: الهجوم الإعلامي على المشركين:

كان الإعلام في العهد النبوي يقوم على الشعر، وكان شعراء المشركين في بدر في موقف الدفاع والرثاء وفي أحد حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النصر، فجعلوا من الحبة قبة، وأمام هذه الكبرياء المزيفة، انبرى حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة للرد على حملات المشركين الإعلامية التي قادها شعراؤهم كهبيرة بن أبي وهب، وعبد الله الزبعري وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص[(٣٠٢)].

وكانت قصائد حسان كالقنابل على المشركين، وقد أشاد بشجاعة المسلمين، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملة المشركين، ويُوبِّخ المشركين ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم حتى كان في النهاية بيد امرأة منهم، وولَّى أشرافهم وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكير للمشركين بمواقف الذل والجبن التي تعرضوا لها في بداية المعركة؛ حتى لا يغتروا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسان من المشركين مقتلاً حينما عيرهم بالتخلي عن اللواء وإقدام امرأة منهم على حمله، وهذا يتضمن وصفهم بالجبن الشديد حيث أقدمت امرأة على ما نكلوا

(٣٠٠) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص١٢٥، تفسير الطبري (٤/ ٢٦٩).
(٣٠١) مسلم، كتاب الإمارة، باب أرواح الشهداء في الجنة (٣/ ١٥٠٢).
(٣٠٢) انظر: معين السيرة، ص٢٥٢، ٢٥٣.

عنه[٣٠٣].

ومما قاله في شأن عَمْرة بنت عَلقمة الحارثية ورفعها اللواء:

إذا عَضَلٌ سِيقت إلينا كأنها جداية شرك معلمات الحواجب[٣٠٤]

أقمنا لهم طعنًا مُبيرًا مُنكّلاً وحزناهم بالضرب من كل جانب[٣٠٥]

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يُباعون في الأسواق بيع الجلائب[٣٠٦]

وعندما أخذ اللواء من الحارثية غلام حبشي لبني طلحة، كان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثية وقاتل به قتالاً عنيفًا قتل على أثره فرمى حسان بن ثابت أبياته في هذا الموضوع فقال:

فخرتم باللواء وشرُّ فخر لواء حين رُدَّ إلى صُؤاب

جعلتم فخركم فيه بعبد وألأم من يطا عَفَر التراب

ظننتم، والسفيه له ظنون وما إن ذاك من أمر الصَّواب[٣٠٧]

ومما قاله كعب بن مالك رضي الله عنه في الرد على بعض شعراء قريش قال:

أبلغ قريشًا وخير القول أصدقه والصدق عند ذوي الألباب مقبول[٣٠٨]

أن قد قتلنا بقتلانا سَرَاتَكم أهل اللواء ففيما يكثر القيل

ويوم بدر لقيناكم لنا مدادٌ فيه مع النَّصر ميكال وجبريل

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا والقتل في الحق عند الله تفضيل

وإن تروا أمرنا في رأيكم سفهًا فرأي من خالف الإسلام تضليل[٣٠٩]

ومن أعجب ما قرأت في المعركة الإعلامية بين المسلمين والمشركين محاولة ضرر ابن الخطاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدر على اعتبار النصر كان لرسول الله والمهاجرين وفي ذلك قوله:

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما بأحمد أمسى جدُّكم وهو ظاهر

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه يحامون في اللأواء والموت حاضر

يعد أبو بكر وحمزة فيهم ويُدْعى عليٌّ وسْط من أنت ذاكر

ويدعى أبو حفص وعثمان منهم وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر

أولئك لا من نتَّجت من ديارها بنو الأوس والنجار حين تفاخر[٣١٠]

(٣٠٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ٢١).

(٣٠٤) عضل: اسم قبيلة بن خزيمة، الجداية: الصغير من أولاد الظباء.

(٣٠٥) مبيرًا: مهلكًا. ومنكلاً: قامعًا لهم ولغيرهم.

(٣٠٦) الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق ليباع فيها.

(٣٠٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨٧). (٣٠٨) الألباب: العقول.

(٣٠٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٦٤). (٣١٠) انظر: معين السيرة، ص٢٥٢.

وهكذا حوّلها إلى لغة قبلية تقوم على مفاهيم جاهلية ولقد أجابه كعب رضي الله عنه:

وفـينا رسـول الله والأوس حـوله ... له مـعـقل منـهم عـزيز وناصـر
وجـمع بني النجـار تحت لـوائه ... يمسـون في المأذى والنقـع ثائـر

إلى أن قال:

وكـان رسـول الله قـد قـال أقـبلوا ... فـولّوا وقـالوا: إنما أنـت سـاحـر
لأمـر أراد الله أن يـهلكـوا بـه ... وليـس لأمـر حـمّـه الـنار زاجـر

كما أجابه بقوله:

وبـيـوم بدر إذ نـرد وجـوههم ... جـبـريل تحت لوائنا ومـحـمـد

وهو أفخر بيت قالته العرب كما قال صاحب العقد الفريد(٣١١).

●●●

(٣١١) انظر: معين السيرة، ص٢٥٢.



الفصل العاشر

أهم الأحداث ما بين أحد والخندق





المبحث الأول

محاولات المشركين لزعزعة الدولة الإسلامية

كانت غزوة أحد مشجعة لأعداء الدولة الإسلامية على مواجهتها، وساد الشعور لدى الأعراب المشركين، بإمكان مناوشة المسلمين والتغلب عليهم، واتجهت انظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة لاستئصال شأفتهم، وكسر شوكتهم، فطمعت بنو أسد في الدولة الإسلامية، وشرع خالد بن سفيان الهزلي لجمع الحشود لكي يهاجم بها المدينة، وتجرأت عَضَل والقارة على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفيل يقتل القرّاء الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بني النضير أن تغتال رسول الله (ﷺ)، فتصدى لهذه المحاولات الماكرة الحبيب المصطفى بشجاعة فائقة، وسياسة ماهرة، وتخطيط سليم، وتنفيذ دقيق.

أولاً: طمع بني أسد في الدولة الإسلامية:

بلغت النبي (ﷺ) -بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربية -أخبار الاستعدادات التي قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي من أجل غزو المدينة طمعًا في خيراتها، وانتصارًا لشركهم، ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين، فسارع النبي (ﷺ) إلى تشكيل سرية في مئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وأمَّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد[1]، المخزومي، وعقد له لواء، وقال له: «**سر حتى تنزل أرض بني أسد، فأغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم**»[2]. فسار إليهم أبو سلمة في المحرم[3]. فأغار على أنعامهم، ففروا من وجهه فأخذها. ولم يلق عناء في تشتيت أعداء الإسلام وعاد إلى المدينة مظفرًا. وأبو سلمة يعد من السابقين إلى الإيمان ومن خيرة الرعيل الأول، وقد عاد من هذه الغزوة متعبًا. إذ نغر جرحه الذي أصابه في (أحد) فلم يلبث حتى مات[4].

ونلحظ في هذه السرية عدة أمور منها: الدقة في التخطيط الحربي، عند النبي (ﷺ) حيث فرق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجيء سرية أبي سلمة وهم يظنون أن المسلمين قد أضعفتهم وقعة أحد وأذهلتهم عن أنفسهم، فأصيب المشركون بالرعب من المسلمين ووهت عزيمتهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة، وتظهر دقة المسلمين في الرصد الحربي واختيارهم التوقيت الصحيح والطريق المناسب حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بُعد المسافة، وكان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية ،وتركت هذه السرية في نفوس الأعداء شعوراً مؤثرًا على معنوياتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يتلؤون رعبًا منهم ويتوقعون الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور حملهم على الاعتراف بقوة المسلمين، ومسالمتهم[5].

---

(١) انظر: نظرة النعيم (١/٣١٣).

(٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص١٦٢، ١٦٣.

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/٢٤٣).

(٤) فقه السيرة للغزالي، ص٢٧٤. (٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/٢٣).

ثانيًا: خالد بن سفيان الهذلي وتصدي عبد الله بن أنيس له رضي الله عنه:

قام خالد بن سفيان الهذلي يجمّع المقاتلة من هذيل وغيرها في عرفات وكان يتهيأ لغزو المسلمين في المدينة مظاهرة لقريش، وتقربًا إليها، ودفاعًا عن عقائدهم الفاسدة، وطمعًا في خيرات المدينة، فأرسل رسول الله (ﷺ) الصحابي عبد الله بن أنيس الجهني إليه بعد أن كلّفه مهمة قتله[٦] وهذا عبد الله بن أنيس يحدثنا بنفسه قال رضي الله عنه: دعاني رسول الله (ﷺ) فقال: «**إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني**» وهو بعرنة فائته فاقتله، قال: قلت: يا رسول الله انعته حتى أعرفه، قال: «**إذا رأيته وجدت له قشعريرة**».

قال: فخرجت متوشحًا بسيفي، حتى وقعت عليه بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلاً، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومي برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل، قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا. قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت على رسول الله (ﷺ) فرآني فقال: «**أفلح الوجه**»، قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: «**صدقت**»، قال: ثم قام معي رسول الله فدخل في بيته فأعطاني عصا، فقال: «**أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس**».

قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله (ﷺ)، وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله (ﷺ) فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله (ﷺ)، فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «**آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المختصرون[٧] يومئذ يوم القيامة**»، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه، حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعًا)[٨].

وفي هذا الخبر فوائد ودروس وعبر منها:

١- دقة الرصد الحربي:

كان رسول الله (ﷺ) يعطي للجانب الأمني أهميته، ولذلك كان يتابع تحركات الأعداء، ويعد بعد ذلك الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها الملائم، ولذلك لم يمهل خالد بن سفيان حتى يكثر جمعه ويشتد ساعده، بل عمل على القضاء على الفتنة وهي في أيامها الأولى بحزم ،وبذلك حقق للأمة مكاسب كبيرة وقلل التضحيات المتوقعة من مجيء خالد ابن سفيان بجيش لغزو المدينة وهذا العمل يحتاج لقدرة في الرصد الحربي، وسرعة في

(٦) انظر: نظرة النعيم (١/٣١٣).

(٧) المختصرون: أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحة يتكئون عليها .

(٨) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣١٩ .

اتخاذ القرار

٢- فراسة النبي (ﷺ) في اختيار الرجال:

كان (ﷺ) يتمتع بفراسة عظيمة في اختيار الرجال ومعرفة كبيرة لذوي الكفاءات من أصحابه، فكان يختار لكل مهمة من يناسبها، فيختار للقيادة من يجمع بين سداد الرأي وحسن التصرف والشجاعة، ويختار للدعوة والتعليم من يجمع بين غزارة العلم ودماثة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء من يجمع بين حسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائية يختار من يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر[٩] فقد كان عبد الله بن أنيس الجهني قوي القلب ثبت الجنان، راسخ اليقين، عظيم الإيمان[١٠] وبجانب هذه الصفات العظيمة التي أهلته لهذه المهمة، فهناك سبب آخر: فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه (جُهَينة)[١١]

٣- المكافأة على هذا العمل أخروية:

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء مادية دنيوية كما يتمناه الكثير ممن يقوم بالمهمات الشاقة في جيوش العالم قديمًا وحديثًا بل كانت أسمى من ذلك وأعظم فهي وسام شرف أخروي قليل من يناله[١٢] فقد كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المتقين لا ينتظرون جزاء في الدنيا ولو حصلوا على شيء من متاع الدنيا فإنه لا يعتبر عندهم شيئًا كبيرًا، وإنما ينتظرون جزاءهم في الآخرة ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيس تلك العصا التي ستكون علامة بينه وبين رسول الله يوم القيامة وهذا يدل على علو مكانته في الآخرة[١٣]

٤- بعض الأحكام الفقهية:

تضمن هذا الخبر بعض الأحكام والفوائد منها: (صلاة الطالب)، قال الخطابي: واختلفوا في صلاة الطالب، فقال عوام أهل العلم: إذا كان مطلوبًا كان له أن يصلي إيماء وإذا كان طالبًا نزل إن كان راكبًا وصلى بالأرض راكعًا وساجدًا[١٤] وكذلك قال ابن المنذر[١٥]، أما الشافعي فشرط شرطًا لم يشترطه غيره، قال: إذا قل الطالبون عن المطلوبين، وانقطع الطالبون عن أصحابهم فيخافون عودة المطلوبين عليهم فإذا كان هكذا كان لهم أن يصلوا يومئون إيماء.

(٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٢٧).
(١٠) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٥٠، ٥١).
(١١) انظر: غزوة أحد، محمد باشميل، ص(٣١).
(١٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص(١٥٩، ١٦٠).
(١٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٢٩).
(١٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص(١٦٠).
(١٥) نفس المصدر، ص(١٦٠).

قال الخطابي: وبعض هذه المعاني موجودة في قصة عبد الله بن أنيس[١٦].

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب، فعند أبي حنيفة: إذا كان الرجل مطلوبًا فلا بأس بصلاته سائرًا. وإن كان طالبًا فلا. وقال مالك وجماعة من أصحابه: هما سواء كل واحد منهما يصلي على دابته.

وقال الأوزاعي والشافعي في آخرين كقول أبي حنيفة، وهو قول عطاء والحسن والثوري وأحمد وأبي ثور.

وعن الشافعي: إن خاف الطالب فوت المطلوب أومأ وإلا فلا[١٧].

٥- جواز الاجتهاد في زمن النبي (ﷺ):

يجوز الاجتهاد في زمن النبي (ﷺ)، فعبد الله بن أنيس رضي الله عنه أداه اجتهاده أن يصلي هذه الصلاة، ولم ينكر عليه (ﷺ) مما يدل على جواز الصلاة عند شدة الخوف بالإيماء[١٨].

وهذا الاستدلال صحيح لا شك فيه، لأن عبد الله بن أنيس فعل ذلك في حياة النبي وذلك زمن الوحي، ومحال أن النبي (ﷺ) لم يطلع عليه[١٩].

٦- من دلائل النبوة:

فقد وصف (ﷺ) خالد بن سفيان الهذلي لعبد الله بن أنيس وصفًا دقيقًا دون أن يراه حتى أن ابن أنيس عندما رد على رسول الله (ﷺ) متعجبًا كما وقع في رواية الواقدي: (يا رسول الله ما فرقت من شيء قط، قال له رسول الله (ﷺ): «بلى آية ما بيني وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته»[٢٠]، وقد وجد عبد الله بن أنيس خالد الهذلي على الصفة التي ذكر رسول الله (ﷺ)، يقول عبد الله :)فلما رأيته هبته وفرقت منه، فقلت: صدق الله ورسوله)[٢١].

٧- ما قاله عبد الله بن أنيس من الشعر في قتله لخالد الهذلي:

تركت ابن ثور كالحوار وحوله ... نوائح تفري كل جيب مُقدّد

تناولته والظعْن خلفي وخلفه ... بأبيض من ماء الحديد المهند

أقول له والسيف يعجم رأسه ... أنا ابن أنيس فارسًا غير قُعْدُد

---

(١٦) معالم السنن للخطابي (٢/ ٤٢) حاشية واحد على سنن أبي داود .

(١٧) انظر: عمدة القارئ شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٦٣) .

(١٨) انظر: السرايا والبعوث ، ص١٦١ .

(١٩) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي (٤/ ١٢٩) .

(٢٠) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٣٢) .

(٢١) انظر: البيهقي دلائل النبوة (٤/ ٤١) من رواية موسى بن عقبة .

وقلت لـه خـذها بـضـربة مـاجـد حنيف على دين النبي محمد
وكـنـت إذا هم الـنـبـي بكـافـر سـبـقت إليـه بالـلسان وباليـد[٢٢]

ثالثًا: غدر قبيلتي عَضَل والقارة، وفاجعة الرجيع:

اختلفت مرويات سرية الرجيع فيما بينها كثيرًا حول السبب الذي من أجله بعث النبي (ﷺ)، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث عينًا لتجمع المعلومات عن العدو[٢٣]، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها أنه قدم على رسول الله (ﷺ) رهط من قبيلتي عضل والقارة المضريتين إلى المدينة وقالوا: (إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهونا ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام)[٢٤] ويظهر أن قبيلة هذيل قد سعت للثأر من المسلمين لخالد بن سفيان الهذلي فلجأت إلى الخديعة والغدر، وقد جزم الواقدي[٢٥] بأن السبب هو أن بني لحيان وهم حي من هذيل، مَشَتْ إلى عضل والقارة وجعلت لهم جعلاً ليخرجوا إلى رسول الله (ﷺ) ويطلبون منه أن يُخرج معهم من يدعوهم إلى الإسلام ويفقههم في الدين، فيكمنوا لهم ويأسروهم ويصيبوا بهم ثمنًا في مكة[٢٦].

وهكذا بعث الرسول (ﷺ) هذه السرية التي تتألف من عشرة من الصحابة[٢٧]، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميرًا، حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة أغار بنو لحيان - وهم قريب من مائتي مقاتل - فألجأوهم إلى تل مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم الأمان من القتل، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمة كافر[٢٨]، وقال عاصم بن ثابت: إني نذرت ألا أقبل جوار مشرك أبدًا، فجعل عاصم يقاتلهم وهو يقول:

ما علَّتي وأنا جلد نابل النَّبْلُ والقوس لها بلابل[٢٩]
تزل عن صفحتها المعابل الموت حق والحياة باطل
وكل ما حمّ الإله نازل بالمرء والمرء إليه آئل

إن لم أقاتلكم فأمِّي هابل [٣٠]

(٢٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤٣).
(٢٣) البخاري رقم ٤٠٨٦.
(٢٤) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٥٤-٣٥٥).
(٢٥) نفس المصدر (١/ ٣٥٤-٣٥٥).
(٢٦) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٢٧) البخاري رقم ٤٠٨٦.
(٢٨) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣١٤).
(٢٩) بلابل: جمع بلبلة وبلبال، وهو شدة الهم.
(٣٠) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٥٥).

فرماهم بالنبل حتى فنيت نبله، ثم طاعنهم بالرمح حتى كُسر رمحه، وبقي السيف فقال: اللهم حميت دينك أول نهاري فاحْم لي لحمي آخره! وكانوا يجرِّدون كل من قتل من أصحابه فكسر غمد سيفه ثم قاتل حتى قتل، وقد جرح رجلين وقتل واحدًا وكان يقول وهو يقاتل:

أنا أبو سليمان ومثلي رامي ورثتُ مجدًا معشرًا كرامًا

ثم شرعوا فيه الأسنّة حتى قتلوه، وكانت سُلافة بنت سعد بن الشُّهَيد قد قتل زوجها وبنوها أربعة، قد كان عاصم قتل منهم اثنين، الحارث، ومُسافعا. فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحف[٣١] رأسه الخمر، وجعلت لِمن جاء برأس عاصم مائة ناقة، قد علمت بذلك العرب وعلمته بنو لحيان فأرادوا أن يحتزّوا رأس عاصم ليذهبوا به إلى سُلافة بنت سعد ليأخذوا منها مائة ناقة، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْر فحمته فلم يَدْنُ إليه أحد إلا لدغت وجهه، وجاء منها شيء كثير لا طاقة لأحد به، فقالوا: دعوه إلى الليل، فإنه إذا جاء الليل ذهب عنه الدَّبْر، فلما جاء الليل بعث الله عليه سيلاً ولم يكن في السماء سحابًا في وجه من الوجوه، فاحتمله فذهب به فلم يصلوا إليه[٣٢].

لقد قتل عاصم في سبعة من أفراد السرية بالنبال، ثم أعطى الأعراب الأمان من جديد للثلاثة الباقين، فقبلوا غير أنهم سرعان ما غدروا بهم بعد ما تمكنوا منهم وقد قاومهم عبد الله ابن طارق فقتلوه واقتادوا الاثنين إلى مكة - وهما خبيب وزيد بن الدثّنة فباعوهما لقريش[٣٣] وكان ذلك في صفر سنة ٤هـ[٣٤].

فأما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موس من بنات الحارث، استحدّ بها فأعارته، وغفلت عن صبي لها فجلس على فخذه، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقامًا منه، فقال خبيب: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل هو[٣٥] ثم قال: (اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا[٣٦] ولا تُبق منهم أحدًا) ثم قال:

---

(٣١) نفس المصدر (١/ ٣٥٥).

(٣٢) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٥٦).

(٣٣) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣١٤).

(٣٤) جوامع السير لابن حزم، ص١٧٦.

(٣٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٩٩).

(٣٦) أي متفرقين في القتل واحدًا بعد واحد من التبديد.

لقد أجمع الأحزاب حولي وألّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدي العداوة جاهدٌ ... عليَّ لأنّي في وثاق بمضيع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذع طويل مُمَنّع
إلى الله أشكو غُربتي بعد كُربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يُرادُ بي ... فقد بضَّعُوا لحمي وقد يَاسَ (٣٧)مطمعي
وقد خيروني الكفر، والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت إني لميت ... وإن إلى ربي إيابي ومرْجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شقٍّ كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو مُمَزَّع
فلست بمبد للعدو تخشُّعا ... ولا جزعًا إني إلى الله مرجعي (٣٨)

فقال له أبو سفيان: أيسرُّك أن محمدًا عندنا يُضربُ عنقه وإنك في أهلك، فقال: لا والله، ما يسرُّني أني في أهلي، وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه(٣٩) ثم قتل وصلبوه، ووكّلوا به من يحرس جُثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بجذعه ليلاً فذهب به ودفنه(٤٠) وأما زيد بن الدثنّة فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه (أمية بن خلف الذي قتل ببدر) وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا(٤١).

وقد عرفت هذه الحادثة المفجعة بالرجيع نسبة إلى ماء الرجيع الذي حصلت عنده.

وفي هذه الحادثة دروس وعبر وفوائد منها:

١- فوائد ذكرها ابن حجر:

وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ولا يمكن من نفسه ولو قتل، أنفة من أن يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن. قال الحسن البصري: لا بأس بذلك وقال سفيان الثوري: أكره ذلك. وفيه الوفاء

(٣٧) يَاَس: لغة في يئس.
(٣٨) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).
(٣٩) نفس المصدر (٣/ ٢٤٥).
(٤٠) المصدر السابق (٣/ ٢٤٦).
(٤١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٠).

للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطف بمن أريد قتله وإثبات كرامة الأولياء والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل وفيه إنشاد الشعر، وإنشاده عند القتل دلالة على قوة يقين خبيب وشدته في دينه.

وفيه أن الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، وفيه استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيًا وميتًا. وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل. وإنما استجاب الله له من حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه[٤٢].

٢- بين التسليم والقتال حتى الموت:

يستدل مما سبق أن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكّن من نفسه ولو قتل، ترفعًا عن أن يجري عليه حكم كافر، كما فعل عاصم، فإن أراد الترخص فله أن يستأمن، مترقبًا الفرصة مؤملاً الخلاص كما فعل خبيب وزيد ولكن لو قدر الأسير على الهرب لزمه ذلك في الأصح، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم، لأن الأسير في يد الكفار مقهور مهان، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر ورقه[٤٣].

وهذا الحدث يفتح أمام المسلمين بابًا واسعًا في التعامل مع الأحداث في اختيارهم الأسر إذ طلبوا مظلومين أو اختيارهم القتال حتى الموت ما دام الطالب لا يطلبهم بعدل وما دامت السلطة غير إسلامية[٤٤].

٣- تعظيم سنة النبي (ﷺ):

وفي الحديث يظهر تعظيم الصحابة لسنة النبي (ﷺ)، وكيف أن خبيبًا مع أنه في أسر المشركين، ويعلم أنه سيقتل بين عشية أو ضحاها ومع ذلك كان حريصًا على سنة الاستحداد، واستعار السكين لذلك، وفي هذا تذكير لمن يستهين بكثير من السنن، بل والواجبات بحجة ألا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السنة والدخول في شرائع الإسلام، كافة[٤٥].

٤- الإسلام ينتزع الغدر والأحقاد:

عندما استعار خبيب موس من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت المرأة: فغفلت عن صبي لي، تدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه فلما رأته فزعت منه فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموس، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله[٤٦].

---

(٤٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٤٤-٤٤٥).
(٤٣) انظر: السيرة للبوطي، ص١٨٨-١٨٩.
(٤٤) انظر: الأساس في السنّة لسعيد حوى (٢/ ٦٢٢).
(٤٥) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، ص٢٣٤.
(٤٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٢٠ رواية غريبة.

إنه موقف رائع يدل على سمو الروح، وصفا النفس، والالتزام بالمنهج الإسلامي فقد قال تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (سورة الإسراء آية: ١٥).

إنه الوفاء يتعلمه الناس ممن غدر بهم، إن الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرخاء والشدة(٤٧).

وفي قول خبيب رضي الله عنه: (ما كنت لأفعل إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في البيان العربي إلى أن هذا الفعل غير وارد ولا متصور ولا هو في الحسبان، في هذا الظرف الحاسم، الذي قد يتعلق فيه الاستثناء لموقع الضرورة، وإنقاذ المهج، لكن المبدأ الأصلي، الوفاء والكف عن البرءاة، لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة(٤٨) وهذا مثل من عظمة الصحابة رضي الله عنهم حين يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم وإن كانوا قد ظلموهم، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم(٤٩).

٥- حب النبي (ﷺ) عند الصحابة:

إن حظ الصحابة من حبه (ﷺ) كان أتم وأوفر، ذلك أن المحبة ثمرة المعرفة وهم بقدره (ﷺ) ومنزلته أعلم وأعرف من غيرهم فبالتالي كان حبهم له (ﷺ) أشد وأكبر(٥٠).

ففي حادثة الرجيع يظهر هذا الحب في الحوار الهادئ بين أبي سفيان وبين زيد بن الدثنة، إذ قال له أبو سفيان: أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة ، وإني جالس في أهلي(٥١).

وهذا الحب من الإيمان فقد قال (ﷺ): «**ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ،وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(٥٢).

٦- مما قاله حسان في ذم بني لحيان:

تأثر المسلمون بمقتل أصحاب الرجيع تأثرًا بالغًا وكان حسان رضي الله عنه بشعره يعبر عن حال المسلمين، فمن يستحق الهجاء هجاه ومن يستحق المدح مدحه فقال في هجاء بني لحيان:

---

(٤٧) انظر: معين السيرة ، ص(٢٥٩) .
(٤٨) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص(١٥٣) .
(٤٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٣٨) .
(٥٠) انظر: حقوق النبي على أمته، د . محمد التميمي (١/ ٣١٤) .
(٥١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص(١٥٤) .
(٥٢) البخاري، كتاب الإيمان (١/ ٧٢) رقم (٢١).

إن سـرّك الغـدر صـرفـا لا مـراج له ... فـائـت الرجـيع فَـسَلْ عن دار لحـيـان

قـــوم تواصـــوا بأكل الجـــارَ بينـهـم ... فـالكلب والقـرد والإنسـان مـثـلان

لو ينطق الـتّـيس يومـا قـام يخـطبـهم ... وكـان ذا شـرف فـيـهـم وذا شـان[٥٣]

رابعًا: طمع عامر بن الطفيل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤ هـ):

عامر بن الطفيل زعيم من زعماء بني عامر كان متكبرًا متغطرسًا، طامعًا في الملك وكان يرأى أن النبي (ﷺ) سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربية؛ ولذلك جاء هذا المشرك إلى النبي (ﷺ) وقال له: أخيرك بين ثلاث خصال: أن يكون لك السهل، ولي أهل المدر، أو أن أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بـغطفان بألف أشقر وألف شقراء[٥٤]، فـرفض (ﷺ) تلك المطالب الجاهليـة وجاء إلى المدينة ملاعب الأسنة سيـد بني عامر عمّ عامـر بن الطفيل وقدّم إلى النبي (ﷺ) هدية، فعـرض عليه النبي (ﷺ) الإسلام فأبى أن يسلم، فقال النبي (ﷺ) **«فإني لا أقبل هدية من مشرك»**، فقال ملاعب الأسنة: فابعث إلى أهل نجد من شئت فأنا لهم جار، فبـعث إليهم بقوم فيهم المنذر بن عمرو، وهو الذي يقـال له: المعتق ليموت أو أعتق الموت فاسـتجاش[٥٥] عليهم عامر بن الطفيل بني عـامر فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا مـلاعب الأسنة، فاستجاش عليـهم بني سليم، فأطاعوه، فاتبعـهم بقريب من مائة رجل رام فأدركهم ببئر معونة، فـقتلوهم إلا عمرو بن أمية[٥٦] ومن حـديث أنس رضي الله عنه قال: جـاء ناس إلى النبي (ﷺ) فقالوا: أن ابعث معنا رجـالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقـال لهم: القراء فيهم خالي حرام، يقرؤون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمـون، وكانوا بالنهار يجيؤون بالماء فيضعونـه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء فبعثهم النبي (ﷺ) إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهـم، قبل أن يبلغوا المكان، فقـالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقـيناك فرضـينا عنك، ورضــيت عنا قال: وأتى رجل حرامًا خال أنس من خلفـه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فزت ورب الكعبة، فقال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: **«إن إخوانكم قـد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا»**[٥٧].

وفي هذه الحادثة المؤلمة، والفاجعة المفجعة دروس وعبر وفوائد منها:

١- لا بد للدعوة من تضحيات:

رأينا كيف غدر حلفاء هذيل بأصـحاب الرجيع من القراء الذين أرسلهـم النبي (ﷺ)

---

(٥٣) انظر البداية والنهاية (٤/ ٧٠).

(٥٤) البخاري رقم ٤٠٩١ يقصد بألف أشقر وألف شقراء الخيل.

(٥٥) استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.

(٥٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٢٢.

(٥٧) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد رقم ٦٧٧.

معلمين ومفقهين في غزوة الرجيع، وها هنا عـامر بن الطفيل يغدر بالسبعين القراء الذيـن استنفروا للدعوة إلى الله، والتـفقيه في دين الله في مجزرة رهيبـة دنيئة، وذلك في يوم بئر معونة.

وقد تركت هذه المصائب في نفس رسول الله (ﷺ) آثار غائرة، بعيدة الأعماق حتى إنه لبث شهرًا يقنت في صلاة الفجر، داعيًا على قبائل سليم التي عصت الله ورسوله[٥٨] فعن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: قنت رسول الله (ﷺ) شهرًا مـتتابعًا في الظهـر والعصر والمغرب والعـشاء وصـلاة الصبح، في دبر كل صلاة، إذ قـال:)سمع الله لمن حـمده) من الركعـة الأخيرة، يدعـو على أحياء من بني سلـيم، على رعل وذكوان وعصـية ويؤمِّن من خلفه[٥٩] قال أنس بن مالك رضي الله عنه: وذلك بدء القنوت وما كنّا نقنت[٦٠].

لكن ذلك لم يفتّ في عضـد المسلمين، ولا فتَّر من حـميتـهم في الدعوة إلى الله ولا كسـر من عزمهم في مـواصلة الدعوة وخدمـة دين الله، لأن مصلحة الدعـوة فوق الأنفس والدماء. بل إن الدعوة لا يكتب لها النصر إذا لم تبذل في سبيلها الأرواح، ولا شيء يمكِّن للدعوة في الأرض، مثل الصلابة في مواجهة الأحداث والأزمـات، واسترخاص التضحيات من أجلها.

إن الدعوات بدون قـوى أو تضحيات، يوشك أن تكون بمثـابة فلسفات وأخيلة، تلـفها الكتب، وترويها الأساطير، ثم تطوى مع الزمن.

إن حادثتي الرجيع وبئر معونة تبصرنا بالمسؤولية الضخمة عن دين الله، والدعوة إليه، ووضعت نصب أعيننـا نماذج من التضحيات العظيـمة التي قدمها الصـحابة الكرام من أجل عقيدتهم ودينهم ومرضاة ربهم.

إن للسعادة ثمنًا. وإن للراحة ثمنًا. وإن للمجد والسلطان ثمنًا. وثمن هذه الدعوة: دم زكيٌّ يهراق في سـبيل الله من أجل تحقـيق شرع الله ونظامه وتثـبيت معـالم دينه على وجه البسيطة[٦١].

٢- فزت ورب الكعبة:

صاحب الكلمة حرام بن ملحان رضي الله عنه، فعندمـا اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صـدره وأصـبح يتلقـى الدم بيـديه، ويمسح به وجـهـه ورأسـه ويقـول: (فـزت ورب الكعبة)[٦٢] إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجرًا يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظمـاء الذين لا تصفـر وجـوههم فزعًـا من الموت وإنما يعلوها البـشر والسـرور،

(٥٨) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص(١٥١).
(٥٩) انظر: سنن أبي داود في الصلاة، باب القنوت في الصلوات: (١٤٤٣).
(٦٠) البخاري، رقم (٤٠٨٨).
(٦١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص(١٥٢).
(٦٢) البخاري في المغازي رقم (٤٠٩١).

وتغشاها السكينة والطمأنينة[٦٣] وهذا المنظر البديع الرائع الذي لا يتصوره العقل البشري المجرد عن الإيمان جعل جبار بن سلمى وهو الذي طعن حرام بن ملحان يتسأل عن قول حرام: فزت ورب الكعبة وهذا جبار يحدثنا بنفسه فيقول: إن مما دعاني إلى الإسلام، أني طعنت رجلاً منهم يومئذ برمح بين كتفيه فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فزت ورب الكعبة! فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعمر الله، فكان سببًا لإسلامه[٦٤].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتساؤل: هل يتعرض الشهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشافية من رسول الله (ﷺ) الذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «**ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة**»[٦٥].

فللشهيد منزلة خاصة عند الله، فجزاء الثمن الباهظ الذي يدفعه وهو روحه رخيصة في سبيل الله (عز وجل) لم يبخسه أعدل العادلين حقه فكافأه مكافأة بست جوائز كل وحدة منها تعدل الدنيا ومن فيها، فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويحلَّى حلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفَّع في سبعين إنسانًا من أقاربه**»[٦٦].

هذا بالإضافة إلى الوسام المميز المشرف الذي يأتي به يوم القيامة، وجرحه كهيئة يوم جرح: اللون لون الدم، والريح ريح مسك[٦٧].

كما أن حياة الشهداء لا تنتهي بمجرد موتهم، بل هم أحياء يرزقون ويتنعمون عند ربهم[٦٨] قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (سورة آل عمران: ١٦٩).

٣- عدم معرفة النبي (ﷺ) للغيب:

إن حادثتي بئر معونة والرجيع وغيرها تدل على أن الرسول (ﷺ) لا يعلم الغيب، كما دلت على ذلك أدلة أخرى منها قوله (عز وجل): ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٨٨).

---

(٦٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٥٠).

(٦٤) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٢٤٣، ٢٤٤، وابن هشام (٣/ ٢٠٧).

(٦٥) انظر: صحيح سنن الترمذي للألباني (٢/ ١٣٣).

(٦٦) نفس المصدر (٢/ ١٢٩).

(٦٧) المصدر السابق (٢/ ١٢٨).

(٦٨) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص(٢٤٥).

فالله (عز وجل) وحده عالم الغيب، والرسل والملائكة لا يعلمون عن الغيب إلا ماعلمهم ربهم (عز وجل)(٦٩) : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (سورة الجن، آية: ٢٦).

٤- الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه أسيرًا في بئر معونة ولما علم عامر بن الطفيل أنه من مضر أطلقه، وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فلما خرج عمرو قاصدًا المدينة نزل في طريقه في ظل والتقى برجلين من بني عامر وكان معهم عقد من رسول الله وجوار، لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقال: من بني عامر، فأمهلهما حتى ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤرة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله (ﷺ) فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله، فأخبره الخبر، قال رسول الله (ﷺ): «**لقد قتلت قتيلين لأدينّهما**»(٧٠) وهذا موقف رفيع فقد ودَى (ﷺ) ذينك الرجلين العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري لكونهما يحملان عقدًا منه (ﷺ) ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النبي (ﷺ) أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزءًا من الانتقام الذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟

إن التوجيهات الإسلامية الرفيعة دفعت بالمسلمين ونبيهم (ﷺ) إلى الرقي الأخلاقي الذي لا نظير له في دنيا الناس(٧١).

٥- الصحابي الجليل عامر بن فهيرة رضي الله عنه:

لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة. فقال: لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع(٧٢).

٦- حسان بن ثابت رضي الله عنه يحرّض على قتل عامر بن الطفيل:

كان حسان رضي الله عنه من رجالات المؤسسة الإعلامية، فكان يشنّ الحرب النفسية على الأعداء وكان بجانبه كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم فلم يتركوا حدثًا من أحداث السيرة إلا قالوا فيه شعرًا، وكل قصيدة للكافرين يردون عليها بقصائد، وقد علمنا ما أحدثه شعر حسان في طرد كعب بن الشرف اليهودي، وكان (ﷺ) يتعهد

---

(٦٩) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية، ص(٢٣٧).
(٧٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٠٦).
(٧١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٥٠). (٧٢) البخاري في المغازي رقم (٤٠٩٣).

شعـراء الدولة الإسلامـية ويشـجعهم عـلى خوض هذا الباب مـن الجهاد، فـعلى المسلمين المعاصرين قادة وزعـماء وعلماء وفقهاء وجـماعات أن يرعوا شعراءهم ويشـجعونهم لخوض هذا الجهاد العظيم(٧٣).

ولما بلغ حسان خبر أصحاب بئر معونة نظم أبيـات تناقلتها الركبان يحث فيها ربيعة بن عامر ملاعب الأسنة ويحرِّضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء:

ألا من مـبلغ عني ربيـعًـا ... فـما أحـدثت في الحـادثان بعـدي
أبـوك أبو الفـعـال أبو بـراء ... وخـالك مـاجـد حكم بـن سـعـد
بـنـي أم البـنين ألـم يـرعـكـم ... وأنـتـم مـن ذوائـب أهـل نجـد
تحـكّـم عـامـر بأبـي بـراء ... ليـخـفـره ومـا خطـأ كـعَـمْـد(٧٤)

فلما بـلغ ربيعة بن أبي بـراء هذا الشعر، وكـان الشعـر عندهم أوجع من رشق النبل، وقطع السيوف للرقـاب، وطعن النحور بالرماح، قام ربيـعة بأخذ ثأر أبيه فضـرب عامر بن الطفيل ضربة أشواه بها -أي لم تصب منه مقتلاً- فوثب عليه قومه، وقالوا لعامر: اقتص فقال: قد عفوت، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أتى إلي(٧٥) ومما قاله حسان وهو يبكي قتلى بئر معونة، ويخص المنذر بن عمرو رضي الله عنه:

على قـتـلى مـعـونة فـاسـتـهلّي ... بدمع الـعين سَـحًّـا غـيـر نَزْر(٧٦)
على خـيل الرسـول غـداة لاقـوا ... منـاياهـم ولاقَـتْـهـم بقَـدْر(٧٧)
أصـابـهم الفـناء بعـقـد قـوم ... تُخُـوّن عَـقْـدُ حَـبْلهم بـغَـدْر(٧٨)
فـيـا لـهـفي لمنذر إذ تـولّى ... وأعنَـق في منيّـتـه بصَـبْـر(٧٩)

٧- مصير عامر بن الطفيل العامري:

استجاب الله لدعاء نبيه (ﷺ) فقد دعا (ﷺ) على عامر بن الطفيل فقال: «اللهم اكفني عامرًا»(٨٠)، فأصيب الطاغية بمرض عضال وصفه (ﷺ) بقوله: «غدة كغدة البعير»(٨١)، وسمـاه (ﷺ) بـ(الطاعون).. وهو وصف دقيق للطاعون الدبلي الذي يتـميز (بارتفاع درجة

(٧٣) انظر: السيرة النبوية الأساس في السنّة وفقهها (٢/ ٦٥٦).
(٧٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٦٤).
(٧٥) نفس المصدر (٤/ ٦٤).
(٧٦) استهلي: أسبلي دمعك. السح: العزيز المتتابع. والنزر: القليل.
(٧٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٩).
(٧٨) تُخُون: تنقضي (بالبناء للمجهول).
(٧٩) أعنق: أسرع. والعنق: ضرب من السير السريع. ابن هشام (٣/ ٢٠٩).
(٨٠) انظر: الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية (٢/ ٦٣١).
(٨١) انظر: السيرة النبوية، محمد الصويباني، ص(١٣٠).

الحرارة وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط وكذا تضخم الطحال[٨٢]، وهو ما أصيب به عامر بن الطفيل حتى أصبح حبيسًا في بيت امرأة من قومه.

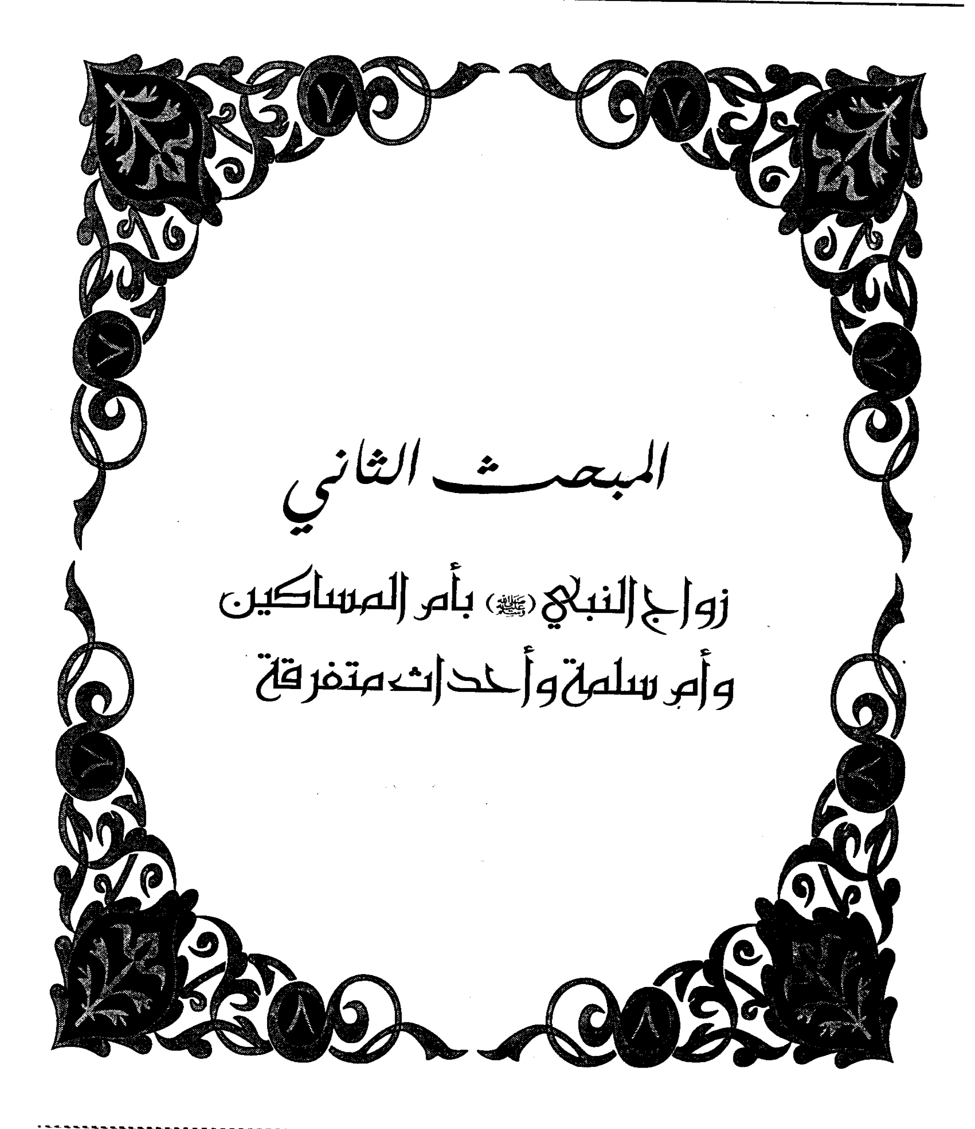
لقد أصيب عامر بن الطفيل وتلاشت أحلامه بالتملك على أهل المدن في الجزيرة العربية، أو خلافة النبي (ﷺ) وأما تلك الجيوش التي هددّ النبي (ﷺ) بها، فقد تحولت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة قد ولّى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى ففقد صوابه، وصرخ بمن بقي حوله فقال: (غدة كغدة البكر في بيت امرأة من بني فلان، ائتوني بفرسي، فركبه فمات على ظهر فرسه)[٨٣]. هلك ذلك الجبار العنيد كالمجنون بعد أن تطاير الناس من حوله خوفًا على أنفسهم من العدوة[٨٤].

---

(٨٢) انظر: تعليق الدكتور قلعجي على الدلائل (٣/٣٤٦).

(٨٣) انظر: السيرة النبوية للصّوياني، ص(١٣١).

(٨٤) نفس المصدر، ص(١٣١).



المبحث الثاني

زواج النبي (ﷺ) بأم المساكين وأم سلمة وأحداث متفرقة

أولاً: زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها:

هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الـهلالية، فهي من بني عبـد مناف بن هلال بن عامر ابن صعصـة، وكانت تسمى في الجاهلية أم المسـاكين لإطعامهما إياهم. تزوجـها رسول الله (ﷺ) في رمضان على رأس واحد وثـلاثين شهرًا من الهجرة، فمكثت عنده ثمـانية أشهر، وتوفيت في حـياته (ﷺ) في آخر ربيع الأول على رأس تسعـة وثلاثين شهرًا، ودفنت في مدينة رسول الله (ﷺ)(٨٥).

كانت زينب بنت خـزيمة تحت عبد الله بن جـحش بن رئاب الذي قتل في معركـة أحد شهيدًا في سبيل الله تعالى، فتزوجها (ﷺ) إكرامًا لها بعد أن فجعت بقتل زوجها في معركة أحد، ولم يتركها أرملة وحيدة، فكأنه كافأها (ﷺ) على فضائلها بعد مصاب زوجها(٨٦).

ثانيًا: زواج النبي (ﷺ) بأم سلمة رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أمية حذافة بن المغيرة القرشيـة المخزومية، كانت زوجة ابن عمها أبي عبد الله بن عبد الأسد، وزوجـها هذا هو ابن عمة الرسول (ﷺ)، برّة بنت عبـد المطلب، وهو أيضًا أخو رسول الله (ﷺ) من الرضاعة وقد هاجرت أم سلمة رضي الله عنها وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة فرارًا بدينهمـا من المشركين، ثم رجعا إلى مكة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله (ﷺ) والمسلمون(٨٧).

١- حديث أم سلمة لأبي سلمة رضي الله عنهم:

قالت أم سلمة لأبي سلمة: بلغني أنـه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم تُزّوج، إلا جمع الله بينهـما في الجنة فتـعال أعاهدك ألا تزوّج بعـدي، ولا أتزوج بعدك قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: إذا مت تزوجي، اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيرًا مني، لا يُحزنها ولا يؤذيها. فلما مات قلت: من خير من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسول الله (ﷺ)، فقام على الباب فـذكر الخطبة إلى ابن أخيها، أو ابنهـا فقالت: أرد على رسول الله (ﷺ)، أو أتقدم عليه بعيالي، ثم جاء الغد فخطب(٨٨).

٢- دعاء أم سلمة لما توفي زوجها:

لما توفي زوجها أبو سلـمة من أثر جراحات أصابتـه في قتاله للمشركين، وكـانت تحبه

---

(٨٥) انظر: تفسير القرطبي (١٤/١٦٦).
(٨٦) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان (١١/٤٦٩).
(٨٧) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٢).
(٨٨) نفس المصدر (٢/٢٠٣) وقال المحقق: أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات.

وتجلّه، فلما مات أبو سلمة جاءت النبي (ﷺ) فقالت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات قال: «**قولي: اللهم اغفر لي وله، وأعقبني**[٨٩] **منه عُقبى حسنة**» قالت. فقلت: فأعقبني الله من هو خير لي منه محمد (ﷺ)[٩٠].

٣- حوار رسول الله (ﷺ) لأم سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهم: إن أم سلمة لما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردته، فبعث إليها رسول الله (ﷺ) فقالت مرحبًا: أخبر رسول الله أني غيرَى[٩١]، وأني مُصبية[٩٢] وليس أحد من أوليائي شاهد.

فبعث إليها: «**أما قولك: إني مصبية، فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك: إني غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم إلا سيرضى بي**»[٩٣] وفي رواية: إني امرأة قد أدبر من سني، فكانت إجابة رسول الله (ﷺ) لها: «**وأما السن فأنا أكبر منك**»[٩٤]، وهكذا أحسن إليها (ﷺ) الجواب، وما كان إلا محسنًا[٩٥].

قالت أم سلمة: يا عمر (أي ابنها) قم فزوج رسول الله (ﷺ)[٩٦]، قال ابن كثير في تعليقه على قول أم سلمة: قم يا عمر فزوج النبي (ﷺ): تعني قد رضيت وأذنت، فتوهم بعض العلماء أنها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيرًا لا يلي مثله العقد، وقد جمعت في ذلك جزءًا مفردًا بينت فيه الصواب في ذلك ولله الحمد والمنة، وإن الذي ولي عقدها عليه ابنها سلمة بن أبي سلمة وهو أكبر[٩٧] ولدها.

٤- تأثيث رسول الله (ﷺ) لبيت أم سلمة ومعاملته لها:

فلما وافقت على الزواج قال لها رسول الله (ﷺ): «**أما أني لا أنقصك مما أعطيت فلانة رحيين وجرتين ووسادة من أدم حشوها ليف**»[٩٨].

وكانت أم سلمة قد ولدت طفلة من زوجها أبي سلمة بعد موته، فعندما تزوجها (ﷺ) جعل يأتيها، فإذا جاء أخذت زينب فوضعتها في حجرها لترضعها، وكان (ﷺ) حييًا كريمًا يستحي فيرجع ففعل ذلك مرارًا[٩٩]، ففطن عمار بن ياسر رضي الله عنه وهو أخ لأم سلمة

(٨٩) وأعقبني: أي بدلني وعوضني منه، أي في مقابلته عقبى حسنة أي بدلاً صالحًا.
(٩٠) مسلم في الجنائز رقم (٩١٩).
(٩١) غيرى: كثيرة الغيرة.
(٩٢) مُصْبِيَة: أي ذات صبيان وأولاد صغار.
(٩٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣، ٢٠٤) وإسناده صحيح.
(٩٤) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ٩٠) رجاله ثقات، لكنه مرسل.
(٩٥) انظر: المفصل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٠).
(٩٦) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٤) وإسناده صحيح.
(٩٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٩٢).
(٩٨) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٤).
(٩٩) نفس المصدر (٢/ ٢٠٤).

من أمها (سمية) الشهيدة التي قتلها أبو جهل، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أم سلمة، فأخذ ابنة أخته ليسترضعها في بيته أو عند أحد النساء، فجاء رسول الله (ﷺ) فقال: أين زناب؟ فقالت قريبة بنت أبي أمية - ووافقها عندها[١٠٠] : أخذها عمار بن ياسر. فقال (ﷺ) : «**إني آتيكم الليلة**».

قالت أم سلمة: فقمت فوضعت ثفالي[١٠١]، وأخرجت حبات من شعير كانت في جرتي، وأخرجت شحمًا فعصدته، ثم بات، ثم أصبح وقال حين أصبح: «**إن بك على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعت**[١٠٢] **لك، وإن أسبع لك أسبع لنسائي**[١٠٣]**، وإن شئت ثلثت ثم درت**» قالت: ثلّث[١٠٤]، فأقام النبي (ﷺ) ثلاثة أيام عند أم سلمة ثم قال (ﷺ) : «**للبكر سبع، وللثيب ثلاث**»[١٠٥] .. هي مدة إقامة المتزوج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام (ﷺ) عند أم سلمة رضي الله عنها ثلاثة أيام سعيدة ثم رتب لها يومًا كبقية زوجاته.

٥- تغيير اسم برة بنت أبي سلمة:

تقول تلك الطفلة اليتيمة رضي الله عنها: إن النبي (ﷺ) دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي برة، فسمعها تدعوني برة، فقال: «**لا تزكوا أنفسكم، فإن الله هو أعلم بالبرة منكن والفاجرة، سميها زينب**».

فقالت أم سلمة: فهي زينب[١٠٦].

وهذا من هدي النبي (ﷺ)، فقد كان يحب الأسماء الجميلة، ولم يكن (ﷺ) يغير أسماء الأطفال فقط، بل كان للرجال والنساء والعجائز نصيب من ذلك الذوق النبوي الرفيع فقد ذكر عند رسول الله (ﷺ) رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله (ﷺ) : «**بل أنت هشام**»[١٠٧].

وكان (ﷺ) إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوّله[١٠٨] إلى اسم أجمل وألطف وكان يفعل ذلك مع العجائز (ﷺ) فهذه عائشة رضي الله عنها تحدثنا حيث تقول رضي الله عنها: (جاءت عجوز إلى النبي (ﷺ) وهو عندي، فقال لها رسول الله (ﷺ) : «**من أنت؟**».

---

(١٠٠) أي: توافق مجيء النبي مع زيارة تلك المرأة لأم سلمة.
(١٠١) هو ما يبسط تحت الرحى عند الطحن.
(١٠٢) أي أقمت عندك سبعة أيام.
(١٠٣) حديث حسن رواه ابن سعد (٨/ ٩٣).
(١٠٤) انظر: السيرة النبوية كما جاءت من الأحاديث الصحيحة للصوياني (٣/ ١٣٦).
(١٠٥) حديث صحيح. صحيح الجامع للألباني (٢/ ٩١٩).
(١٠٦) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في الأدب المفرد (٨٢١).
(١٠٧) سنده حسن رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥).
(١٠٨) حديث حسن رواه الطبراني (١٧/ ١١٩).

قالت: جثامة المزنية.

فقال: «بل أنت حسانة المزنية. كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟»

قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فقرب إليه لحم، فجعل يناولها، فقلت: يا رسول الله لا تغمر يدك. فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»(١٠٩).

٦- الحكمة في زواج أم سلمة:

والحكمة في هذا الزواج، كما يقول صاحب تفسير المنار: ليس لأجل التمتع المباح له، وإنما كان لفضلها الذي يعرفه المتأمل بجودة رأيها يوم الحديبية، ولتعزيتها- أي بوفاة زوجها(١١٠)- ولا ننسى كذلك أن أم سلمة من بني مخزوم أعز بطون قريش، وهي التي كانت تحمل لواء الحراب والمواجهة لرسول الله (ﷺ) ووراء هذا الزواج تفتيت حقد هذه القبيلة وتقريب قلوب أبنائها، وتوطئة وتحبب إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهار رسول الله (ﷺ)(١١١).

وفي هذا الزواج فقه النبي (ﷺ) في البناء الداخلي للأمة وتأدية حق الشهداء في زوجاتهن، وحق هذه الزوجات من أن ينهلن من نور النبوة ما يشاء الله أن ينهلن لكي يبلغن عن رسول الله(١١٢).

وكانت أم سلمة آخر من مات من أمهات المؤمنين وكان وفاتها سنة إحدى وستين، وقد روت عن رسول أحاديث، يبلغ مسندها ثلاث مئة وثمانية وثمانين حديثًا واتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بثلاثة عشر(١١٣)، لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله وبموتها انطفأ آخر مصباح من مصابيح أمهات المؤمنين طالما شع النور والهدى والعلم فرضى الله عنها وأرضاها(١١٤).

ثالثًا: مولد الحسن بن علي رضي الله عنهم:

قال الإمام القرطبي رحمه الله ولد الحسن في شعبان من السنة الرابعة وعلى هذا ولد الحسين قبل تمام السنة من ولادة الحسن، ويؤيده ما ذكره الواقدي أن فاطمة علقت بالحسين بعد مولد الحسن بخمسين ليلة وجزم النواوي في التهذيب أن الحسن ولد لخمس خلون من

---

(١٠٩) سنده قوي رواه الحاكم (١/ ٦٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥١٧).

(١١٠) انظر: تفسير المنار (٤/ ٣٧٢).

(١١١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٥٦).

(١١٢) نفس المصدر (٣/ ٣٥٧).

(١١٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).

(١١٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩).

شعبان سنة أربع من الهجرة[(١١٥)].

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما ولد الحسن سميته حربًا، فجاء رسول الله (ﷺ) فقال: «أروني ابني .. ما سميتموه؟» قلت: حربًا، قال (ﷺ): «بل هو حسن»[(١١٦)].

غيّر (ﷺ) ذلك الاسم الحاد باسم جميل يدخل السرور والفرحة على القلوب.

فحمل المولود الجديد اسمه الجميل، وحمله (ﷺ) بين يديه وقبله وهذا أبو رافع يخبرنا عن ماذا فعل رسول الله (ﷺ): رأيت النبي (ﷺ) أذّن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة[(١١٧)].

وحدثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن فقال: لما ولدت فاطمة حسنًا قالت: ألا أعقّ عن ابني بدم (بكبشين؟) قال (ﷺ): «لا، ولكن احلقي رأسه وتصدقي بوزن شعره من فضة على المساكين والأوفاض» -وكان الأوفاض ناسًا من أصحاب رسول الله (ﷺ) محتاجين في المسجد أو الصفة- ففعلت ذلك[(١١٨)].

وأحب (ﷺ) أن يقدم عقيقة الحسن، فعقّ عنه كبشين[(١١٩)].

وقد قال (ﷺ) في العقيقة: «كل غلام مرتهن بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه ويسمى»[(١٢٠)].

رابعًا: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة ٤هـ:

وفي هذه السنة تعلّم زيد بن ثابت كتابة اليهود، فعن خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد ابن ثابت: أن رسول الله (ﷺ) أمره أن يتعلم كتابة يهود ليقرئه النبي (ﷺ) إذا كتبوا إليه[(١٢١)]، فتعلمه في خمسة عشر يومًا، وفي رواية أخرى أن رسول لما قدم المدينة ذُهب بزيد إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشر سورة، فأعجب ذلك رسول الله وقال: «يا زيد تعلّم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتاب» قال زيد: فتعلمت له كتابهم، ما مرّت خمسة عشر ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب[(١٢٢)].

وبهذا الخبر يتضح أن للترجمان مكانة رفيعة في الدولة، إذ هو الذي يطلّع على أسرار الدولة وما يأتيها من مراسلات، أو ما ترسله من مخاطبات، إذ لا يصح أن يطلع كل إنسان

---

(١١٥) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/ ١٠).
(١١٦) البخاري في الأدب (٢٨٦).
(١١٧) أبو داود رقم ٥١٠٥.
(١١٨) رواه الطبراني (٣/ ٣٠) بسند حسن.
(١١٩) انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصّوياني (٣/ ١٠٦).
(١٢٠) انظر: صحيح الجامع (٢/ ٨٣٥).
(١٢١) البخاري، كتاب الأحكام رقم (٧١٩٥).

[illegible]

[illegible]



المبحث الثالث

إجلاء يهود بني النضير

أصاب يهود المدينة، الخوف والرعب، طيلة الفترة التي تفصل بين مقتل كعب بن الأشرف، وبين معركة أحد التي جرت في شوال عام ٣هـ، ولكن الهزيمة التي حلت بالمسلمين في تلك المعركة، أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل من جديد، بتحقيق مطامعهم وأغراضهم، وأزالت من قلوب اليهود الهلع على المصير، ومما ساهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتل أصحاب الرجيع، وبئر معونة ،وبذلك لم يدم خوف اليهود طويلاً وعادوا إلى أساليب الدس والمكر والخداع، وشرعوا في حشد حصونهم بالسلاح والعتاد للانقضاض على المسلمين ودولتهم ثم صمّموا على قتل النبي (ﷺ) والغدر به[١٢٥].

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

أ- تاريخ الغزوة:

يرى المحققون من المؤرخين أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد رد ابن القيم على من زعم أن غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهري أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه، أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها بعد أحد والذي كانت بعد بدر بستة أشهر، هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية[١٢٦].

وقال ابن العربي: والصحيح أنها بعد أحد[١٢٧]، وإلى هذا الرأي ذهب ابن كثير[١٢٨].

ب- أسباب الغزوة:

هناك مجموعة من الأسباب حملت النبي (ﷺ) على غزوة بني النضير وإجلائهم من أهمها:

١- نقض بنو النضير:

عهودهم التي تحتم عليهم ألا يؤوا عدوًا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض؛ بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السويق[١٢٩] حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة - بعد غزوة بدر - نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة فلما خرج في

---

(١٢٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص١٨٨، ١٨٩.
(١٢٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).
(١٢٧) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٧٦٥).
(١٢٨) انظر: حديث القرآن عن الغزوات (١/ ٢٥٤).
(١٢٩) غزوة السويق كانت بعد بدر وقد تحدثت عنها.

مائتي راكب قاصدًا المدينة قام سيد بني النضير سلام بن مشكم بالوقوف معه وإضافته وبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك[١٣٠].

قال موسى بن عقبة -صاحب المغازي: (كانت بنو النضير قد دسوا إلى قريش وحصونهم على قتال رسول الله (ﷺ) ودلوهم على العورة)[١٣١].

٢- محاولة اغتيال النبي (ﷺ):

خرج النبي (ﷺ) في نفر من أصحابه عن طريق قباء إلى ديار بني النضير يستعينهم في دية القتيلين العامريّين اللذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمري بجوار رسول الله (ﷺ) لهما ،وذلك تنفيذًا للعهد الذي كان بين النبي (ﷺ) وبين بني النضير حول أداء الدّيات، وإقرارًا لما كان يقوم بين بني النضر وبين بني عامر من عقود وأحلاف.

استقبل بنو النضير النبي (ﷺ) بكثير من البشاشة والكياسة، ثم خلا بعضهم إلى بعض يتشاورون في قتله والغدر به، ويبدو أنهم اتفقوا على إلقاء صخرة عليه (ﷺ)، من فوق جدار كان يجلس بالقرب منه، ولكن الرسول (ﷺ)، الذي كان برعاية الله وحفظه أدرك مقاصد بني النضير، إذ جاءه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر، فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة، ثم تبعه أصحابه بعد قليل[١٣٢].

لم تكن مؤامرة بني النضير، الذي أفشلها الله (سبحانه) وتعالى، تستهدف شخص النبي فحسب، بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة والدعوة الإسلامية برمتها، لذا صمّم محمد (ﷺ) على محاربة بني النضير، الذين نقضوا العهد والمواثيق معه وأمر أصحابه بالتهيؤ لقتالهم والسير إليهم[١٣٣].

هذه الأسباب وغيرها أدت إلى غزوة بني النضير وقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النعمة الجليلة وكيف نجى الله نبيه (ﷺ) من مكر يهود بني النضير قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة المائدة، آية: ١١)

وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها:

أخرج الطبري عن أبي زياد قال: جاء رسول الله (ﷺ) بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: «**أعينوني في عقل أصابني**»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله (ﷺ) وأصحابه ينتظرون، وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله

---

(١٣٠) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٨٤).

(١٣١) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢).

(١٣٢) انظر: الواقدي (١/ ٣٦٥)، التاريخ السياسي والعسكري ص(١٩٠).

(١٣٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ص(١٩٠).

(ﷺ) ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولا ترون شرًا أبدًا.

فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه من ثم فأنزل الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة: ١١) فأخبر الله نبيه (ﷺ) ما أرادوا به[١٣٤].

وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد[١٣٥] أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله (ﷺ) الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ووكلوا عمرو بن جحاش بذلك أن جلس النبي (ﷺ) -تحت الجدار- واجتمعوا عنده أن يلقي الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي (ﷺ) على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية[١٣٦].

وقد رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي (ﷺ) وأصحابه فقال: (وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيهم (ﷺ)، مما كانت يهود بني النضير همت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم في الدية التي تحملها عن قتيلي عمرو بن أمية، وإنما قلنا أولى بالصحة في تأويل ذلك، لأن الله عقب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها وقبيح فعالها، وخيانتها ربها وأنبيائها. .)[١٣٧].

وقد وافق الدكتور محمد آل عابد ترجيح الطبري وقال لا مانع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة، فقد تعددت الحوادث والمنزل واحد كما قال العلماء[١٣٨].

ومعنى الآية الكريمة: أي اذكروا نعمة الله عليكم، التي من أكبر مظاهرها كفه عنكم أيدي اليهود الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم، وشارفوا أن ينفذوا مؤامرتهم الخبيثة، ولكن الله أحبط مكرهم ونجى نبيكم (ﷺ) من شرورهم.

ثم أمر -سبحانه- بتقواه والتوكل عليه فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١٣٤) انظر: تفسير ابن جرير (٦/ ١٤٤-١٤٥).

(١٣٥) هذه الآثار وإن كان فيها ضعف يمكن أن تعضد لتصبح بمجموعها صالحة للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة ص١٤٥.

(١٣٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

(١٣٧) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٤٤-١٤٥).

(١٣٨) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥١).

أي اتقوا الله -أيها المؤمنون- في رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها فقد أراكم قدرته، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بكم وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون[١٣٩].

ثانيًا: إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم:

أ- إنذار بني النضير:

سجلت معظم كتب السيرة النبوية خبر إنذار النبي (ﷺ) لبني النضير بالجلاء خلال عشرة أيام، وقد أرسل (ﷺ) محمد بن مسلمة إليهم وقال له: «**اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله (ﷺ) أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرًا، فمن رئي بعد منكم ضربت عنقه**»[١٤٠] ولم يجدوا جوابًا يردون به، سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يا محمد، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود فقالوا: نتحمل فمكثوا أيامًا يعدون العدة للرحيل[١٤١].

وفي تلك المدة أرسل إليهم عبد الله بن أبي بن سلول من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم[١٤٢]، ولا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم[١٤٣].

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حيي بن أخطب) وأرسل إلى النبي (ﷺ) جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم - أي لن نبرح - دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله (ﷺ) وكبر المسلمون معه، وقال: «**حاربت يهود**»[١٤٤].

ب- ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، فتحركت جيوش المسلمين صوبهم وضربت عليهم الحصار لمدة خمس عشرة ليلة.

وأمر (ﷺ) بحرق نخيلهم وقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم وضعفت حماستهم للقتال وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله فما بال قطع النخيل وتخريبها؟

وألقى الله في قلوبهم الرعب، وأدرك بنو النضير أن لا مفر من جلائهم، ودب اليأس

---

(١٣٩) نفس المصدر (١/ ٢٥٢).

(١٤٠) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/ ٥٧)، مغازي الواقدي (١/ ٣٦٣-٣٧٠).

(١٤١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٢).

(١٤٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٢).

(١٤٣) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٣).

(١٤٤) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٤٦).

في قلوبهم وخاصة بعد أن أخلف ابن أبي وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيرًا أو يدفعوا عنهم شرًا فأرسلوا إلى النبي (ﷺ) يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم

فوافقهم النبي (ﷺ) على ذلك وقال لهم: «**اخرجوا منها و لكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة**» وهي الدروع والسلاح- فرضوا بذلك[١٤٥].

ونقض اليهود سقف بيوتهم وعمدها وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوء ذهبًا وفضة وكان يقول: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلا ففي خيبر النخل[١٤٦].

وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام[١٤٧].

وقد تولى عملية إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة، بأمر من رسول الله (ﷺ)[١٤٨].

وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فلما نزلوها دان لهم أهلها[١٤٩].

ثالثًا: الدروس والعبر في هذه الغزوة:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة وهي سورة الحشر، وقد سمى حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النضير، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الحشر، قال: سورة بني النضير[١٥٠].

وقد بينت هذه السورة ملابسات هذه الغزوة، وفصلت القول فيها، وبينت أحكام الفيء ومن هم المستحقون له؟ وأوضحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشفت عن حقائق نفسيات اليهود، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وجه (سبحانه) خطابه إلى المؤمنين وأمرهم بتقواه وحذرهم من معصيته، ثم تحدث (سبحانه) عن

---

(١٤٥) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٧).
(١٤٦) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٦).
(١٤٧) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٥)، حديث القرآن الكريم (١/ ٢٥٧).
(١٤٨) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٧٤)، اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٣٢١).
(١٤٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢١٢).
(١٥٠) البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النصير رقم ٤٠٢٩.

القرآن الكريم وأسمائه وصفاته وهكذا كان المجتمع المسلم يتربى بالأحداث على التوحيد وتعظيم منهج الله، والاستعداد ليوم القيامة وبالتأمل في السورة يمكننا استخراج بعض الدروس والعبر من أهمها:

أ- الثناء على الله وتمجيده:

ابتدأت السورة بالثناء على الله، وأن الكون كله بجميع ما فيه من مخلوقات من إنسان، وحيوان، ونبات وجماد، ينزه الله ويمجده ويشهد بوحدانيته وقدرته وجلاله وناطق بعظمته وسلطانه[(١٥١)].

قال تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (سورة الحشر، آية: ١).

كان استفتاح هذه السورة، بالإخبار أن جميع من في السموات والأرض، تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لعظمته، لأنه العزيز، الذي قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه عسير.

الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع ما لا مصلحه فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتض حكمته ومن ذلك نصره لرسوله (ﷺ) على الذين كفروا من أهل الكتاب، من بني النضير، حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم، التي ألفوها وأحبوها[(١٥٢)].

ب- الرعب جند من جند الله:

قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ * وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (سورة الحشر، الآيات ٢-٤).

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يتبين له أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام حيث أول الحشر هم في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها.

لكن الله خالف الأسباب والمسببات جاءهم من حيث لم يحتسبوا جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ،وهذا الأسلوب القرآني الفريد يربي الأمة بالأحداث والوقائع وهو يختلف

(١٥١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).
(١٥٢) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٣٢٧).

تمامًا عن طريقة أهل السير، ويمتاز بأنه يكشف الحقائق ويوضح الخفايا، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو رب العالمين، ومن ذلك أنها بينت أن الذي أخرج بني النضير هو الله جل جلاله ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

واستمرت الآية الكريمة تبين أن يهود بني النضير حسبوا كل شيء وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضية لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم، فإذا الرعب يأتي من داخلهم فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة، لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات فهو القادر على كل شيء فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

إن هذه الغزوة درس للأمة في جميع عصورها تذكرهم أن طريق النصر قريب وهو الرجوع إلى الله والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قويًا وكثيرًا فإن الله لا يعجزه شيء، وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليعتبر بها، والسعيد من اعتبر بغيره.

ثم أوضح (سبحانه) أنه لو لم يعاقبهم بالجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل أما في الآخرة فلهم عذاب النار(١٥٣).

ج- تخريب ممتلكات الأعداء:

لما نزل رسول الله (ﷺ) بجيشه وحاصر بني النضير تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله (ﷺ) بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها؟(١٥٤). فأنزل الله (عز وجل): ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾(١٥٥) (الحشر: ٥).

وقد توسع الشيخ محمد أبو زهرة في شرح هذه الآية فقال ما ملخصه بعد أن ساق آراء الفقهاء في ذلك:

والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي (ﷺ) في حروبه:

١- أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء، لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

٢- أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها، كأن

---

(١٥٣) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٠، ٢٧١).
(١٥٤) نفس المصدر (١/ ٢٧٤).
(١٥٥) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ٣٤).

يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين فإنه لا مناص من قطع الأشجار، وهدم البناء، على أنه ضرورة من ضرورات القتال كما فعل النبي (ﷺ) هنا وفي حصن ثقيف.

٣- أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس الشعب إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا[١٥٦].

ت- تطوير السياسة المالية للدولة الإسلامية:

بين (سبحانه وتعالى) حكم الأموال التي أخذها المسلمون من بني النضير بعد أن تم إجلاؤهم فقال تعالى: **﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**(سورة الحشر، آية: ٦).

وبين (سبحانه وتعالى) أن الأموال التي عادت إلى المسلمين من بني النضير قد تفضل بها عليهم بدون قتال شديد، وذلك لأن المسلمين مشوا إلى أعدائهم ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً وافتتحها (ﷺ) صلحًا وأجلاهم وأخذ أموالهم ووضعها حيث أمره الله، فقد كانت أموال بني النضير للنبي (ﷺ) خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله[١٥٧].

ثم بين المولى (عز وجل) أحكام الفيء في قرى الكفار عامة فقال تعالى: **﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** (سورة الحشر، آية: ٨).

فكانت هذه الغنيمة خالصة لرسول الله (ﷺ) ولهذا تصرف فيه -أي الفيء- كما يشاء فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله (عز وجل) في هذه الآيات.

ولما غنم (ﷺ) أموال بني النضير، دعا ثابت بن قيس فقال: «ادع لي قومك»، قال ثابت: الخزرج؟ فقال (ﷺ): «الأنصار كلها» فدعا له الأوس والخزرج:

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال: «**إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علي من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم**».

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله، بل نقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله[١٥٨].

---

(١٥٦) انظر: خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة (٢/ ٢٦٥-٢٦٩).
(١٥٧) مسلم، كتاب الجهاد، باب حكم الفيء (٣/ ١٣٧٦) رقم (١٧٥٧).
(١٥٨) مسلم، كتاب الجهاد، باب حكم الفيء (٣/ ١٣٧٦) رقم (١٧٥٧).

وقسم ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحدًا من الأنصار شيئًا، غير أبيدجانة، وسهل بن حنيف لحاجتهما[١٥٩]، ومع أنه (ﷺ) يعلم أن الفيء كان خاصًا له إلا أنه جمع الأنصار وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم وهذا من الهدي النبوي الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغاية من هذا التوزيع تخفيف العبء عن الأنصار، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دور بني النضير، وأعيدت دور الأنصار إلى أصحابها، واستغنى بعض المهاجرين مما يمكن أن يقال فيه: إن الأزمة قد بدأت بالانفراج[١٦٠].

إن قسمة أموال بني النضير أوجد تطورًا كبيرًا في السياسة المالية للدولة الإسلامية: فقد كانت الغنائم الحربية قبل هذه الغزوة تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدولة الإسلامية خمسها لتصرف في مصارف معينة حددها القرآن الكريم، وبعد غزوة بني النضير، أصبحت هناك سياسة مالية جديدة فيما يتعلق بالغنائم، وخلاصتها: أن الغنائم الحربية أصبحت - حسب السياسة الجديدة على- نوعين:

١- غنائم استولى عليها المجاهدون بحد سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدولة خمسها لتصرفه في مصارفها الخاصة.

٢- غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتال، وهذا النوع يختص رئيس الدولة الإسلامية بالتصرف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الإقتصادية في البلاد فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحًا، أو يبني به مدينة، أو يصلح به طرقًا أو.. وهذا يعني أنه قد أصبح لرئيس الدولة الإسلامية ميزانية خاصة يتصرف فيها تصرفًا سريعًا حسب مقتضيات المصلحة[١٦١] وقد ذكر (سبحانه وتعالى) في الآيتين اللتين أوضحتا سياسته عليه الصلاة والسلام في تقسيم فيء بني النضير إذا اختص به أناسًا دون آخرين العلة في ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سورة الحشر، آية: ٧) أي لكي لا يكون تداول المال محصورًا فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط والتعليل لهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية في شؤون المال، قائمة في جملتها على تحقيق هذا المبدأ. وأن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبغى من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم ويُقضى فيه على أسباب الثغرات التي قد تظهر فيما بينها، والتي قد تؤثر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة

---

(١٥٩) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٢/٨٦).

(١٦٠) انظر: السيرة النبوية لصالح الشامي ص٢٢٢.

(١٦١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي ص١٦٩.

الزكاة ومنع للربا وقضاء على مختلف مظاهر الاحتكارات لعاش الناس كلهم في بحبوحة من العيش، قد يتفاوتون في الرزق ولكنهم جميعًا مكتفون، وليس فيهم كلٌّ على آخر وإن كانوا جميعًا يتعاونون(١٦٢) .وبعد بيان العلة في توزيع أموال الفيء عقب (سبحانه) بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرسول (ﷺ) وأن ينتهوا عمّا نهاهم عنه، وأن هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتقوى، فإن عقابه شديد وأليم للعصاة.

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر، آية: ٧).

أي: ما أمركم به الرسول (ﷺ) فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد.

وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر الله به النبي (ﷺ) أو نهى عنه من واجب أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره(١٦٣)، وقد جاءت آيات كثيرة تربي الأمة على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله (ﷺ) وذلك في كل الأمور قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (سورة النساء، آية: ٦٥).

وقال (ﷺ): «**دعوني ما تركتم، إنما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»(١٦٤).

هـ- فضل المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان:

١- فضل المهاجرين:

بينت الآيات الكريمة في سورة الحشر فضل المهاجرين على غيرهم، فهم لهم الدرجة الأولى، فقد اشتملت الآيات على أوصافهم الجميلة وشهد الله لهم بالصدق قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٨).

٢- فضل الأنصار:

فقد وضحت الآيات فضل الأنصار وقد وصفهم الله بهذه الصفات قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

(١٦٢) انظر: فقه السيرة للبوطي ص١٩٤ .

(١٦٣) انظر: تفسير الرازي (٢٩/٢٨) صفوة التفاسير (٣/٣٥١) .

(١٦٤) مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره (ﷺ) وترك إكثار سؤاله (٤/ ١٨٣٠) .

تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩).

٣- فضل التابعين لهم بإحسان:

وهم المتتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون في السر والعلانية لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان[١٦٥] قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الحشر، آية ١٠).

وهكذا تحدثت السورة الكريمة عن صور مشرقة للمهاجرين، والأنصار والتابعين بإحسان.

و- موقف المنافقين في المدينة:

بينت الآيات الكريمة حالة المنافقين، ووضحت موقفهم وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود، وكشفت أيضًا موقفهم من المسلمين، وموقف اليهود ونفسياتهم[١٦٦] قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ * لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الحشر، آية: ١١-١٧).

يخبرنا المولى (عز وجل) عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم بمناصرتهم، وقوله (لإخوانهم) أي الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر وهم يهود بني النضير، وجعلهم إخوانًا له لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر. (لئن أخرجتم) أي والله لئن أخرجتم من دياركم (لنخرجن معكم) من ديارنا في صحبتكم (ولا نطيع فيكم) أي في شأنكم ومن أجلكم، (أحدًا) ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنصرة لهم فقالوا: (وإن قوتلتم) اي وإن قاتلكم المسلمون (لننصرنكم) أي على المسلمين الذين يقاتلونكم ثم كذبهم الله تعالى فقال﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وعدوهم به من

(١٦٥) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٩١).

(١٦٦) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٦٤).

الخروج ولما أجمل (سبحانه وتعالى) كذب المنافقين فيما وعدوا به بني النضير، فصّل ما كذبوا فيه[١٦٧]، وزاد في تأكيد الرد عليهم فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي لئن أخرج المسلمون اليهود فإن المنافقين لن يخرجوا معهم.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ﴾: ولئن قاتل المسلمون اليهود فإن المنافقين لن ينصروهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولئن نصر المنافقون اليهود - على سبيل الفرض - فإن نصرهم لن يضر المسلمين شيئًا، بل إن الفريقين سيولون الأدبار أمام المسلمين ثم لا ينصر الله بني النضير.

ثم قرر القرآن الكريم حقيقة قائمة في نفوس اليهود والمنافقين قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفًا وخشية في صدوراليهود والمنافقين من الله تعالى، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى وهذه الحال منهم (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) أي لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته[١٦٨] ثم أكد (سبحانه وتعالى) هذه الحقيقة بصفات أخرى فيهم، فقال تعالى: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ فقد كشف (سبحانه وتعالى) عن حقائق نفسية اليهود فهم جبناء لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين في مواطن مكشوفة، بل لا يقاتلون إلا من وراء قراهم المحصنة بالخنادق وجدرانهم وحوائطهم التي يتسترون من خلفها.

ثم كشف القرآن عن بعض أسباب ضعفهم وخورهم فقال تعالى ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾.

فهؤلاء اليهود في الظاهر تراهم مجتمعين صفًا واحدًا ضد المسلمين لكن الآية تبين أنهم عكس ذلك في الحقيقة فهم (بأسهم بينهم شديد)، أي: عداوتهم بعضهم لبعض شديدة (تحسبهم جميعًا) أي: تظنهم مجتمعين على أمر ورأي ولكنهم في الحقيقة (قلوبهم شتى) أي متفرقة.

وقوله (سبحانه): ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بسبب أنهم قوم لا يعقلون الحق ولا يدورون معه، وإنما يدورون في ركاب الباطل[١٦٩].

وفي الآية تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتال اليهود، لأنهم عرفوا من رب العالمين بأن اليهود جبناء ثم بين (سبحانه) أن ما نزل ببني النضير من بلاء بسبب غدرهم، قد

---

(١٦٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٢).
(١٦٨) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٣).
(١٦٩) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٩٣، ٢٩٤).

نزل ما يشبه بإخوانهم من بني قينقاع فذاقوا جزاء خيانتهم وغرورهم قال تعالى: ﴿مَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم ضرب الله مثلاً آخر للمنافقين، الذين أغروا بني النضير بالمقاومة ثم خذلوهم عند المحنة، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم: لئن قوتلتم لننصرنكم ثم ا' حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم لله لكة مثالهم في ' ـثل الشيطان إذ سول للإنسان -والعياذ بالله- الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه ـل وقال: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فكان عاقبة الآمر بالكفر و يطان والفاعل له وهو المستجيب للشيطان، أنهما في النار خالدين فيها أبد الآبدين ة ـ ـ أي جزاء كل ظالم(١٧٠).

ز- وعظ المؤمنين وتذكيرهم باليوم الآخر وبيان الفرق الشاسع بين أصحاب الجنة وأصحاب النار:

قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (الحشر، آية: ١٩-٢٠).

وهذه الآيات الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها.

ومع الانتصارات العظيمة التي حققها المسلمون بالقضاء على يهود بني النضير والتوسع الاقتصادي الذي حدث للصحابة مع توسع موارد الدولة بدخول مصدر الفيء يأتي القرآن الكريم في هذه الحادثة ليؤكد على معاني العقيدة، وأصولها والتذكير باليوم الآخر والاستعداد له، فيأمر المولى (عز وجل) أفراد المجتمع المسلم بما يوجبه الإيمان، ويقتضيه من لزوم التقوى سرًا وعلانية، ومراعاة ما أمرهم الله به من أوامره وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا قدموا من الأعمال وهل تنفعهم أو تضرهم يوم القيامة؟

وطلب منهم المولى (عز وجل) أن يجعلوا الآخرة نصب أعينهم، وقبلة قلوبهم، وأن يهتموا بشأنها ويجتهدوا في كثرة الأعمال التي توصلهم إلى رضا الله (عز وجل) وأن يتغلبوا على القواطع، ويزيلوا العوائق التي توقفهم عن السير نحو مرضاة الله (سبحانه) وتعالى(١٧١).

وجاء التعبير القرآني بقوله: لغد: يريد يوم القيامة، فقرب الله تعالى القيامة حتى جعلها غدًا، وذلك لأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب(١٧٢).

---

(١٧٠) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٤).

(١٧١) انظر: تفسير السعدي (٧/ ٣٤٠). (١٧٢) انظر: المحرر الوجيز (١٤/ ٣٩٠).

وأعلمهم (سبحانه) وتعالى: أنه خبير بما يعملون، ولا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها لكي يجدوا ويجتهدوا[١٧٣].

وحذرهم من أن يكونوا كالذين غفلوا عن ذكر الله، فأنساهم الله العمل لمصالح نفوسهم فصاروا من الفاسقين عن أمره الخارجين عن حدود دينه.

ثم نفى (سبحانه وتعالى) المساواة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبين بأن أصحاب الجنة هم الفائزون بالنعيم الخالد الناجون من عذاب الله[١٧٤] أما أصحاب النار فهم الخاسرون.

وهذا التفصيل والتذكير والوعظ وتقريب الآخرة من الأذهان والقلوب موجب لأهل الإيمان إلى المبادرة والمشاركة في الخيرات.

ذ- عظمة القرآن الكريم وعلو منزلته وبعض صفات الله الجليلة التي تليق به (سبحانه) وتعالى:

١- قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٢١).

ومعنى الآية: لو جعلنا في الجبل عقلاً كما جعلنا فيكم أيها الناس، ثم أنزلنا عليه القرآن لخشع هذا الجبل وخضع وتشقق من خشية الله، وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر، وفيه توبيخ للإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع التي تذل لها الجبال الراسيات[١٧٥] ثم بين (سبحانه وتعالى) أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها ، لأن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم ويبين له طريق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق.

فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن، والتدبر لمعانيه[١٧٦].

٢- وفي نهاية سورة الحشر تحدثت الآيات الكريمة عن بعض أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الحشر، آية: (٢٢-٢٤).

وهكذا ختمت السورة الكريمة بما يليق بجلاله من صفات جليلة، لكي يتربى المجتمع

---

(١٧٣) تفسير السعدي (٤/ ٣٤٢) .

(١٧٤) انظر: حديث القرآن الكريم.

(١٧٥) انظر: تفسيرالمراغي (٢٨/ ٥٧) بتصرف يسير .

(١٧٦) انظر: تفسير السعدي (٧/ ٣٤٤) .

المسلم على تحقيق العبودية لله ويتعرف عليه من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل، وتدبيره العام وكل إله غيره، فإنه باطل، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا.

ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق، وما يشاهدونه، وبعموم رحمته، التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر ذكر عموم ألهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي، وأهله الجميع، مماليك لله، فقراء مدبرون.

﴿الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾ أي: المقدس السالم من كل عيب ونقصصصص المعظم الممجد، لأن القدوس، يدل على التنزيه من كل نقص والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدق لرسله وأنبيائه، بما جاءوا به، بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحَجج الواضحات.

﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿الْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير.

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام، عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ لجميع المخلوقات.

﴿الْبَارِئُ﴾ للمبروءات.

﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات.

وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله، قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جدًا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك فكلها حسنى، أي: صفات كمال بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها، بوجه من الوجوه.

ومن حسنها، أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السموات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه، ما تقتضيه رحمته وحكمته.

(١٧٧) انظر: تفسير السعدي (٧/ ٣٤٦، ٣٤٧).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئًا إلا ويكون، ولا يكون شيئًا إلا لحكمة ومصلحة[١٧٧].

إن معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، ولذلك تربى الصحابة على معرفتها والعمل بها، فأنواع التوحيد هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته، فكلما إزداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوى يقينه، فهذا العلم رسخ في قلوب الصحابة، فأوجب خشية الله لهم ومعرفته حق المعرفة فعملوا بموجبها[١٧٨].

ط- تحريم الخمر:

حرمت الخمر ليالي حصار بني النضير[١٧٩] في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة[١٨٠]، وقد خضع تحريم الخمر لسنة التدرج وكان ذلك التحريم على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي حتى نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٩١) قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب[١٨١].

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢١٩).

يقول سيد قطب رحمه الله: وهذا النص الذين بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم، فالأشياء والأعمال قد لا تكون شرًا خالصًا فالخير يلتبس بالشر، والشر يلتبس بالخير في هذه الأرض ولكن مدار الحل والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر من النفع، فتلك علة تحريم ومنع وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع.

هنا يبدو لنا طرف من منهج التربية الإسلامية القرآنية الربانية الحكيمة وهو المنهج الذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه وفرائضه وتوجيهاته، ونحن نشير إلى قاعدة من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر والميسر عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسمًا منذ اللحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعبادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والتدرج، ويهيئ الظروف الواقعة التي تيسر التنفيذ

---

(١٧٨) انظر: الوسطية في القرآن الكريم، للصّلابي ص(٢٩٦).

(١٧٩) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول .

(١٨٠) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٠).

(١٨١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، للقرضاوي ص(١٨١).

والطاعة فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك: أمضى أمره منذ اللحظة الأولى في ضربة حازمة جازمة لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجاملة فيها ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطريق لأن المسألة هنا مسألة أساسية للتصور، لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام.

فأما الخمر والميسر، فقد كان الأمر أمر عادة وألفة، والعادة تحتاج إلى علاج، فبدأ بتحريك الوجدان الديني المنطقي التشريعي في نفوس المسلمين، بأن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾ (سورة النساء: ٤٣).

والصلاة في خمسة أوقات، معظمها متقارب، لا يكفي ما بينها للسكر والإفاقة! وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرر هذا التجاوز فترة حد العادة وأمكن التغلب عليها.. حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الجازم الأخير لتحريم الخمر والميسر[١٨٢] ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ (سورة المائدة، آية: ٩١).

ي- لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله:

كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول (ﷺ) والدولة الإسلامية في غاية الخسة والوضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم وغدرهم عزة ورفعة ومجدًا، وغلبة لكن الله سخر منهم، ونجى رسوله والمسلمين من مكرهم وأذلهم وأخزاهم، فزال مجدهم، وكسر غلبتهم، وخرب بيوتهم، ورحّلهم عن ديارهم ولم يكلف ذلك المسلمين اصطدامًا مسلحًا، ولا قتالاً ضاريًا، ولكن الله قذف في قلوبهم الرعب والفزع، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي، مخلفين وراءهم ثروة، وملكًا، حازه المسلمون غنيمة باردة وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ (سورة الحشر، آية: ٢).

هذه عاقبة المكر السيء، والغدر المشين، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى مواطن العبرة، في هذه الموقعة وإلى هذا التهديد الذي أعلنه لكل من يسلك سبل المكر المزري، والحقد المستبد[١٨٣] وقال ﴿**يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ (سورة الحشر، آية: ٢).

(١٨٢) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٢٩).

ويظهر لي من الآية الكريمة الاعتبار من وجوه:

١- إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٢).

٢- الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وباق حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف.

٣- الاعتبار يكون بتجنب ما ارتكبه اليهود من خيانة وغدر حتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان[١٨٤].

ك- لا إكراه في الدين:

كان في بني النضير أناس من أبناء الأنصار قد تهوّدوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرحيل معهم فأنزل الله (عز وجل) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٩).

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كانت المرأة تكون مُقْلاة[١٨٥]، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوّده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله (عز وجل): ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٦)[١٨٦].

---

(١٨٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص١٦٧، ١٦٨.

(١٨٤) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس ص١٧٩.

(١٨٥) المقْلاة: التي لا يعيش لها ولد. سنن أبي داود (٣/ ١٣٣).

(١٨٦) أبو داود، كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الإسلام (٣/ ١٣٢) رقم ٢٦٨٢.



المبحث الرابع

غزوة ذات الرقاع

أولاً: تاريخها وأسبابها ولماذا سميت بذات الرقاع:

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغزة، وقد ذهب البخاري[(١٨٧)] إلى أنها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق[(١٨٨)]، إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقدي[(١٨٩)]، وابن سعد[(١٩٠)]، أنها كانت في المحرم سنة خمس ورجح ابن حجر ما ذهب إليه البخاري[(١٩١)]؛ لأن أبا موسى الأشعري شهدها وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرة وشهدها أبو هريرة وقد أسلم حين فتح خيبر، وصلى فيها رسول الله (ﷺ) صلاة الخوف، ولم تكن شرعت في الخندق، بل شرعت في عسفان أيام الحديبية، والحديبية سنة ست[(١٩٢)].

أما الدكتور البوطي[(١٩٣)]، فقد جزم أنها قبل الخندق، واحتج في ذلك بما ثبت في الصحيح من أن جابرًا رضي الله عنه استأذن الرسول (ﷺ) في غزوة الخندق وأخبر امرأته بما رأى من جوع رسول الله (ﷺ) وفيه قصة الطعام الذي دعا إليه النبي (ﷺ) ومجئ كل الجيش ومعجزة الرسول (ﷺ) في تكثير طعام جابر وفيه قول الرسول (ﷺ) لزوجة جابر: «**كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة**» وما ثبت في الصحيحين أيضًا من أن الرسول (ﷺ) سأل جابرًا في غزوة ذات الرقاع إن كان قد تزوج بعد فأجاب بنعم، مما يدل على أن الرسول (ﷺ) لم يكن علم شيئًا عن زواجه.

وأخذ البوطي في رد أدلة ابن حجر في كونها بعد خيبر، فقال: أما ما استدل به الحافظ ابن حجر من أنه (ﷺ) لم يصل صلاة الخوف في الأحزاب وصلاها قضاء فيجاب عنه بأنه ربما كان سبب تأخير الرسول (ﷺ) لها إذ ذاك استمرار الرمي بين المشركين والمسلمين بحيث لم يدع مجالاً للانصراف إلى الصلاة، وربما كان العدو في جهة القبلة... أو ربما أخرها لبيان مشروعية قضاء الفائتة كيفما كانت، كما يجاب عن استدلاله بحديث أبي موسى الأشعري بما ذكره كثير من علماء السير والمغازي من أن أبا موسى إنما قصد بها غزوة أخرى سميت هي أيضًا بذات الرقاع - بدليل أنه قال عنها: خرجنا مع رسول الله (ﷺ) في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه... إلخ وغزوة ذات الرقاع التي نتحدث عنها كان العدد أكثر

(١٨٧) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٥/ ٦٢) رقم ٤١٢٨.

(١٨٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٢٥).

(١٨٩) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٩٥).

(١٩٠) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٦١).

(١٩١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ص٤٢٤.

(١٩٢) نفس المصدر ص٤٢٤.

(١٩٣) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٢١٠.

من ذلك[١٩٤].

ومال الدكتور الحكمي[١٩٥]، والدكتور العمري[١٩٦] إلى ماذهب إليه البخاري وابن حجر، ومال الدكتور مهدي رزق الله أحمد إلى ما ذهب إليه البوطي[١٩٧] وقال بأن حجة الدكتور البوطي بزواج جابر قبل الخندق لا تدفع وهي في الصحيحين، إضافة إلى أن البخاري قد ذكر رأيه معلقًا، وحجته فقط مجيء أبي موسى بعد خيبر وهي حجة دفعها البوطي بترجيح تعدد الغزوة[١٩٨] وقد ذكر البوطي بأن تاريخ الغزوة كان في السنة الرابعة للهجرة بعد مرور شهر ونصف تقريبًا على إجلاء بني النضير وقال بأن هذا الرأي ذهب إليه أكثر علماء السير والمغازي[١٩٩] وإليه ذهبت.

وأما سبب الغزوة: ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى فخرج (ﷺ) قاصدًا قبائل محارب وبني ثعلبة[٢٠٠] وقد ذكر الدكتور محمد أبو فارس أن قادمًا قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله (ﷺ)، فما كان منه (ﷺ) إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل: سبعمائة مقاتل، ولما وصل رسول الله (ﷺ) إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله (ﷺ) صلاة الخوف وعاد رسول الله إلى المدينة[٢٠١].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درسًا بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق من تحدّثه نفسه بالاقتراب من المدينة بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره[٢٠٢].

وسميت بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل: لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع[٢٠٣]، وقيل: لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك[٢٠٤] والصحيح:

(١٩٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٥.
(١٩٥) انظر: مرويات الحديبية ص٧٣-٨٦.
(١٩٦) انظر: المجتمع المدني ص١٣٠.
(١٩٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٥.
(١٩٨) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٥.
(١٩٩) انظر: فقه السيرة النبوية ص١٩٤. (٢٠٠) نفس المصدر ص١٩٤، ١٩٥.
(٢٠١) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس ص١٤.
(٢٠٢) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل ص٧٧، ٧٨.
(٢٠٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٣٠٩/١).
(٢٠٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص١٧٠.

لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي (ﷺ) في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري وكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا[٢٠٥].

ثانيا: صلاة الخوف، وحراسة الثغور:

١-صلاة الخوف:

أنزل الله تعالى على نبيه (ﷺ) صلاة الخوف في هذه الغزوة وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو وهي كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (سورة النساء، آية: ١٠٢).

فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائمًا، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالسًا وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم[٢٠٦].

وفي رواية أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله (ﷺ) أربع ركعات وللقوم ركعتان[٢٠٧] قال الدكتور البوطي: ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين[٢٠٨] ودلّ تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد[٢٠٩].

---

(٢٠٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (١٤٥/٥).
(٢٠٦) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٥.
(٢٠٧) مسلم (٥٧٦/٢) رقم ٣١١.
(٢٠٨) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص٢٠٧.
(٢٠٩) انظر: التربية القيادية (٣٠٣/٣، ٣٠٤).

٢- حراسة الثغور:

عندما رجع الجيش الإسلامي من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد (ﷺ)، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول (ﷺ) رجلين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عبّاد بن بشر، وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا بسهم وهو قائم يصلي فنزعه، ولم يقطع صلاته، حتى رشقه بثلاث سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله، هلا نبهتني، فقال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذنتك، وايم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله (ﷺ) بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[٢١٠].

ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروسًا وعبرًا منها:

أ- اهتمام النبي (ﷺ) بأمن الجنود ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب- تقسيم الحراسة ونلاحظ أن الرجلين الذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين، نصفًا للراحة ونصفًا للحراسة، إذ لا بد من راحة جسم الجندي بعض الوقت.

جـ- التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته: فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه وتثج الدم منه بغزارة[٢١١].

د- الشعور بمسؤولية الحراسة: فلم يقطع عبّاد صلاته لألم يشعر به وإنما قطعها استشعارًا بمسؤولية الحراسة التي كلف بها. وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد[٢١٢].

هـ- مكان الحراسة استراتيجي: اختار النبي (ﷺ) فم الشعب مكان إقامة الحرس وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق، لأنه المكان الذي يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر.

و- قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيدًا عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث ما لا تحمد عقباه[٢١٣].

ثالثًا: شجاعة الرسول (ﷺ) ومعاملته لجابر بن عبد الله:

١- شجاعة الرسول (ﷺ):

عندما قفل رسول الله (ﷺ) من غزوة ذات الرقاع أدركته القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله (ﷺ) وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله (ﷺ) تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر بن عبد الله: (فنمنا نومة، فإذا رسول الله (ﷺ) يدعونا، فجئناه

(٢١٠) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٧.
(٢١١) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس ص٣٠، ٣١.
(٢١٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ٤٢٨.
(٢١٣) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس ص٣٢.

فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله (ﷺ): «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت، له الله»، فها هو ذا جالس. . . لم يعاقبه رسول الله واسم الأعرابي: غورث بن الحارث)[٢١٤].

وقد عاهد غورث رسول الله (ﷺ) ألا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس)[٢١٥].

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد (ﷺ) وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال، وفيها جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[٢١٦].

إن هذه القصة ثابتة وصحيحة، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري جلّ جلاله وحفظه لنبيه (ﷺ)، ثم هي تزيدك يقينًا بالخوارق التي أخضعها الله جل جلاله له عليه الصلاة والسلام مما يزيدك تبصرًا ويقينًا بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي (ﷺ) وهو أعزل غارق في غفلة النوم -أن يهوي به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي أمكنته من رسول الله (ﷺ) في قوله: من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ بعد ذلك، حتى عاقه عن القتل؟[٢١٧].

ليس هذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي، الذي يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنصرة نبيه، والذود عن دعوته[٢١٨]، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تيارًا من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدي رسول الله (ﷺ) وما حدث مصداق لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٦٧) فليست العصمة المقصودة في الآية، أن لا يتعرض الرسول (ﷺ) لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هي سنة الله في عباده كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بعث لتبليغها[٢١٩].

٢- معاملته (ﷺ) لجابر بن عبد الله:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: خرجت مع رسول الله (ﷺ) إلى غزوة ذات

---

(٢١٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٦ .

(٢١٥) نفس المصدر ص٤٢٧ .

(٢١٦) انظر: فتح الباري (١٥/ ٣١٧) نقلاً عن السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٧ .

(٢١٧) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٢٠٠ .

(٢١٨) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص١٧٨ .

(٢١٩) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٢٠٠ .

الرقاع من نخل، على جمل لي ضعيف فلما قفل رسول الله (ﷺ) قال: جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف، حتى أدركني رسول الله (ﷺ) فقال: «**ما لك يا جابر؟**» قال: قلت يا رسول الله أبطأني جملي هذا، قال: «**أنخه**»، فأنخته، وأناخ رسول الله (ﷺ)، ثم قال: «**أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصًا من شجرة**»، قال: ففعلت. قال: فأخذها رسول الله فنخسه بها نخسات، ثم قال: «**اركب**»، فركبت، فخرج -والذي بعثه بالحق- يواهق ناقته مواهقة. (أي يسابقها ويعارضها في المشي لسرعته).

قال: وتحدثت مع رسول الله (ﷺ) فقال لي: «**أتبيعني جملك هذا يا جابر؟**».

قال: قلت: يا رسول الله! بل أهبه لك.

قال: «**لا، ولكن بعنيه**».

قال: قلت: فَسُمنيه يا رسول الله!

قال: «**قد أخذته بدرهم**».

قال: قلت: لا، إذن تغبنني يا رسول الله!.

قال: «**فبدرهمين**».

قال: قلت: لا.

قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله (ﷺ) في ثمنه، حتى بلغ الأوقية.

قال: فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله!.

قال: «**نعم**».

قلت: فهو لك.

قال: «**قد أخذته**».

قال: ثم قال: «**يا جابر، هل تزوجت بعد؟**».

قال: قلت: نعم يا رسول الله.

قال: «**أثيبًا أم بكرًا؟**».

قال: قلت: لا، بل ثيبًا.

قال: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟».

قال: قلت يا رسول الله! إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعًا، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهن، وتقوم عليهن.

قال: «**أصبت -إن شاء الله- أما إنا لو قد جئنا صرارًا**[٢٢٠] **أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها**»[٢٢١].

---

(٢٢٠) موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة.
(٢٢١) نمارقها: وسائدها.

قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق.

قال: «**إنها ستكون، فإذا قدمت فاعمل عملاً كيِّسًا**».

قال: فلما جئنا صرارًا، أمر رسول الله (ﷺ) بجزور فنحرت، وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله (ﷺ)، دخل ودخلنا، قال: فحدثت المرأة الحديث، وما قال لي رسول الله (ﷺ) قالت: فدونك فسمع وطاعة، قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به، حتى أنخته على باب رسول الله (ﷺ)، قال: ثم جلست في المسجد قريبًا منه، قال: وخرج رسول الله (ﷺ)، فرأى الجمل، فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: يا رسول الله! هذا جمل جاء به جابر، قال: «**فأين جابر؟**». قال: فدعيت له، قال: فقال: «**يا ابن أخي، خذ برأس جملك فهو لك**»، ودعا بلالاً فقال له: «**اذهب بجابر، فأعطه أوقية**»، قال: فذهبت معه، فأعطاني أوقية، وزادني شيئًا يسيرًا. قال: فوالله ما زال يَنْمى عندي، ويرى مكانه من بيتنا...)[٢٢٢].

في هذه القصة صورة جميلة ورفيعة لخلق رسول الله (ﷺ) مع أصحابه من حيث لطف الحديث، والتواضع الرفيع، ورقة الحديث وفكاهة المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه والوقوف على أحوالهم والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية ماديًا ومعنويًا، فقد شعر الرسول (ﷺ) أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات شهيدًا في أحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق، فأراد الرسول (ﷺ) أن ينتهز هذه الفرصة ليواسيه ويقدم له ما يستطيع من مال مبارك[٢٢٣].

أي لطف هذا، وأية مواساة هذه، وأية طمأنة وإحسان صحبة، في أوبة من غزوة، بلا تكلف، ولاتهيؤ ولا استعداد سابق: أبرأ جمله وقواه له، بلمسه خارقة، ومعجزة ظاهرة، ثم وهبه إياه بعد أن نفذه ثمنه، ثم احتفى به فأمر فنحر القوم الجزور لتستعد عروسه لاستقباله، ثم طمأنه عن نعيم منظور، وغنى مذخور في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النبوية، التي تحلى بها رسول الله (ﷺ) والتي حلاه بها ربه الذي بعثه ليتم به مكارم الأخلاق وبهذا الأسلوب الهادئ الورع، الرفيق الرقيق، يتعلَّم الربانيون، حسن الصحبة، وصدق الأخوة وبر الخلة والمصاحبة[٢٢٤].

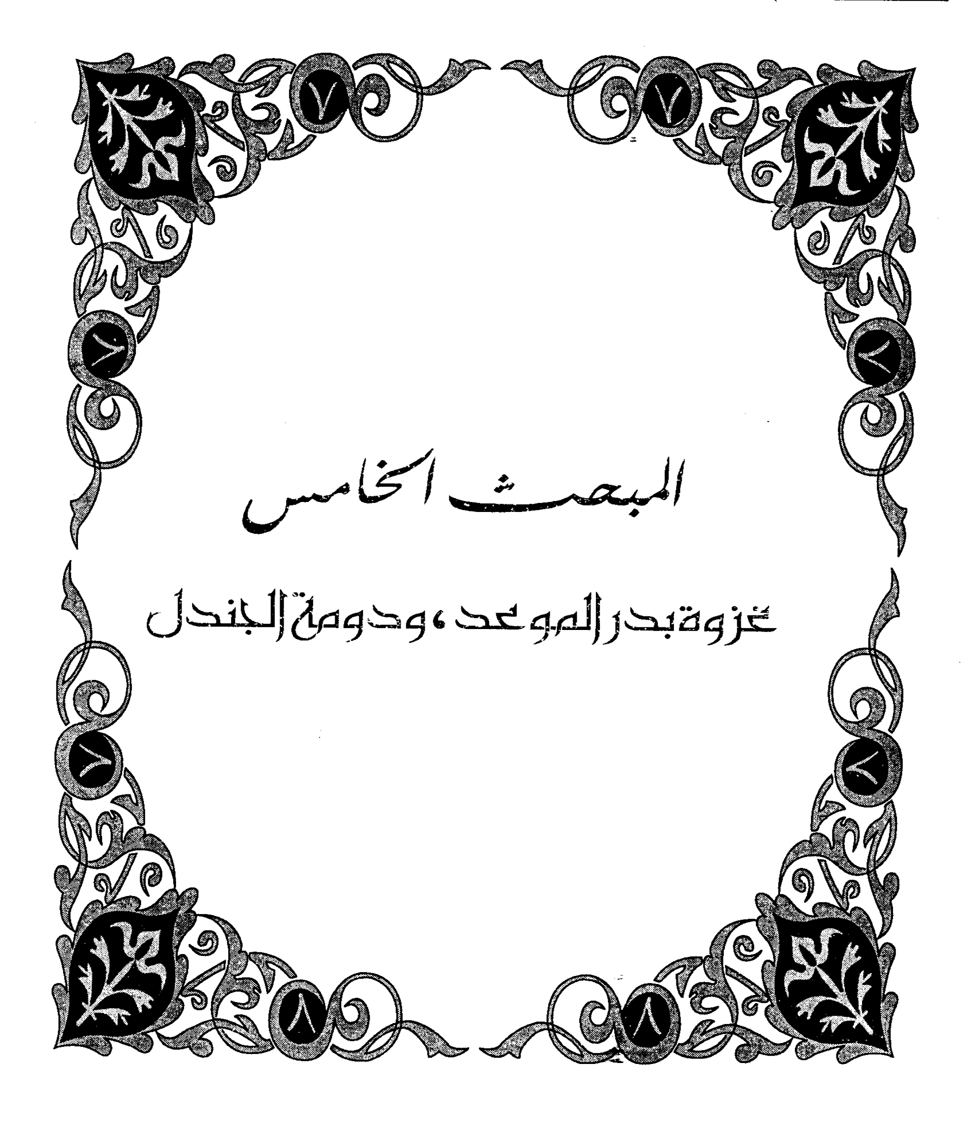
---

(٢٢٢) انظر: البداية والنهاية (٨٨/٤) قال ابن كثير: هذا الحديث له طرق كثيرة عن جابر وألفاظه كثيرة وفيه اختلاف كثير.

(٢٢٣) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٢١٢، ٢١٣)؛ وانظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٢٩.

(٢٢٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(١٨١).

(٢٢٥) انظر: موسوعة نظرة النعيم (٣١٨/١، ٣١٩).



المبحث الخامس

غزوة بدر الموعد، ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذًا للموعد الذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحد، والتزام الرسول (ﷺ) بذلك، فقد خرج النبي (ﷺ) من المدينة على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيالة وذلك في ذي القعدة سنة ٤هـ وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوصلوا بدرًا فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحدًا من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمّع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرسًا، فلما وصلوا إلى مر الظهران، نزلوا على مياه مجنّة على بعد أربعين ميلاً من مكة ثم عاد لهم أبو سفيان إلى مكة(٢٢٥) بعد أن خطب فيهم وقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا(٢٢٦) وأقبل مخشي بن عمرو الضمري وهو الذي وادع رسول الله (ﷺ) على بني ضمرة في غزوة ودان، فالتقى برسول الله (ﷺ) في بدر وقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «**نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك**»، قال. لا والله يا محمد ما لنا بذلك منك من حاجة(٢٢٧).

ففي هذا اللقاء أكد رسول الله (ﷺ) على معنى كبير في إظهار قوة المسلمين، وأن العقد الذي كان بين الفريقين يستمر بعامل قوة المسلمين لا بعامل ضعفهم، وبناء على طلب الطرف الثاني، وفي هذا ما فيه من القوة للمسلمين وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم(٢٢٨) .

لقد كانت تحركات الجيش الإسلامي من المدينة حتى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت بها وجوده وأعطى الدليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة وخارجها، أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة، في الجزيرة العربية كلها، ولا أدّل على ذلك من أن جيش مكة، وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد وقوة التنظيم وجودة التسلح قد هاب الجيش الإسلامي ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده (في أحد) قائد عام جيش مكة(٢٢٩) .

---

(٢٢٦) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل ص٨٨ .
(٢٢٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٢) .
(٢٢٨) انظر: معين السيرة للشامي ص٢٦٤، ٢٦٥ .
(٢٢٩) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل ص٨٨، ٨٩ .

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رؤوسهم وأصبحوا مثار السخرية عند العرب، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحد وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري[٢٣٠] فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السمعة العسكرية للمسلمين[٢٣١]، وكسبوا انتصارًا معنويًا عظيمًا على أعدائهم بدون قتال، وشاركوا في الموسم التجاري ببدر وربحوا في تجارتهم ربحًا طيبًا[٢٣٢].

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثر في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم[٢٣٣].

ثانيًا: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدولة الإسلامية، فبعد غزوة بدر الموعد، تحركت القوات الإسلامية بقيادة رسول الله (ﷺ) نحو قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، وفي حدود الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة)، ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشهير (على بعد ٤٥٠ كيلومترًا شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أول من احتك بها المسلمون فغزاها رسول الله تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥هـ/ أغسطس ٦٢٦م)[٢٣٤] فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، كما وردت الأنباء بأنهم يفكرون في القرب من المدينة لعجم عودها[٢٣٥].

إن دومة الجندل تعتبر بلاد نائية بالنسبة للمدينة المنورة، لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي -وهي على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة، ولو أن المسلمين أغفلوا أمرها، وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها ما لامهم أحد ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية العسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع[٢٣٦] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه للأسباب الآتية، وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:

١- لأن السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدي بلا شك إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يجاهدون من

---

(٢٣٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٦).
(٢٣١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).
(٢٣٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٧).
(٢٣٣) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري ص٩١.
(٢٣٤) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع ص١٤٤.
(٢٣٥) انظر: تأملات في سيرة الرسول لمحمد الوكيل ص١٦٩.
(٢٣٦) انظر: تأملات في سيرة الرسول ص١٦٩.

أجل استرداده.

٢- وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب، مما يضعف الاقتصاد، ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣- وهناك أمر أهم من الأمرين السابقين وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسؤوليتهم، لذلك فهم يؤمنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر[٢٣٧].

٤- حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة، لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها[٢٣٨].

٥- الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عمليًا للمسلمين بأن رسالتهم عالمية[٢٣٩] وليست مقصورة على العرب، ورأى بعض المؤرخين كالذهبي، والواقدي، ومحمد أحمد باشميل، وغيرهم: إن من أهداف تلك الغزوة إرهاب الروم الذين تقع المنطقة التي وصل إليها (ﷺ) بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق[٢٤٠].

لهذا ندب رسول الله (ﷺ) المسلمين للخروج، وخرج في ألف من أصحابه وكان يسير الليل، ويكمن النهار حتى يخفي مسيره[٢٤١] ولا تشيع أخباره وتنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء[٢٤٢].

واتخذ له دليلاً من بني عذرة يسمى مذكور، وسار حتى دنا من القوم عندئذ تفرقوا، ولم يلق رسول الله (ﷺ) منهم أحدًا، فقد ولوا مدبرين، وتركوا نعمهم وماشيتهم غنيمة باردة للمسلمين وأسر المسلمون رجلاً منهم، وأحضروه إلى الرسول فسأله عنهم، فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم، فعرض عليه رسول الله (ﷺ) الإسلام فأسلم وأقام بساحتهم أيامًا، وبعث البعوث، وبث السرايا، وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحدًا وعاد

---

(٢٣٧) نفس المصدر ص١٦٩.

(٢٣٨) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص١٤٤، ١٤٥.

(٢٣٩) انظر: دراسات في عهد النبوة ص١٤٤.

(٢٤٠) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل ص٩٣؛ تاريخ المغازي للذهبي ص٢٥٨.

(٢٤١) انظر: تأملات في سيرة الرسول ص١٧٠.

(٢٤٢) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس ص٤٠.

المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرسول عيينة بن حصن الفزاري واستأذن عيينة رسول الله في أن ترعى إبله وغنمه في أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلاً منها.

إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً- أي ما يقرب من خمسة وستين كيلومترًا- لدليل قاطع على ما وصلت إليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن الدولة الإسلامية، وأن الدولة أصبحت منيعة، ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتى(٢٤٣).

كانت غزوة دومة الجندل بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليال، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته كما كانت لقيصر وجنده، كما أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدوها من قبل ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد(٢٤٤).

كانت خطة الرسول (ﷺ) في هذه الغزوة ترمي إلى أهداف عديد، فهي غزوة، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجومًا محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها(٢٤٥).

كانت هذه الغزوة دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة يقودها رسول الله (ﷺ) وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها كل لحظة دروسًا في الطاعة والانضباط، ودروسًا في التدريب الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا في الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر

(٢٤٣) انظر: تأملات في سيرة الرسول ص١٧٠.
(٢٤٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة ص٢٥١، ٢٥٢.
(٢٤٥) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٢).

النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه. إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع، فيتلقاها عليه الصلاة والسلام ليصوغها على ضوء الإسلام ويعلم الجيل الرائد فن القيادة، وعظمة السياسة.

كانت معركة صامتة، وتربية هادئة، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء يتربى ويتثقف ويتدرب، ويمتحن ويقوّم ليكون هذا استعدادًا لمعارك قادمة[٢٤٦] وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عين (ﷺ) سباع بن عرفطة الغفاري واليًا على المدينة في تجربة جديدة، فهو ليس أوسيًا ولا خزرجيًا ولا قرشيًا بل من غفار التي كانت تعتبر من سراق الحجيج عند العرب، فلابد لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيًا كان شأن هذا الأمير وهذا يدل على عظمة المنهج النبوي في تربية الأمة والارتقاء بها وعلى عظمة قيادة النبي وفراسته في أتباعه وثقته فيهم ومعرفته لمواهبهم، فهو (ﷺ) على معرفة بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاري وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان (ﷺ) يربي أصحابه وهو غائب عن المدينة لكي يهيمن منهج رب العالمين على المسلمين ويصنع منها أمة واحدة تسمع وتطيع لكتاب ربها وسنة نبيها[٢٤٧].

(٢٤٦) نفس المصدر (٣/ ٣٧٣).
(٢٤٧) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٤).



المبحث السادس

غزوة بني المصطلق

أولاً: من هم بنو المصطلق ومتى وقعت الغزوة وأسبابها:

١- بنو المصطلق:

هم بطن[٢٤٨] من خزاعة والمصطلق[٢٤٩] جدهم وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء[٢٥٠].

واختلفوا في خزاعة[٢٥١] فمنهم من قال: إنها قبيلة عدنانية ومنهم من ذهب إلى أنها قبيلة قحطانية يمنية، والراجح ما ذهب إليه أكثر العلماء من أنها قبيلة قحطانية يمنية[٢٥٢].

٢- تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوال: فمن قائل أنها سنة ست، قال بذلك ابن إسحاق إمام المغازي وتبعه على ذلك خليفة بن خياط، وابن جرير الطبري، وابن حزم، وابن عبد البر، وابن العربي، وابن الأثير، وابن خلدون، فقد صرح كل منهم بأن غزوة بني المصطلق كانت في شعبان من السنة السادسة للهجرة[٢٥٣].

وهناك من قال: بأنها في شعبان من العام الرابع للهجرة وذهب إلى هذا القول المسعودي، وابن العربي المالكي وغيرهم.

وذهبت طائفة إلى أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، فمن هؤلاء العلماء كل من موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذهبي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير رحمهم الله ومن المحدثين الخضري بك، والغزالي، والبوطي، وأبو شهبة، والشيخ السعاتي، ومحمد أبو زهرة، وسيد قطب، وحسن مشاط، محمد علي الصابوني، ومحمد بكر آل عابد، ومهدي رزق الله أحمد[٢٥٤].

---

(٢٤٨) فرع .

(٢٤٩) المُصْطلق: بضم الميم سكون الطاء المهملتين وكسر اللام .

(٢٥٠) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٣١١) .

(٢٥١) خزاعة من التخزع وهو التأخر والمفارقة، وذلك أن خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام، فنزلت بمر الظهران وأقامت بهما .

(٢٥٢) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق من ص٤٥ الى ٥١ .

(٢٥٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٣٢٩؛ حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٢، ٣١٣) .

(٢٥٤) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٢) .

ويبدو لي أن هذا الرأي أقرب للصواب لأسباب منها:

أ- أن هذا القول هو ما ذهب إليه جمهور أصحاب السير والمغازي كما أنه سار عليه عدد كبير ممن كتب في السيرة من المعاصرين.

ب- أن في شعبان سنة أربع من الهجرة كانت غزوة بدر الموعد فيتعين أن غزوة بني المصطلق كانت في غيرها.

جـ- أن هذا القول يؤيده وجود سعد بن معاذ رضي الله عنه في الغزوة فقد جاء ذكره في حديث الإفك الذي كان في أعقاب غزوة بني المصطلق والذي أخرجه الإمام البخاري: (فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك... الحديث)[٢٥٥].

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السنة الخامسة على القول الراجح فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها[٢٥٦].

٣- أسباب هذه الغزوة:

من أهم الأسباب لهذه الغزوة:

أ- تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها في معركة أحد ضد المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش التي اشتركت في المعركة تأييدًا لقريش.

ب- سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيسي المؤدي إلى مكة، فكانت حاجزًا منيعًا من نفوذ المسلمين إلى مكة[٢٥٧].

جـ- أن الرسول (ﷺ) بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فهزمهم شر هزيمة[٢٥٨].

٤- أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله (ﷺ) بحركة بني المصطلق المريبة أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم، فتأكد من قصدهم، فأخبر الرسول (ﷺ) بذلك.

وفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج الرسول

(٢٥٥) البخاري، كتاب التفسير، سورة النور (٦/ ٩) رقم ٤٧٥٠.
(٢٥٦) من أراد مزيدًا من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق ص٩٧.
(٢٥٧) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي ص٣٣٢.
(٢٥٨) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٥).

(ﷺ) من المدينة في سبعمائة مقاتل[٢٥٩]، وثلاثين فارسًا[٢٦٠] متوجهًا إلى بني المصطلق، ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري[٢٦١] ومسلم[٢٦٢]، أن رسول الله (ﷺ) أغار عليهم وهم غارون -أي غافلون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[٢٦٣].

ثانيًا: زواج رسول الله (ﷺ) من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسم رسول الله (ﷺ) سبايا بني المصطلق وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث وكانت بركة على قومها ولنسمع قصتها من السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت:)لما قسم رسول الله (ﷺ) سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله (ﷺ) لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ما هو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «**فهل لك في خير من ذلك؟**».

قالت: وما هو يا رسول الله؟.

قال: «**أقض عنك كتابك وأتزوجك**».

قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله (ﷺ) قد تزوج جويرية بنت الحارث.

فقال الناس: أصهار رسول الله (ﷺ) فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[٢٦٤].

وجاء الحارث بن أبي ضرار-بعد الوقعة- بفداء ابنته إلى المدينة فدعاه النبي (ﷺ) إلى الإسلام فأسلم[٢٦٥].

---

(٢٥٩) انظر: تاريخ الإسلام، المغازي للذهبي ص٢٥٩.
(٢٦٠) انظر: الواقدي (١/ ٤٠٥).
(٢٦١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٣٣.
(٢٦٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الاغارة على الكفار (٣/ ١٣٥٦) رقم ١٧٣٠.
(٢٦٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٣٣.
(٢٦٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٦٠، ١٦١).
(٢٦٥) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٧).

تعتبر غزوة بني المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها. وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عليه الصلاة والسلام، وحيال هذا العتق الجماعي، وإزاء هذه الأريحية الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله.

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حب الصحابة للنبي (ﷺ) وتكريمهم إياه، وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحب النبوي هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ.

لقد كان زواج رسول الله (ﷺ) من جويرية بنت الحارث له أبعاده وتحققت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزواج منها من أهدافه الطمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام وهذه مصلحة إسلامية بعيدة يسر الله هذا الزواج، وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث، فقد عاد هذا الزواج على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معًا للإسلام والمسلمين[٢٦٦].

أصبحت جويرية بنت الحارث زوجة لسيد المرسلين وأمًا للمؤمنين، فكانت رضي الله عنها عالمة بما تسمع، وعاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله، وتحب الخير للمسلمين.

وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه (ﷺ) يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة رضي الله عنهم، لينشروه في المجتمع المسلم علمًا وعملاً، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية[٢٦٧]، فقد حدث عنها ابن عباس، وعبيد بن السباق، وكريب مولى ابن عباس ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدي بلغ مسندها في كتاب بقي ابن مخلد سبعة أحاديث[٢٦٨] منها أربعة في الكتب الستة، عند البخاري حديث، وعند مسلم حديثان، وقد تضمنت مروياتها أحاديث في الصوم في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصوم، وحديث في الدعوات في ثواب التسبيح، وفي الزكاة في إباحة الهدية للنبي (ﷺ) وإن كان المهدي ملكها بطريق الصدقة، كما روت في العتق، وبسبعة أحاديث شريفة خلدت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها اسمها في عالم الرواية، لتضيف إلى شرف صحبتها للنبي (ﷺ) وأمومتها للمسلمين، تبليغها الأمة سنن المصطفى (ﷺ) ما تيسر لها ذلك[٢٦٩].

---

(٢٦٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص١٩٩، ٢٠٠.

(٢٦٧) انظر: محمد رسول الله، محمد صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).

(٢٦٨) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، آمال قرداش ص(٨٨).

(٢٦٩) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، آمال قرداش ص(٨٨، ٨٩).

وكانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات القانتات الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه(٢٧٠) فهذه أم المؤمنين جويرية تحدثنا عن ذلك فتقول: أن النبي (ﷺ) خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها(٢٧١) ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة. فقال: «**ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟**»، قالت: نعم. قال النبي (ﷺ): «**لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**»(٢٧٢).

وقد توفيت رضي الله عنها سنة خمسين، وقيل: ست وخمسين(٢٧٣).

ثالثًا: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عدد كبير من المنافقين مع المسلمين وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعًا في الغنيمة(٢٧٤).

وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصرًا جديدًا ازدادوا غيظًا على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمون لتشفى من الغل، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول (ﷺ) في نفسه وأهل بيته فشنوا حربًا نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها، ولنترك الصحابي زيد بن أرقم وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول يحكي خبر ذلك(٢٧٥) قال: (كنت في غزاة(٢٧٦) فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي(٢٧٧)، فذكره للنبي (ﷺ) فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله (ﷺ) إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله (ﷺ) وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله (ﷺ) ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ**

---

(٢٧٠) انظر: محمد رسول الله صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).

(٢٧١) مسجد: المكان الذي تصلي فيه في بيتها.

(٢٧٢) مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار (٤/ ٢٠٩) رقم ٢٧٢٦.

(٢٧٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢١)، خليفة بن خياط تاريخه ص٢٣٤.

(٢٧٤) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٨).

(٢٧٥) انظر: السيرة الصحيحة للعمري (٢/ ٤٠٨).

(٢٧٦) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.

(٢٧٧) يريد بعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.

﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة المنافقين، آية: ١) فبعث إلى رسول الله (ﷺ) فقرأ، فقال: «**إن الله قد صدقك يا زيد**»[٢٧٨].

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاري ما حدث عند ماء المريسيع، وأدى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: (كنا في غزاة فكسع[٢٧٩] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله (ﷺ) فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**».

قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «**دعوها، فإنها منتنة**». فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي (ﷺ) فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي (ﷺ): «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[٢٨٠].

وفي رواية قال عمر بن الخطاب: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله (ﷺ): «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا، ولكن أذن بالرحيل**» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (ﷺ) يرتحل فيها، فارتحل الناس[٢٨١].

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به -فقال من حضر رسول الله (ﷺ) من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلما سار رسول الله (ﷺ)، لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله (ﷺ): «**أو بلغك ما قال صاحبكم؟**».

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: «**عبد الله بن أبي**».

قال: وما قال؟

قال: «**زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**».

قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبت ملكه.

---

(٢٧٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٠٨).

(٢٧٩) كسع: ضربه برجله.

(٢٨٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٠٩).

(٢٨١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣١٩).

ثم مشى رسول الله (ﷺ) بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا.

وإنما فعل ذلك رسول الله (ﷺ) ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبي ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه(٢٨٢).

إن هذه الحادثة من السيرة النبوية العطرة مليئة بالدروس والعبر فمن أهم تلك الدروس:

١- الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله (ﷺ): «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»(٢٨٣).

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جدًا بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمد محمدًا، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا(٢٨٤). وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات(٢٨٥).

ولم يقف النبي (ﷺ) موقفًا سلبيًا حيال تلك المؤامرة التي تزعمها ابن سلول لتصديع الصف المسلم، وإحياء نعرات الجاهلية في وسطه بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

أ- سار رسول بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا(٢٨٦).

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرمًا، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابن أبيّ.

ب- لم يواجه النبي (ﷺ) ابن سلول ومؤامراته المدبرة بالقوة واستعمال السلاح، حرصًا على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أبي اتباعًا وشيعة مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع

---

(٢٨٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٩، ٣٢٠).
(٢٨٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٩).
(٢٨٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).
(٢٨٥) نفس المصدر (٣/ ٤٦٣).
(٢٨٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٥).

الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين ولا للإسلام وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة في معالجة المواقف العصيبة في حزم وقوة أعصاب وبعد نظر[٢٨٧]، وهذه البراعة في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور متفرعة عن كونه (ﷺ) نبيًّا ورسولاً إلى الناس[٢٨٨] لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرسول مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي سلول كلما أحدث حدثًا كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنّفونه، ويعرضون قتله على النبي، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم لقتلته!!**» فقال عمر: قد -والله- علمت لأمر رسول الله (ﷺ) أعظم بركة من أمري[٢٨٩].

٢- «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»:

كان لابن أبي بن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة، أتى رسول الله فقال له: (يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله (ﷺ): «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**»[٢٩٠].

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة، تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبي، وقال له: قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله (ﷺ) في ذلك، فلما جاء رسول الله (ﷺ) استأذنه في ذلك، فأذن له[٢٩١].

٣- مثل أعلى في الإيمان:

جسده عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة[٢٩٢] لقد ضرب الابن أروع مثل في الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة، فقابله (ﷺ) صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع في العفو والرحمة وحسن الصحبة «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي**

(٢٨٧) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص٢٠٢ .
(٢٨٨) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص٤٠٩ .
(٢٨٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧) .
(٢٩٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٢١) .
(٢٩١) انظر: الولاء والبراء في الاسلام ص(٢٠٩) للقحطاني .
(٢٩٢) انظر: محمد رسول الله صادق عرجون (٣/ ١٦٣) .

معنا» يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة النبوية[٢٩٣] فقد تلطف النبي (ﷺ) بهذا الصحابي الجليل وهدأ من روعه، وأذهب هواجسه[٢٩٤].

٤- محاربة العصبية الجاهلية:

إن العصبية الممقوتة والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها وإنما الإشتراك في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال الأنصاري: يا للأنصار وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك النبي (ﷺ) فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار فقال النبي (ﷺ): «**دعوها، فإنها منتنة**»[٢٩٥] ووجه الدلالة بهذا الخبر، أن النبي (ﷺ) أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسمًا استعمله القرآن وهو (المهاجرين) (والأنصار). فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم، لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار، لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول كلمة (الأنصار). وكان حق الاثنين -إذا كان لابد من الاستنصار بالغير- أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعًا. وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، من بلد أو مذهب، أو حزب، أو عرق، أو لون، أو دم، أو جنس، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (سورة الحجرات، آية ١٠).

وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصر على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي[٢٩٦].

لقد أوضح الرسول (ﷺ) أن العصبيات هي من دعاوي الجاهلية وقال: «**لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره**»[٢٩٧]، فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف وأبطل المفهوم الجاهلي: أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا[٢٩٨].

---

(٢٩٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).

(٢٩٤) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ١٦٢).

(٢٩٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩).

(٢٩٦) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٢٩٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩).

(٢٩٨) نفس المصدر (٢/ ٢٠٩).

إن مهمة الدعاة وطلاب العلم، والعلماء والفقهاء في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها كما أمر بذلك رسول الله (ﷺ) مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا لقلعها من النفوس[٢٩٩].

رابعًا: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة المنافقون في أعقاب غزوة بني المصطلق حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله (ﷺ) سورة المنافقون)[٣٠٠].

فقد تحدثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا ومتاعها وحثت على الإنفاق. ويمكن لدارس هذه السورة يلاحظ عدة محاور مهمة منها:

١- تحدثت السورة الكريمة في البداء عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم ووصفت حالهم[٣٠١]، فابتدأت هذه السورة بإيراد صفات المنافقين التي من أهمها الكذب في ادعاء الإيمان، وحلف الأيمان الكاذبة، وجبنهم وضعفهم وتآمرهم على النبي (ﷺ) وعلى المؤمنين، وصدهم الناس عن دين الله[٣٠٢] قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة المنافقون، آية: ١-٥).

٢- ثم بينت الآيات عنادهم وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحق وبينت مقالاتهم الشنيعة بالتفصيل خاصة ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنهم سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة وأن العزة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة[٣٠٣].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۞ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

---

(٢٩٩) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠٢).
(٣٠٠) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المنافقون (٥/ ٤١٥).
(٣٠١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).
(٣٠٢) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي (٢٨/ ٢١٣).
(٣٠٣) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة المنافقون، آية: ٥-٨).

٣- ثم ختمت السورة بتحذير الذين آمنوا من الانشغال بزينة الدنيا وعدم التشبه بالمنافقين، وحثتهم على الصدقة -التي هي برهان على الإيمان باليوم الآخر- قبل فوات الأوان[٣٠٤]، فقد كانت الآيات تحث المجتمع المسلم على الاشتغال بطاعة الله تعالى، وقراءة القرآن، وإدامة الذكر، وأداء الصلوات، والقيام بجميع الفرائض، وحذرتهم من أن ينشغلوا بالأموال والاهتمام بشؤون الأولاد عن أداء حقوق الله، كما فعل المنافقون، إذ قالوا بسبب الشح بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله (ﷺ)، ومن يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه، فأولئك هم الخاسرون[٣٠٥]، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المنافقون، آية: ٩-١١).

كانت خاتمة السورة الكريمة تحذيرًا للمؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا التي هي من أخلاق المنافقين[٣٠٦].

وهكذا كان المجتمع المدني يتربى بالأحداث والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه ورسول الله (ﷺ) يقوم بالإشراف على ذلك.

خامسًا: محاولة المنافقين الطعن في عرض النبي (ﷺ) بالافتراء على عائشة رضي الله عنها ما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، فقد ألمت بالبيت النبوي هذه النازلة الشديدة والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من النبي (ﷺ) ومن أهل بيته الأطهار.

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسير[٣٠٧] على أن حادثة الإفك كانت في أعقاب غزوة بني المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسرون[٣٠٨]، والمحدثون[٣٠٩].

---

(٣٠٤) نفس المصدر (١/ ٣٢٧).

(٣٠٥) انظر: التفسير المنير (٢٨/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣٠٦) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٤٣).

(٣٠٧) كالواقدي، والذهبي، والطبري، وابن سعد، وابن حزم.

(٣٠٨) كابن كثير، والرازي، والطبري وغيرهم.

(٣٠٩) كابن حجر، والنووي.

وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحهما وهذا سياق القصة من صحيح البخاري:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله (ﷺ) إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله (ﷺ) معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها[٣١٠] فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله (ﷺ) بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي[٣١١] وأنزل فيه.

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله (ﷺ) من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار[٣١٢] قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط[٣١٣] الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهن اللحم إنما نأكل العُلْقة[٣١٤] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السنة فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأقمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي[٣١٥] ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج[٣١٦] فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[٣١٧] حين عرفني فخمرت[٣١٨] وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[٣١٩] في نحر الظهيرة[٣٢٠] فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول.

١- انتشار الدعاية بالمدينة:

وقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرًا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا

---

(٣١٠) هي غزوة بني المصطلق.
(٣١١) الهودج: محمل له قبة تستر بالثياب يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.
(٣١٢) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن.
(٣١٣) الرهط: الجماعة.
(٣١٤) العلقة: البلغة من الطعام.
(٣١٥) صحابي جليل كان صاحب ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته.
(٣١٦) فأدلج: بالتشديد سار آخر الليل.
(٣١٧) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٣١٨) فخمرت: أي غطيت.
(٣١٩) موغرين: الوغرة: شدة الحر.
(٣٢٠) نحر الظهيرة: أولها وهو وقت شدة الحر.

أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني[٣٢١] إني لا أعرف من رسول الله (ﷺ) اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله (ﷺ) فيسلم ثم يقول: «**كيف تيكم؟**»[٣٢٢] ثم ينصرف، وذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع[٣٢٣] وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف[٣٢٤] قريبًا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة[٣٢٥] فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها[٣٢٦] فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟ قالت: (أي -هنتاه[٣٢٧] أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟. فأخبرتني بخبر أهل الإفك فازددت مرضًا على مرضي قالت فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله (ﷺ) -تعني فسلم- ثم قال: «**كيف تيكم؟**» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن استيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله (ﷺ) فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[٣٢٨] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها[٣٢٩] قالت: فقلت سبحان الله لقد تحدث الناس بهذا؟.

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع[٣٣٠]، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

٢-استشارة رسول الله (ﷺ) بعض أصحابه عند تأخر نزول الوحي:

فدعا رسول الله (ﷺ) علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث[٣٣١] الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم من الود فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله ،عليك ،النساء سواها

(٣٢١) يريبني: يشككني .
(٣٢٢) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل ذاكم للذكر .
(٣٢٣) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة .
(٣٢٤) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر .
(٣٢٥) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، توفي في خلافة عثمان .
(٣٢٦) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت .
(٣٢٧) هنتاه: يا بلهاء كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم .
(٣٢٨) وضيئة: الوضاءة الحسن والبهجة .
(٣٢٩) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها .
(٣٣٠) لا يرقأ لي دمع: لاينقطع ولا يسكت .
(٣٣١) استلبث: وهو الإبطاء والتأخر .

كثير وإن تسأل الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله (ﷺ) بريرة فقال: «**أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟**» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا أغمضه[٣٣٢] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن[٣٣٣] فتأكله، فقام رسول الله فاستعذر[٣٣٤] يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله (ﷺ) وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً[٣٣٥] ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

٣- آثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية[٣٣٦] - فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيان[٣٣٧] الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله (ﷺ) قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله (ﷺ) يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فمكثت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله (ﷺ) فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها.

٤-مفاتحة الرسول (ﷺ) لعائشة وجوابها له:

وقد لبث الوحي شهرًا[٣٣٨] لا يوحى إليه من شأني قالت: فتشهد رسول الله (ﷺ) حين جلس، ثم قال: «**أما بعد: يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا[٣٣٩]، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف**

---

(٣٣٢) أغمضه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه.
(٣٣٣) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
(٣٣٤) فاستعذر: أي قال من يقوم بعذري إن كفأته على سوء صنيعه.
(٣٣٥) هو صفوان بن المعطل السلمي.
(٣٣٦) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل.
(٣٣٧) فتشاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية.
(٣٣٨) التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.
(٣٣٩) كناية عما رميت به من الإفك.

بذنبه،ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» فلما قضى رسول الله (ﷺ) مقالته قلص[٣٤٠] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله (ﷺ) عني فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ﷺ)، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله (ﷺ) قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله (ﷺ).

قالت: فقلت -وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن-: إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم بأمر، والله يعلم أني منه لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتصدقن، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[٣٤١] قال: ﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (سورة يوسف، آية:١٨)، قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وإن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله (ﷺ) في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

٥-نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله ما رام[٣٤٢] -رسول الله (ﷺ) ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٣٤٣] حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان[٣٤٤] من الفرق، وهو يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه.

قالت فلما سري[٣٤٥] عن رسول الله (ﷺ) عنه وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة، أما الله (عز وجل) فقد برأك**» فقالت أمي: قومي إليه، قالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله (عز وجل).

وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ

(٣٤٠) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب.

(٣٤١) هو يعقوب عليه السلام.

(٣٤٢) ما رام: ما برح وما فارق مجلسه.

(٣٤٣) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.

(٣٤٤) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.

(٣٤٥) سري: انكشف عنه ما يجده من الهم والثقل.

سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النور، آية: ١١-٢٠).

٦- موقف أبي بكر الصديق ممن تكلم في عائشة رضي الله عنها:

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النور، آية: ٢٢).

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول الله (ﷺ) يسأل زينب بنت جحش[٣٤٦] عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟، فقالت: يا رسول الله أحمي[٣٤٧] سمعي وبصري، وما علمت إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني[٣٤٨] من أزواج رسول الله (ﷺ) فعصمها الله[٣٤٩] بالورع[٣٥٠] وطفقت[٣٥١] أختها حمنة[٣٥٢] تحارب لها، فهلكت ممن هلك من أصحاب الإفك[٣٥٣].

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله (ﷺ) من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية. فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس لتكون عبرة وعظة للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[٣٥٤].

---

(٣٤٦) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت عمته رضي الله عنها.

(٣٤٧) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.

(٣٤٨) تساميني: أي تعاليني وتفاخرني أي تطاولني عنده صلى الله عليه وسلم.

(٣٤٩) ومعنى عصمها: حفظها ومنعها.

(٣٥٠) الورع: الكف عن المحارم والتحرج منها.

(٣٥١) طفقت: شرعت.

(٣٥٢) حمنة بنت جحش بنت عمته رضي الله عنه وهي أخت زينب رضي الله عنهم.

(٣٥٣) البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ (٦/٦) رقم ٤٧٥٠.

(٣٥٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٤٠).

سادسًا: أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات التي نزلت في حادثة الإفك أحكامًا وآدابًا من أهمها ما يأتي:

١- تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ (النور: ١١).

٢- أن حكمة الله - تعالى - اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بحديث الإفك خيرًا لهم حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ (النور: ١١).

٣- الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم قال تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: ١٢).

٤- تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النور: ١٣).

٥- بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٤).

٦- وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٦).

٧- النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٨).

٨- النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٠).

٩- بيان فضل الله (سبحانه) على عباده المؤمنين ورأفته بهم وكرر ذلك تأكيدًا له، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٠).

١٠- النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢١-٢٤).

١١- الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا[٣٥٥] قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو

(٣٥٥) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

الفَضْلِ منكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢).

١٢- غيرة الله -تعالى- على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾** (النور: ٢٣-٢٥).

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات:

ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظام ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾** إلى قوله: **﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾** (النور ٢٣-٢٥).

لكفى بها حديث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله[٣٥٦].

١٣- بيان سنة من سنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين. قال تعالى: **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** (النور: ٢٦).

١٤- والناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[٣٥٧]:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد -عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك: إن الناس عندما رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسم: وهو أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا، وقسم: سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب رضي الله عنهما، فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث: فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوا، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة

(٣٥٦) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٦) نقلا عن تفسير الكشاف (٣/ ٢٢٣).
(٣٥٧) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٨٧).

الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر وحاكي الإفك ليس بقاذف ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع: فهم الذين جاؤوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله ابن أبي ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار الله (عز وجل) إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف فقال: **﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾** (النور: ١٢).

أما القسم الثالث: فقد أشار الله (عز وجل) إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: **﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾** (النور: ١٥-١٦).

وقد أثبت الله (عز وجل) لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته فقال (عز وجل): **﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** (النور: ٢٢).

أما القسم الرابع: وهو جماعة عبد الله بن أبي الذين جاءوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة[٣٥٨] حيث قال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾** (النور: ٢٣-٢٥).

سابعًا: فوائد وأحكام ودروس من حادثة الإفك وغزوة بني المصطلق:

١- بشرية الرسول (ﷺ):

جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي (ﷺ) وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًا غير منفصل عن شخصية الرسول (ﷺ) لما عاش الرسول (ﷺ) تلك المحنة بكل أبعادها شهرًا كاملاً. ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول (ﷺ) ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول (ﷺ)، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على

(٣٥٨) انظر: فقه الاسلام شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/ ٥).

حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله (ﷺ) بصفة خاصة ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها.

وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيرًا على نبوة محمد (ﷺ)[٣٥٩].

٢- حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى (عز وجل) أن يشرّع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية، وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام[٣٦٠].

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضًا كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفًا أو عفيفة طاهرًا أو طاهرة بريئًا أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانون جلدة، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحًا[٣٦١].

هذا وقد أقام رسول الله (ﷺ) حد القذف على مسطح وحسان وحمنة، وروى محمد ابن إسحاق وغيره أن النبي (ﷺ) جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحًا وحسانًا وحمنة وذكره الترمذي[٣٦٢] قال القرطبي والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حُدَّ حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحد عبد الله بن أبي[٣٦٣] وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله بن أبي أقيم عليه الحد ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة[٣٦٤].

وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي فقال:

أ- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك وقد وعده

(٣٥٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٤١ .
(٣٦٠) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٥٧) .
(٣٦١) انظر: آثار تطبيق الشريعة، د. محمد الزاحم ص(١١٧) .
(٣٦٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٩٧) .
(٣٦٣) نفس المصدر (١٢/ ٢٠١) .
(٣٦٤) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق ص(٢٤٢).

الله بالعذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.

ب- وقيل :كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

جـ-وقيل: الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

د-وقيل: بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثم قال -في ختام كلامه: ولعله ترك لهذه الوجوه كلها[٣٦٥].

٣-اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بينت الروايات أن من خاض في الإفك قد تاب -ما عدا ابن أبي- وقد اعتذر حسان رضي الله عنه عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هي أهل له[٣٦٦]:

رأيتك وليغفر لك الله حرة ... من المحصنات غير ذات غوائل

حصان رزانٌ ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

وإنّ الذي قد قيل ليس بلائق ... بك الدهر بل قيل امرئ متناحل

فإن كنت أهجوكم كما بلّغُوكم ... فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

فكيف ووُدّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل

وإن لهم عزًا يرى الناس دونه ... قصارًا , وطال العزّ كل التطاول[٣٦٧]

٤-من الأحكام المستنبطة من غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، ومنها صحة جعل العتق صداقًا كما فعل (ﷺ) مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة، ومنها مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، ومنها جواز استرقاق العرب كما حدث في الغزوة وهو قول جمهور العلماء[٣٦٨]، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن، ورماها بما اتهمت به فإنه كافر لأنه معاند للقرآن[٣٦٩]، ومن الأحكام التي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النساء حيث سأل الصحابة الرسول (ﷺ) عنه فأذن به وقال: «**ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة**

---

(٣٦٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٣٦٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٦٣).

(٣٦٧) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي ص٢٨١.

(٣٦٨) انظر: كتاب الأم للشافعي (٤/ ١٨٦).

(٣٦٩) شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٦٤٣).

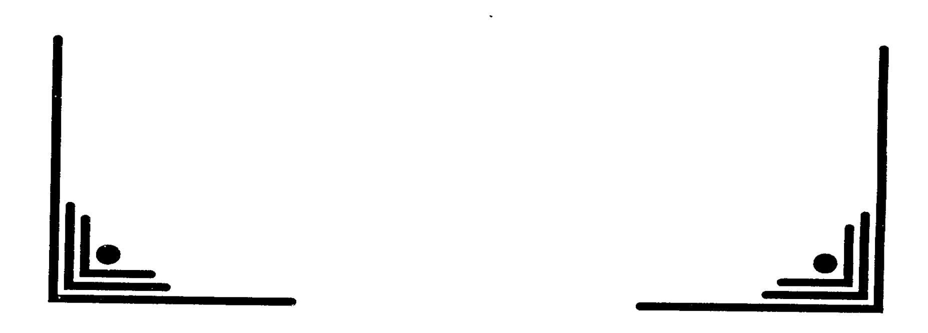
إلا وهي كائنة»[٣٧٠]. فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها[٣٧١]، ونزلت آية التيمم فـي هذه الغزوة، تنويهًا بشأن الصـلاة، وتنبيهًا على عظيم شـأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فـقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شـروطها، كما لا يـحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها[٣٧٢].

(٣٧٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤١٥).
(٣٧١) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (٦/ ٢٢٢-٢٢٤).
(٣٧٢) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٢١٠، ٢١١).



الفصل الحادي عشر

غزوة الأحزاب ٥هـ





المبحث الأول

تاريخ الغزوة وأسبابها وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

١- تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السير والمغازي على أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة[١] وقال الواقدي[٢]: إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد[٣]: إن الله استجاب لدعاء الرسول فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. ونقل عن الزهري، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية[٤].

ويرى العلماء أن القائلين بأنها وقعت سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة[٥] وجزم ابن حزم[٦]، أنها وقعت سنة أربع لقول ابن عمر أن الرسول (ﷺ) رده يوم أحد -وهي في السنة الثالثة باتفاق وهو ابن أربع عشرة سنة[٧] ولكن البيهقي[٨]، وابن حجر[٩] وغيرهما فسروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية الرابعة عشرة ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور[١٠].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور وهو الراجح لدى مال ابن القيم حيث قال: وكانت سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين إذ لا خلاف أن أحدًا كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله (ﷺ) في العام المقبل وهو سنة أربع، ثم أخلفوه من أجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانت سنة خمس جاؤوا لحربه[١١].

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٤٣).
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٤٤٠) بدون إسناد.
(٣) الطبقات (٢/ ٦٥، ٧٣) بإسناد متصل.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٥).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٤٣).
(٦) انظر: جوامع السير ص(١٨٥).
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٤٤).
(٨) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٩٦).
(٩) انظر: الفتح (٣/ ٣٩٦).
(١٠) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٤٤).
(١١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٨٨).

٢- أسبابها :

أن يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين وكوّنوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام ابن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبي عمار[١٢] .

وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا في مهمته، حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين، ووافقت غطفان طمعًا في خيرات المدينة وفي السلب والنهب وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكة إن دينكم خير من دين محمد وأنتم أولى بالحق منه[١٣] وعن ذلك يقول الله تعالى : **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾** (سورة النساء، آية : ٥١-٥٢).

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريش الوثني على دين الإسلام الذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد، فقال: (والذي يؤلم كلّ مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنّما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين، حيث فضّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية)[١٤] ولا ريب فإن قريشًا قد سُرّت بما سمعت من مدح لدينها، فازدادت حماسًا، وأصبحت أكثر تصميمًا على حرب المسلمين، ثم أعلنت موافقتها على هذه الدعوة والاشتراك في الحملة التي ستهاجم المدينة، وضربت لها موعدًا[١٥].

وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين، **وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:**

أ- أن تكون قوة غطفان في جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

ب- أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر خيبر لسنة واحدة[١٦].

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرة آلاف مقاتل، أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد

(١٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٧) .
(١٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د . علي معطي ص(٣١٠) .
(١٤) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون ص(١٤٢) .
(١٥) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون ص(٣١٠) .
(١٦) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل ص(١٤١) .

الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانيًا: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدولة الإسلامية على حذر تام من أعدائه، لذا فقد كان يتتبع أخبار الأحزاب ويرصد تحركاتهم ويتابع حركة الوفد اليهودي منذ خرج من خيبر في اتجاه مكة، وكان على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولاً ثم غطفان ثانيًا، وبمجرد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو شرع الرسول (ﷺ) في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة[١٧].

فأدلى سلمان الفارسي رضي الله عنه برأيه الذي يتضمن حفر خندق كبير لصدّ عدوان الأحزاب، فأعجب النبي (ﷺ) بذلك قال الواقدي (رحمه الله): فقال سلمان: يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوّفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سليمان المسلمين)[١٨].

وعندما استقر الرأي -بعد المشاورة- على حفر الخندق، ذهب النبي (ﷺ) هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحماية للجيش.

فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله (ﷺ) ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب[١٩] إلى راتج[٢٠] وقد استفاد (ﷺ) من مناعة جبل سَلْع[٢١] في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقًا، لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع وكانت حرة واقم[٢٢] من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كقبلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول وبني قريظة عهد ألاّ يمالوا عليه أحدًا، ولا يناصروا عدوًا ضده[٢٣].

---

(١٧) نفس المصدر ص(١٤٤، ١٤٥).

(١٨) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٤٤٤) والطبقات الكبرى (٢/ ٦٦).

(١٩) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

(٢٠) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.

(٢١) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة. انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٣٦).

(٢٢) هي حرة المدينة الشرقية: انظر: معجم معالم الحجاز (٢/ ٢٨٣، ٢٨٥).

(٢٣) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ص(٤٤٢).

ويستفاد من بحث الرسول (ﷺ) عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند، لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها[٢٤].

لقد كانت خطة الرسول (ﷺ) في الخندق متطورة ومتقدمة ، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم ، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم، وبهذا يكون الرسول (ﷺ) هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرّية الخطة وسرعة إنجازها وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

ثالثًا: اهتمام النبي (ﷺ) بالجبهة الداخلية:

١- لما علم النبي (ﷺ) بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم في حصن بني حارثة حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك (ﷺ) لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر فعال على معنويات المقاتلين، لأن الجندي إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادئ الأعصاب فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة، ويُسخر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع في القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندي يضطرب ومعنوياته تضعف ويستولي عليه القلق، مما يكون له أثر في تراجعه عن القتال وبذلك تنزل الكارثة بالجميع[٢٥].

٢- ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي (ﷺ) جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول (ﷺ) الصحابة في العمل المضني فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق، قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله (ﷺ) رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر[٢٦].

فعمل رسول الله (ﷺ) مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكلل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣- **وكان (ﷺ) يشارك الصحابة رضي الله عنهم في آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم،** ففي غزوة الأحزاب نجد أنه (ﷺ) كان يعاني من ألم الجوع كغيره،

---

(٢٤) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ص(٤٢٦).

(٢٥) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد عبد القادر أبو فارس ص(٩٨).

(٢٦) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (٥/٥٧) رقم (٤١٠٦).

بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجـرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع[٢٧]، ثم إنه (ﷺ) شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يسدّ رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثًا، لم يستأثر بذلك دونهم وهذا مـا سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمـة جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

٤- رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم:

اقتـرن حفـر الخندق بصعـوبات جمة، فـقد كـان الجو باردًا، والريح شـديدة، والحالة المعيشية صعبة، بالإضافـة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف -بطبيعـة الحال- يحتاج إلى قدر كبيـر من الحزم والجد، ولكن النبي (ﷺ) لم ينسَ في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كـما أنها بحاجة إلى من يدخـل السرور حتى تنسى تلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي.

ولهذا نجد أن النبي (ﷺ) كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

اللهم لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأعادي قد بَغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها[٢٨]

وعن أنس رضي الله عنه أن أصحاب محمد (ﷺ) كانوا يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الإسلام ما بقينا أبدًا

أو قال على الجهاد والنبي يقول:

اللهم إن الخير خير الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة[٢٩]

لقد كان لهذا التبسط والمرح في ذلك الوقت أثره في التـخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجـة للظروف الصعبة التي يعـيشونها، كـما كان له أثره في بعث الهمـة والنشاط، بإنجاز العمل الذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وضول عدوهم[٣٠]

٥- تقدير ظروف الجند والإذن بالانصراف عند الحاجة:

كان الصحابة رضي الله عنهم على قدر كبير من الأدب مع النبي (ﷺ) فكانوا يستأذنونه

---

(٢٧) غزوة الأحزاب، د. محمد ابو فارس ص١١٦، ١١٧.

(٢٨) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٧) رقم ٤١٠٦.

(٢٩) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤٣٢) رقم ١٢٩.

(٣٠) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ص٤٨٢.

في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حوائجهم ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبة في الخير واحتسابًا له فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النور، آية: ٦٢).

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم التي تعرض لهم فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم[٣١]، فكان النبي (ﷺ) بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن ولم ير فيه مضرة على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال[٣٢].

٦- تقسيم الصحابة إلى دوريات للحراسة:

قسم النبي (ﷺ) أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم (ﷺ) واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، حتى أنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى هوي من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمون الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي بن أبي طالب مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة بن أبي جهل بل تصدى علي لبطل قريش عمرو بن عبد ود وقتله[٣٣] وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي (ﷺ) في كل ليلة على رأسهم عبّاد بن بشر رضي الله عنه فالنبي (ﷺ) هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها، فهو الذي:

أ- أمر بحفر الخندق، بعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكانًا مناسبًا لذلك وهي السهول الواقعة شمال المدينة إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب- قسّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

جـ- سيطر على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه (ﷺ).

د- أنه قسم (ﷺ) واجبات احتلال الموضع بنفسه بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهارًا، ثم إنه (ﷺ) كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

(٣١) انظر: صفوة التفاسير للصابوني (٢/ ٣٥١).
(٣٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤١٠).
(٣٣) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان ص(٥٠٤).

هـ- استطاع- لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية- أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها(٣٤)، فقد توحدت قيادة المسلمين تحت زعامته (ﷺ)، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها.

●●●

(٣٤) انظر: القيادة العسكرية في عصر الرسول ص(١١).



المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أن المسلمين أخذوا بكافة الاحتياطات في تأمين جبهتهم الداخلية ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحف ، إلا أن سنة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلما اقترب النصر زاد البلاء والامتحان، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق لأمور:

أولاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة، فيقع المسلمون حينئذ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول (ﷺ) يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه، لأن اليهود قوم لا عهد لهم ولا ذمة، ولذلك انتدب النبي (ﷺ) الزبير بن العوام (رجل المهمات الصعبة) ليأتيه من أخبارهم، فذهب الزبير، فنظر ثم رجع فقال: يا رسول الله رأيتهم يصلحون حصونهم ويُدرّبون[٣٥] طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم[٣٦].

وبعد أن كثرت القرائن الدالة على نقض بني قريظة للعهد، أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير رضي الله عنهم وقال لهم: **«انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقًا فالحنو لي لحنًا[٣٧] أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس»**[٣٨].

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد فرجعوا فسلّموا على النبي (ﷺ) وقالوا: عضل والقارة[٣٩]، فعرف النبي (ﷺ) مرادهم[٤٠].

واستقبل النبي (ﷺ) غدر بني قريظة بالثبات والحزم واستخدم كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النبي (ﷺ) في الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة،

(٣٥) يُدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السير الى المسلمين .
(٣٦) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٤٥٧) .
(٣٧) لحنًا: أي كلام لايفهمه أحد سواي .
(٣٨) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٩٩) .
(٣٩) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النبي في ذات الرجيع .
(٤٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٩٥) .

ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا، وشعيرًا وتينًا لتمدهم بها وتقويهم على البقاء، إلا أنها أصبحت غنيمة للمسلمين الذين استطاعوا مصادرتها وأتوا بها إلى النبي (ﷺ)(٤١).

ثانيًا: تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها واشتد الكرب على المسلمين وتأزم الموقف، وقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور التي أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف، وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ١٠-١١).

وكان ظن المسلمين بالله قويًا وقد سجله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٢٢).

وأما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش وزاد خوفهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط وطلب البعض الآخر الأذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإجحاف والتخذيل(٤٢)، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير(٤٣) والآيات هي: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ

---

(٤١) انظر: السيرة الحلبية (٢/٣٢٣).

(٤٢) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١١/٣٧٦)؛ مجمع الزوائد (٦/ ١٣١).

(٤٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٤).

في الأعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الأحزاب، آية: ١٣ - ٢٠).

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس والجبن في القلوب وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول (ﷺ) للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحجج واهية زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك موقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام[٤٤].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضيقة منه ويأخذهم على حين غرة، لكن أسيد بن حضير في مئتين من الصحابة يراقبون تحركاتهم وقد حصلت مناوشات استشهد فيها الطفيل بن النعمان والذي قتله وحشي - قاتل حمزة يوم أحد- رماه بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلاً[٤٥]، واستطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهمًا أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله[٤٦] وقال: خذها وأنا ابن العرقة وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[٤٧]، وقد ثم استجاب الله دعوة هذا العبد الصالح وهو الذي سيحكم فيهم ثم وجه المشركون كتيبة غليظة نحو مقر رسول الله (ﷺ) فقاتلهم المسلمون يومًا إلى الليل، فلما حانت صلاة العصر دنت كتيبة، فلم يقدر النبي (ﷺ)، ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا، وشغل بهم النبي (ﷺ) فلم يصل العصر، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع الليل، فقال رسول الله (ﷺ): «**ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا؛ كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**»[٤٨].

ثالثًا: محاولة النبي (ﷺ) تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان، وبث الإشاعات في صفوف الأعداء:

١- سياسة النبي (ﷺ) في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته (ﷺ) وحسن سياسته

(٤٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٥).
(٤٥) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٢٤).
(٤٦) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ إلى الدم.
(٤٧) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩) رقم (١٧٦٩).
(٤٨) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٨) رقم (٤١١١).

حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم (ﷺ) أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها ولهذا لم يحاول الرسول (ﷺ) الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال وإنما كان هدفهم، هدفًا سياسيًا وعقائديًا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس، لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي (ﷺ)[٤٩]، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي (ﷺ) وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي (ﷺ) واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله (ﷺ) في مفاوضتهما وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله (ﷺ) يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ- عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

ب- توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

جـ- تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

د- يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة[٥٠]، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله (ﷺ) قال لقائدي غطفان: **«أرأيت أن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلا بين الأعراب؟»** قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله (ﷺ) أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[٥١].

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله (ﷺ) من الوجهة العسكرية، وضوح الهدف الذي خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء ويحركها في جبهة القتال، ولا شك في أن اختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال وبذلك تضعف عنده الروح المعنوية التي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه وبذلك استطاع (ﷺ) أن يفتت ويضعف من قوة جبهة الأحزاب[٥٢].

(٤٩) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، ص(٢٠١).
(٥٠) انظر: غزوة الأحزاب، محمد باشميل، ص(٢٠١، ٢٠٢).
(٥١) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٤٧٧).
(٥٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص(٤١٣).

فـقـد أبرز (ﷺ) في هذه المفاوضات جـانبًا من جوانب منهج النبوة فـي التحرك لفك الأزمات عند اسـتحكامهـا وتأزماتها لتكون لأجـيال المجتمـع المسلم درسًا تربويًا من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء[٥٣]، وقبل عقد الصلح مع غطفان شاور رسول الله (ﷺ) الصـحابة في هذا الأمـر، فكان رأيهم في عدم إعـطاء غطفان شـيئًـا من ثمار المدينة وقـال السعدان- سعد بن معاذ، وسعد بن عبـادة: يا رسول الله أمرًا تحبه، فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئًـا تصنعه لنا؟ فقال: **«بل شيء أصنعـه لكم، والله مـا أصنع ذلك إلا لأني رأيت العـرب رمتكم عن قـوس واحدة وكالـبوكم، من كل جـانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»** فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمـرة واحدة إلا قرىً أو بيعًـا، أفحين أكرمنا الله بالإسـلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أمـوالنا؟ ما لنا بهذا من حـاجة، والله لا نعطيهم إلا السيـف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النبي (ﷺ): **«أنت وذاك»**.

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمـحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا[٥٤] كان رد زعـيمي الأنصار سـعد بن معـاذ، وسعد بـن عبادة في غـاية الاستسـلام لله تعالى والأدب مع النبي (ﷺ) وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمـر من عند الله تعـالى فـلا مـجـال لإبداء الرأي بل لابد من التسليم والرضى.

والثـاني: أن يكون شيئًا يحبه رسول الله (ﷺ)، باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك.

الثـالث: أن يكون شيئًـا عمله الرسول (ﷺ) لمصلحة المسلـمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرأي.

ولما تبين للسعدين من جواب الرسول (ﷺ) أنه أراد القسم الثالث أجاب سعد ابن معاذ بجواب قـوي كبت به زعيـمي غطفان حـيث بين أن الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعـتدين في الجاهلية فكيف وقد أعزهم الله تعالى بالإسلام وقد أُعجب النبي (ﷺ) بجواب سعد وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصـار واحتفاظهم بالروح المعنوية العاليـة، فألغى بذلك مابدأ به من الصلح مع غطفان[٥٥].

وفي قوله (ﷺ): **«إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»**[٥٦] دليل على أن رسـول الله (ﷺ) كان يستهـدف من عمله ألاّ يجتمع الأعداء عليـه صفًا واحدًا، وهذا

---

(٥٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ١٧٦).

(٥٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

(٥٥) انظر: التاريخ الاسلامي للحميدي (٦/ ١٢٥).

(٥٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

يرشد المسلمين إلى عدة أمور منها:

- أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.
- أن يكون الهدف الاستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآتية والمستقبلية للإسلام[٥٧].

وفي استشارة رسول الله (ﷺ) للصحابة يبين لنا أسلوبه في القيادة وحرصه على فرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، فالأمر شورى ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد رسول الله (ﷺ) طالما الأمر في دائرة الاجتهاد ولم ينزل به وحي[٥٨]. إن قبول الرسول (ﷺ) رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي (ﷺ) مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة[٥٩].

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معان:

أ- أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب- أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

جـ- أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية، في قهر العدو مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه[٦٠].

٢- اهتمام الرسول (ﷺ) ببث الإشاعات في صفوف الأعداء:

استخدم النبي (ﷺ) سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم (ﷺ) أن هناك تصدعًا خفيفًا بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله (ﷺ) ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله (ﷺ): «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة**»[٦١].

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله (ﷺ)، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما

---

(٥٧) انظر: الأساس في السنّة (٢/ ٦٨٧).
(٥٨) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٤١٤ .
(٥٩) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤١٤ .
(٦٠) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤١٥، ٤١٦ .
(٦١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١١٣).

تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنًا لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية فالحرب خدعة(٦٢).

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم.

وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ- أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ب- أنه ذكرّ بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرّهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول (ﷺ) فكان هذا الأساس سببًا في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

جـ- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب(٦٣).

●●●

(٦٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٠).
(٦٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص(٤٧٧).



المبحث الثالث

مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدة تضرع الرسول (ﷺ) ونزول النصر:

كان رسول الله (ﷺ) كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله وخصوصًا في مغازيه وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول (ﷺ) وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: «**نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»(٦٤) وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله (ﷺ) على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، «**اللهم اهزمهم، وزلزلهم**»(٦٥) فاستجاب الله - سبحانه- دعاء نبيه (ﷺ) فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل جنودًا من عنده سبحانه قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٩).

قال القرطبي - رحمه الله- وكانت هذه الريح معجزة للنبي (ﷺ) لأن النبي (ﷺ) والمسلمين كانوا قريبًا منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم لها . . . وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط(٦٦)، وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يابني فلان هلم إليّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب(٦٧).

وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤكد لصحبه ثم للمسلمين في الأرض، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تُهزم بالقتال من المسلمين - رغم تضحياتهم- ولم تهزم بعبقرية المواجهة، إنما هزمت بالله وحده ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) كان يقول: «**لا إله إلا الله وحده،**

---

(٦٤) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (١٨/٤).
(٦٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (٥٩/٥) رقم ٤١١٤.
(٦٦) الفساطيط: جمع فسطاط نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.
(٦٧) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٤٤).

أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلاشيء بعده»[٦٨].

ودعاء رسول الله (ﷺ) ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبدًا مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل (ﷺ) في هذه الغزوة مع سنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها[٦٩].

إن رسول الله (ﷺ) يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له، لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إليالله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله (ﷺ) في حياته كلها[٧٠].

ثانيًا: تحري انصراف الأحزاب:

كان رسول الله (ﷺ) يتابع أمر الأحزاب وأحب أن يتحرى عن ما حدث عن قرب فقال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة**»[٧١]، فاستعمل (ﷺ) أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات وعندما لم يُجْد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحدًا بنفسه فقال: «**قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم، ولا تذعرهم عليّ**»[٧٢].

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنما أمشي في حمام، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهمًا في كبد القوس وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله (ﷺ) لا تذعرهم عليّ ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله (ﷺ) وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله (ﷺ) وألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله (ﷺ): «**قم يا نومان**»[٧٣].

ويؤخذ من قصة حذيفة دروس وعبر منها:

١- معرفة رسول الله (ﷺ) بمعادن الرجال حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

(٦٨) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٩) رقم (٤١١٤).
(٦٩) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص(٥٠٣).
(٧٠) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص(٢٢٢).
(٧١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤١٤) رقم (١٧٨٨).
(٧٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب رقم (١٧٨٨).
(٧٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤١٤) رقم (١٧٨٨).

٢- الانضباط العسكري الذي كان يتحلى به حذيفة: لقد مرت فُرصة سانحة يقتل فيها قائد الأحزاب وهَمَّ بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول (ﷺ) ألا يذعرهم وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه(٧٤).

٣- كرامات الأولياء: إن ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين: لا شك هذه كرامة يمن الله بها على عباده المؤمنين(٧٥).

٤- لطف النبي (ﷺ) مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان (ﷺ) يترفق بأصحابه ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذي جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة، قائلاً: «**هيا يا نومان**»، دعابة تقطر حلاوة وتفيض بالحنان، وتسيل رقة، إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة، اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول (ﷺ) وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام(٧٦) وصدق الله العظيم في قوله: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة، آية: ١٢٨).

٥- وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزرقاني وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي على يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص... (٧٧).

وهكذا بدرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذي ربما كان أودى بحياته(٧٨).

ثالثا: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ونتائجها:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ورد الأمر كله لله سبحانه وقد سجل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجّل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرّضون دائمًا لأن يُغزوا في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم، ومعرّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعًا، فأن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور(٧٩) لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من

(٧٤) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٥٠٥؛ السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٦٧.
(٧٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٦٧.
(٧٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٤٦.
(٧٧) انظر: شرح الزرقاني (٢/ ١٢٠).
(٧٨) انظر: من معين السيرة، ص٢٩٣. (٧٩) انظر: الأساس في السنّة (٢/ ٦٦٢).

الحوادث السابقة التي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص.

والذي يتدبر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمور من أهمها ما يلي:

١- تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾** (سورة الأحزاب، آية: ٩).

٢- التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾** (سورة الأحزاب، آية: ١٠).

٣- الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود قال تعالى: **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾** (سورة الأحزاب، آية: ١٢).

٤- حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وجهاده وكلّ أحواله استجابة لقوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** (سورة الأحزاب، آية: ٢١).

٥- مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق، ووفاء بعهد الله تعالى قال تعالى: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾** (سورة الأحزاب، آية: ٢٣).

٦- بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم قال تعالى: **﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾** (سورة الأحزاب، آية: ٢٥).

٧- امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر حيث ألقى - سبحانه- الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله(٨٠) قال تعالى: **﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾** (سورة الأحزاب، آية: ٢٦- ٢٧).

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة منها:

انتصار المسلمين وانهزام أعدائهم وتفرقهم ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

---

(٨٠) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

تغير الموقف لصالح المسلمين فانقلبوا من موقف الدفاع إلى الهجوم وقد أشار إلى ذلك النبي (ﷺ) حيث قال: **«الآن نغزوهم، ولا يغزونا نحن نسير إليهم»**[٨١].

كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي (ﷺ) في أحلك الظروف وأصعبها.

كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود.

كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب حيث تمّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي (ﷺ) في أحلك الظروف وأقساها[٨٢].

رابعًا: التخلص من بني قريظة:

بعد عودة النبي (ﷺ) من الخندق ووضعه السلاح أمر الله تعالى نبيه بقتال بني قريظة، فأمر الحبيب (ﷺ) أصحابه بالتوجه إليهم وقد أعلمهم بأن الله تعالى قد أرسل جبريل ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب وأوصاهم بأن: **«لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»**[٨٣].

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمسًا وعشرين ليلة[٨٤]، ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكّم الرسول (ﷺ) فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه ونزلوا على حكمه ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فجيء بسعد محمولاً لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق، فقضى أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، فأقره رسول الله (ﷺ) وقال: **«قضيت بحكم الله»**[٨٥]، ونفذ حكم الإعدام في أربعمائة في سوق المدينة حيث حفرت أخاديد وقتلوا فيها بشكل مجموعات، وقد نجا مجموعة قليلة جدًا بسبب وفائها للعهد ودخولها في الإسلام، وقسمت أموالهم وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاء عادل نزل بمن أراد الغدر وتبرأ من حلفه للمسلمين وكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقًا[٨٦].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدة ونترك السيدة عائشة رضي الله عنها تحدثنا عنها، قالت السيدة عائشة: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندي

---

(٨١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/٥٨) رقم ٤١٠٩.

(٨٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/٤٤٢).

(٨٣) البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي من الأحزاب (٥/ ٦٠) رقم ٤١١٩.

(٨٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٧٣.

(٨٥) البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع رسول الله من الأحزاب (٥/٦١) رقم ٤١٢٢.

(٨٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٣١٥- ٣١٧).

تتحدث معي تضحك ظهرًا وبطنًا[٨٧] ورسول الله (ﷺ) يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك ومالك؟ قالت: أقتل: قلت: ولم؟ قالت: حدثًا أحدثته[٨٨] قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل[٨٩].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تمامًا من الوجود اليهودي، وصارت خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطر، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر، واضمحل حلم قريش لأنها كانت تعوِّل، وتؤمل في يهود بأن يكون لهم موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يمد المنافقين بأسباب التحريض والقوة[٩٠].

إن حماية الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية من العابثين منهج نبوي كريم رسمه الحبيب المصطفى للأمة المسلمة.

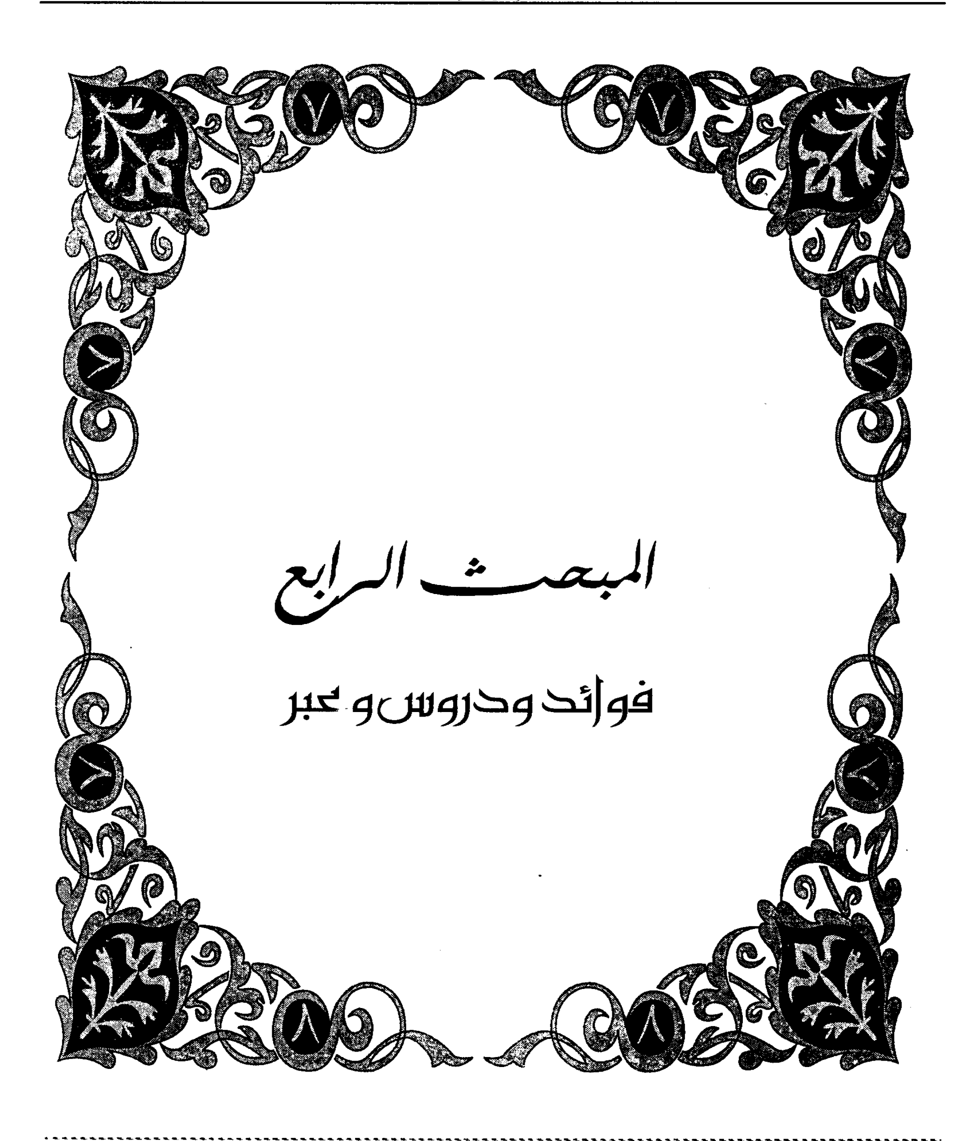
---

(٨٧) ظهرًا وبطنًا: لايبدو على ملامحها أثر الحزن.

(٨٨) طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلها رسول الله به.

(٨٩) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص(٣٧٧).

(٩٠) انظر: سيرة الرسول، دروزة (٢/٧٦) نقلاً عن دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص(١٥٣).



المبحث الرابع

فوائد ودروس وعبر

أولاً: المعجزات الحسية لرسول الله (ﷺ):

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات حسّية للنبي (ﷺ)، منها: تكثير الطعام الذي أعدّه جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق مُحفر[٩١]، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي (ﷺ)، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي (ﷺ) المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل[٩٢] أو أهيم[٩٣].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي (ﷺ) شيئًا ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق[٩٤]، فذبحت العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة[٩٥]، ثم جئت النبي (ﷺ) والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي[٩٦]، قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: «**كثير طيب**» قال: «**قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي**». فقال: «**قوموا**» فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي (ﷺ) بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**»[٩٧]، فجعل يكسِّر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسّر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «**كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة**»[٩٨].

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ثم قالت: أيّ بُنيَّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها فمررت برسول الله (ﷺ) وأنا ألتمس أبي وخالي فقال: «**تعالي يا بنية ما هذا معك؟**» فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: هاتيه قالت: فصببته في كفي رسول الله (ﷺ) فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده: «**اصرخ في أهل الخندق أن هلمّ إلى الغداء**»، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[٩٩].

---

(٩١) محفر: اسم فاعل من حفر.

(٩٢) أهيل: رملاً سائلاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٨٩).

(٩٣) أهيم: الرمل الذي لايتمالك. انظر: لسان العرب (٣/ ٨٥٨).

(٩٤) العناق: الأنثى من أولاد الماعز. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣١٠).

(٩٥) البرمة: هي القدر مطلقًا. انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ١٢١).

(٩٦) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها. انظر: القاموس المحيط (٣/ ١٢٠).

(٩٧) ولا تضاغطوا: أي لا تزاحموا. انظر: لسان العرب (٢/ ٥٣٧).

(٩٨) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٥) رقم ٤١٠١.

(٩٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤١).

ففي هذين الخبرين معجزات حسية ظاهرة للرسول (ﷺ)، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقلّ عنهم القوت وأصاب الناس جوع وحرمان حتى كان رسول الله (ﷺ) والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام[١٠٠].

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق، إخباره (ﷺ) عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي[١٠١]، وعندما اعترضت صخرة الصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول (ﷺ) ثلاث ضربات فتفتت قال إثر الضربة الأولى: **«الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة»**، ثم ضربها الثانية، فقال: **«الله أكبر أعطيتك مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض»** ثم ضرب الثالثة، وقال: **«الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة»**[١٠٢].

وقد تحققت هذه البشارة التي أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة، يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارص[١٠٣].

ثانيًا: بين التصور والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله وصحبتموه؟ قال: نعم، يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله (ﷺ)، بالخندق[١٠٤]... ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله (ﷺ) لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة رضي الله عنهم بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلاً عن المال والجهد، وقد وضع (ﷺ) الأمور في نصابها بقوله: **«خير القرون قرني»** فبين أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدًا، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء

---

(١٠٠) انظر: المرأة في العهد النبوي، ص١٧٥.
(١٠١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٨.
(١٠٢) نفس المصدر، ص٤٤٩.
(١٠٣) انظر: نظرة النعيم (١/٣٢٥).
(١٠٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٥٥).

والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر... وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام في الأرض[١٠٥].

ثالثًا: سلمان منا أهل البيت[١٠٦]:

قال المهاجرون يوم الخندق سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله (ﷺ): «**سلمان منا أهل البيت**»[١٠٧]. وهذا الوسام النبوي الخالد لسلمان يشعر بأن سلمان من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين[١٠٨].

رابعًا: الصلاة الوسطى:

قال (ﷺ): «**ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**»[١٠٩].

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماوردي مذهب الشافعي بهذا لصحة الحديث، وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي[١١٠].

قال الدكتور البوطي: لقد فاتت النبي (ﷺ) صلاة العصر كما رأيت في هذه الموقعة، لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعد ما غربت الشمس، وفي روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تبعا بعد ما خرج وقتها وفرغ لأدائها وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزًا إذ ذاك ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً وركبانًا عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ - على فرض صحته -ليس واردًا على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال. أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخًا لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضًا، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة[١١١].

خامسًا: الحلال والحرام:

عرضت قريش فداء مقابل جثة عمرو بن ود. فقال (ﷺ): «**ادفعوا إليهم جيفته؛ فإنه**

---

(١٠٥) انظر: من معين السيرة للشامي، ص٢٩١.

(١٠٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٤٧).

(١٠٧) نفس المصدر (٣/٢٤٧) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير.

(١٠٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/١٠٨).

(١٠٩) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رقم ٤١١١.

(١١٠) انظر: الأساس في السنّة (٢/٦٨٢).

(١١١) انظر: فقه السيرة النبوية، ص٢٢٣.

خبيث الجيفة، خبيث» الدية فلم يقبل منهم شيئًا.

حدث هذا والمسلمون في ضنك من العيش ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه(١١٢)؟

سادسًا: شجاعة صفية عمة الرسول (ﷺ):

كان (ﷺ) قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم؛ لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله (ﷺ) أرسلت يهوديًا ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله (ﷺ) فأخذت عمودًا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته، فكان هذا الفعل من صفية رادعًا لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي، أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال(١١٣) ففي هذا الخبر دليل للمرأة في الدفاع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها(١١٤).

سابعًا: عدم صحة ما يروى عن جبن حسان رضي الله عنه:

ففي قصة صفية عمة رسول الله (ﷺ) وقتلها لليهودي جاء في رواية سندها ضعيف(١١٥) أن صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابت: إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله (ﷺ) وأصحابه فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفية: فلما قال ذلك، احتجزت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت الحصن، فقلت: يا حسان انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب(١١٦).

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

١- من حيث الإسناد فالخبر ليس مسندًا وهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يروى، فيساء إلى صحابي من صحابة رسول الله (ﷺ) كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله (ﷺ) عمره كله.

٢- لو كان حسان بن ثابت رضي الله عنه معروفًا بالجبن الذي ذكر عنه لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة لاسيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحد من

(١١٢) انظر: من معين السيرة، ص(٢٩٤).
(١١٣) انظر: الرحيق المختوم، ص(٢٨٣، ٢٨٤).
(١١٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٢٤٦).
(١١٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص(٣٦٥).
(١١٦) نفس المصدر، ص(٣٦٥).

زعماء الجاهلية، والرسول (ﷺ) كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين[١١٧].

ثامنًا: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أوّل مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر (ﷺ) أن تكون رُفَيْدَة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أوّل ممرضة عسكرية في الإسلام[١١٨]، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام: . . . وكان (ﷺ) قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رُفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان (ﷺ) قد قال لقومه حين أصاب سعد بن معاذ السهم بالخندق: «**اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب...**»[١١٩].

ويفهم من النص السابق أن من أصيب من المسلمين، إن كان له أهل، اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ أوسي، وليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول (ﷺ) الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضيعة وليس له أهل، ذلك أن هؤلاء هم في رعاية رسول الله (ﷺ)، وإلا فلمَ ضربت الخيمة في المسجد وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله (ﷺ)[١٢٠]، وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستورًا للمسلمين على مدى الزمن.

تاسعًا: المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر وكانوا حلفاءه فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله (ﷺ)، فأشار إلى حلقه -يعني الذبح- ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي (ﷺ) فارتبط به حتى تاب الله عليه، وقد ظل مرتبطًا بالجذع في المسجد ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع[١٢١]، وقد قال أبو لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعتُ: قالت أم سلمة فسمعت رسول الله

---

(١١٧) انظر: غزوة الأحزاب، الدكتور أبو فارس.

(١١٨) انظر: المستشفيات الإسلامية، الدكتور عبد الله السعيد، ص٤٣.

(١١٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).

(١٢٠) انظر: من معين السيرة، ص٢٩٤.

(١٢١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).

(ﷺ) من السحر وهو يضحك فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنَّك. قال: تيبَ على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشرّه يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهنّ الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يُطلقني بيده. فلما مرّ عليه رسول الله (ﷺ) خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه(١٢٢).

وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الذلة التي أفشى بها سرًا حربيًا خطيرًا، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله (ﷺ) والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكر رقابة الله عليه وعلمه بما يُسر ويعلن، وتذكر حق رسول الله (ﷺ) العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الذلة فزعًا عظيمًا(١٢٣)، وأقرّ بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ (سورة النساء، آية: ١٧).

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه على نفسه ... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق.

وقد فرح الصحابة وفرح النبي (ﷺ) نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته، حتى كانت أم سلمة زوجة النبي (ﷺ) هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشرته بقبول الله توبته(١٢٤).

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الأنفال، آية: ٢٧).

ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٢) (١٢٥).

عاشرًا: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ رضي الله عنه في هذه الغزوة فضائل كثيرة تدل على فضله ومنزلته عند الله ورسوله (ﷺ) منها:

---

(١٢٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).
(١٢٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٦٥).
(١٢٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص(٢٦١).
(١٢٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).

– استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك (ﷺ)، وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك» وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه وتماثل للشفاء[١٢٦] حتى كانت غزوة بني قريظة، وجعل رسول الله (ﷺ) الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى[١٢٧].

ومن إكرام رسول الله (ﷺ) قوله للأنصار عندما جاء سعد للحكم في بني قريظة: «**قوموا إلى سيدكم**»[١٢٨].

وهذا تكريم لسعد، وتقدير لشجاعته، حيث سماه سيدًا، وأمر بالقيام له[١٢٩].

وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشًا والمشركين) فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها[١٣٠]، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله[١٣١].

ومن خلال دعاؤه الأول والثاني، نلحظ هذا الدعاء العجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته[١٣٢].

ونرى من سيرته أنه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السماوات والأرض. فقد شاءت إرادة المولى – تعالى– أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بني قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

إنه لا يحرص كثيرًا على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسؤولية، وتأدية الأمانة المناطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحرب ووضعت بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدأ قطف الثمار للإسلام، فلا ثمرة أشهى عنده من الشهادة (فافجر جرحي واجعل موتتي فيه)[١٣٣].

وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه في بني قريظة وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وها هو جرحه ينفجر[١٣٤].

---

(١٢٦) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص(٢٢٨).
(١٢٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧٠).
(١٢٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).
(١٢٩) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص(٢٦٥).
(١٣٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٧٥).
(١٣١) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص(٢٢٨).
(١٣٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٠).
(١٣٣) انظر: التربية القيادية (٤/ ٧١).

وعندما انفجر جرحه نقله قومه فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله (ﷺ) فقيل: انطلقوا فخرج وخرج معه الصحابة، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم إليه أصحابه، فقال: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة، فانتهى إلى البيت وهو يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعدًا حزامة وجدًا

فقال: كل نائحة تكذب إلا أم سعد، ثم خرج به وقال: القوم: ما حملنا يا رسول الله، ميتًا أخف علينا منه. قال: **«وما يمنعه أن يخف؟! وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم»**[١٣٥].

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال (ﷺ): **«هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمة ثم أفرج عنه»**[١٣٦] يعني سعدًا.

وهاهو رسول الله (ﷺ) يودع سعدًا كما روي عبد الله بن شداد: دخل رسول الله (ﷺ) وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيرًا من سيد قوم. فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك»[١٣٧].

لقد أثنى النبي (ﷺ) على هذا العبد الصالح بعد موته كثيرًا أمام الصحابة ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به[١٣٨]، فقد قال (ﷺ): **«اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»**[١٣٩] وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أهديت لرسول الله (ﷺ) حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونه ويعجبون من لينها، فقال: **«أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»**[١٤٠].

ومع كل هذه المآثر والمحاسن والأعمال الجليلة التي قدمها لخدمة دين الله، فقد تعرض لضمة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعد رضي الله عنه نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله (ﷺ) واقف، فلما وضع في قبره، تغير وجه رسول الله (ﷺ)، وسبح ثلاثًا، فسبح المسلمون حتى ارتج البقيع، ثم كبر ثلاثًا، وكبَّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: **«تضايق على صاحبكم القبر،**

---

(١٣٤) نفس المصدر (٤/ ٧٤).

(١٣٥) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٧) إسناده حسن.

(١٣٦) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٥) إسناده صحيح، أخرجه النسائي (٤/ ١٠٠) في الجنائز.

(١٣٧) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٨) رجاله ثقات.

(١٣٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧١).

(١٣٩) مسلم، فضائل الصحابة رقم ٢٤٦٦، ص١٩١٥.

(١٤٠) مسلم، فضائل الصحابة رقم ٢٤٦٨، ص١٩١٦.

وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا هو ، ثم فرّج الله عنه»[١٤١].

إن هذا الصحابي الجليل قد استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره . . . فقد كانت هذه السيادة في العشرينات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد قال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (سورة الأحقاف، آية: ١٥).

فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات بقدومه واهتز عرش الرحمن فرحا لوفاته، من دون خلق الله أجمعين[١٤٢] كان سعد بن معاذ، رجلاً أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية[١٤٣] ، رحمة الله عليه ورضي عنه وأعلى ذكره في المصلحين.

الحادي عشر: مقتل حيي بن أخطب ، وكعب بن أسد:

١- مقتل حيي بن أخطب النضري:

روى عبد الرزاق في مصنفه بالسند إلى سعيد بن المسيب . . . فذكر بعض خبر الأحزاب وقريظة . . . إلى أن قال: فلما فض الله جموع الأحزاب، انطلق - يعني حيي- حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفًا بعد، فقال حيي للنبي (ﷺ) : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يَخْذل الله يُخْذَل، فأمر به النبي (ﷺ) فضربت عنقه[١٤٤].

ثم إنه أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام وقال لهم: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه[١٤٥].

وفي مقتل حيي بن أخطب دروس وعبر منها:

أ- لا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

فقد ألب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه (ﷺ) وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرسول (ﷺ) وطعنه من الخلف، فجعل الله كيده في نحره وكبته، وفي النهاية قادته محاولاته إلى حتفه.

(١٤١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٧٧) نقلاً عن مسند الإمام أحمد (٦/ ١٤١) .

(١٤٢) انظر: القيادة الربانية (٤/ ٧٨) .

(١٤٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٠) .

(١٤٤) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥/ ٣٧١) رقم (٩٧٣٧) .

(١٤٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٥) .

إن الله لا يهمل الظالمين، ولكن يمهلهم ويستدرجهم، حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فكان أخذه أليم شديد، قال (ﷺ): «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[١٤٦] ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ (سورة هود، الآية: ١٠٢).

ب- التجلد في مواطن الشدة:

لقد تجلد حيي وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير، لأنه يعبد هواه، ولم يعبد ربه قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ (سورة الجاثية، آية: ٢٣).

جـ- من يخذل الله يخذل:

إن الله تعالى إذا خذل أحدًا ليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٦٠).

كما أن عداوة حيي للرسول (ﷺ) باعثها الحسد والحقد ولذلك عبر حيي صراحة أن الله لم يكن معه يومًا من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدوًا لأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومسلمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره وتحول بينه وبين الهزيمة، لأن إرادة الله هي النافذة وقدره هو الكائن، لا راد لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[١٤٧] قال تعالى: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ**﴾ (سورة الأنعام، ١٧).

٢- مقتل كعب بن أسد القرظي:

جيء برئيس بني قريظة، كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله (ﷺ) عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي:

قال رسول الله: «**كعب بن أسد؟**».

قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم.

قال رسول الله (ﷺ): «**ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقًا بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟**».

قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود.

(١٤٦) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٢/ ١١٢).
(١٤٧) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٣، ١١٤).

فأمر رسول الله (ﷺ) بضرب عنقه فضربت[١٤٨].

ومما ترويه كتب السيرة النبوية عن يهود بني قريظة أنهم كانوا يرسلون طائفة تلو طائفة لتضرب أعناقهم قد سألوا زعيمهم كعب بن أسد فقالوا: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل[١٤٩].

ونلحظ خبر مقتل كعب بن أسد، أنه كان متعصبًا ليهوديته وهو يعلم بطلانها، وأنه على علم بصدق رسالة رسولنا (ﷺ)، ولكنه لم يؤمن ولم يدخل الإسلام خوفًا من أن تعيره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم إيمانه وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه وتعييره، وهذا دليل على السفه والحمق وخذلانالله لهذا اليهودي المخادع[١٥٠].

الثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سمؤال:

١- شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله (ﷺ) فقال: هب لي الزبير اليهودي أجزه فقد كانت له عندي يد يوم بعاث، فأعطاه إياه، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ فقال: نعم، وهل ينكر الرجل أخاه قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيد لك عندي يوم بعاث، قال: فافعل، فإن الكريم يجزي الكريم، قال: قد فعلت، قد سألت رسول الله (ﷺ) فوهبك لي، فأطلق عنه إساره، فقال الزبير: ليس لي قائد وقد أخذتم امرأتي وابني، فرجع ثابت إلى رسول الله (ﷺ) فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله (ﷺ) امرأتك وبنيك، فقال الزبير: حائط لي فيه أعذق، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله (ﷺ) فوهبه له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد رد إليك رسول الله (ﷺ) أهلك ومالك، فأسلم تسلم، قال: ما فعل الجليسان[١٥١]؟ وذكر رجال قومه، قال ثابت: قد قتلوا وفرغ منهم، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير، قال الزبير: أسألك بالله يا ثابت وبيدي التي عندك يوم بعاث إلا ألحقتني بهم، فليس في العيش خير بعدهم، فذكر ذلك ثابت لرسول الله (ﷺ) فأمر بالزبير فقتل[١٥٢].

٢- شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سمؤال القرظي:

كانت سلمى بنت قيس وكنيتها أم المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات

(١٤٨) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٣٦٨).
(١٤٩) نفس المصدر (١/ ٣٦٨).
(١٥٠) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٥).
(١٥١) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٣٧٢). (١٥٢) نفس المصدر (١/ ٣٧٣).

رســـول الله (ﷺ)، قد صلت معه القـبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفـاعة ابن سمؤال القرظي، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، هب لي رفـاعة، فـإنه قد زعم أنه سـيصـلي ويأكل لحم الجمل، فـوهبه لهـا، فاستحيته[١٥٣].

وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شـفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير[١٥٤].

الثالث عشر: من أدب الخلاف:

في اختلاف الصحـابة في فهم كلام رسول الله (ﷺ) : **«ألا لا يصلين أحد العـصر إلا في بـني قـريـظة»**[١٥٥] فبعـضهم فهم منه المراد الاستعـجال، فصلى العصـر لما دخل وقته وبعضهم أخـذ بالظاهر فلمّ يصل إلا في بني قريظة ، ولم يعنف النبي (ﷺ) أحدًا منهم أو عاتبـه، ففي ذلك دلالة هامـة على أصل من الأصول الشـرعية الكبـرى وهو : تقرير مـبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين مـعذورًا ومثابًا، كما أن فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد في استنبـاط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئـصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم[١٥٦].

إن السعي في محاولةِ القضاء على الخلاف في مـسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألـة ما دام دليلها ظنيًا مـحتملاً؟ . . ولو أمكن ذلك أن يتم في عـصرنا، لكان أولى العصور به عصر رسول الله (ﷺ)، ولكان أولى الناس بألا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مـع ذلك كما رأيت[١٥٧] وفي الحديث السابق من الفـقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصه. وفيه أيضًـا أن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطـئ فقد قال (ﷺ): **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»**[١٥٨].

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة حملوا النهي على حـقيقته ولم يبالوا بخروج الوقت - وقت الصـلاة- توجـيهًـا لهـذا النهي الخـاص على النهي العـام عن تأخيـر الصـلاة عن وقتها[١٥٩].

وقد علق الحافظ ابن حجـر على هذه القصة فقال: ثم الاستـدلال بهذه القصة على أن

(١٥٣) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٣٧٣) .
(١٥٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٦) .
(١٥٥) البخاري، كتاب المغازي، (٥/ ٦٠) رقم ٤١١٩ .
(١٥٦) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٢٦ .
(١٥٧) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٦ .
(١٥٨) سنن أبي داود (٣٥٥٧) . (١٥٩) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦) .

كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي عن غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد، لأنه (ﷺ) لم يعنف أحدًا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم[(١٦٠)].

الرابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١- جمع صحابة رسول الله (ﷺ) الغنائم التي خلفها بنو قريظة، فكانت كما يلي: من السيوف ألفًا وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفًا وخمسمائة ترس وجحفة، كما تركوا عددًا كبيرًا من الشياة والإبل وأثاثًا كثيرًا وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دنانًا من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهمًا، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهمًا واحدًا له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى[(١٦١)].

وأما ما وجده رسول الله (ﷺ) والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه ولم يأخذوا منه شيئًا، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله (ﷺ) لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى وأعطى سهمه لورثته[(١٦٢)] ولصحابي آخر مات أثناء حصار بني قريظة[(١٦٣)]، كما رضخ رسول الله (ﷺ) للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ[(١٦٤)] وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله (ﷺ) للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[(١٦٥)]، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ سورة الأحزاب: ٢٧).

قال الأستاذ محمد دروزة: أما عبارة وأرضًا لم تطؤوها فقد قال المفسرون: إنها أرض

(١٦٠) اختصار من فتح الباري (٧/ ٤٧٣).
(١٦١) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٦، ٩٧).
(١٦٢) نفس المصدر (٢/ ٩٧).
(١٦٣) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٣٧٥).
(١٦٤) نفس المصدر (١/ ٣٧٥).
(١٦٥) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٨).

خيبر ، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها(١٦٦) هذا وقد أرسل رسول الله (ﷺ) سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخمس من الذرية والنساء إلى الشام فباعها، واشترى بالثمن سلاحًا وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجد سعد بن زيد فباع سبيًا واشترى سلاحًا(١٦٧).

٢- إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السبي ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة قد أراد الرسول (ﷺ) أن يتزوجها بعد أن تسلم، فترددت، وبقيت وقتًا على دينها، ثم شرح الله صدرها للإسلام فأسلمت، فبعثها إلى بيت أم منذر بنت قيس حتى حاضت ثم طهرت، فجاءها وخيّرها: أيعتقها ويتزوجها أو تكون في ملكه (ﷺ)؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها(١٦٨).

الخامس عشر: الإعلام الإسلامي في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصحابة بدورهم الجهادي، فقالوا قصائد رائعة وضحوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب نقتطف منها أبياتًا كنماذج لهذه القصائد، فمن ذلك قول كعب بن مالك، أخو بني سلمة:

وسائلة تسائل ما لقينا	**ولو شهدت رأتنا صابرين**
صبرنا لا نرى لله عِدلا	**على ما نابنا مُتَوَكّلينا**
وكان لنا النبي وزير صدق	**به نعلو البريَّة أجمعينا**
نقاتل معشرًا ظلموا وعَقُّوا	**وكانوا بالعداوة مرصدينا(١٦٩)**
نعالجهم إذا نهضوا إلينا	**بضرب يُعْجِل المتسرعينا**
ترانا في فضافضَ سابغات	**كغُدران المَلا متسربِلينا(١٧٠)**

(١٦٦) انظر: سيرة الرسول لعزة دروزة (٢/٢٠٢) .
(١٦٧) انظر: الصراع مع اليهود (٢/٩٨) .
(١٦٨) نفس المصدر (٢/٩٩) .
(١٦٩) المرصد: المعد للأمر عدته .
(١٧٠) متسربلينا: لابسون الدروع .

إلى أن قال:

لِنَنْصُر أحمدًا والله، حتى ... نكون عباد صدْق مُخلصينا
ويعلم أهلُ مكة حين ساروا ... وأحزاب أتو متحزّبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأنَّ الله مَولْى المُؤمنينا
فإمّا تَقْتلوا سعدًا سفاهًا ... فإن الله خير القادرينا
سيدخله جنانًا طيِّبات ... تكون مقامة للصالحينا
كما قد رَدَّكم فَلاً شريدًا ... بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيرًا ... وكِدْتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبت عليكم ... فكنتم تحتها مُتكمهِّينا[171]

وقال كعب بن مالك في قصيدة طويلة يرد فيه على عبد الله بن الزبعري:

ومواعظ من ربنا نُهدى بها ... بلسان أزْهَرَ طَيِّب الأثواب
عُرِضت علينا فاشتهينا ذكرها ... من بعد ماعرضت على الأحزاب
حكمًا يراها المجرمون بزعمهم ... حَرجًا[172] ويفهمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كي تغالب ربها ... فليُغلَبَن مُغالبُ الغلاّب

قال ابن هشام: حدثني من أثق به، قال حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، قال: لما قال كعب بن مالك:

جاءت سخينة كي تغالب ربها ... فليغلبن مغالبُ الغلاب

قال له رسول الله (ﷺ): «لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا»[173].

(١٧١) متكمهِّينا: العمّي الذين لايبصرون.
(١٧٢) حرجًا: حرامًا.
(١٧٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٨٦).



الفصل الثاني عشر

ما بين غزوة الأحزاب والحديبية من أحداث مهمة



المبحث الأول

زواج النبي (ﷺ) بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السرايا، وبناء الدولة، وبسط هيبتها في الجزيرة العربية، كانت حركة البناء التشريعي والاجتماعي للأمة الإسلامية تتكامل، فنظام التبني يُهدم، والحجاب يفرض، وأدب الولائم يقرّر، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يؤكد على وجوبها، وتحارب الأعراف التي تعارض بشرع الله (تعالى) ففي زواج رسول الله (ﷺ) بالسيدة زينب بنت جحش حكم ودروس وعبر بقت خالدة على مر العصور وكر الدهور وتوالي الأزمان وهذه قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها:

أولاً: اسمها ونسبها:

هي زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر الأسدية، أخت عبد الله بن جحش، وحمنة بنت جحش رضي الله عنها.

أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، عمة رسول الله (ﷺ)، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[١].

يقال :كان اسمها: برة، فسماها النبي (ﷺ) زينب، وكانت تكنى: أم الحكم[٢].

وكانت زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأول، ورعة صوامة قوامة، كثيرة الخير والصدقة، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ﷺ): «**أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا**» قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق[٣].

وقد مدحتها السيدة عائشة رضي الله عنها كثيرًا وقالت في حقها: لم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق له، وتقربه إلى الله (تعالى)، ما عدا سورة من حدّة كانت فيها تسرع منها الفيئة[٤].

ثانيا: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرسول (ﷺ) أن يحطم تلك الفوارق الطبقية الموروثة في الأمة المسلمة من عادات الجاهلية، ليكون الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وكان الموالي - وهم الذين جرى عليهم الرق ثم تحرروا طبقة أدنى من طبقة السادة، ومن الموالي

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ٣٧٢) .
(٢) نفس المصدر (٤/ ١٨٤٩) .
(٣) مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٩٠٧) رقم (٢٤٥٢) .
(٤) مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٩٢) رقم(٢٤٤٢) .

كان زيد بن حارثة مولى رسول الله (ﷺ) الذي أعتقه ثم تبناه فرأى رسول الله (ﷺ) أن يزوج زيدًا من شريفة أسد وهي ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، ليبطل تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله (ﷺ)، لتتخذ منه الأمة المسلمة أسوة وقدوة، وتسير البشرية على هداه في هذا الطريق.

وأيضًا لعل من الحكمة في هذا الزواج أنه كان مقدمة لتشريع آخر لا يقل أهمية في حفظ توازن المجتمع وحماية الأسرة عن الأول، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر(٥).

انطلق رسول الله (ﷺ) ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله (ﷺ): «**بلى فانكحيه**» قالت: يا رسول الله أؤامرَ في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله (تعالى) هذه الآية: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا**﴾ (سورة الأحزاب، آية ٣٦).

فقالت: يا رسول الله قد رضيته لي زوجًا؟ قال: «نعم»، قالت: لا أعصي رسول الله (ﷺ)، وقد زوجته نفسي(٦).

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يدعى زيد بن محمد، فتزوجها زيد، وأصدقها في هذا الزواج عشرة دنانير، وستين درهمًا، وخمارًا، وملحفة، ودرعًا، وخمسين مدًا من طعام، وعشرة أمداد من تمر(٧).

ثالثًا: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله (تعالى) ألا يتوافقا -زيد وزينب- في زواجهما وأصبحت حياة الزوجين لا تطاق، وصمم زيد على فراق زوجه زينب وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله (ﷺ) من عدم استطاعته البقاء مع زينب ورسول الله يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها، حتى أذن الله بالطلاق فطلقها زيد وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنة، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريبًا من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما (يعني الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله (ﷺ) فجعل رسول الله (ﷺ) يقول له: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»(٨).

لم يبق لزيد رغبة في إبقاء العلاقة الزوجية معها، لأنه كان كريم النفس، لا يريد أن

---

(٥) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات حفصة بنت عثمان الخليفي، ص٢٠٥ .
(٦) انظر: جامع البيان للطبري (٢٢/ ١١) .
(٧) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩) .
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١) .

يبني سعادته وراحته على شقاء الآخرين وتعاستهم والإضرار بهم، ولهذا صمم على الفراق وعدم الإضرار بها، لأنها كانت تعيش في قلق واضطراب، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب بنت جحش على هذا الوضع دون أي تدخل خارجي بينهما، ووقع ذلك الطلاق بمحض اختياره وإرادته، وأن رسول الله (ﷺ) كان ينهاه عن ذلك، ويأمره بتقوى الله وإمساك زوجه[٩]، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا السبب: (ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير آثارًا عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحًا لعدم صحتها فلا نوردها)[١٠].

رابعًا: الحكمة من زواج رسول الله (ﷺ) من زينب:

كانت عادة التبني متغلغلة في نفوس الناس ومشاعرهم، وليس من السهل التغلب عليها وإلغاء الآثار المترتبة عليها، هذه العادة في صدر الإسلام في مكة، وفي أول الهجرة إلى المدينة، ثم شاء الله (تعالى) فنزلت الآيات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادعاهم في الحقيقة، وإنما ذلك حسب دعوى المدعي فقط، وذلك لا يغير من الواقع شيئًا، فقال (تعالى): ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٤).

ثم أمر تبارك و(تعالى) برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، فهذا من العدل والقسط والبر، فقال (تعالى): ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٥).

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله (ﷺ) ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن)[١١].

ولم يجعل الله (سبحانه وتعالى) عدم معرفتهم لآبائهم الحقيقيين مبررًا لإبقاء تبنيهم لهم، بل حرم التبني في هذه الحالة، وأخبر أنهم حينئذ إخوانهم ومواليهم، فقال (تعالى): ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾(سورة الأحزاب، آية: ٥). أي فإن لم تعرفوا آباءهم فليس بينكم وبينهم إلا الأخوة في الدين، والموالاة، وذلك عوضًا عما فاتهم من النسب، فيقال: فلان مولى فلان، أو مولى بني فلان[١٢].

---

(٩) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، ص٢٠٩ .

(١٠) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١) .

(١١) البخاري في التفسير ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ (٣/ ٢٧٦) رقم ٤٧٨٢ .

(١٢) انظر: تفسير السعدي (٤/ ١٣٦) .

وهذه الأخوة في الدين والموالاة لها أهمية كبرى، فهي ثابتة حتى للذين عرف آباؤهم، ولهذا قال رسول الله (ﷺ) لزيد بن حارثة رضي الله عنه: **«أنت أخونا ومولانا»**[١٣]، أي أخونا في الإسلام والولاية، كما قال (تعالى): **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** (سورة الحجرات، آية: ١٠).

وجاءت نصوص أخرى تعالج هذا الأمر من جهة أخرى، وهي جهة الابن، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقي والمنتسب يعلم ذلك - تحريمًا قاطعًا لا شبهة فيه[١٤] قال (ﷺ): **«من ادعى إلى غير أبيه أو انتهى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله (تعالى) منه صرفًا ولا عدلا**[١٥] **»**[١٦].

وقد جعل الشارع لنشوء النسب سببًا واضحًا هو الاتصال بالمرأة عن طريق الزواج أو ملك اليمين، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهلية من إلحاق الأولاد عن طريق العهر والزنا، قال (ﷺ): **«الولد للفراش وللعاهر الحجر»**[١٧]، ومعناه أن من يجيء من الأولاد ثمرة لفراش صحيح قائم على عقد الزواج أو ملك اليمين يلتحق نسبه بأبيه، وأن العهر والزنا لا يصلح أن يكون سببًا للنسب، وإنما يكون سببًا لشيء آخر هو الرجم والحجارة[١٨].

ثم إن الله (سبحانه وتعالى) بعد أن منع وحرم دعوة الابن بنسبته إلى من تبناه، وأمر بدعوته منسوبًا إلى أبيه الحقيقي إن عرف، أو إلى الأخوة في الدين والموالاة بعد ذلك بين حكم من أخطأ أو تعمد مخالفة هذا التشريع الإلهي، قال (تعالى): **﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** (سورة الأحزاب، آية: ٥).

فقد نفى الله (سبحانه وتعالى) الجُناح (الإثم) عمن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة، وذلك بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع أو نسي فنسب الابن إلى غير أبيه بجريان لسانه بذلك، وأثبت الحرج والإثم لمن تعمد الباطل وهو دعوة الرجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك[١٩].

كانت عادة التبني مستحكمة في نفوس الناس وقد أخذت أبعادها مع مرور الزمن فكان زواج النبي (ﷺ) بالسيدة زينب إلغاء عمليًا وليس إلغاء ذهنيًا فحسب[٢٠].

إن الحكمة في زواج رسول الله (ﷺ) من السيدة زينب حكمة واضحة وظاهرة، وقد

---

(١٣) البخاري في الصلح، (٢/ ٢٦٧) رقم (٢٦٩٩).
(١٤) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، ص(١٨٩).
(١٥) صرفًا: توبة، وقيل: نافلة، عدلاً: أي فدية وقيل: فريضة.
(١٦) البخاري في فضائل المدينة (٢/ ٤١١) رقم (٣١٧٢).
(١٧) البخاري في الحدود (٤/ ٢٥٤) رقم (٦٨١٨).
(١٨) انظر: علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية، د. سعاد الصانع، ص٥٢، ٥٣.
(١٩) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، ص(١٩١، ١٩٢).
(٢٠) انظر: من معين السيرة، ص(٣١١).

بينها الله (تعالى) بقوله عز وجل: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (سورة الأحزاب، آية ٣٧).

وقد ذكر المبطلون من الكفار وفروخهم ومقلدوهم بما ينعقون به ويردده الجهال متعلقين بروايات مكذوبة خلاصتها كما يفترون أن النبي (ﷺ) قد هوى زينب بنت جحش بعد أن تزوجت بزيد بن حارثة، فلما علم زيد بذلك أراد طلاقها ليتزوجها النبي (ﷺ)[٢١] . . . فهذا قول باطل، وقد نسف الإمام ابن العربي هذا القول من جذوره فقال: فأما قولكم: إن النبي (ﷺ) رآها - أي رأى زينب بنت جحش- فوقعت في قلبه، فباطل فإنه كان (ﷺ) كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن حينئذ حجاب، فكيف تنشأ معه، وينشأ معها، ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة وقد قال (تعالى): ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ والنساء أفتن الزهرات، فيخالف هذا في المطلقات، فكيف في المنكوحات؟ ثم إن قوله (تعالى): ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ (الأحزاب: ٣٧) يعني من نكاحك لها وهو الذي أبداه لا سواه، أقول: فلو كان الذي أخفاه رسول الله (ﷺ) هو حبه لها لأبداه الله (تعالى) وأظهره، فتيقنا أن الذي أخفاه رسول الله من أمر زينب هو نكاحه إياها وليس ما تخيله المبطلون من حبه لها[٢٢].

إن الشرع أراد تأكيد إبطال نظام التبني وإبطال كل نتائجه وتعميق هذا الإبطال في النفوس وتأكيده بالتطبيق العملي، والقدوة والتأسي بمن يقتدي به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة الناسخة، وهذا ما فعله رسول الله (ﷺ) بزواجه بزينب بأمر من الله (تعالى العزيز الحكيم)[٢٣].

خامساً: قصة زواج رسول الله (ﷺ) من زينب وما فيها من دروس وعبر:

لما انقضت عدة زينب قال رسول الله (ﷺ) لزيد: «**اذهب فاذكرها عليّ**» فانطلق، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري فقلت: يا زينب أبشري!! أرسلني رسول الله (ﷺ) يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤمر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله (ﷺ) ودخل عليها بغير إذن[٢٤]، وأصدقها أربعمائة درهم، وكان زواجه (ﷺ) بزينب في السنة الخامسة على المشهور وقال الحافظ البيهقي: تزوجها بعد بني قريظة[٢٥].

وأولم الرسول (ﷺ) في عرس زينب وليمة كبيرة، فأولم بشاة وقد دعى إلى الوليمة كل من لقيه أنس رضي الله عنه بناءً على أمر الرسول (ﷺ)، فعن أنس رضي الله عنه قال:

---

(٢١) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان (١١/ ٤٧٤، ٤٧٥).
(٢٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣١، ١٥٣٢).
(٢٣) انظر: المفصل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٦).
(٢٤) مسلم في النكاح (٢/ ١٠٤٨) رقم (١٤٢٨).
(٢٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤٧).

ما رأيت رسول الله (ﷺ) أولم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب، فإنه ذبح شاة[٢٦].

وهكذا تزوج رسول الله (ﷺ) - بأمر ربه- زينب بنت جحش رضي الله عنها، بعد طلاق زيد لها وانقضاء عدتها، وفي زواجه (ﷺ) بزينب وما نزل فيه من القرآن وما واكبه من أحداث عظات وعبر[٢٧] وقفنا عند بعضها ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدروس والعبر التي لم نقف عليها منها:

١- كان خاطب زينب للنبي (ﷺ) هو زوجها الأول زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولعل اختيار رسول الله (ﷺ) لزيد مقصود لذاته، ليقطع بذلك ألسنة المتقولين وما قد يزعمونه من أن طلاقها وقع بغير اختيار منه، وأنه قد بقي في نفسه من الرغبة فيها شيء، وفي هذا يقول ابن حجر: (هذا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهرًا بغير رضاه، وفيه أيضًا اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا؟)[٢٨].

وفي هذا من الحكمة أيضًا أن ما يقع بين الزوجين من نفرة وخلاف ثم طلاق لا يجوز أن يكون مانعًا من نصح أحد الزوجين للآخر، وأن يراعي فيه حقوق الأخوة الإيمانية، فهذا زيد رغم ما وقع بينه وبين زينب، ورغم أن هذا كان بسببها إلا أنه ذهب يخطبها لرسول الله، بل ويقول لها: (يا زينب أبشري).

٢- في الآية التي نزلت بشأن هذا الزواج عتاب للنبي (ﷺ) من ربه، إذ كان حين يأتيه زيد يشكو زينب ومعاملتها له ورغبته في طلاقها يقول: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»، أي اتق الله ودع طلاقها، أو اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها، ورسول الله (ﷺ) يخفي في نفسه ما أبلغه الله به أن زيدًا سيطلقها، وأنها ستكون زوجة له، ويخشى متى وقع هذا من كلام الناس في قولهم: تزوج مطلقة من تبناه وهو زيد بن حارثة.

روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل رسول الله (ﷺ) يقول: «**اتق الله، وأمسك زوجك**»، قال أنس: لو كان رسول الله (ﷺ) كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية)[٢٩].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمد (ﷺ) كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**﴾ (سورة الأحزاب، آية ٣٧)[٣٠].

---

(٢٦) البخاري في النكاح باب من أولم على بعض نسائه (٣/ ٣٨٧٠) رقم (٥١٧١).

(٢٧) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، ص(٣١٢)

(٢٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/ ٥٢٤).

(٢٩) البخاري في التوحيد (٤/ ٣٨٨) رقم (٧٤٢٠). (٣٠) مسلم في الايمان (١/ ١٦٠) رقم (١٧٧).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره للآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: (أي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق والإرشاد والتعليم، حين جاءك مشاورًا في فراقها، فقلت له- ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته، مقدمًا لها على رغبتك، مع وقوعها في قلبك: (أمسك عليك زوجك ولا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، واتق الله في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحث على الصبر وتأمر به) ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الذي أخفاه أنه لو طلقها زيد لتزوجها (ﷺ)[٣١].

قال سيد قطب: الذي أخفاه النبي (ﷺ) في نفسه وهو يعلم أن الله مبديه، وهو ما أعلمه الله أنه سيفعله ولم يكن أمرًا صريحًا من الله، وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله، ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها من إعلانه، ولكنه (ﷺ) كان أمام ما أعلمه الله، ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته، ومواجهة الناس به، حتى أذن الله بكونه، فطلق زيد زوجه في النهاية، وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له[٣٢].

٣- في قوله (تعالى): ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، منقبة عظيمة لزيد ابن حارثة رضي الله عنه، فقد انفرد بهذا، إذ لم يُسَم القرآن أحد من الصحابة غيره، قال السهيلي: (كان يقال: زيد بن محمد حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد، فلما نُزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصيصة لم يكن يَخُصّ بها أحدًا من أصحاب النبي (ﷺ)، وهي أنه سماه في القرآن، فقال (تعالى): ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني من زينب، ومن ذكره الله (تعالى) باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى في المحاريب، نوه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد (ﷺ) له، ألا ترى إلى قول أبي بن كعب حين قال له النبي (ﷺ): **«إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا»**، فبكى وقال: أو ذكرت هنالك؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله (تعالى) ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآنًا يتلى مخلدًا لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرؤوا القرآن، وأهل الجنة أبدًا لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكورًا على الخصوص عند رب العالمين، إذ القرآن كلام الله القويم وهو باق لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء ولزيد بن حارثة تعويضًا من الله (تعالى) له ما نُزع منه[٣٣].

٤- زواج النبي (ﷺ) بزينب بنت جحش رضي الله عنها كان بأمر ربه، وهو الذي زوجه إياها، قال (تعالى): ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ

(٣١) تفسير السعدي (٣/ ١٥٤).
(٣٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٦٩).
(٣٣) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٤).

زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٣٧).

وفي هذا شرف عظيم ومنقبة جليلة لزينب رضي الله عنها، كانت تفاخر بها - وحق لها ذلك- فعن أنس رضي الله عنه قال: كانت تفخر على أزواج النبي (ﷺ) تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات، وفي رواية أخرى: (كانت تفخر على نساء النبي (ﷺ)، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السماء)[٣٤].

ولعل هذه المنقبة وهذا الشرف لزينب رضي الله عنها كان جزاء لها حين أذعنت وخضعت لأمر رسول الله (ﷺ) حين أمرها بالزواج من مولاه زيد بن حارثة، وكانت لذلك كارهة، ثم لما علمت أن رسول الله (ﷺ) يأمرها بذلك قبلت الزواج منه[٣٥].

٥- في وليمته (ﷺ) على زينب علامة من علامات نبوته ودلالة من دلائلها، وهي تكثير الطعام بدعوته، وفي هذه الوليمة أيضًا كان نزول آية حجاب نساء النبي (ﷺ)، وما شرع من آداب الضيافة[٣٦].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تزوج رسول الله (ﷺ) فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حيسًا فجعلته في تور[٣٧]، فقالت: يا أنس: اذهب بهذا إلى رسول الله (ﷺ) فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! قال: فذهبت بها إلى رسول الله (ﷺ)، فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! فقال: «**ضعه**»، ثم قال: «**اذهب فادع لي فلانًا وفلانًا، ومن لقيت**»، وسمى رجالاً، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

وقال لي رسول الله (ﷺ): «**يا أنس: هات التور**»، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله (ﷺ): «**ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه**»، قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال لي: «**يا أنس: ارفع**»، قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله (ﷺ)، ورسول الله (ﷺ) جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله (ﷺ)، فخرج رسول الله (ﷺ) على نسائه ثم رجع، فلما رأوا رسول الله (ﷺ) قد رجع ظنوا أنهم قد أثقلوا عليه، قال: فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله (ﷺ) حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة،

---

(٣٤) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء (٤/٣٨٨) رقم ٧٤٢٠ .
(٣٥) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، ص٢١٨ .
(٣٦) نفس المصدر، ص٢١٨ .
(٣٧) تور: الإناء .

فلم يلبث إلا يسيرًا حتى خرج عليٌّ، وأنزلت هذه الآيات، فخرج رسول الله (ﷺ) وقرأهن على الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب، آية: ٥٣).

قال الجعد[٣٨]: قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهدًا بهذه الآيات، وحجبن نساء النبي (ﷺ)[٣٩].

وقد حجب رسول الله (ﷺ) نساءه لنزول آية الحجاب التي قال المولى (عز وجل) فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا * إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٥٣- ٥٤).

وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه. روى البخاري في صحيحه عن أنس قال. قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب[٤٠].

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب في الإسلام بالنسبة لأزواج النبي (ﷺ)، والمراد عدم إبداء شيء من أجسامهن للأجانب عنهن، وعدم محادثتهن أو طلب شيء منهن إلا من وراء حجاب، أي ستر يكون بينهن وبين غيرهن، ولما نزلت قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله (ﷺ): ونحن أيضًا نكلمهن من وراء حجاب؟ فأنزل الله قوله: ﴿لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٥٥).

ونزل أيضًا في شأن نساء النبي في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله (تعالى): ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

---

(٣٨) الجعد بن دينار، أبو عثمان اليشكري، البصري من أصحاب أنس.

(٣٩) البخاري في النكاح، باب (الهدية للعروس) (٣/٣٧٨) رقم ٥١٦٣.

(٤٠) البخاري في التفسير (٦/٢٩) رقم ٤٧٩٠.

تَطْهِيرًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٣٢- ٣٣).

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية وإن كانت خطابًا لأزواج النبي فحكمها لجميع نساء الأمة، وإنما خص نساء النبي لمنزلتهن وعظم فضلهن ومكانتهن من النبي (ﷺ)(٤١)، وقد قال الإمام القرطبي في تفسيره: (معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي (ﷺ) فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن؟ والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة على ما تقدم من غير موضع)(٤٢).

وقد فصّل (سبحانه وتعالى) في كتابه الكريم ما يتعلق بالنساء المسلمات: من غض البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء مواضع الزينة من عنق وساق وعضد وساعد وشعر، ونحوها من العورة الظاهرة إلا للمحارم(٤٣) وقد جاء ذلك في سورة النور، وقد بينت السنة النبوية كل ما يتعلق بالنساء من احتجاب وتصون وتعفف، وعدم السفور والخلاعة والابتذال بما لا مزيد عليه(٤٤).

هذه بعض الدروس والعبر استخرجت من قصة زواج رسول الله (ﷺ) من زينب بنت جحش وما واكب ذلك الزواج من نزول آيات بينت في أحكام الحجاب، وما شرع من آداب الضيافة.

هذا وقد توفيت زينب بنت جحش رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة، وعمرها ثلاث وخمسون سنة، وكانت كما أخبر النبي (ﷺ) أول نسائه لحوقًا به(٤٥)، وقد بلغت مروياتها عن النبي (ﷺ) وفق كتاب بقي بن مخلد أحد عشر حديثًا(٤٦)، ولها في الكتب الستة خمسة أحاديث(٤٧)، اتفق لها في البخاري ومسلم عن حديثين(٤٨)، فقد تركت ذكرًا طيبًا في تاريخ الأمة الإسلامية(٤٩).

●●●

(٤١) انظر: السنّة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣١٢).
(٤٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٩).
(٤٣) انظر: السنّة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣١٢).
(٤٤) نفس المصدر (٢/ ٣١٤).
(٤٥) انظر: الطبقات الكبرى (٨/ ١١٥).
(٤٦) انظر: تلقيح الفهوم لابن الجوزي، ص(٣٧٠).
(٤٧) انظر: تحفة الأشراف للمزي (١١/ ٣٢١- ٣٢٣).
(٤٨) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١).
(٤٩) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، ص(٨٥).



المبحث الثاني

الآن نغزوهم ولا يغزونا (٥٠)

(٥٠) البخاري في المغازي (٥/٥٨) رقم (٤١١٠).

كـان (ﷺ) يعمل حساب كل القوى المجاورة، ولا يغفل عن أي قوة منها، وقد صرح بعد غـزوة الخندق بأن الخطة القادمة هي غـزو قريش، فقد تـغيرت موازين القـوى وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكـثر من قبل، فسعى (ﷺ) لبسط سيـادة الدولة على ما تبقى من قوى حول المدينة، لأن ذلك له صلة بالإعداد لغزو قـريش في مرحلة لاحقة، فقد قام (ﷺ) خلال عام واحد - العام السادس- بغزوتين وأرسل أربع عشرة سرية، غير ما قام به في نهاية العـام الخامس الهجـري . . . وهذه الأعمال والتحـركات قصـد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار، وتقليم أظفـارها من خلال اقتطاع كل ما يمدها بالقوة من حلفـائها[٥١] فقد استثمر رسول الله وأصحابه مـا حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كـيد يهـود بني قريظة في نحـورهم، فباشـروا نشاطًا واسع النـطاق ضد خصومهم على كـافة الجبهات، فقد ضـيّقوا الخناق الاقتصادي على قـريش من جديد، كما نفذوا العديد من الـسرايا لمعاقبة المشـركين في الأحزاب من جهة، أو للثأر مـن القبائل التي كانت قد غدرت بـالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء، وقد تمثل النشـاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة في ما يلي:

أولاً: سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت العـشائر النجدية من أجرأ الـعناصر البدوية الوثنية عـلى المسلمين، لأن النجديين أهل قوة وبأس وعدد غـامر، وقد رأينا كيف أن العـمود الفقري لقـوات الأحزاب الضاربة، كان من هذه الـقبائل النجـدية ،حيث كـان رجال هذه القـبائل الشـرسة يشكلون الأغلبـية الساحقة من تلك القوة الضاربة، ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين، فحاصرهم أهل المدينة.

ولهذا فإن أول حـملة عسكرية وجهها الـنبي لتأديب خصومه بعـد غزوة الأحزاب هي تلك الحمـلة التي جرّدها على القـبائل النجـدية من بني بكر بن كلاب الذين كـانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية[٥٢] على مسافة سبع ليال من المدينة، ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة وبعد الانتـهاء مباشرة من القضاء علـى يهود بني قريظة وجّه (ﷺ)[٥٣] سـرية من ثلاثين من أصحابه عليهـم محمد بن مسلمة لشن الغارة على بني القـرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرم سنة ٦هـ[٥٤]، وقد داهموهم على حين غرّة فقتلوا منهم

(٥١) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص(١٣٩).
(٥٢) قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد.
(٥٣) انظر: صلح الحديبية، باشميل ص(٢٤).
(٥٤) انظر: تاريخ الاسلام للذهبي، المغازي ص(٣٥١).

عشرة، وفر الباقون وغنم المسلمون إبلهم وماشيتهم[٥٥]، وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة وهم لا يعرفونه فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي (ﷺ)فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**»فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**»فقال: عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر ،فتركه حتى كان بعد الغد فقال: « **ما عندك يا ثمامة**» فقال عندي ما قلت لك، فقال: «**أطلقوا ثمامة**»فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبحت بلدك أحب البلاد إليّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله (ﷺ)وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله ولكني أسلمت مع محمد رسول الله (ﷺ) ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي (ﷺ)[٥٦]، وقد أبر بقسمه مما دفع وجوه مكة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله (ﷺ) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام[٥٧]، فاستجاب النبي (ﷺ) لرجاء قومه بالرغم أنه في حالة حرب معهم، وكتب إلى سيد بني حنيفة ثمامة: « **أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم**». فامتثل ثُمامة أمر نبيه وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[٥٨].

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- جواز ربط الكافر في المسجد.

٢- جواز المن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيئ، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبًا في ساعة واحدة لما أسداه النبي (ﷺ)إليه من العفو والمن بغير مقابل.

٣- الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثمامة حين أسلم.

٤- الإحسان يزيل البغض وينبت الحب.

٥- يشرع للكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم أن يستمر في عمل ذلك الخير.

٦- الملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه[٥٩].

---

(٥٥) مسلم (١٣٨٦/٣) رقم ١٧٦٤ .

(٥٦) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٣٠) .

(٥٧) نفس المصدر (١/ ٣٣٠) .

(٥٨) انظر: السيرة الحلبية (٢٩٨/٢)؛ الاستيعاب لابن عبد البر ترجمة ثمامة بن أثالة الحنفي .

(٥٩) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٣٨٦، ٣٨٧) .

٧- الإسلام يغير سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت الإسلام والمسلمين كما فعل ثمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكة إلا بإذن من الرسول عليه السلام.

٨- ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان وعند تركه للكفر كل علاقاته السابقة، والتزامه بأوامر رب العالمين بعد إيمانه[٦٠].

ثانيًا: سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر:

تعتبر سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر، استمرارًا لسياسة النبي (ﷺ) العسكرية لإضعاف قريش ومحاصرتها اقتصاديًا على المدى الطويل، فقد بعث (ﷺ) أبا عبيدة ابن الجراح في ثلثمائة راكب قبل الساحل ليرصدوا عيرًا لقريش، وعندما كانوا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان قدر مزود تمر، يقوتهم منه كل يوم قليلاً قليلاً، حتى كان أخيرًا نصيب الواحد منهم تمرة واحدة، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقت ممكن[٦١]، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه السرية: (كنا نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل)[٦٢] وقد سأل وهب بن كيسان جابرًا رضي الله عنه: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت[٦٣].

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشجر، قال جابر رضي الله عنه: وكنا نضرب بعصينا الخبط[٦٤]، ثم نبله بالماء فنأكله[٦٥] (فسمي ذلك الجيش جيش الخبط)[٦٦]، وقد أثر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السرية الشجاعة وهو رجل من أهل بيت اشتهر بالكرم، فنحر للجيش ثلاث جزائر[٦٧]، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه[٦٨].

فبينما هم كذلك من الجوع والجهد الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج الله فيها حوتًا ضخمًا، فألقاه على الشاطئ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة

---

(٦٠) نفس المصدر ص(٣٨٧).

(٦١) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(١١٨).

(٦٢) مسلم شرح النووي (١٣/ ٨٤).

(٦٣) فتح الباري (٨/ ٧٧).

(٦٤) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها واسم الورق الساقط خَبَط.

(٦٥) شرح النووي (١٣/ ٨٤).

(٦٦) فتح الباري (٨/ ٧٨).

(٦٧) جمع جزور، والجزور: البعير، أو خاص بالناقة.

(٦٨) فتح الباري (٨/ ٧٨).

الكثيب الضخم[٦٩]، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر[٧٠]، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله (ﷺ) وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا، ونحن ثلثمائة حتى سمنًا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب[٧١] عينيه بالقلال[٧٢] الدهن. ونقتطع منه الفدر[٧٣] كالثور، أو قدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها، ثم رجل أعظم بعير منا فمر من تحتها[٧٤] وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله (ﷺ)[٧٥]. فقال: **«ما حبسكم؟»** قلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة[٧٦]. فقال: **«هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا»**، قال: فأرسلنا إلى رسول الله (ﷺ) منه فأكله[٧٧]. كانت هذه السرية على الأرجح قبل صلح الحديبية، وليس في رجب سنة ثمان كما ذكر ابن سعد[٧٨] وذلك لسببين: السبب الأول: أن الرسول (ﷺ) لم يغز ولم يبعث سرية في الشهر الحرام، والثاني: أن رجب سنة ثمان هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية[٧٩].

وذكر ابن سعد والواقدي[٨٠]، أن النبي (ﷺ) بعثهم إلى حي من جهينة، وقال ابن حجر[٨١]: إن هذا لا يغاير ظاهره ما في الصحيح، لأنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيرًا لقريش ويقصدون حيًا من جهينة، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم بل لحفظهم من جهينة. ويقوي هذا الجمع ما عند مسلم[٨٢]، أن البعث كان إلى أرض جهينة[٨٣].

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه:

حيث جمع الأزواد، وسوى بين المجاهدين في التوزيع ليستطيع تجاوز الأزمة بهم،

---

(٦٩) الكثيب: التل من الرمل.
(٧٠) العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس.
(٧١) الوقب: النقرة التي تكون فيها العين.
(٧٢) القلال: الجرة العظيمة.
(٧٣) الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللحم.
(٧٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(١٢١).
(٧٥) انظر: شرح النووي (١٣/ ٨٥- ٨٧).
(٧٦) صحيح سنن النسائي للألباني (٣/ ٩١٠).
(٧٧) شرح النووي (١٣/ ٨٧).
(٧٨) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٢)؛ والذهبي في المغازي ص(٥١٩).
(٧٩) انظر: المجتمع المدني للعمري ص(١٢٥).
(٨٠) انظر: المغازي (٢/ ٧٧٤)؛ السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية ص(٤٨٠).
(٨١) انظر: السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية ص(٤٨٠).
(٨٢) مسلم (٣/ ١٥٣٧) رقم (١٩٣٥).
(٨٣) انظر: السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية ص(٤٨٠).

وذلك درس تعلمه من رسول الله (ﷺ) عمليًا أكثر من مرة.

٢- كرم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما:

في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفف عن الناس، ففي رواية الواقدي: (أن قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النوق من رجل جهني، وأن أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك[٨٤]، فأراد أبو عبيدة الرفق به[٨٥].

وقد بدأ قيس ينحر وينحر حتى نهاه أبو عبيدة فقال له قيس: يا أبا عبيدة أترى أن أبا ثابت يقضي ديون الناس ويحمل الكل ويطعم في المجاعة، لا يقضي عني تمرًا لقوم مجاهدين في سبيل الله[٨٦]، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة لأنه قد اتفق مع رجل من جهينة على أن يشتري منه نوق ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمرًا بالمدينة وقد وافق الجهني على تلك الصفقة.

وعندما علم سعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجة أنه لا مال له، وإنما المال لأبيه، وهب ابنه أربع حوائط أدناها يُجذ منه خمسون وسقًا[٨٧].

٣- الحلال والحرام:

إن المسلمين في هذه السرية بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التمرة الواحدة طعام الرجل طوال يوم كامل في سفر ومشقة، ويمرون وهم على تلك الحال من فقد التمر وأكل الخبط على الجهني - الذي اشترى منه قيس- أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهلية، لأنهم اليوم ينطلقون بدين الله الذي جاء ليحفظ على الناس أموالهم - في جملة ما حفظ- وهم اليوم يفرقون بين الحلال والحرام الذي تعلموه من منهج رب العالمين[٨٨].

٤- جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصة على جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة المائدة، آية: ٣). وقد قال (تعالى): ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ

---

(٨٤) انظر: معين السيرة ص(٣٢٣)؛ السرايا والبعوث النبوية ص(١١٩).

(٨٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(١١٩).

(٨٦) انظر: من معين السيرة ص(٣٢٣) نقلاً عن الزرقاني في شرحه (٢/ ٢٨٢).

(٨٧) انظر: معين السيرة ص(٣٢٣).

(٨٨) نفس المصدر ص(٣٢٤).

تُحْشَرُونَ ﴾ (سورة المائدة، آية: ٩٦). وقد صح عن أبي بكر الصديق وعبد الله ابن عباس وجماعة من الصحابة (أن صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه)، وفي السنن عن ابن عمر مرفوعًا وموقوفًا: (أحلت لنا ميتتان، ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان الكبد والطحال) حديث حسن وهذا الموقوف في حكم المرفوع، لأن قول الصحابي: (أحل لنا كذا، وحرم علينا) ينصرف إلى إحلال النبي (ﷺ) وتحريمه[٨٩]، كما أن في أكل الرسول (ﷺ) من لحم الحوت الذي تغذى منه المسلمون مدة دليل على مشروعية أكل ميتة البحر[٩٠]، كما يستحب للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات التي يشك فيها المستفتي إذا لم يكن فيه مشقة على المفتي، وكان فيه طمأنينة للمستفتي، قاله النووي[٩١].

٥- بعض الأحكام التي ذكرها الإمام النووي:

قال النووي: في هذا الحديث جواز صدً أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه، وأن الجيوش لا بد لها من أمير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه، وأنه ينبغي أن يكون الأمير أفضلهم، أو من أفضلهم، قالوا: ويستحب للرفقة من الناس وإن قلوا أن يؤمروا بعضهم عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرفقة من المسافرين خلط أزوادهم ليكون أبرك، وأحسن في العشرة وألا يختص بعضهم بأكل دون بعض والله أعلم[٩٢].

ثالثًا: سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

كانت هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشام، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق، وهي تقوم في قلب الصحراء العربية واسطة الصلة بين الروم في أرض الشام والعرب في الجزيرة، وسكانها من قبيلة كلب الكبرى، وقد دخلوا في النصرانية، نتيجة جوارهم وتأثرهم بجوار الروم النصارى، وهذه السرية تدخل ضمن مخطط النبي (ﷺ) في احتكاكه مع الإمبراطورية الرومانية.

وأما أمير السرية فهو عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن رجال الرعيل الأول، فقد كان أحد الدعائم الكبرى للدعوة الإسلامية منذ دخوله فيها على يد الصديق رضي الله عنه، ومهمة هذه السرية ذات جانبين: مهمة دعوية، ومهمة حربية لذلك انتدب لها عبد الرحمن بن عوف الذي تربى على محض الإسلام منذ أيامه الأولى[٩٣].

(٨٩) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص١٢٣.
(٩٠) انظر: السيرة في ضوء مصادرها الأصلية ص٤٨٠.
(٩١) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٦).
(٩٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٦).
(٩٣) التربية القيادية (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

وعن هذه السرية حدثنا عبد الله بن عمر فقال: دعا رسول الله (ﷺ) عبد الرحمن ابن عوف فقال: «**تجهّز فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو من غد إن شاء الله**». قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت: لأدخلنّ فلأصلّين مع النبي الغداة، فلأسمعنّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ فصليت فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله (ﷺ) قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله (ﷺ) لعبد الرحمن: «**ما خلفّك عن أصحابك؟**» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجُرْف وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وعلي ثياب سفري.

قال: وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفّها على رأسه قال ابن عمر: فدعاه النبي (ﷺ) فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: «**هكذا فاعتم يا ابن عوف!**» قال: وعلى ابن عوف السيف مُتوشّحه. ثم قال رسول الله (ﷺ): «**أغزُ باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تَغُلّ ولا تغدر ولا تقتل وليدًا**». قال ابن عمر: ثم بسط يده، فقال: «**يا أيها الناس، اتقوا خمسًا قبل أن يُحلّ بكم: ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلّط الله عليهم عدوهم، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يُسقطوا، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعًا، وأذاق بعضهم بأس بعض**»(٩٤).

قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلما حلّ بها دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم ما يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانيًا وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن إلى النبي (ﷺ) يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي (ﷺ) أنه قد أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي (ﷺ) أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر. فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة ست(٩٥).

وفي هذه السرية دروس وعبر منها:

١- تواضع النبي (ﷺ) لأصحابه وشفقته عليهم، حيث ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامته بيده، وهذا التواضع منه (ﷺ) يرفع من معنويات الصحابة رضي الله عنهم، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطاقة في سبيل خدمة هذا الدين، لأن التلاحم والمودة بين

(٩٤) هذا الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن رقم ٤٠١٩ .

(٩٥) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٠- ٥٦١) .

القائد وجنوده من أهم عوامل نجاح العمل وتحقيق الأهداف[٩٦].

٢- كان جيش عبد الرحمن جيش مبادئ وعقيدة فتحرك ضاربًا في هذه الصحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه، وهدى رسوله إلى أمته مستوعبًا لمقاصد الجهاد وأحكامه، فالجهاد ليس باسم محمد (ﷺ) فهو عبد الله ورسوله، ولا مكان لزعيم أو أمة أو قبيلة أو راية أو وطن أو جيش أو قومية بجوار هذه الراية الخفاقة في هذا الوجود، راية الله (تعالى). **(اغز باسم الله)** فحزب الله (تعالى) هو الذي يحيي هذه الصحراء الظمأى بغيث العقيدة الخالصة عقيدة التوحيد[٩٧]، وهدفهم من هذا التحرك في سبيل الله وحده قال (تعالى): ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٦٢- ١٦٣).

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهلي.

وأحيانا على بكر أخينا　　　إذا لم نجد إلا أخانا

أما هذا الجيش القوي الفتي، فهو يمضي في الأرض قدمًا ليقاتل من كفر بالله[٩٨].

٣- ثم نهى رسول الله (ﷺ) عبد الرحمن بن عوف عن الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، ونهاه عن الغدر في العهود وعن قتل الولدان، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي في الجهاد، فالقتال نوع من العنف والقسوة، ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين طهر الله (تعالى) قلوبهم من الغلِّ والحسد أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وحماية المحقين من المبطلين، وليس متأصلاً في نفوسهم، ولذلك كان محفوفًا بالآداب السامية التي تجعل الإنسان الواحد جامعًا بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف[٩٩].

٤- كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سيدًا من سادات هذه الأمة، وواحدًا من أكبر دعاتها، فهو يملك من الحلم، والحكمة والثقافة، والتجربة والعبقرية، والقدم في الإسلام، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره، ولهذا بذل كل طاقاته لتحقيق الهدف الرئيسي الأول، وهو الدخول في الإسلام وكان متريثًا هاديًا خبيرًا بالنفوس والقلوب، فشحن كل الإمكانات الفكرية والحركية، لإنجاح هذه المهمة العظمى، وتكلل عمله بفضل الله (تعالى) بالنجاح الكبير، وخاصة أن الجهد انصب على إقناع الرئيس، حسب توجيهات المصطفى (ﷺ).

٥- إن إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو علي يد عبد الرحمن بن عوف، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الذي أسلم على يديه النجاشي ملك الحبشة، ومصعب بن عمير بالمدينة، حيث استجاب له سادات الأوس والخزرج وزعامتهم للإسلام،

---

(٩٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٤).
(٩٧) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧١).
(٩٨) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧٢).
(٩٩) انظر: التاريخ الاسلامي للحميدي (٦/ ١٨٤).

وهذه الشخصيات العظمى الثلاثة هم من الرواد الأوائل، ومن المؤسسين في المدرسة الإسلامية الأولى بمكة المكرمة.

هذا عبد الرحمن بن عوف الذي أصيب بأحد عشرين جرحًا أدت بعضها إلى أن يكون عنده عرج من شدتها، يصنع ركائز العقيدة الإسلامية بجيشه المظفر شمال الجزيرة العربية وينضم الكثيرون إلى الإسلام، لتغدو دومة الجندل موقعًا جديدًا من المواقع الإسلامية، في هذه الأطراف المتنامية، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب والروم المناوئين للإسلام(١٠٠).

وهذه أول مرة يحكم الإسلام خارج حدوده ويتعايش المسلمون والنصارى في دولة واحدة، فالذين أسلموا تطبق عليهم أحكام الإسلام والذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية، وكان هذا الانفتاح تدريبًا جديدًا للصحابة على المجتمعات الجديدة التي سينتقلون إليها فيما بعد، وينساحون في العراق والشام وفي قلب فارس والروم، ليعلموا الناس أن العقيدة تنبني من خلال الحوار لا من خلال السيف، وأن مبادئ الإسلام لها قوتها الذاتية التي تشع أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظلام البهيم(١٠١).

٦- إن زواج عبد الرحمن بن عوف من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل، يقوي الروابط بين الزعيم المسلم الجديد بدومة الجندل وبين دولة الإسلام في المدينة، ويربط مصيره بمصير دولة الإسلام، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر أن فلذة كبده مقيمة في العرين الإسلامي الذي أصبح يحن له حنينه لأرضه وبلده(١٠٢).

وقد كان (ﷺ) يحرص على أن يتزوج هو وقادته ببنات سادة القبائل لأن ذلك كسبًا كبيرًا لدعوة الإسلام، حيث تكون المصاهرة سببًا في القرب وامتصاص أسباب العداء ثم الدخول في الإسلام(١٠٣).

رابعًا: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة وغيرها:

١- بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم ،وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة، وحان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخبيب وأصحابه يوم الرجيع وأخذ ثأر الشهداء، فخرج إليهم في مائتي صحابي، في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ست من الهجرة(١٠٤).

أ- تضليل العدو:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال. وهي

(١٠٠) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧٤).
(١٠١) نفس المصدر (٤/ ١٧٥).
(١٠٢) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧٤).
(١٠٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٦).
(١٠٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية ص(٤٦٨).

مسافة بعيدة، يلاقي مشاق كبيرة كل من يريد قطعها، ولكن النبي (ﷺ) كان حريصًا على الاقتصاص لأصحابه من الذين استشهدوا (غدرًا) على يد هذه القبائل الهمجية التي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النبي (ﷺ) في تضليل العدو الذي يريد مهاجمته اتجه بجيشه نحو الشمال بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النبي (ﷺ) قبل تحركه نحو الشمال: أنه يريد الإغارة على الشام، وحتى أصحابه لم يعلموا أنه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب، بعد أن اتجه بهم متوغلاً نحو الشمال حوالي عشرين ميلاً ... في حركة تمويهية على العدو بارعة.

وكان تغيير خط سيره من الشمال إلى الجنوب عند مكان يقال له: (البتراء) ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتى استقام على الجادة مَنْصبًّا نحو الجنوب(١٠٥).

ب- فرار اللحيانيون قبل وصول النبي (ﷺ):

كانت بنو لحيان على غاية التيقظ والانتباه، فقد بثّت الأرصاد والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا لذلك، فما كاد النبي (ﷺ) يقترب بجيشه من منازلهم حتى انسحبوا منها فارين، وهربوا في رؤوس الجبال، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولما وصل النبي (ﷺ) بجيشه عسكر في ديارهم ثم بث السرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الغادرين، ويأتون إليه بمن يقدرون عليه، واستمرت السرايا النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أيّ أثر لهذه القبائل التي تمنعت في رؤوس تلك الجبال الشاهقة، وأقام (ﷺ) في ديارهم يومين لإرهابهم وتحديهم، وليظهر للأعداء مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا(١٠٦).

جـ- إرهاب المشركين بمكة:

رأى النبي (ﷺ) أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريبًا من مكة فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة، فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُسفان(١٠٧) وهناك استدعى أبا بكر الصديق، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة ليبث الذعر والفزع في نفوسهم، فاتجه الصديق بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كُراع الغميم(١٠٨)، وهو مكان قريب جدًا من مكة، فسمعت قريش بذلك فظنت أن النبي (ﷺ) ينوي غزوها فانتابها الخوف والفزع والرعب، وساد صفوفها الذعر، هذا هو الذي هدف إليه النبي (ﷺ) بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها.

---

(١٠٥) انظر: صلح الحديبية، باشميل ص(٣٤، ٣٥).

(١٠٦) نفس المصدر ص(٣٦).

(١٠٧) عسفان: قرية بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة.

(١٠٨) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد.

أما الصديق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم وعلموا أنهم قد أحدثوا الذعر والفزع في نفوس أهل مكة عادوا سالمين إلى النبي (ﷺ) فتحرك بجيشه عائدًا إلى المدينة[١٠٩].

د- الترحم على الشهداء:

عندما وصل النبي (ﷺ) إلى بطن (غران)[١١٠]، حيث لقي الشهداء من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة من هذيل، ترّحم على هؤلاء الشهداء ودعا لهم[١١١].

٢- غزوة الغابة[١١٢]:

لم تكد تمضي ليال قلائل على عودة رسول الله (ﷺ) من غزوته لبني لحيان، حتى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل لغطفان، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسول الله (ﷺ) بالغابة، وقتلوا ذر بن أبي ذر الغفاري، وأسروا زوجته ليلى، واستاقوا الإبل التي عددها عشرين ،ولما علم الرسول (ﷺ) بخبر عيينة، خرج في خمسمائة من أصحابه في إثره، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه، يحرسون المدينة[١١٣].

وعند جبل من ذي قَرد[١١٤]، أدرك رسول الله (ﷺ) العدو، فقتل بعض أفراده واستنقذ الإبل[١١٥].

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية حيث كان من ضمن الرعاة في منطقة الغابة، وظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان[١١٦].

أما المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذر الذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة، فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكنتَ من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله (ﷺ)، وقد نذرت إن نجاها الله (عز وجل)لتنحرنّ تلك الناقة، فلما أخبرت النبي (ﷺ) عن نذرها تبسم وقال: «**بئسما جزيتيها**» (أي أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر)، ثم قال لها (ﷺ) : «**لا نذر في معصية الله، ولا**

---

(١٠٩) انظر: صلح الحديبية ص(٣٧) .

(١١٠) غران بضم أوله: واد بين ساية ومكة .

(١١١) انظر: صلح الحديبية ص(٣٨) .

(١١٢) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة .

(١١٣) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس (٢/٧٢، ٧٣) .

(١١٤) ذو قَرَد: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي غطفان .

(١١٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص(٣٢٧) .

(١١٦) انظر: صلح الحديبية ص(٤٣) .

فيما لا تملكين»[١١٧].

وقد عاد رسول الله (ﷺ) إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليال خارجها[١١٨].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبية التي قادها رسول الله (ﷺ) بنفسه ضد أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وقبل غزوة خيبر[١١٩] وتتابعت سرايا رسول الله (ﷺ) بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين، فنجحت بعض هذه السرايا، وتعثر بعضها الآخر، وكان أبرزها سرية عكاشة بن محصن الأسدي التي عُرفت بسرية الغَمْر[١٢٠]، وقد بعثها رسول الله (ﷺ) في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة، إلى بني أسد، فوصلت إلى موضع يقال له الغَمر، فوجدت القوم قد هربوا وتفرقوا في الجبال القريبة فأغار عكاشة وأصحابه على نعم لهم فغنموا مائتي بعير، وعادوا إلى المدينة[١٢١].

ومن أبرزها أيضًا سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى ذي القصة[١٢٢] لإرهاب بني ثعلبة وعُوال ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة، وفي شهر ربيع الثاني سنة ست من الهجرة خرج محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين حتى وردوا عليهم ليلاً فأحدق بهم القوم وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل، ثم حملت عليهم الأعراب بالرماح فقتلوهم ووقع محمد بن مسلمة جريحًا، ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن مرّ به رجل من المسلمين، فحمله حتى ورد به المدينة[١٢٣].

وعلى الأثر بعث رسول الله (ﷺ) أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم، فلم يجدوا أحدًا، ولكنهم غنموا بعض نعمهم فساقوها وعادوا بها إلى المدينة[١٢٤].

وفي شهر جمادي الأولى من السنة نفسها، كانت سرية زيد بن حارثة الثانية إلى العيص[١٢٥] في سبعين ومائة راكب، لاعتراض قافلة لقريش كانت مقبلة من الشام، فأدركها وأخذها وما فيها وأسر بعض أفرادها، كان منهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله، وأمّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله (ﷺ)، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص[١٢٦] وفي شعبان سنة ست من الهجرة خرجت سرية بقيادة علي بن أبي

---

(١١٧) نفس المصدر ص(٤٥) .

(١١٨) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص(٣٢٧) .

(١١٩) انظر: صلح الحديبية ص٤٥ .

(١٢٠) الغمر: ماء لبني أسد على ليلتين من فيد الذي هو قلعة بطريق مكة .

(١٢١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٠) .

(١٢٢) ذو القصة، موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الربذة .

(١٢٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص(٣٢٨).

(١٢٤) الواقدي (١/ ٥٥١) .

(١٢٥) العيص: بينها وبين المدينة أربع ليال .

(١٢٦) انظر: محمد رسول الله، محمد رضا ص(٢٤٥، ٢٤٦) .

طالب لتأديب بني سعد بن بكر الذين جمعوا الناس لإمداد يهود خيبر، وقد بعثه رسول الله (ﷺ) في مائة من المسلمين، فأغار عليهم، وغنم بعض نعمهم وعاد بها إلى المدينة[١٢٧].

كانت هذه السرية تأديبًا لكل من تسول له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع. حيث علمت تلك القبائل أن عين المدينة يقظة لكل ما يدور حولها. وأن جميع التحركات كانت تحت المراقبة[١٢٨] فقد تميزت الدولة الإسلامية بدقة رصدها لأعدائها، وهكذا يكون التخطيط الحربي السليم، وذلك بقطع الطريق على تجمع الأعداد الكبيرة حتى بالإمدادات الصغيرة[١٢٩].

إن حركة السرايا والبعوث التي كان يقودها رسول الله (ﷺ) ترشد المسلمين إلى أهمية متابعة أخبار الأعداء وجمع المعلومات عليهم، فقد كانت المعلومات تتجمع عند رسول الله (ﷺ) من مصادر متعددة، سراياه الاستطلاعية، المسلمون المتخفون، المتعاطفون مع المسلمين، المعاهدون، الفراسة واستكشاف ما وراء السطور، المهم أن رسول الله (ﷺ) ما كان يفاجأ بتآمر داخلي أو تهديد خارجي ،وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضية يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضوابط الشرعية[١٣٠].

خامسًا: سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

قدم على رسول الله (ﷺ) جماعة من عُكَل[١٣١] وعرينة[١٣٢]، في شوال من العام السادس الهجري[١٣٣]، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله (ﷺ) بذود[١٣٤] وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها ويتمسحوا بأبولها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي (ﷺ) واستاقوا الذّود. فبلغ النبي (ﷺ) خبرهم فبعث الطلب في آثارهم[١٣٥]، فقبضوا عليهم فأمر بهم فسملوا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث: بلغنا أن النبي (ﷺ) بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة[١٣٦].

وقال أبو قلابة في حديثه: (هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله

---

(١٢٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص٣٣٠ .
(١٢٨) انظر: من معين السيرة ص٣٢٥ .
(١٢٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٩) .
(١٣٠) انظر: الأساس في السنّة (٢/ ٧١٢) .
(١٣١) عكل: قبيلة من تيم الرباب .
(١٣٢) عرينة: حي من بجيلة .
(١٣٣) من رواية الواقدي (٢/ ٥٦٨) معلقة، وابن سعد (٢/ ٩٣) معلقة .
(١٣٤) الذّود: الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل ما بين الثنتين إلى التسعة .
(١٣٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٧٨) .
(١٣٦) نفس المصدر ص(٤٧٨) .

ورسوله)(١٣٧).

قال الجمهور: إن الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة المائدة، آية: ٣٣)، قد نزلت في هؤلاء العرنيين(١٣٨)، وقيلت أسباب أخرى في نزولها(١٣٩).

وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فهذا الحكم باق حتى يومنا هذا، وأدل دليل على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام سواء كانت الآية نزلت في الكفار أم في المسلمين وهذه الآية نازلة في المشركين كما في البخاري، فدل ذلك على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المثلة منسوخة أو منهيًا عنها وأن النبي (ﷺ) سمل أعين العرنيين، لا يستدل به في هذه القضية لكون العرنيين سملوا أعين الرعاة فصار سمل النبي (ﷺ) لهم قصاصًا لا مثلة(١٤٠).

إن حادثة العرانيين ترتب عليها تنفيذ حكم الحرابة ونزول آيات بينات في هذا الحكم، فقد حصر المولى (عز وجل) جزاء المحاربين في أربعة أمور وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر.

ثم إنه وصف هؤلاء المحاربين بأوصاف يشمئز منها كل عاقل، ذلك أنه وصفهم بأن فعلهم حرب لله (تعالى) ولرسوله (ﷺ)، وأنهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكانها، وتقتيلهم وسلبهم ونهب ممتلكاتهم ظلمًا وجورًا لا مستند لهم ولا باعث إلا الإفساد والطغيان، فكانت رحمة الله (تعالى) الرحيم بهم وبغيرهم من خلقه مقتضية الحكم عليهم بواحد من أمور أربعة وهي: القتل، والصلب، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والإبعاد من مخالطة العامة، وعزلهم عنها بالنفي والتغريب حتى لا تتكرر منهم تلك الجرائم الشنيعة وحتى يرتدع غيرهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع، ولكي يطهرهم ما يوقع بهم من عقاب، من الذنوب والآثام إن هم تابوا ورجعوا إلى رشدهم وصوابهم.

ثم إن هؤلاء لهم ذلة ومهانة في الحياة الدنيا لأذيتهم المسلمين وقد علل (تعالى) لحوق تلك الرذيلة بهم مدة الحياة الدنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقية معهم إلى يوم القيامة، لكون الرب (جل وعلا) أعد لهؤلاء في الآخرة عذابًا عظيمًا.

ثم استثنى (جل وعلا) من هؤلاء من أناب إليه ورجع في أسلوب حكيم مؤثر داع إلى رجوعهم وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم (تعالى) إذا ما رجعوا وجاؤوا

(١٣٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية ص٤٧٨.
(١٣٨) انظر: سبل الهدى والرشاد للشامي (٦/ ١٨١- ١٩٠) فيها تفصيل.
(١٣٩) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢٤٢- ٢٤٤).
(١٤٠) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة، د. عبد الله الشنقيطي ص٢٩٧،٢٩٨.

تائبين قبل القدرة عليهم، لكون تلك التوبة مظنة لصدقهم في توبتهم ورجوعهم عن غيهم، لأنهم رجعوا قبل القدرة عليهم، وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم أنهم إن قدر عليهم قبل التوبة لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم، وهذا نوع من العلاج في غاية الدقة والإنصاف، وفيه من الحفز على التقليل من هذه الجريمة وتركها ما لا يخفى على ذي عقل لبيب. وكذلك الشأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجية، كلها توافق الذوق السليم والعقل الراجح المتزن المتمتع بصفاء الفطرة السليمة.

ثم ختم (تعالى) الآيتين الكريمتين بأنه غفور رحيم لمن تاب منهم وأصلح، فلا يقنط أحد من رحمته الواسعة، ولا يحول بين العبد ورحمة ربه، ومغفرته، عظيم ذنبه، وجسيم خطئه، ما لم يقارف شركا، وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنية الحرابة في المجتمع الإسلامي علاجًا لا مزيد عليه **وذلك واضح مما يلي:**

١- وصف المحارب بأنه محارب لله (تعالى) ولرسوله (ﷺ).

٢- عظم الجزاء المرتب على الحرابة أيا كان هو.

٣- مكانته الدنيئة في الدنيا والآخرة إن لم يتب.

٤- يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشنعاء بفتحه باب التوبة لمتعاطيها على مصراعيه حتى لا يكون سده في وجهه حافزًا له على التمادي في جرمه والاستمرار في عتوه[١٤١].

قال (تعالى): ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة المائدة، آية: ٣٣-٣٤).

وهكذا كانت حركة بناء المجتمع وإقامة الدولة متشابكة في قضاياها العسكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية.

---

(١٤١) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة ص(٣١٣- ٣١٥).



المبحث الثالث

تصفية المحرضين على الدولة

أولاً: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق:

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق من يهود بني النضير كثير التحريض على الدولة الإسلامية حتى إنه جعل لغطفان ومن حوله من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسول الله (ﷺ)، وشاع أمر أبي رافع وانتشر وكان ممن ألب الأحزاب على رسول الله (ﷺ) وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار التي يجب أن يوضع لها الحد[١٤٢].

١- توجه السرية إلى خيبر ودخولها:

فبعث رسول الله (ﷺ) إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار فأمر عليهم عبدالله بن عتيك . . . وكان أبو رافع في حصن له فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علّق الأغاليق على وتد قال ابن عتيك: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب[١٤٣].

٢- تنفيذ العقوبة بحق أبي رافع:

ولما دخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريته إلى داخل الحصن وأخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهودي الخبيث أبي رافع.

وقد جاء في البخاري: أن عبد الله بن عتيك أدرك نفرًا من أصحاب أبي رافع يسمرون عنده، وكان في علالي له فكمن حتى ذهب عنه أهل سمره ثم صعد إليه، وكلما دخل بابا أغلقه عليه، من الداخل حتى لا يحول أحد بينه وبين تنفيذ العقوبة بحق أبي رافع، فانتهى إلى أبي رافع فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لايدري أين هو من البيت، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع.

قال: من هذا؟

قال: ابن عتيك، فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ما أغنيت شيئًا.

وصاح، فخرجت من البيت، فمكثت غير بعيد ثم دخلت إليه.

---

(١٤٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي ص٢١٢ .

(١٤٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤٦٥ .

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

قال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف.

قلت: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبي (ﷺ) فقال: «**ابسط رجلك**»، فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط(١٤٤) وفي رواية أخرى للبخاري: قال عبد الله بن عتيك قلت: يا أبا رافع قال: من هذا؟

قال فعمدت نحو الصوت فأضربه وصاح فلم تغن شيئًا، ثم جئت كأني أغيثه.

فقلت: مالك يا أبا رافع وغيرت صوتي؟

فقال: ألا أعجبك لأمك الويل دخل علي رجل فضربني بالسيف قال: فعمدت له أيضًا فأضربه أخرى فلم تغن شيئًا، فصاح وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث فإذا هو مستلق على ظهره فأضع بالسيف في بطنه ثم انكفئ عليه حتى سمعت صوت العظم...(١٤٥).

وقد ذكرت كتب السيرة أن امرأة أبي رافع حينما ضرب بالسيف صاحت فأراد قتلها ثم كف عن ذلك لأن رسول الله (ﷺ) قد نهاهم عن قتل النساء والصبيان(١٤٦) وأن ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود وأنه استخدمها مع زوجة أبي رافع اليهودي وأهل بيته.

ويذكر كتاب السيرة أن سرية ابن عتيك كلها شاركت في ضرب أبي رافع وأن كل واحد منهم ادعى أن ضربته كانت هي القاضية على أبي رافع، فقال رسول الله (ﷺ): «**عجلوا بأسيافكم**» فأتوا بأسيافهم فنظروا إليها، ثم قال: «**هذا قتله**»، وهو سيف عبد الله بن أنيس، هذا أثر الطعام في سيف عبد الله بن أنيس(١٤٧) وقد يتوهم القارئ الكريم أن هناك تناقضًا بين رواية البخاري ورواية كتب السيرة الأخرى التي تقول: الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أنيس والحق أنه ليس كذلك، ذلك لأن عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنه غلب على ظنه أنه هو القاتل وأنه قد حكى عن دوره في ضرب اليهودي أبي رافع، ولا يعني هذا

(١٤٤) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع (٥/ ٣٣) رقم (٤٠٣٩).

(١٤٥) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع (٥/ ٣٤) رقم (٤٠٤٠).

(١٤٦) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ١٦٨).

(١٤٧) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٩١، ٩٢)؛ المغازي للواقدي (١/ ٢٩٤) المغازي النبوية للزهري ص(١١٤).

أن غيره لم يشارك في قتله، إذ لم ينف هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع، والروايات يفسر بعضها بعضًا ويشرح بعضها بعضًا والروايات تذكر أن كل واحد من أفراد السرية كان يدعى أن ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافع، وقد نظر رسول الله (ﷺ) في دعواهم وفحص سيوفهم وحكم بعد ذلك بأن الضربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أنيس رضي الله عنه لظهور أثر الطعام عليه، أي أن هذا السيف قد دخل جوف أبي رافع ومزق أحشاءه وقطع أمعاءه وخلط غذاءه في جوفه[١٤٨].

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سرية عبد الله بن عتيك وهم: مسعود بن سنان، عبد الله بن أنيس، الحارث بن ربعي أبو قتادة، خزاعي بن أسود[١٤٩].

وفي هذه السرية دروس وعبر كثيرة منها:

١- إن كل أعضاء هذه السرية كانوا من الخزرج فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف ،فقد كانوا كفرسي رهان في المسابقة في الخيرات، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي (ﷺ) التي مآلها رضوان الله (تعالى) والسعادة الأخروية[١٥٠].

قال كعب بن مالك: وكان مما صنع الله (تعالى) به لرسوله (ﷺ) أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله (ﷺ) تصاول الفحلين- يعني يتسابقان في خدمته- لا يصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله (ﷺ) غناء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله (ﷺ) وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك[١٥١].

٢- فائدة لغة العدو: فقد استطاع عبد الله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع وأن يخاطب امرأته وأن يدخل بيته مطمئنًا لأنه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلم لغة غير المسلمين لا سيما الأعداء منهم وخاصة لأولئك العسكريين الذين يذهبون لمهمات استطلاعية تجمع أخبار العدو وتزود القيادة بها، والقيادة ترسم[١٥٢].

٣- عناصر نجاح خطة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهودي: ذهابه لوحده، فقد قرر أن يذهب وحيدًا إلى الحصن ويحاول أن يدخله ومن ثم يفتش عن طريقة يدخل بها أفراد سريته، تصرفه العادي الذي لم يلفت انتباه أحد من الحراس، قدرته على التمويه على الحارس، وإيهامه أنه يقضي حاجته وهذا منع الحارس من النظر إليه وتفحصه وتفرسه في وجهه، مراقبة حركة الحارس الدقيقة بعد دخول الحصن وإغلاقه فقد كمن في مكان لم يشعر

---

(١٤٨) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٨٩).
(١٤٩) انظر: صلح الحديبية، باشميل ص(٩١).
(١٥٠) انظر: التاريخ الإسلامي (٦/ ١٧٧).
(١٥١) انظر: السيرة لابن هشام (٦/ ١٧٧).
(١٥٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٩١).

به الحارس وراقب الحارس حتى وضع مفتاح الحصن في مكان معين وتابعه حتى انصرف، وأخذ المفتاح وأصبح يستخدمه كيفما يشاء وفي أي وقت شاء[١٥٣].

٤- عناية الله (عز وجل) بأوليائه المؤمنين، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله (تعالى) يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أصيبت رجله، وكأنه لا يشكو من علة حتى إذا انتهت مهمته تمامًا وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلما حدّث النبي (ﷺ) خبره قال له: «**ابسط رجلك**»، قال: فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم اشتكها قط[١٥٤].

٥- فوائد من القصة استخرجها ابن حجر حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر، وقتل من أعان على رسول الله (ﷺ) بيده أو ماله أو لسانه، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين، وجواز إيهام القوم للمصلحة، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته والله أعلم[١٥٥].

٦- وجود عبد الله بن أنيس جنديا في هذه السرية، وليس أميرًا فيها له دلالته الكبرى في عملية التربية والتعليم، فهو العقبي البدري، المصلي للقبلتين فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبد الله بن أنيس نكرة في مجال الجهاد والبطولات، فلا بد أن نذكر أنه السرية وحده الذي ابتعثه رسول الله إلى اغتيال سفيان بن خالد الهذلي في أطراف مكة، وهو الذي كان يعد العدة لغزو المدينة وهو الذي نجح نجاحًا باهرًا في مهمته تلك، وقتله في فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هربًا، وعاد منتصرًا مظفرًا، فهو مليء بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ المشرق في سجلاته عند ربه (عز وجل) قبل أن يكون عند الناس.

وهو درس تربوي خالد قد استوعبه أصحاب النبي (ﷺ) وهذا النوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض، فالذي يحكم في الجيوش تسلسل الرتب، حتى أن الرتبة الواحدة يحكم فيها المتقدم بالمستجد، وعلى المستجد السمع والطاعة للمتقدم ولو بأشهر. وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدم على عبد الله بن أنيس أحد، ولكنها التربية النبوية العظيمة التي خطها النبي (ﷺ) في أكثر من موقع، لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه ويتدرب على يديه، فطالما أرسل عليه الصلاة والسلام - سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديان عاديان، في غمار الجنود[١٥٦].

---

(١٥٣) نفس المصدر (١/ ١٩٢، ١٩٣).
(١٥٤) البخاري، المغازي رقم ٤٠٣٩ .
(١٥٥) فتح الباري (٧/ ٣٤٥).
(١٥٦) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٤٨).

ثانيًا: سرية عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رزام اليهودي:

بلغ رسول الله (ﷺ) أن اليسير بن رزام أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحقيق، أخذ في جمع يهود الشمال وتحريضهم على رسول الله (ﷺ)، ولم يكتف بذلك، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان وجمعها لقتال رسول الله (ﷺ)، وحين علم رسول الله (ﷺ) ما يبيته اليهود له من الخديعة والمكر، رأى (ﷺ) أن يتأكد من ذلك قبل أن يقدم على أمر ما، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفر من المسلمين، روادًا يكتشفون ما تخبئه يهود ومن لف لفها من مشركي العرب(١٥٧).

وقد تأكدت المخابرات النبوية من أمر اليُسير بن رزَام وكان هذا كافيًا لقيام النبي (ﷺ) ببعث سرية في ثلاثين راكبًا عليهم عبد الله بن رواحَة، وفيهم عبد الله بن أنيس، فأتوه فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله (ﷺ) ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجلٍ منهم رديف من المسلمين، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره، حتى إذا كانوا بَقَرْقَرة ثيار على ستة أميال من خيبر، ندم اليُسير على مسيره إلى رسول الله (ﷺ)، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أنيس، ففطن له، فاقتحم به، ثم ضربه بالسيف، فقطع رجله وضربه اليسير بمخْرَش(١٥٨) في يده من شواحط(١٥٩)، فضرب به وجه عبد الله فأمه(١٦٠)، ومال كل رجلٍ من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلا رجلاً واحدًا أفلت على رجليه، فلما قدم ابن أنيس على رسول الله (ﷺ) تفل على شجه، فلم تقح ولم تؤذه(١٦١).

وكانت هذه السرية في شوال سنة ست من الهجرة(١٦٢).

وفي هذه السرية دروس وعبر منها:

١- كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أن الحقد اليهودي الذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين، هو الذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطة كلها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين فوقعت الدائرة عليهم.

٢- إن البأس في الحرب ما لم تكن غليظة وشديدة، فلن تحسم المواجهة مع العدو، وستجعل الحرب تفني كل شيء وتأكل كل شيء، فلا بد من بث الرهبة والرعب في قلب العدو، ولا بد من الشدة معه حين لا يجدي الحوار أو المناقشة، ولا بد من الغلظة التي

---

(١٥٧) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(١٥٨) المخرش: شبه المقرعة يضرب بها، وهي معوجة الرأس.

(١٥٩) الشواحط: شجر ابن النبع، من أشجار الجبال التي يتخذ منها القسي والسهام.

(١٦٠) فأمه: أي جرحه في رأسه، والشجة المأمومة هي التي تبلغ أم الرأس.

(١٦١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٧٧).

(١٦٢) نفس المصدر ص(٤٧٧).

تشعر العدو أن من يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

٣- شهد العام السادس من الهجرة تصعيدًا عنيفًا في عمليات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعًا أو تحطم عدوًا أو تغتال طاغوتًا، فقد كان شعار المرحلة: الآن نغزوهم ولا يغزونا، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعًا والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية، والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم، وكيف يتقدمون ليتصدروا مرحلة جديدة تبدأ معالمها وملامحها مع صلح الحديبية[١٦٣].

●●●

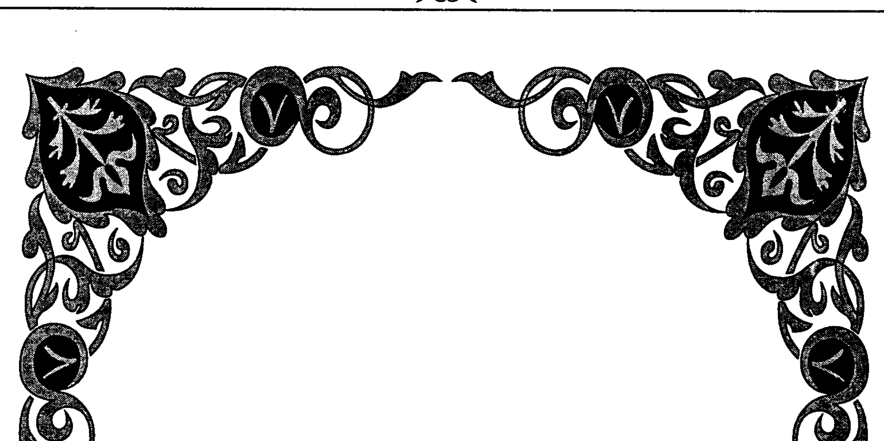
(١٦٣) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٨٩ - ١٩٢).



الفصل الثالث عشر

الفتح المبين (صلح الحديبية)





المبحث الأول

تاريخ وأسباب ومخرج رسول الله إلى مكة

أولاً: تاريخه وأسبابه:

في يوم الإثنين الأول من ذي القعدة سنة ٦هـ[١]، خرج الرسول (ﷺ) من المدينة متوجهًا بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة[٢]. وسبب هذه الغزوة أن رسول الله (ﷺ) رأى رؤيا في منامه -وهو في المدينة- وتتلخص هذه الرؤيا أن النبي (ﷺ) رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرمًا مؤديًا للعمرة، وقد ساق الهدي معظمًا للبيت مقدسًا له، فبشر النبي (ﷺ) أصحابه ففرحوا بها[٣] فرحًا عظيمًا فقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي رضعوا بلبان حبها ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطًا بها وشوقًا إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليه تطلعًا شديدًا، وكان المهاجرون أشدهم حنينًا إلى مكة، فقد ولدوا ونشؤوا فيها وأحبوها حبًا شديدًا، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله (ﷺ) بذلك، تهيؤوا لتلك الزيارة العظيمة[٤]، واستنفر (ﷺ) أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، لأنه كان يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكري الذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة وخيبر في شمالها وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها، فقد حان الوقت لكسر ذلك التحالف سياسيًا، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكًا لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها من تشاء، وتجيز من تشاء، فإذن من حق محمد وأصحابه زيارة الكعبة[٥].

وانتشر خبر خروج رسول الله (ﷺ) بين قبائل العرب، وكان انتشار الخبر له أثر في الرأي العام ،وخصوصًا بعدما أكد رسول الله (ﷺ) بأنه لا يريد حربًا وإنما يريد أن يعتمر ويعظم شعائر الله، وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى، وقد كان هدف النبي (ﷺ) معلنًا ألا وهو زيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة، فتجرد هو وأصحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلد الهدي وأشعره[٦].

وقد كان (ﷺ) على جانب كبير من الحيطة والحذر، فقد أرسل بشرًا بن سفيان الخزاعي عينًا له[٧]، وقدّم بين يديه طليعة استكشافية مكوّنة من عشرين رجلاً وفي ذلك يقول الواقدي: (دعا رسول الله (ﷺ) عبّاد بن بشر فقدّمه أمامه طليعة في خيل المسلمين عشرين

---

(١) أجمع أهل العلم على تاريخها بدون خلاف . انظر: المجموع للنووي (٧/ ٧٨) .
(٢) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٣٤) .
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٥) .
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٢٧٣) .
(٥) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص(٢١٣، ٢١٤) .
(٦) أشعره: إشعار البدن أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها . مرويات الحديبية ص(٥٥) .
(٧) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي ص(٥٨، ٥٩).

فارسًا وكان فيها رجال من المهاجرين والأنصار)[٨] وكان هدفه (ﷺ) من ذلك الاستعداد للطوارئ التي يمكن أن يفاجأ بها - وأيضًا- فقد كانت مهمة هذه الطليعة استكشاف خبر العدو[٩].

وأخذ (ﷺ) بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له: يا رسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟ فبعث النبي (ﷺ) إلى المدينة من يحمل له الكراع والسلاح[١٠] وكان قصده (ﷺ) من ذلك: الاستعداد لهؤلاء الأعداء، الذين يملكون السلاح والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين والنيل منهم[١١]، وهذا التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الذي جعله لأمته لتقتدي به من بعده (ﷺ) لما في ذلك من المصالح الكثيرة، ولما فيه من درء مكايد الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر[١٢].

ثانيًا: وصول النبي (ﷺ) بعسفان:

لما وصل رسول الله (ﷺ) بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ومعها العوذ المطافيل[١٣]، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، فقال رسول الله (ﷺ): «**يا ويح[١٤] قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون[١٥]، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له أو تنفرد هذه السالفة**»[١٦].

وقد استشار (ﷺ) أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصده عن دخول البيت الحرام، وعرض (ﷺ) على الصحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم والتصميم:

١- الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدهم عن البيت.

٢- قصد البيت الحرام فمن صدّه عنه قاتله حتى يتمكن من تحقيق هدفه[١٧]، ولما عرض

---

(٨) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٩٧٤).
(٩) انظر: صلح الحديبية، محمد باشميل ص(٣٠٩).
(١٠) تاريخ الطبري (٢/ ٦٢٢).
(١١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ص(٤٨٩).
(١٢) نفس المصدر ص(٤٨٩).
(١٣) المراد: خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم وهو على الاستعارة.
(١٤) يا ويح: كلمة ترحم وتوجع. انظر: لسان العرب (٣/ ٩٩٦).
(١٥) وافرون: جمع وافر وهوالذي لم ينقص منه شيء. لسان العرب (٣/ ٩٥٨).
(١٦) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ((٣/ ٢٣٧) رقم (٢٧٣٢).
(١٧) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ﷺ) ص(٤٨٩).

(ﷺ) المشورة في هذا الأمر على الصحابة تقدم أبو بكر الصديق برأيه الذي تدعمه الحجة الواضحة، حيث أشار على رسول الله (ﷺ) بترك قتالهم والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة حتى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن النبي (ﷺ) هذا الرأي وأخذ به وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل[18]، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلى النبي (ﷺ) بأصحابه صلاة الخوف بعسفان.

ثالثًا: الرسول (ﷺ) يغير الطريق وينزل بالحديبية:

ولما بلغ رسول الله (ﷺ) أن قريشًا قد خرجت تعترض طريقه، وتنصب كمينًا له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المصادمة، رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامي تفاديًا للصدام مع المشركين. فقال: «**من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟**» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي. وعند ذلك قال رسول الله (ﷺ) للناس: «**قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه**»، فقالوا ذلك.

فقال: «**والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها**»[19].

فأمر رسول الله (ﷺ) الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش في طريق تخرجه إلى ثنية المرار، فهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفية ودون أن يشعر به أحد، فما نظر خالد إلا وقترة جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعًا هو ومن معه إلى مكة يحذر أهلها ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ[20] وقد أصاب الذعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر وأصبحت مهددة من المسلمين تهديدًا مباشرًا[21].

يقول اللواء محمود شيت في هذا الدرس الرائع:

لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفًا من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته[22] الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يُطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية[23].

وقد جاء في كتاب اقتباس النظام العسكري في عهد الرسول (ﷺ)، ما يُبين الحكمة من تغيير الطرق ما نصه: ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية

---

(١٨) انظر: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية للشيخ عدنان النحوي ص(١٦٠).
(١٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٣٨).
(٢٠) غزوة الحديبية لأبي فارس ص(٣٩).
(٢١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص(٣٧٤).
(٢٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص(٣٧٤).
(٢٣) انظر: الرسول القائد، شيت خطاب ص(١٨٦- ١٨٧).

البصيرة، تسلك في سيرها بالجيش بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعًا تحت تصرفات العدو وهجماته[٢٤].

رابعًا: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل:

وعندما اقترب الرسول (ﷺ) من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رضي الله عنهم: خلأت القصواء[٢٥]، فقال النبي (ﷺ): **«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»** ثم قال: **«والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»**[٢٦]، ثم زجرها فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد - بئر- قليل الماء، ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله (ﷺ) العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش لهم بالري فارتووا جميعًا[٢٧]، وفي رواية أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر[٢٨] ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معًا وقعا، كما ذكر ابن حجر[٢٩] ويؤيده ما ذكره الواقدي[٣٠] وعروة[٣١] من أن الرسول (ﷺ) تمضمض في دلو وصبه في البئر ونزع سهمًا من كنانته فألقاه فيها ودعا ففارت[٣٢].

وفي بروك ناقة رسول الله (ﷺ) وقسمه بعد ذلك، دروس وعبر منها:

١- كل شيء في هذا الكون يسير بأمر الله ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته وإرادته، فتأمل في ناقة رسول الله (ﷺ) أين بركت، وكيف كره الصحابة بروكها وحاولوا إنهاضها لتستمر في سيرها، فيستمروا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النتائج، ولكن الله (سبحانه وتعالى) أراد غير ذلك[٣٣].

٢- وقد استنبط ابن حجر العسقلاني رحمه الله فائدة جليلة من قوله (ﷺ): **«حبسها حابس الفيل»**[٣٤]، فقال: وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة، وإن اختلفت الجهة الخاصة، لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض، وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقًا، أما من أهل الباطل

(٢٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص(٣٧٤) نقلاً عن اقتباس النظم العسكرية ص(٢٥٨).
(٢٥) بركت وحرنت من غير علة ظاهرة، فلم تبرح مكانها.
(٢٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٨٤).
(٢٧) نفس المصدر ص(٤٨٤).
(٢٨) الفتح (١٤/ ٧٥٨) رقم (٣٥٧٧).
(٢٩) الفتح (١١/ ١٦٤) رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٣٠) المغازي (٢/ ٥٨٨).
(٣١) من رواية أبي الأسود عنه كما ذكر ابن حجر في الفتح (١١/ ١٦٤).
(٣٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٨٤).
(٣٣) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٤٣).
(٣٤) انظر: ابن حجر فتح الباري (٦/ ٢٦٠).

فواضح، وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره[٣٥].

٣- ومن الفوائد: أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حرمة من حرمات الله (تعالى)، أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله (تعالى)، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله (تعالى) مرض له، أجيب إلى ذلك كائنًا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضيع وأصعبها، وأشقها على النفوس[٣٦].

٤- إن الله (سبحانه وتعالى)، جلت قدرته، وعزت عظمته قضى ألا يكون قتال بين المسلمين والمشركين من أهل مكة في هذه الغزوة بالذات لحكم ظهرت فيما **بعد منها:**

أ- دخول المسلمين بالقوة يعني أن تحدث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتسفك دماء غزيرة من الطرفين، وهذا أمر لم يرده البارئ سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين المؤمنين والمشركين.

ب- إن من المحتمل أن ينال الأذى والقتل والتشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكة، وهذا فيه ما فيه من المعرة التي لا يليق بمسلم أن يقع فيها، قال سبحانه: **﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** (سورة الفتح، آية: ٢٥).

جـ- لقد سبق في علم الله (عز وجل) أن هؤلاء الذين يقفون اليوم صادين رسول الله (ﷺ) وأصحابه رضوان الله عليهم عن المسجد الحرام، هم الذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام، ويستفتح الله على أيديهم بلادًا كثيرة، حين يحملون هذه الرسالة للناس، وينيرون ظلمة الطريق للمدلجين[٣٧].

خامسًا: السفارة بين الرسول (ﷺ) وقريش:

بذل رسول الله (ﷺ) ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حربًا معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا ألجئوا إليه، وطمعًا في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة[٣٨].

---

(٣٥) نفس المصدر (٦/ ٦١).

(٣٦) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٤٧).

(٣٧) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٤٥).

(٣٨) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٨٥).

١- ركب من خزاعة بقيادة بُدَيْل بن ورقاء:

جاء بُديل بن وَرْقَاء في رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عَـيْبة[٣٩] نصح رسول الله (ﷺ) من أهل تهامة، وبينوا أن قريشًا تعتزم صد المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرسول (ﷺ) سبب مجيئة وذكر لهم الضرر الذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنة إلى وقت معلوم حتى يتضح لهم الأمر، وإن أبوا فلا مناص من الحرب ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش[٤٠]، وقالوا لهم: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرًا هذا البيت، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا ولا تتحدث بذلك العرب[٤١] وقد ظهرت براعة النبي (ﷺ) السياسية في عرضه على مشركي مكة الهدنة والصلح لأن **في ذلك فوائد كثيرة منها:**

أ- فالهدنة يضمن حياد قريش ويعزلها عن أي صراع يحدث في الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى أم مع اليهود ،ذلك العدو اللئيم الغادر الذي يتربص بالمسلمين الدوائر.

ب- حرص الرسول (ﷺ) على أن يبقى باب الاتصال مفتوحًا بينه وبين قريش، ليسمع منهم ويسمعوا منه بواسطة الرسل، والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

جـ- حرص (ﷺ) على أن تدرك خزاعة بقيادة بديل والركب الذي معه أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبني هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي ولم يلغ وتأكد في صلح الحديبية.

د- إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول (ﷺ) وأنه جاء معظمًا للبيت والمشركون يردونه، وهو يصر على تعظيمه، سيقف هؤلاء بجانبه ويتعاطفون معه فيقوي مركزه، ويضعف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس.

هـ- إن مشركي مكة لم يطمئنوا إلى كلام بديل الذي نقله إليهم، ذلك لأنهم يعلمون أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله (ﷺ) ويشعرون بود خزاعة للرسول والمسلمين[٤٢].

و- ويؤخذ من جواب رسول الله (ﷺ) لبديل بن ورقاء حسن التلطف في الوصول إلى الطاعات وإن كانت غير واجبة، ما لم يكن ذلك ممنوعًا شرعًا، لأن النبي (ﷺ) أجاب المشركين لما طلبوا منه، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض لهم والكراهية فيهم لطفًا منه عليه السلام فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التي خرج إليها[٤٣].

---

(٣٩) أي خاصته وأصحاب سره.

(٤٠) البخاري، كتاب الشروط رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

(٤١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٠).

(٤٢) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٦٧). (٤٣) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٦٨).

٢- سفارة عروة بن مسعود الثقفي:

لم تقبل قريش ما نقله بديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله (ﷺ) أنه جاء زائرًا للبيت ولم يأت مقاتلاً، واتهمتهم، بل وأسمعتهم ما يكرهون فاقترح عليهم عروة ابن مسعود الثقفي أن يقابل الرسول (ﷺ) ويسمع منه، ثم يأتيهم بالخبر اليقين[٤٤] وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه فقال: . . . فقام عروة بن مسعود فقال: أيْ قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ[٤٥]، فلما بلحوا[٤٦] عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ هذا عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي (ﷺ)، فقال النبي (ﷺ) نحوًا من قوله لبديل[٤٧]، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنني والله لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشوابًا[٤٨] من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك. فقال أبو بكر: امصص بظر[٤٩] اللات، أنحن نفرّ عنه وندعه؟[٥٠] فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشن على المسلمين حربًا نفسية حتى يهزمهم معنويًا، فاستخدم عنصر الإشاعة ويظهر ذلك عندما لوح بقوة قريش العسكرية، معتمدًا على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة، وذلك بأن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين ،وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبي (ﷺ) :أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك ،حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية، وحاول - أيضًا- أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي (ﷺ) وجنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتحطيم عزائمهم. وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرعب وذلك بتخويف المسلمين من قوة قريش التي لا تقهر، وتصوير المعركة بأنها في غير صالحهم. لقد مارس عروة بن مسعود في مفاوضاته عناصر الحرب النفسية من إشاعة وافتعال الأزمات وإثارة الرعب[٥١] إلا أن تلك العناصر تحطمت أمام

(٤٤) نفس المصدر ص(٦٨) .
(٤٥) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطائف يعقد كل عام .
(٤٦) بلحوا عليّ: أبَوا، كأنهم أعيوا عن الخروج معه وإعانته .
(٤٧) البخاري، كتاب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٦) رقم (٢٧٣٢) .
(٤٨) أشوابا: أي أخلاطًا من قبائل شتى .
(٤٩) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها .
(٥٠) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٧) رقم (٢٧٣٢) .
(٥١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، سليم حجازي ص(١٣١، ١٣٢) .

الإيمان العميق والتكوين الدقيق والصف الإسلامي المرصوص، ومن المفارقات الرائعة التي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود وهي من عجائب الأحداث التي يستشف منها الدليل القاطع على قوة الإيمان التي كانت يتمتع بها أصحاب النبي (ﷺ)، وعلى قدرة هذا الدين من تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبي (ﷺ) أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية هو المغيرة ابن شعبة[٥٢]، ابن أخ عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابًا فاتكًا سكيرًا، قاطعًا للطريق، غير أن دخوله للإسلام حوله إلى إنسان آخر وقد أصبح بفضل الله (تعالى) من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النبي (ﷺ) في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذي يراه ندًا له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله (ﷺ) أثناء المناقشة، الأمر الذي أغضب المغيرة بن شعبة الذي كان قائمًا على رأس رسول الله (ﷺ) بالسيف يحرسه وعلى وجهه المغفر، فانتهر عمه وقرع يده بقائم السيف قائلاً له: اكفف يدك عن مس لحية رسول الله (ﷺ) قبل ألا تصل إليك. وكان النبي (ﷺ) يبتسم للذي يجري بيّن عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربي متوشحًا بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبي (ﷺ) وهو في أشد الغضب: ليت شعري من أنت يا محمد من هذا الذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله (ﷺ): **«هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»**، فقال له عمه: وأنت بذلك يا غدر؟ لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدهر، والله ماغسلت غدرتك إلا بالأمس كان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي (ﷺ): **«يأما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء»**[٥٣].

لقد فشل عروة في مفاوضاته ورجع محذرًا قريش من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي (ﷺ) وأصحابه وقال لهم: ... يا قوم، إني قد وفدت على الملوك على كسرى، وهرقل، والنجاشي وإني والله ما رأيت ملكًا قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد وأصحابه، والله ما يشدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل، وما يتنخم وما يبصق إلاّ وقعت في يدي رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيهُم يظفر منه بشيء. وقد حزرت القوم، واعلموا أنكم إن أردتم السيف، بذلوه لكم، وقد رأيت قومًا ما يبالون ما يُصنعُ بهم، إذا منعوا صاحبهم، والله لقد رأيت نسياتُ معه، إن كنّ ليسلمنه أبدًا على حال، قرّوا رأيكم، وإياكم وإضجاع[٥٤] الرأي فمادوه يا قوم. اقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تُنْصَروا عليه، رجل أتى

(٥٢) أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وشهد بيعة الرضوان، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد ابن أبي وقاص إلى رستم. الإصابة (٣/ ٤٥٢).

(٥٣) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٣٨) رقم ٢٧٣٢.

(٥٤) إضجاع الرأي: أي الوهن في الرأي.

هذا البيت معظمًا له، معه الهدي، ينحره وينصرف! فقالت قريش: لا تكلم بهذا يا أبا يعفور[٥٥]، لو غيرك تكلم بهذا للمناه ولكن نُرَدهُ عن البيت في عامنا هذا ويرجع قابل[٥٦].

لقد انتقلت الحرب النفسية وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريش وفي نفوسهم، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقًا حيث بين لقريش وضع المسلمين في الحديبية، من طاعتهم لنبيهم الكريم، وحبهم له، وتفانيهم بالدفاع عنه، وبما يتمتعون به من معنويات عالية جدًا، واستعداد عسكري ونفسي يفوق الوصف، فكان ذلك بمثابة التحذير الفعلي لقريش بعدم التعجُّل والدخول في حرب مع النبي (ﷺ) وأصحابه، مما قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين، الأمر الذي أسقط في أيدي زعمائها، ولم تكن قريش تتوقعه أبدًا في تقويمها للأمور. لقد كان وقع كل كلمة قالها سيد ثقيف كالصاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان (ﷺ) موفقًا من قبل الله (تعالى)، ولذلك نجد أثره على عروة ابن مسعود مما جعل الانشقاق يدب في معسكر قريش وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوة الحق الصامدة، وكذلك فقد انهارت حُجة قريش في جمعها للعرب ضد النبي (ﷺ).

لقد نجح النبي (ﷺ) بحكمته وذكائه نجاحًا عظيمًا، باستخدام الأساليب الإعلامية والدبلوماسية المتعددة للحصول على الغاية المنشودة، وهي تفتيت جبهة قريش الداخلية، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم، وإبعاد حلفائهم عنهم وإن هذه النتيجة لتعد بحق نصرًا ساحقًا حققه رسول الله (ﷺ) على الجبهات السياسية والإعلامية والعسكرية[٥٧].

٣- سفارة الحليس بن علقمة:

ثم بعثوا الحُليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله (ﷺ) قال: «**إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه**»[٥٨]، وأمر برفع الصوت في التلبية، فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله (ﷺ)، وذلك إعظامًا لما رأى[٥٩]، فقد كان الوادي مجدبًا لا ماء فيه ولا مرعى وقد أكل الهدي أو باره من طول الحبس عن محله، ورأى المسلمين وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتلبية وهم في زي الإحرام، وقد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم ... ولذلك استنكر تصرف قريش بشدة، وانصرف سيد بني كنانة عائدًا من حيث أتى دون أن يفاتح النبي (ﷺ) بشيء أو أن يفاوضه كما كان مقررًا من قبل، واعتبر عمل قريش عدوانيًا ضد زوار بيت الله الحرام ولا يجوز لأحد أن يؤيدها أو أن يناصرها على ذلك[٦٠]، فرجع محتجًا على قريش التي أعلنت غضبها لصراحة الحليس وحاولت أن تتلافى هذا

(٥٥) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثقفي.
(٥٦) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٩٨).
(٥٧) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ص(١٤٥).
(٥٨) البخاري، كتاب الشروط رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٥٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٨٨).
(٦٠) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ص(١٠٨).

الموقف الذي يهدد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به(٦١).

لقد كان النبي (ﷺ) عالمًا ومستوعبًا لشخصية الحليس ونفسيته، ويظهر ذلك في قوله (ﷺ): **«هذا من قوم يتألهون»**(٦٢) . . . فالواضح من هذه المعلومة أن النبي (ﷺ) كان على معرفة تامة بهذا الرجل، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة موضوعية، وذلك بما كان عنده من حب شديد من التعظيم للحرمات والمقدسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعركة، وعلى هذا الأساس فقد قام (ﷺ) بوضع خطة محكمة مناسبة تقضي بوضع الحقائق كاملة أمام هذا الرجل وإظهار موقف المسلمين ،أو على الأقل وقوفه على الحياد في هذا الصراع.

والجدير بالذكر أن الحُليس كان يتمتع بسمعة طيبة بين العرب جميعًا وذلك لما يتميز به من رجاحة العقل، ولما يتمتع به من مركز ممتاز بوصفه زعيمًا وقائدًا لقوات الأحابيش، كما كان يتمتع باحترام وتقدير من جانب النبي (ﷺ) وقريش على حد سواء، لهذا فإنه إذا ما تبين له أن الحق والعدل في جانب المسلمين فإنه يستطيع أن يقوم بدور هام في إحلال السلام بين الطرفين المتنازعين والعمل على كبح جماح قريش، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائي ضد المسلمين وصدهم عن المسجد الحرام.

ومن هنا فقد كانت الدراسة النفسية التي قام بها رسول الله (ﷺ) لشخصية الحُليس تتناسب كليًا مع المبادئ التي تؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العملية إيجابية تمامًا(٦٣) ومرضية ،وهكذا استطاع (ﷺ) أن يؤثر على عروة بن مسعود والحليس بن علقمة مما جعل الانشقاق يدب في صفوف مشركي مكة.

يقول الأستاذ العقاد عن قدرة الرسول في توظيف الطاقات وإدارة الصراع: كان رسول الله (ﷺ) الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع وكان خبيرًا كذلك بتجنيد كل قوة في يده متى وجب القتال، إن كانت قوة رأي، أو قوة لسان، أو قوة نفوذ. فما نعرف أن أحدًا وجه قوة الدعوة توجيهًا أشد ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام، ثم يضيف الكاتب قائلاً: والدعوة في الحرب كما لا يخفى، لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة: أحدهما: إقناع خصمك والناس بحقك وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه، ثم يقول: وربما بلغ النبي (ﷺ) برجلٍ واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفِرق المنظمة(٦٤).

---

(٦١) الواقدي، المغازي (٢/ ٦٠٠).

(٦٢) البخاري، كتاب الشروط رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٦٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ص(١١١).

(٦٤) انظر: عبقرية محمد (ﷺ) ص(٤٩).

٤- سفارة مكرز بن حفص:

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مكرز بن حفص وقد روى البخاري ذلك فقال: . . . فقام رجل منهم يقال له :مكرز بن حفص، فقال النبي (ﷺ) : «**هذا مكرز وهو رجل فاجر**» ، فجعل يكلم النبي (ﷺ) ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة، أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي (ﷺ) : «**قد سهل لكم من أمركم**»(٦٥) ولنا حديث مع سهيل بإذن الله (تعالى).

سادسًا: الوفود النبوية إلى قريش ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين:

رأى النبي (ﷺ) أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش يبلغهم فيها نواياه السلمية بعدم الرغبة في القتال، واحترام المقدسات، ومن ثم أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرسول (ﷺ) إلى قريش (خراش بن أمية الخزاعي) وحمله على جمل يقال له :(الثعلب)، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله (ﷺ) وأخبره بما صنعت قريش، فأراد رسول الله (ﷺ) أن يرسل سفيرًا آخر بتبليغ قريش رسالة رسول الله (ﷺ)، ووقع اختيار الرسول (ﷺ) في بداية الأمر على عمر بن الخطاب(٦٦)، فاعتذر لرسول الله (ﷺ) عن الذهاب إليهم، وأشار على رسول الله (ﷺ) أن يبعث عثمان مكانه(٦٧)، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معززًا بالحجة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء ،وحيث إن هذا الأمر لم يكن متحققًا بالنسبة لعمر رضي الله عنه، فقد أشار على النبي (ﷺ) بعثمان رضي الله عنه، لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله (ﷺ)(٦٨) وقال لرسول الله: إني أخاف قريشًا على نفسي، قد عرفت عداوتي لها، وليس بها من بني عدي من يمنعني، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم(٦٩) فلم يقل رسول الله شيئًا، قال عمر: ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة مني، وأكثر عشيرة وأمنع، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله (ﷺ) عثمان رضي الله عنه فقال: «**اذهب إلى قريش فخبرهم أنّا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زوارًا لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهدي، ننحره وننصرف**» ، فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى أتى بلدح(٧٠)، فوجد قريشًا هنالك فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله (ﷺ) إليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون في الدين كافة، فإن الله مظهر دينه ومعز نبيه، وأخرى تكفون ويلي هذا منه غيركم فإن ظفروا

(٦٥) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٣٩) رقم ٢٧٣٢ .

(٦٦) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس ص٨٣ .

(٦٧) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠) .

(٦٨) نفس المصدر (٢/ ٦٠٠) .

(٦٩) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠) .

(٧٠) مكان قريب من مكة .

بمحمد فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون، إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم . . . فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ويقولون: قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبدًا، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص فرحب به وأجاره: وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثم نزل عن فرس كان عليه، فحمل عثمان على السرج وردفه وراءه، فدخل عثمان مكة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً، أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهم منهم من لقي ببلدح، ومنهم من لقي بمكة، فجعلوا يردون عليه: إن محمدًا لا يدخلها علينا أبدًا[٧١].

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت فأبى[٧٢]، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله (ﷺ) إلى المستضعفين بمكة وبشرهم بقرب الفرج والمخرج[٧٣]، وأخذ منهم رسالة شفهية إلى رسول الله (ﷺ) جاء فيها: اقرأ على رسول الله (ﷺ) منا السلام، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة[٧٤].

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقين كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم[٧٥] وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك قال (تعالى): ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ (سورة الفتح، آية: ٢٤).

وقد روى مسلم سبب نزول الآية السابقة: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله (ﷺ) من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة[٧٦] النبي (ﷺ) وأصحابه، فأخذهم سلمًا[٧٧]، فاستحياهم[٧٨]، فأنزل الله (عز وجل) الآية المذكورة[٧٩].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدثنا عما حدث: قال: ثم إن المشركين راسلونا الصلح. حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا قال: وكنت تبيعًا[٨٠] لطلحة بن عبيد الله، أسقي

---

(٧١) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠)؛ السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٤).
(٧٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٤).
(٧٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).
(٧٤) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس ص(٨٥).
(٧٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٧٦) (غرة) الغرة هي الغفلة: أي يريدون غفلته شرح النووي (١٢/ ١٨٧).
(٧٧) سلما: المراد به الاستسلام والإذعان (شرح النووي ١٢/ ١٨٧).
(٧٨) فاستحياهم: فاستبقاهم المفردات للراغب ص(١٤٠).
(٧٩) مسلم، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٤٢).
(٨٠) تبيعًا: خادمًا أتبعه شرح النووي (١٢/ ١٧٦).

فرســه، وأحســه[٨١]، وأخدمه وآكل من طـعامه، وتركت أهلي ومالي، مـهاجرًا إلى الله ورسوله قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها[٨٢]، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقـعون في رسـول الله (ﷺ)، فأبغضتـهم فتحولت إلى شجرة أخـرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا. فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين ! قتل ابن زنيم قال: فـاخترطت سـيفي[٨٣] ثم شددت على أولئك الأربعـة وهم رقود، فأخذت سـلاحهم فجعلته ضغثًا[٨٤] في يدي. قال: ثم قلت: والذي كرّم وجه محمد ما يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيــه عيناه[٨٥]، قال: ثم جئت بهم أسـوقهم إلى رسول الله (ﷺ). قـال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات[٨٦] يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله (ﷺ) على فرس مجففف[٨٧] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله (ﷺ) فقال: **«دعوهم، يكن لهم بدء الفجـور وثناه»**[٨٨] فعفـا عنهم رسول الله (ﷺ) وأنزل الله: **﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾** (سورة الفتح، آية: ٢٤)[٨٩].

قال ابن كثير: هذا امتنان من الله (تعالى) على عباده المؤمنين حيث كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عن المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفـريقين وأوجد بينهم صلحًا فيه خيرة للمؤمنين وعـافية في الدنيا والآخرة[٩٠].

والكف: منع الفاعل من فـعل أراده أو شرع فيه، وهو مـشتق من اسم الكف التي هي اليـد لأن أصل المنع أن يكون دفعًـا باليـد، ويقال: كف يده عـن كذا، إذا منعـه من تناوله بيده[٩١].

وقـوله: (ببطن مكة) قال الـراغب: البطن خلاف الظهـر في كل شيء ويقـال للجهـة السفلى بطن وللجهة العليا ظهر[٩٢].

(٨١) وأحسه: أي أحك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار. شرح مسلم النووي (١٢/ ١٧٦).
(٨٢) فكسحت شوكتها: أي كنست ماتحتها من الشوك. شرح مسلم النووي ١٢(١٧٦/).
(٨٣) فاخترطت سيفي: أي سللته. شرح مسلم النووي (١٢/ ١٧٦).
(٨٤) ضغثًا: الضغث: الحزمة. شرح مسلم النووي (١٢/ ١٧٦).
(٨٥) الذي فيه عيناه: يريد رأسه.
(٨٦) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد شرح مسلم النووي(١٢/ ١٧٧).
(٨٧) مجفف: أي عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه من السلاح.
(٨٨) (وثناه) أي عودة ثانية شرح مسلم للنووي (١٢/ ١٧٦).
(٨٩) مسلم، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٣٢).
(٩٠) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢).
(٩١) انظر: التنوير والتحرير (٢٦/ ١٧٨).
(٩٢) انظر: المفردات للراغب ص(٥١).

وجمهور المفسرين حملوا بطن مكة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن من أسفل المكان، والحديبية قرية من مكة وهي إلى مكة أقرب، وهي من الحل وبعض أرضها من الحرم وهي على الطريق بين مكة وجدة وهي إلى مكة أقرب[٩٣].

وختم الآية سبحانه بقوله: ﴿مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. هذه إشارة إلى أن كف بعضهم عن بعض كان للمسلمين إذ منّوا على العدو بعد التمكن منه[٩٤].

سابعًا: بيعة الرضوان:

لما بلغ النبي (ﷺ) أن عثمان رضي الله عنه قتل: دعا رسول الله أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين، ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت[٩٥]، سوى الجد بن قيس، وذلك لنفاقه[٩٦] وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر[٩٧]، وفي رواية على عدم الفرار[٩٨]، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم الفرار[٩٩].

وكان أول من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي[١٠٠] فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته[١٠١]، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم[١٠٢]، وقال النبي (ﷺ) بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**» فضرب بها على يده[١٠٣] وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم الرسول (ﷺ) المبايعة تحت الشجرة ألف وأربعمائة صحابي[١٠٤].

وقد تحدث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منها:

١- قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الفتح، آية: ١٠).

(٩٣) انظر: التنوير والتحرير (٢٦/ ١٨٤).
(٩٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٢٣٠).
(٩٥) البخاري رقم الحديث (٤١٦٩).
(٩٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٨٦).
(٩٧) البخاري، رقم (٤١٦٩).
(٩٨) مسلم، رقم (١٨٥٦).
(٩٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٨٦).
(١٠٠) نفس المصدر ص(٤٨٦).
(١٠١) المصدر السابق ص(٤٨٦).
(١٠٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(١٠٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٤٠٤).
(١٠٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٤٨٢).

وهذه الآية فيها ثناء ومدح عظيم لأهل بيعة الرضوان فقد جعل الله مبايعتهم لرسوله (ﷺ) مبايعة له وفي هذا غاية التشريف والتكريم لهم رضي الله عنهم[(١٠٥)].

قال ابن القيم: وتأمل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فلما كانوا يبايعون رسول الله (ﷺ) بأيديهم ويضرب بيده على أيديهم وكان رسول الله (ﷺ) هو السفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله (تعالى)، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه وفوق الخلائق كلهم كانت يده فوق أيديهم كما أنه سبحانه فوقهم[(١٠٦)].

ومعنى قوله في الآية: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا جزيلاً وهو الجنة وما يكون فيها مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[(١٠٧)].

٢- وقال (تعالى) مخبرًا برضاه عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (سورة الفتح، آية: ١٨- ١٩).

فقد أخبر (تعالى) أنه رضي الله عن أولئك الصفوة الأخيار من أهل بيعة الرضوان ومن رضي الله عنه لا يسخط عليه أبدًا فلله ما أعظم هذا التكريم الذي ناله أهل بيعة الرضوان، وما أعلاه من منقبة ومعنى الآية ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله (ﷺ) بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفروا، ولا يولوهم الأدبار، تحت الشجرة وكانت بيعتهم إياه هنالك تحت شجرة السمرة ﴿عَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة من صدق النية والوفاء بما يبايعونك عليه والصبر﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فأنزل الطمأنينة والثبات على ماهم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم الله له ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، وأما قوله (تعالى): ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي: وأثابالله هؤلاء الذين بايعوا رسول الله (ﷺ) تحت الشجرة مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم، وإنزاله السكينة عليهم وإثابته إياهم فتحًا قريبًا وهو ما أجرى الله - عز وجل- على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة[(١٠٨)] ولهذا قال الله (تعالى): ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

٣- أخبر الله (تعالى) عن أهل بيعة الرضوان أنه ألزمهم كلمة التقوى التي هي كلمة

---

(١٠٥) انظر: عقيدة أهل السنّة في الصحابة، د. ناصر حسن الشيخ (١/ ٢٠٥).

(١٠٦) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧٢).

(١٠٧) انظر: روح المعاني للآلوسي (٢٦/ ٩٧).

(١٠٨) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٨٥، ٨٦)؛ تفسير القرطبي (١٦/ ١٧٨).

التوحيد وأنهم كانوا أحق بها وأهلها. قال (تعالى): ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (سورة الفتح، آية: ٢٦).

فلقد بين الله (تعالى) في هذه الآية أنه ألزم الصحابة رضي الله عنهم كلمة التقوى وأكثر المفسرين أن المراد بكلمة التقوى هي (لا إله إلا الله) وبين أنهم أحق بها من كفار قريش وأنهم كانوا أهلها في علم الله لأن الله (تعالى) اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير(١٠٩) ذلك هو الثناء في القرآن على الصحابة الذين بايعوا النبي (ﷺ) بيعة الرضوان بالحديبية وقد ورد الثناء عليهم في السنة المطهرة في أحاديث كثيرة ومن ذلك ما يلي:

أ- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله (ﷺ) يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض**» وكنا ألفًا وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة(١١٠).

هذا الحديث صريح في فضل أصحاب الشجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما... وتمسك به بعض الشيعة في تفضيل علي على عثمان لأن عليًا كان من جملة من خوطب بذلك وممن بايع تحت الشجرة، وكان عثمان حينئذ غائبًا، وهذا التمسك باطل؛ لأن النبي (ﷺ) بايع عنه، فاستوى معهم عثمان في الخيرية المذكورة، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعض(١١١).

ب- وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أخبرتني أم مبشر، أنها سمعت النبي (ﷺ) يقول عند حفصة: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها فقالت حفصة: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾ (سورة مريم، آية: ٧١- ٧٢).

قال النووي رحمه الله (تعالى): قوله (ﷺ): «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»، قال العلماء: معناه لا يدخلها أحد منهم قطعًا... وإنما قال إن شاء الله للتبرك لا للشك وأما قول حفصة بلى وانتهار النبي (ﷺ) لها فقالت: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ قال النبي (ﷺ): وقد قال: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا**﴾ (فيه دليل للمناظرة والجواب على وجه الاسترشاد وهو مقصود حفصة لا أنها أرادت رد مقالته (ﷺ)، والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون(١١٢).

---

(١٠٩) انظر: تفسير الطبري (٢٦/١٠٣- ١٠٦).

(١١٠) مسلم (٣/١٤٨٥).

(١١١) فتح الباري (٧/٤٤٣).

(١١٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/٨٥).

جـ- وروى الإمام مسلم بإسناده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من يصعد الثنية ثنية المرار**[١١٣]**، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل»**، قال: فكان أول من صعدها خيلنا خيل بني الخزرج ثم تتام الناس فقال رسول الله (ﷺ): **«كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر»**، فأتيناه فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله (ﷺ) فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم، قال: وكان رجلاً ينشد ضالة له[١١٤].

وهذا الحديث تضمن فضيلة عظيمة لأصحاب الحديبية رضي الله عنهم وتلك الفضيلة مغفرة الله لهم وأكرم بها من فضيلة منحهم إياها الرب (جل وعلا) لإخلاصهم في طاعتهم واستجابتهم لله والرسول بالسمع والطاعة[١١٥].

إن جيل الحديبية له سمات كما في النصوص الصحيحة، فهم خير أهل الأرض، وغفر الله لهم، ولا يدخل منهم أحد النار، وهذا الجيل مكون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ومن صلى القبلتين، ومن التحق بهم من الذين اتبعوهم بإحسان.

وحين نمعن النظر في هذا الجيل الفريد مقارنة مع أهل بدر نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النصف من الجيش، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاث وثمانين في بدر إلى ثمانمائة كان معظمه من القبائل العربية المجاورة وهي قبائل صغيرة، إذا قيست بالقبائل الكبرى، لكن شبابها كانوا يغدون إلى المدينة، ينضوون تحت لواء رسول الله (ﷺ)، ويتلقون التربية اليومية في المسجد، والتربية العملية في المعارك والغزوات، فيتدربون على الجندية الخالصة ويفقهون دينهم مباشرة من رسول رب العالمين، وينشؤون في ظلال القدوة العليا لهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويتنافسون في الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله، فنالت قبائلهم بذلك شرفًا ربا على القبائل الكبرى التي تخاذلت في الانضمام للإسلام، فقبيلة أسلم وغفار كانت على رأس هذه القبائل، ويعود الفضل -بعد الله- في ذلك إلى الرعيل الأول منهم، واللبنات الأولى التي انضمت إلى الدعوة، إلى أبي ذر الغفاري الذي كان من السابقين في إسلامه بمكة، ومضى داعيًا في قومه حتى جاءه سبعين بيتًا من غفار يؤم بهم المدينة بعد أحد، وإلى بريدة ابن الحصيب الأسلمي، الذي تلقى رسول الله (ﷺ) قبل دخوله المدينة، فأسلم ومعه سبعون من قومه كذلك[١١٦].

أما القبائل الأخرى من مزينة وجهينة، وأشجع، وخزاعة، فقد بدأ شبابها يفدون إلى المدينة، لكن بأعداد ضئيلة وبقي كيان القبيلة على الشرك، وبقي أعرابيًا بعيدًا عن محضن التربية العظيم داخل المدينة، فلم يتح له هذا الفضل، والاغتراف من رحيق النبوة، ولهذا

---

(١١٣) ثنية المرار: مهبط الحديبية والمرار.

(١١٤) مسلم (٤/ ٢١٤٤- ٢١٤٥).

(١١٥) انظر: عقد أهل السنّة والجماعة (١/ ٢١٢).

(١١٦) انظر: التربية القيادية (/ ٤.

كانت الآيات التي نزلت في المخلفين من الأعراب كالصـواعق على رؤوسهم، لتخلفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلامي الماضي إلى الحديبية(١١٧).

●●●

(١١٧) نفس المصدر (٤/٢١٦) .



المبحث الثاني

صلح الحديبية وما ترتب عليه من أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرو لرسول الله (ﷺ):

لما بلغ قريشًا أمر بيعة الرضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرسول (ﷺ) على القتال أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي (ﷺ)(١١٨)، ولما رأى رسول الله (ﷺ) سهيلاً قال: «**لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل**»(١١٩).

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يعرفون بالحنكة السياسية والدهاء، فهو خطيب ماهر، ذو عقل راجح، ورزانة، وأصالة في الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد استعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا التي كانت تشكل مثار الخلاف بينهما، هذا وقد اتفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث والجدل والأخذ والرد حول هذه البنود، وبعد المراجعات والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين.

وعند الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسميًا حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقية، فعندما شرع النبي (ﷺ) في إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها، أمر الكاتب، وهو الإمام علي بن أبي طالب، بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو قائلاً: لا أعرف الرحمن، اكتب (باسمك اللهم)، فضج الصحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلاّ الرحمن: ولكن النبي (ﷺ) تمشّيًا مع سياسة الحكمة والمرونة والحلم، قال للكاتب: «**اكتب باسمك اللهم**»(١٢٠)، واستمر في إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب «**هذا ما اصطلح عليه رسول الله**»، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشي على كلمة رسول الله قائلاً: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ اكتب اسمك واسم أبيك(١٢١).

واعترض المسلمون على ذلك ولكن رسول الله بحكمته وتسامحه وبعد نظره، حسم الخلاف وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة، فالتزم الصحابة الصمت

(١١٨) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص٣٣٩، ٣٤٠.
(١١٩) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٥).
(١٢٠) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦١٠).
(١٢١) نفس المصدر (٢/ ٦١٠).

والهدوء.

إن النبي (ﷺ) وافق المشركين على ترك كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وكتابة (باسمك اللهم) بدلاً عنها، وكذا وافقهم في كتابة محمد بن عبد الله وترك كتابة رسول الله (ﷺ)، وكذا وافقهم في ردّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصُلح، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة وباسمك اللهم فمعناها واحد، وكذا قوله: (محمد بن عبد الله) هو أيضًا رسول الله (ﷺ)، وليس في ترك وصف الله (سبحانه وتعالى) في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصف النبي (ﷺ) بالرسالة ما ينفيها، فلا ضرر ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك.

وأما شرط ردّ من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم، فقد بين النبي (ﷺ) تعليل ذلك والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: «**من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا**» ثم كان كما قال (ﷺ)[١٢٢].

وتم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

١- باسمك اللهم.

٢- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

٣- واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤- على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

٥- على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٦- وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال[١٢٣].

٧- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه)فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده،

---

(١٢٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٤٢).

(١٢٣) العيبة هنا مثل: والمعنى أن بيننا صدور سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره، وقوله لا أسلال ولا أغلال: تعني الأسلال من السلة وهي السرقة، والأغلال أي الخيانة والمعنى العام أن بعضنا يأمن بعضًا في نفسه وماله، فلا يتعرض لدمه ولا لماله.

وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش، وعهدهم).

٨- وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

٩- وعلى أن هذا الهدي ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا.

١٠- أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين:

فمن المسلمين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن سلمة، وعلي بن أبي طالب كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المشركين: مكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو(١٢٤).

تعتبر هذه المعاهدة أساسًا للمعاهدات الإسلامية ونموذجًا فريدًا للمعاهدات الدولية، بما سبقها من مفاوضات، وما حوته من شروط، وما تمثل بها من خلق النبي (ﷺ) في النزول عند رضا الطرف الآخر، وفي كيفية الصياغة والالتزام. هذه المعاهدة، سبقها مفاوضات من قبل المشركين والمسلمين، وفشل بعض الممثلين في الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاورات شتى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله (ﷺ) على ملأ المسلمين.

عقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز القوة لا الضعف، وكان باستطاعتهم ألا يقبلوا شروطها التي اغتاظ منها كثير من الصحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله (ﷺ) الذي لا ينطق عن الهوى، وقد تمادى رسول قريش على رسول الله في مفاوضته وكان فردًا بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى، ولم يتمادى عليه المسلمون بالقتل (لأن السفراء لا تقتل)، ولكن رسول الله يرضيه، ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام، وهي حقن الدماء وإحلال السلام ورجاء أن يعقل القوم الحق، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله(١٢٥)، وتدخل الدعوة الإسلامية طورًا جديدًا بصور أخرى في الانتشار والاتصال بالناس عندما نتأمل **نصوص المعاهدة التي تمت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي:**

١- أن ديباجة المعاهدات الإسلامية كانت تبدأ باسم الله، أو باسمك اللهم، والقانون الدولي في صياغة المعاهدات يقول: (تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتفق عليها طرفا التعاقد).

والذي يجب أن نلاحظه، بأن المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله الذي تبدأ باسمه (سبحانه)، حيث هو الرقيب والحسيب على ما في النوايا والقلوب، واسم الله مقدس في

(١٢٤) المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، د. محمد الديك ص٢٧٠، ٢٧١.
(١٢٥) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي ص٢٦٨، ٢٦٩.

كل قلب يؤمن به، حتى أولئك الذين فسدت عقائدهم، فإنهم لا ينكرون الله ولكنهم أفسدوا تصورهم لذات الله، وقد جرت أعراف بعض الذين يستهوون قلوب العامة بالشعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله: باسم الشعب، أو باسم الأمة، باعتبار قدسية ما يبدؤون به كما يزعمون، ولكن الذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده، ولذلك كانت البداية (باسمك اللهم).

٢- ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الديباجة) كما يسميها القانون الدولي، وهذا ما عليه القانون الدولي العام من أنه يذكر بعد الديباجة أسماء الممثلين أو الدول التي هي أطراف في عقد المعاهدة.

٣- بواعث المعاهدة، فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصلح لأجل وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وهذا ما عليه القانون الدولي العام كذلك.

٤- الدخول في صلب المعاهدة وشروطها، حيث ذكر رسول الله (ﷺ) في هذه المعاهدة الشروط المتفق عليها بين الطرفين، وهذا ما عليه القانون الدولي العام.

٥- في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدولة الإسلامية) بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم[١٢٦].

٦- إن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائز للمصلحة الراجحة ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[١٢٧].

٧- إن صلح الحديبية سماه الله فتحًا، لأن الفتح في اللغة هو فتح المغلق والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مغلقًا ففتحه الله، والصلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطرف الآخر.

لقد كانت الصورة الظاهرة في شروط الحديبية فيها ضيم للمسلمين وهي في باطنها عز وفتح ونصر، حيث كان رسول الله (ﷺ) ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو (ﷺ) يعلم مافي ضمن هذا المكروه من[١٢٨] محبوب.

٨- إن المعاهدة قد تكون مفتوحة لمن يحب أن يدخل فيها من الأطراف أو الدول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدولي حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحة لمن يحب الدخول فيها من الأطراف الأخرى، فقد دخلت خزاعة وكنانة في الصلح الذي أنهى حالة

---

(١٢٦) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/٣٠٦).

(١٢٧) نفس المصدر (٣/٣٠٦).

(١٢٨) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية ص(٢٧٢).

الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والتي امتدت سنوات عديدة[١٢٩].

٩- إن المعاهدة لا بد لها من توقيع الأطراف والإشهاد عليها، وتوقيع رسول الله (ﷺ) وإشهاد أصحابه إنما هو بمثابة التوقيع على المعاهدة والتصديق عليها كما هو في القانون الدولي العام.

١٠- إن المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفًا محايدًا، أو طرفًا يقرب بين وجهات النظر كوساطة سيد الأحابيش (الحليس بن علقمة) حليف قريش الأكبر، طلبت منه قريش أن يكون وسيطًا بينهم وبين المسلمين، وكان الحليس ذا عقل راجح وبصيرة نافذة، وكان سيدًا مطاعًا، وكان رسول الله (ﷺ) يعرفه ويعرف فيه التأله الشديد والتعظيم للحرم.

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب، ولما يتمتع به من تقدير لدى النبي (ﷺ) تأثير على الرسول وأصحابه[١٣٠].

وهذا ما يقره القانون الدولي، حيث إن المعاهدة قد تعقد بوساطة دولة أخرى ليست طرفًا في النزاع، أو أحد المبعوثين الذي لا علاقة له أو لدولته في النزاع القائم بين طرفي التعاقد.

١١- إن المعاهدة في الاسم تعتبر نافذة المفعول بمجرد الاتفاق على المعاهدة وشروطها، حتى ولو لم تكتب ولم يوقع عليها الطرفان وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي رده الرسول (ﷺ) بموجب قبوله عليه السلام بالبند الخامس من المعاهدة، والذي يقول: (على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم...) فمنذ أعلن رسول الله (ﷺ) التزامه بهذا الشرط أجراه ولو لم تكن المعاهدة قد كتبت بعد، ولم يوقع عليها الطرفان.

١٢- إن المعاهدة تكتب من نسختين، ويأخذ كل طرف نسخة طبق الأصل عن المعاهدة، حيث أنه بعد أن تمت إجراءات الصلح النهائية في الحديبية أخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية وانصرف الوفد القرشي راجعًا إلى مكة[١٣١].

ثانيًا: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله (ﷺ) بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم والحديث، لاحترام كلمة لم تكتب، واحترام كلمة تكتب كذلك وفي الجد في عهوده، وحبه للصراحة والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في

---

(١٢٩) انظر: صلح الحديبية، باشميل ص(٢٨٠).
(١٣٠) نفس المصدر ص(١٩٩، ٢٠٠).
(١٣١) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية ص(٢٧٣).

الأغلال، وقد فر من مشـركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرسول (ﷺ) وكـان هذا الابن ممن آمنوا بالإسلام جـاء مستـصرخًـا بالمسلمين، وقد انفلت من أيدي المشـركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخـذ بتلابيبه وقال: يا محمد لقد لجت القـضية بيني وبينك- أي فرغنا من المناقشة قبل أن يـأتيك هذا- فقال رسول الله (ﷺ): «**صـدقت**»، فقـال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفـتنونني في ديني؟ فلم يغني عنه ذلك شيئًا، ورده رسول الله (ﷺ) وقـال لأبي جندل: «**إنا قد عـقدنا بيننا وبين القوم صلحًـا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عـهدًا وإنا لا نغـدر بهم**»، غيـر أن النبي (ﷺ) إزاء هذه المأساة التـي حالت بنود معـاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخـرجًا منها لأبي جندل المسلم، طمـأن أبا جندل وبشره بقرب الفرج له ولمن على شاكلتـه من المسلمين وقال له -وهو يواسيه: «**يا أبا جندل إصـبـر واحتسب، فـإن الله جاعل لك ولمن معك من المستـضعفين فرجا ومـخرجا**»[١٣٢] وفـي هـذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فـوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله (ﷺ) وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس[١٣٣] لقد كان درس أبي جندل امتحانًا قاسيًا ورهيبًا لهذا الوفاء بالعهد أثبت فيه الرسول (ﷺ) والمسلمون نجاحًا عظيمًا في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه مما زاد في إيلامهم، حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقًا منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشـرك وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجـلف ليعود به مرة أخـرى إلى سجنه الرهيب في مكة.

وقد صـبر أبو جندل واحـتسب لمصـابه في سبـيل دينه وعقـيدته وتحـقق فيـه قول الله (تعـالى): ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ (سورة الطلاق، آية: ٢- ٣).

فلم تمر أقل من سنة حتى تمكن مع إخـوته المسلمين المستضعـفين بمكة من الإفلات من سجون مكة وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخـشونها بعد أن انضموا إلى أبي بصير وسيطروا على طرق قـوافل المشـركين الآتية من الشـام[١٣٤] وسيـأتي تفصـيل ذلك لاحقًـا بإذن الله (تعالى).

ثالثًا: احترام المعارضة النزيهة:

بعد الاتفـاق على معاهدة الصلح وقـبل تسجيل وثائقهـا ظهرت بين المسلمين معـارضة

---

(١٣٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٤٧).

(١٣٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/٢٧٥).

(١٣٤) انظر: صلح الحديبية، باشميل ص(٣٢٢ - ٣٢٥).

شديدة وقوية لهذه الاتفاقية، وخاصة في البندين اللذين يلتزم النبي (ﷺ) بموجبها بردّ من جاءه من المسلمين لاجئًا، ولا تلتزم قريش برد من جاءها من المسلمين مرتدًا، والبند الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام، وقد كان أشد الناس معارضة لهذه الاتفاقية وانتقادًا لها، عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج.

وقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله معلنًا معارضته لهذه الاتفاقية وقال لرسول الله (ﷺ): ألست برسول الله؟ قال: «**بلى**»، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: «**بلى**»، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «**بلى**»، قال: فعلام نُعطي الدنية في ديننا؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه**»[١٣٥]، وفي رواية: «**أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني**»[١٣٦]، قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟**» قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**» قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر - ناصحًا الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة: الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن نخالف أمر الله ولن يضيّعه الله[١٣٧].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثرة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله (ﷺ) بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجددًا للصلح إلا أن النبي (ﷺ) بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم[١٣٨]، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجًا ومخرجًا، وقد تحقق ما أخبر به (ﷺ).

وبهذا يتبين أن الرسول (ﷺ) وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة حيث قرر ذلك بقوله وفعله. وهو - والله أعلم- إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة[١٣٩].

وهذا الهدي النبوي الكريم بين أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقدًا لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

(١٣٥) انظر: من معين السيرة ص(٣٣٣).
(١٣٦) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٣٤).
(١٣٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٦).
(١٣٨) انظر: صلح الحديبية، باشميل ص(٢٧٠).
(١٣٩) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله ص(٤٩٥).

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله (ﷺ) أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها في غياهب السجون[(١٤٠)].

رابعًا: التحلل من العمرة ومشورة أم سلمة رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله (ﷺ) من قضية كتابة الصلح قال لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»... حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[(١٤١)].

وقد حلق رجال يوم الحديبية، وقَصّر آخرون. فقال رسول الله (ﷺ): «**يرحم الله المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**يرحم الله المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**يرحم الله المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**والمقصرين**»[(١٤٢)].

وكان في هدي النبي (ﷺ) في الحديبية جملاً لأبي جهل في رأسه برة[(١٤٣)] من فضة، يغيظ بذلك المشركين[(١٤٤)].

وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمور فيها دروس وعبر منها:

١- كان رأي أم سلمة سديدًا ومباركًا حيث فهمت رضي الله عنها عن الصحابة أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي (ﷺ) أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة، في حق نفسه، فأشارت على النبي (ﷺ) أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي (ﷺ) صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر فكان ذلك رأيًا سديدًا ومشورة مباركة، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد[(١٤٥)]، كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه -أي الإسلام- غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي

---

(١٤٠) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس ص(١٣٤، ١٣٥).
(١٤١) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤٠) رقم (٢٧٣٢).
(١٤٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٨).
(١٤٣) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويرتاض.
(١٤٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٩).
(١٤٥) انظر: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية ص(١٦١).

مرسل ويعمل النبي (ﷺ) بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته[١٤٦].

٢- أهمية القدوة العملية، فقد دعا رسول الله (ﷺ) إلى أمر وكرره ثلاث مرات وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما قدم رسول الله (ﷺ) على الخطوة العملية التي أشارت بها أم سلمة تحقق المراد، فالقدوة العملية في مثل هذه المواقف أجدى وأنفع[١٤٧].

٣- حكم الإحصار في العمرة والحج: دل عمل الرسول (ﷺ) بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحر والحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو ما يقوم مقامها ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهلّ به، سواء كان حجًا أو عمرة، كما دلّ على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعًا، وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب. بدليل أن جميع الذين خرجوا معه (ﷺ) في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا من توفي أو استشهد منهم في غزوة خيبر[١٤٨].

خامسًا: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثم انصرف رسول الله (ﷺ) من الحديبية قاصدًا المدينة حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح، قال (تعالى): **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** (سورة الفتح، آية: ١١).

وقد عبّر رسول الله (ﷺ) عن عظيم فرحته بنزولها: وقال: أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس[١٤٩]، فقال أصحاب رسول الله: هنيئًا مريئًا فمالنا؟ فأنزل الله: **﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾** (سورة الفتح، آية: ٥)[١٥٠].

وقد أسرع الناس إلى رسول الله (ﷺ) وهو واقف على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾** (سورة الفتح، آية: ١) فقال رجل: يا رسول الله: أفتح هو؟ قال: «**نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح**»[١٥١]، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله

---

(١٤٦) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية ص٢٧٣.

(١٤٧) انظر: تأملات في السيرة النبوية لمحمد السيد الوكيل ص٢١١.

(١٤٨) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٢٤٣.

(١٤٩) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٥/ ٨٠) رقم ٤١٧٧.

(١٥٠) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (٥/ ٧٨) رقم ٤١٧٢.

(١٥١) سنن أبي داود، معالم السنن، كتاب الجهاد رقم ٢٧٣٦.

فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام[١٥٢].

كان حديث القرآن الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح، وكان القرآن الكريم له منهجه الخاص في عرضه لغزوة الحديبية، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة أنه سمى الصلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحًا مبينًا.

إننا بالتأمل في أسباب النزول نجد أن سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النبي (ﷺ) من الصلح وهو عائد إلى المدينة النبوية، وبعد أن خاض النبي (ﷺ) والمؤمنون تلك التجارب العظيمة من الآمل في العمرة، إلى مواجهة المشركين، إلى بيعة الرضوان، إلى الصلح الذي لم يكن بعض الصحابة راضين عنه ودارت في أنفسهم أشياء كثيرة حول هذه الأحداث الجسام.

ينزل القرآن الكريم ويبين للمسلمين بأن هذا الصلح هو فتح مبين ويؤكد أن النبي (ﷺ) كان على صواب في قبول الصلح، بل لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله (ﷺ) حين يبشره الله على الملأ من الدنيا بأن الله (تعالى) فتح بالصلح ليغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كرامة منه (سبحانه) لرسوله ،ليزداد المسلمون ثقة واطمئنانًا بأنهم على الصواب وأن ما فعلوه هو الحق ومآله السعادة، ثم بين (سبحانه) أن توفيق الله كان مع المؤمنين فهو الذي وفقهم للصبر مع رسوله وموافقتهم -أخيرًا- على ما جنح له من أمر الصلح، وأن ذلك كان بسبب إنزال السكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح، واستسلم للأمر على مضض فلم يحصل رفض لهذا الصلح، بل كلهم نزلوا على أمر رسوله (ﷺ) بفضل السكينة التي أنزلها عليهم قال (تعالى): ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ (سورة الفتح، آية ٤).

فالقرآن الكريم يبين أن الله هو الذي أنزل السكينة عليهم ليتذكروا فضله، ويداوموا على شكره، وهذا الإعلام بإنزال السكينة مما يتميز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة إذ السكينة أمر معنوي لا يعلم نزوله إلا الله، وأشار القرآن الكريم إلى ببعة الرضوان وهي مبايعة الصحابة للنبي على الموت فأثنى الله – (سبحانه وتعالى)- على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن وقرر أنها مبايعة لله (عز وجل)فقال (تعالى): ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (سورة الفتح، آية: ١٠).

وبهذا نرى ما يتميز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات فهو يبين الحقائق ويصحح العقائد، ويربي النفوس، ويفضح المنافقين، وبشر المسلمين بغنائم قريبة تحققت في خيبر، وبين أصحاب الأعذار فليس كل من تخلف عن الجهاد يعاتب، وإنما هناك استثناء وهذا من كمال رحمته الإلهية، ثم لما تم صلح الحديبية وعاد المسلمون إلى المدينة ولم يتحقق ما

(١٥٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٤٩).

قصده من دخول مكة أشار (سبحانه وتعالى) إلى الرؤيا التي سبقت أن رآها النبي (ﷺ) وبشر بها أصحابه وبين أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق. قال (تعالى): ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (سورة الفتح، آية: ٢٧).

ثم ختمت السورة الجليلة بصفات مدح للنبي (ﷺ) ولأصحابه الكرام[١٥٣].

قال (تعالى): ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الفتح، آية: ٢٨- ٢٩).

هذه الآيات الكريمة وصفت أصحاب محمد في أحلى وأجمل صورة إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم. وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعًا ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهم فقط إخوة الدين، فهي الشدة لله، والرحمة لله.

اللقطة الثانية: ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ والتعبير يوحي كأنما هذه هي هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حين يراهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي: الحالة الأصلية في حقيقة نفوسهم، فعبّر عنها تعبيرًا يثبتها كذلك في زمانهم حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعًا سجدًا.

واللقطة الثالثة: مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم، وأعماق سرائرهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، كل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه، ولاشيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة: تثبت أثر العبادة الظاهرة، والتطلع المضمر في ملامحهم ونضحها على سماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ سيماهم في وجوههم من الإشراق والوضاءة والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عن سماع قوله: ﴿مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ فالمقصود بأثر السجود هو: أثر العبادة، واختار لفظ السجود، لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه،

(١٥٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٤٨ - ٥٥٥).

حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة ويحل مكانها التواضع النبيل والشفافية الصافية والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يجيؤوا إليها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ وصفهم في بشارته بمحمد ومن معه إنهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فهو زرع تام قوي يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده: ﴿فَآزَرَهُ﴾ وأن العود آزر فرخه فشده ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ الزرع، وضخمت ساقه وامتلأت ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ لا معوجًا ولامنحنيًا، ولكن مستقيمًا قويًا سويًا.

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة والزرع والعارفين منه النامي، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ وهم رسول الله وأصحابه، وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس: فهو وقع الغيظ والكمد: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزراعة زرعة الله أو زرعة رسوله، وأنهم ستار لقدره، وأداة لإغاظة أعداء الله.

وهذا المثل ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيؤون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة -صحابة رسول الله- فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى نموذجًا للأجيال تحاول أن تحققها ليتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضى وحده أجر عظيم، ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ[١٥٤].

يقول سيد قطب رحمه الله: . . . ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنًا أن استشرف وجود هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله وفي ميزان الله، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم، وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها وهو في كيانه[١٥٥] لقد أيقن الصحابة الكرام أن الدعوة قد دخلت في طور جديد وفتح أكيد، وآفاق أوسع، وامتداد أرحب، وأن من طبيعة هذا الدين أن ينموا

(١٥٤) انظر: التربية القيادية (٤/ ٢٩٠- ٢٩٢).
(١٥٥) في ظلال القرآن (٦/ ٢٦/ ٣٣٣٣).

وينتعش في أجواء السلم والأمن أكثر منه وقت الحرب ولمسوا مع الأيام **نتائج صلح الحديبية التي كان من أهمها:**

١- اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدولة المسلمة، فالمعاهدة دائمًا لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

٢- دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

٣- أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام وتعريف الناس به ،مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزهري: (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضًا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك)[١٥٦].

وعقب عليه ابن هشام بقوله: والدليل على قول الزهري: أن رسول الله (ﷺ) خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[١٥٧].

٤- أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٥- مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبون رجع إلى أصحابه قال: لقد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

٦- مكّن صلح الحديبية النبي (ﷺ) من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.

٧- ساعد صلح الحديبية النبي (ﷺ) على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

٨- كان صلح الحديبية سببًا ومقدمة لفتح مكة: يقول ابن القيم: كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي

---

(١٥٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١) .

(١٥٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١،٣٥٢) .

يقضيها قدرًا وشرعًا أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطيئات تؤذن لها وتدل عليها[١٥٨].

سادسًا: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

في أعقاب صلح الحديبية مباشرة استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفر بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة، وأن يلتحق برسول الله (ﷺ) في المدينة، فبعثت قريش في إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله، ليرجعا به، تنفيذًا لشرط المعاهدة، فقال رسول الله (ﷺ) لأبي بصير: «**يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك**». فقال أبو بصير: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ قال: «**يا أبا بصير، انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**»[١٥٩]. فانطلق معهما، وقد شق ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزن إلى أخيهم في العقيدة، وهو يعود إلى سجنه بمكة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش، ولكن رسول الله (ﷺ) كان يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق ولكنه كان سلوكًا عمليًا في حياته وفي علاقته الدولية، فقد أوصى الله (سبحانه وتعالى) بالوفاء بالعهود، وحذر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنية قال (تعالى): ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ (سورة النحل، آية: ٩١).

وقال جل وعلا: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**﴾ (سورة الإسراء، آية: ٣٤).

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها[١٦٠].

لقد التزم رسول الله (ﷺ) بعهده مع قريش وسلم أبا بصير إليهما وانطلق معهما، فلما كانا بذي الحليفة، قال لأحد صاحبيه: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: انظر، إن شئت، فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله، ففر الآخر إلى رسول الله (ﷺ) فقال: قتل صاحبكم صاحبي، فما لبث أبو بصير أن حضر، متوشحًا السيف، وقال: يا رسول الله وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يعبث بي[١٦١]، فقال النبي (ﷺ): «**ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد**»[١٦٢] فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده عليهم فخرج حتى أتى سيف البحر[١٦٣]، وقد فهم المستضعفون بمكة من عبارة الرسول (ﷺ) أن أبا بصير بحاجة إلى

---

(١٥٨) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٩).

(١٥٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٢).

(١٦٠) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ص(٣٢٩).

(١٦١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٣).

(١٦٢) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).

الرجال، فأخذوا يفرون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره حتى اجتمع عند أبي بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتّجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي (ﷺ) يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلوا في ذلك عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلت قريش من حيث طلبت العز[١٦٤].

فأرسل إليهم النبي (ﷺ)[١٦٥] وهم بناحية العيص، فقدموا عليه وكانوا قريبًا من الستين أو السبعين[١٦٦] فآوى النبي (ﷺ) تلك العصبة المؤمنة التي أقضت مضاجع قريش، وأرغمتها على إسقاط شرطها التعسفي، فزادت بهم قوة المسلمين، وقويت بهم شوكتهم، واشتد بأسهم..

غير أن أبا بصير، رأس تلك العصابة ومؤسسها، لم يقدر له أن يكون معها، فقد وافاه كتاب النبي (ﷺ) بالعودة إلى المدينة، وهو على فراش الموت، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثغر، وهواه في قلب المجتمع النبوي في المدينة[١٦٧].

إن قصة أبي جندل وأبي بصير وما احتملاه في سبيل العقيدة، وما أبدياه من الثبات والإخلاص والعزيمة والجهاد حتى مرّغوا رؤوس المشركين بالتراب، وجعلوهم يتوسلون بالمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية، هذه القصة نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة وبذل الجهد في نصرتها ،وفيها ما يشير إلى مبدأ: (قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة) فقد ألحق أبو بصير وجماعته الضرر بالمشركين في وقت كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاء بالصلح، لكن أبا بصير وأصحابه خارج سلطة الدولة - ولو في ظاهر الحال- ولم يكن ما قام به أبو بصير والمستضعفون بمكة مجرد اجتهاد فردي لم يحظ بإقرار الرسول (ﷺ) أن يأمر أبا بصير بالكف عن قوافل المشركين ابتداء أو بالعودة إلى مكة، لكن ذلك لم يحدث فكان إقرارًا له، إذ كان موقف أبي بصير وأصحابه في غاية الحكمة حيث لم يستكينوا لطغاة مكة يفتنونهم عن دينهم ويمنعونهم من اللحاق بالمدينة، فاختاروا موقفًا فيه خلاصهم وإسناد دولتهم بأعمال تضعف اقتصاد مكة وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصلح، بل يمكن القول بأن اتخاذ هذا الموقف كان بإشارة وتشجيع من النبي (ﷺ) حين وصف أبا بصير[١٦٨] بأنه: **«مسعر حرب لو كان معه أحد»**[١٦٩].

---

(١٦٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم ٤٧٣٢ .

(١٦٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٢٨١) .

(١٦٥) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم ٤٧٣٢ .

(١٦٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥١) .

(١٦٧) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص٢٩٦ .

(١٦٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٢).

(١٦٩) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم(٤٧٣٢)

إن المتأمل في هذه الأحداث يرى رعاية الله التي أولاها لهؤلاء الصحابة الكرام، ولاشك أن هناك أسبابًا بذلوها فأهلتهم لتلك الرعاية من الله سبحانه، فقد بين سبحانه في كتابه المؤهلات لرعايته وعنايته قال (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ١٢٨). وقال (تعالى): ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٥٦). وقال (تعالى): ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ (سورة الطلاق، آية: ٢).

وقال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٦٩).

فهذه الصفات قد توافرت في الصحابة رضوان الله عليهم فنالوا تلك الرعاية والعناية من الله، ومتى توافرت في شخص أو أمة في كل زمان ومكان فإن رعاية الله سوف تنزل عليهم لأن الله قد وعد بذلك ووعده الحق[١٦٩].

سابعًا: امتناع النبي (ﷺ) عن رد المهاجرات:

صمم مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد هاجرت إلى رسول الله (ﷺ) بعد صلح الحديبية، فأراد كفار مكة أن يردوهن فأنزل الله (تعالى) في حقهن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الممتحنة، آية: ١٠-١١).

ومعنى الآيات الكريمة قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، قال ابن عباس: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وقوله (تعالى): ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، قال القرطبي: هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها لا هجرتها[١٧٠].

ثم قال (تعالى): ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. أي أعطوا أزواج المهاجرات من المشركين الذي غرموه عليهن من الأصدقة.

---

(١٦٩) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ص٣٢٠.

(١٧٠) انظر: تفسير القرطبي (١٨/٦٣).

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ قال ابن كثير: يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن أي تزوجوهن بشرط انقضاء العدة والولي وغير ذلك(١٧١).

وفي قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ العصم: جمع العصمة وأصل العصمة: الحبل، وكل ما أمسك شيئًا فقد عَصَمه، والمراد بالعصمة هنا النكاح، الكوافر جمع كافرة، والمعنى: أن الله (تعالى) نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر، وأمرهم بفراقهن، وقد طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له في الشرك لما نزلت هذه الآية(١٧٢).

وقوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة: ردّوا إلى الكفار مهرها وكان ذلك نصفًا وعدلاً في الحالتين وكان هذا حكم الله مخصوصًا، بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة قاله ابن العربي(١٧٣).

قوله (تعالى): ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة، وليس بينكم وبينهم عهد، ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فأعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمس(١٧٤)، وقال الزهري: يعطى من مال الفيء، وعنه يعطى من صداق من لحق بنا(١٧٥).

وقال مجاهد: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم(١٧٦).

قال أبو السعود: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر، شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره(١٧٧).

وقوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن كثير: فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد

---

(١٧١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥١).
(١٧٢) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.
(١٧٣) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦٨)؛ حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٤٥).
(١٧٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٤٥).
(١٧٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٢).
(١٧٦) نفس المصدر (٤/ ٢٥٢).
(١٧٧) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ٢٤٠).

المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللائي آمن وهاجرن ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم[١٧٨].

وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (أي احذروا أن تعتدوا ما أمرتم به.

قال الزهري: وما نعلم أحدًا من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها[١٧٩] وقال ابن حجر: أراد الزهري بذلك الإشارة إلى أن المعاقبة المذكورة بالنسبة إلى الجانبين إنما وقعت في الجانب الواحد لأنه لم يعرف أحدًا من المؤمنات فرت من المسلمين إلى المشركين بخلاف عكسه[١٨٠].

لقد حدث خلاف في فهم البند القائل: من أتى محمدًا (ﷺ) من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، فالمشركون يرون أن النص يشمل الرجال والنساء، والرسول (ﷺ)

يرى أن النص للرجال دون النساء، إذ النص جاء بصيغة المذكر، ولقد أيد الله رسوله فيما ذهب اليه، فلم يرجع مسلمة هاجرت إلى المدينة فرارًا بدينها، بل امتحنها وقبلها بناء على أمر ربه (سبحانه وتعالى)[١٨١].

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة تعقيبًا على آية الامتحان: والآية تفهم -مع الاستئناس بالروايات المنسقة إجمالاً معها، -أن بعض المؤمنات اللاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصلح اغتنمن فرصة فهاجرن خلسة، وأن ذويهن جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقًا لشروط الصلح، فنزلت الآية تنهي عن إعادتهن، وتأمر بالتعويض على أزواجهن، وقد تعددت الأقوال في حقيقة نص وثيقة الصلح، ومنها أنه كان مطلقًا وبصيغة التذكير، فرأى المكيون أنه شامل الرجال والنساء معًا فجاؤوا يطالبون بالإعادة، ورأى النبي (ﷺ) أنه لا يشمل النساء، فنزلت الآية حاسمة للأمر، وهذا هو المعقول[١٨٢].

وقال الأستاذ الغزالي: (وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة، وهنّ لا يستطعن ضربًا في الأرض، وردًا للكيد، كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما، وأيا كان الأمر فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن)[١٨٣].

---

(١٧٨) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٢).
(١٧٩) انظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٣).
(١٨٠) نفس المصدر (٥/ ٣٥٢).
(١٨١) انظر: غزوة الحديبية ص(١٧٨).
(١٨٢) انظر: سيرة الرسول، دروزة (٢/ ٣٥٤).
(١٨٣) انظر: فقه السيرة للغزالي ص(٣٦٧).



المبحث الثالث

دروس وعبر وفوائد

كانت غزوة الحديبية غنية بالدروس العقائدية والفقهية، والأصولية والتربوية... إلخ وسوف أذكر منها بعض الدروس على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: أحكام تتعلق بالعقيدة:

١- حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النبي (ﷺ) بالسيف ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد، وهذه سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين وليس هذا من النوع الذي ذمه النبي (ﷺ) بقوله: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**»[١٨٤].

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره[١٨٥]، ويشبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أحد، فكل ما يدل على التكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعًا ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله (ﷺ) عن مشية أبي دجانة: «**إنها مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع**»[١٨٦].

٢- استحباب الفأل وأنه مغاير للطيرة:

لما جاء سهيل بن عمرو لمفاوضة رسول الله (ﷺ) قال رسول الله: «**سهل أمركم**»[١٨٧]، ففي الحديث استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة[١٨٨].

وقد جاءت أحاديث عن النبي (ﷺ) تبين معنى الفأل، قال رسول الله (ﷺ): «**لا طيرة وخيرها**[١٨٩] **الفأل**»، قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[١٩٠]، والفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله والطيرة لا تكون إلا في السوء فلذلك كرهت[١٩١].

وقد ذكرت الطيرة عند النبي (ﷺ) فقال: «**أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا فإذا رأى**

---

(١٨٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٢٩): باب قيام الرجل للرجل.
(١٨٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٤).
(١٨٦) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٢٤١.
(١٨٧) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٥).
(١٨٨) نفس المصدر (٣/ ٣٠٥).
(١٨٩) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ص٣٠٣.
(١٩٠) صحيح البخاري مع الفتح، ٥٧٥٦.
(١٩١) فتح الباري (١٠/ ٢١٥).

أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك»[١٩٢].

٣- بيان كفر من اعتقد أن للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

قال خالد الجهني رضي الله عنه: صلى لنا رسول الله (ﷺ) صلاة الصبح بالحديبية - على أثر سماء[١٩٣] كانت من الليلة- فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء**[١٩٤] **كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب**»[١٩٥].

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقادي أو كفر النعمة بحسب حال القائل.

فمن قال: مطرنا بنوء كذا معتقداً أن للكوكب فاعلية وتأثيراً في إيجاد المطر فهو كافر كفراً مخرجاً من الملّة، قال الشافعي: من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان أهل الجاهلية يعنون من إضافة المطر إلى أنه بنوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله (ﷺ) لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً. ومن قال: مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كفراً وغيره من الكلام أحب إليّ منه[١٩٦].

فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقادي[١٩٧].

٤- هل يجوز التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم:

ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله حوله قال: فوالله ما تنخم رسول الله (ﷺ) نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده... وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه[١٩٨].

وقد علق الشاطبي على هذا الحديث وأحاديث أخرى تماثله فقال: فالظاهر في مثل هذا النوع أن يكون مشروعاً في حق من ثبت ولايته واتباعه لسنة رسول الله (ﷺ) وأن يتبرك بفضل وضوئه ويتدلك بنخامته ويستشفي بآثاره كلها، ويرجى نحو مما كان في آثار المتبوع الأصل[١٩٩] (ﷺ) إلا أنه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو

---

(١٩٢) سنن أبي داود مع معالم السنن/ كتاب الطب: (٣٩١٩).
(١٩٣) أثر سماء: المقصود المطر.
(١٩٤) الأنواء: ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة.
(١٩٥) البخاري مع الفتح، كتاب الآذان: (٨٤٦).
(١٩٦) الأم (١/ ٢٥٢).
(١٩٧) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ص(٣٠٤).
(١٩٨) البخاري مع الفتح، كتاب الشروط رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(١٩٩) قال محقق كتاب الاعتصام: يظهر أن الجملة محرفة.

أن الصحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من أحد منهم في شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه، إذ لم يترك النبي (ﷺ) بعد موته أفضل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه فهو كان خليفته ولم يفعل به شيء من ذلك ولا عمر رضي الله عنه وهو كان أفضل الأمة بعده، ثم كذلك عثمان ثم علي ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركًا تبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها ،بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي (ﷺ) فهو إذًا إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[٢٠٠].

وقد أخرج بن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال: حدثني رجل[٢٠١] من الأنصار أن رسول الله (ﷺ) كان إذا توضأ أو تنخم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ونخامته فشربوه ومسحوا به جلودهم. فلما رآهم يصنعون ذلك سألهم: «**لم تفعلون هذا؟**» قالوا: نلتمس الطهور والبركة بذلك. فقال رسول الله (ﷺ): «**من كان منكم يحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره**»[٢٠٢].

وهذا الحديث أفاد أن الأولى ترك التبرك مع رسول الله (ﷺ) ولعل سكوت النبي (ﷺ) عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروة بن مسعود رسول قريش مدى تعلق الصحابة رضوان الله عليهم بالنبي (ﷺ) وحبهم له لا سيما وقد قال للنبي (ﷺ): إني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك[٢٠٣] هذه بعض المسائل العقائدية.

ثانيًا: أحكام فقهية وأصولية:

١- قصة كعب بن عجرة ونزول آية الفدية:

قال كعب بن عجرة رضي الله عنه: وقف عليّ رسول الله (ﷺ) بالحديبية ورأسي يتهافت[٢٠٤] قملاً فقال: «**أيؤذيك هوامك**»[٢٠٥] قلت: نعم. قال: «**فاحلق رأسك**». أو قال: «**احلق**» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٦) فقال النبي (ﷺ): «**صم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك**[٢٠٦] **بما تيسر**»[٢٠٧] وفي رواية مسلم: أن النبي (ﷺ) مر

---

(٢٠٠) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ص(س٣٠٥).

(٢٠١) هو عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه. الترغيب والترهيب (٣/٥٨٩).

(٢٠٢) هذا الحديث قال عنه الألباني: هو حديث ثابت له طرق وشواهد في معجمي الطبراني وغيرها. السلسلة الصحيحة رقم (٢٩٩٨).

(٢٠٣) البخاري، كتاب الشروط رقم (٢٧٣٢).

(٢٠٤) يتهافت: يتساقط. النهاية (٥/٢٦٦).

(٢٠٥) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش والمراد القمل.

(٢٠٦) انسك: اذبح. النهاية (٥/٤٨).

(٢٠٧) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المحصر: (١٨١٥).

به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وهو يوقد تحت قدر والقمل يتهافت على وجهه فقال: «**أيؤذيك هوامك هذا؟**» قال: نعم. قال: «**فاحلق رأسك وأطعم فرقًا بين ستة مساكين**» (والفرق ثلاث أصع) أو صم ثلاثة أيام أو انسك نسيكة(٢٠٨)، وآية البقرة المذكورة تبين حكم من كان محرمًا وبه أذى من رأسه وهي نزلت في كعب بن عجرة خاصة وأصبح لكل مسلم يمر بنفس الحالة.

٢- مشروعية الصلاة في الرحال:

روى ابن ماجه عن أبي المليح بن أسامة قال: خرجت إلى المسجد في ليلة مطيرة فلما رجعت استفتحت فقال أبي(٢٠٩): من هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتنا مع رسول الله (ﷺ) يوم الحديبية وأصابتنا سماء لم تبل أسافل نعالنا فنادى منادي رسول الله (ﷺ): صلوا في رحالكم(٢١٠). وهذا الحديث صحيح، فسنده متصل برواية الثقات وقد صححه ابن حجر(٢١١).

٣- انصراف المسلمين من الحديبية ونومهم عن صلاة الصبح:

كانت مدة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يومًا ويقال: عشرين ليلة على قول الواقدي(٢١٢) وابن سعد(٢١٣).

وعن ابن عائذ: (أن رسول الله (ﷺ) أقام في غزوته هذه شهرًا ونصفًا)(٢١٤).

والذي يبدو: أن الواقدي وابن سعد أرادا تحديد مدة إقامته (ﷺ) في الحديبية، أما ابن عائذ فقصد الزمن الذي استغرقته غيبة النبي (ﷺ) منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.

وبعد أن تحلل المسلمون من عمرتهم تلك قفلوا راجعين إلى المدينة، فلما كان من الليل عدلوا عن الطريق للنوم ووكلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلال ولم يوقظهم إلا حر الشمس(٢١٥) كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: أقبلنا مع رسول الله (ﷺ) زمن الحديبية فقال رسول الله (ﷺ): «**من يكلؤنا؟**»(٢١٦) فقال بلال: أنا. فناموا حتى طلعت الشمس واستيقظ النبي (ﷺ) فقال: «**افعلوا كما كنتم تفعلون**» قال: ففعلنا. قال: «**فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي**»(٢١٧) وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن قصة

(٢٠٨) مسلم، كتاب الحج: (٨٢).
(٢٠٩) أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابي تفرد ولده عنه.
(٢١٠) سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة: (٩٣٦).
(٢١١) فتح الباري (٢/١١٣)، غزوة الحديبية للحكمي ص(٢٢١).
(٢١٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/٦١٦).
(٢١٣) انظر: الطبقات الكبرى (٢/٩٨).
(٢١٤) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٢/ ٢١٠).
(٢١٥) انظر: غزوة الحديبية ص(٢٥١).
(٢١٦) يكلؤونا: يحرسنا.
(٢١٧) انظر: سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة: (٤٤٧).

نومهم عن صلاة الصبح وقعت في غير الحديبية، وحاول بعض العلماء التوفيق بين هذه النصوص ،وذهب الدكتور حافظ الحكمي إلى أن ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصة الحديبية وغيره محمول على تعدد القصة كما رجح ذلك النووي(٢١٨)، وجنح إليه ابن كثير(٢١٩) وابن حجر(٢٢٠)، والزرقاني، بل قال: السيوطي: لا يجمع إلا بتعدد القصة(٢٢١).

٤- مشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم ومقدار المدة التي تجوز المهادنة عليها:

استدل العلماء والأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة، سواء أكان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض، أما بدون عوض فلأن هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه.

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصغار لهم، ولأنه لم يثبت دليل من الكتاب أو السنة على جواز ذلك، قالوا: إلا إن دعت إليه ضرورة لا محيص عنها وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الأسر فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشافعي وأحمد (رحمهم الله) وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة، وأنه لا يجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت، لأنها هي المدة التي صالح النبي (ﷺ) قريشًا عليها عام الحديبية(٢٢٢).

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة وهو قول أبي حنيفة(٢٢٣).

والتحقيق: أن القول الأول هو الراجح لظاهر الحديث، وإن وجدت مصلحة في الزيادة على العشر جدد العقد، كما قال الشافعي(٢٢٤).

وقال بعض المتأخرين(٢٢٥): يجوز عقد صلح مؤبد غير مؤقت بمدة معينة واستدل بقوله (تعالى): ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ

---

(٢١٨) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٨١- ١٨٢)، غزوة الحديبية ص(٢٥٨).

(٢١٩) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢١٣).

(٢٢٠) فتح الباري (١/ ٤٤٩)، شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٤٧).

(٢٢١) انظر: تنوير الحوالك (١/ ٣٣).

(٢٢٢) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص(٢٤٢).

(٢٢٣) انظر: فتح القدير (٥/ ٥٤٦)؛ غزوة الحديبية ص(٢٩٤).

(٢٢٤) انظر: غزوة الحديبية ص(٢٩٥).

(٢٢٥) الدكتور وهبة الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص(٦٨٠).

﴿يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ (سورة النساء، آية: ٩٠).

وهذا قول مبني على أن الأصل في علاقة المسلمين بالكفار هي السلم لا الحرب[٢٢٦]، وأن الجهاد إنما شرع لمجرد الدفاع عن المسلمين فحسب[٢٢٧].

وهذا القول مردود لما يلي:

أ- أن صاحب هذا القول قد خرق الاتفاق بعد أن حكاه بنفسه حيث قال: اتفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدو لا بد من أن يكون مقدورًا بمدة معينة، فلا تصح المهادنة مطلقة إلى الأبد من غير تقدير بمدة[٢٢٨].

ب- الآية التي استدل بها منسوخة بقوله (تعالى): ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ٥).
فقد نقل ذلك ابن جرير[٢٢٩] عن عكرمة والحسن وقتادة وابن زيد، وحكاه القرطبي[٢٣٠] عن مجاهد. ثم قال: وهو أصح شيء في معنى الآية.

جـ- الأصل الذي انبنى عليه هذا القول: مردود بآية براءة السابقة وبواقع سيرة الرسول (ﷺ)، وخلفائه مع أعدائهم.

د- أما فكرة أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن المسلمين، فهي فكرة دخيلة وقد تصدى لها سيد قطب[٢٣١] (رحمه الله) ففندها، وبين أن سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحلية الدعوة[٢٣٢].

٥- المطلق يجري على إطلاقه:

هذه قاعدة أصولية يؤيدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد أنه قال: إن بعض من كان مع رسول الله (ﷺ)، قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمنًا؟ قال: «**بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟**» قالوا: لا، قال: «**فهو كما قال لي جبريل عليه السلام**»[٢٣٣] وفي هذا الأثر، تبشير المؤمنين بفتح مكة، في المستقبل، وإيماء بالوحي الصادق إلى ذلك النصر، ولفت لهم إلى وجوب التسليم لأمره، بإطلاق، كلما ورد مطلقًا، دون تحميله زيادات وقيودًا تصرفه عن إطلاقه[٢٣٤].

(٢٢٦) انظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي للزحيلي ص(٦٧٥).
(٢٢٧) نفس المصدر ص(٦٧٥).
(٢٢٨) المصدر السابق ص(٦٧٥).
(٢٢٩) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٤- ٢٦).
(٢٣٠) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٠٨).
(٢٣١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٣٣) ومابعدها.
(٢٣٢) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ص(٢٩٦).
(٢٣٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٢٩٧).
(٢٣٤) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ص(٣١٣).

٦- وجوب طاعته (ﷺ) والانقياد لأمره وإن خالف ظاهر ذلك القياس أو كرهته النفوس:

جاء في قصة الحديبية أن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة رضي الله عنهم كرهوا الصلح مع قريش[٢٣٥] لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ورأوا أنهم وقعوا في حرج، إذ كيف يكرهون شيئًا رضيه رسول الله (ﷺ)، وظلت تلك الحادثة درسًا لهم فيما استقبلوا من حياتهم، وكانوا يحذرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرأي[٢٣٦]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله (ﷺ) برأي اجتهادًا فوالله ما آلوا عن الحق وذلك يوم أبي جندل)[٢٣٧].

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتهموا رأيكم ،رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله (ﷺ) لرددته[٢٣٨].

ولقد بقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه برهة من الزمن متخوفًا أن ينزل الله به عقابًا للذي صنع يوم الحديبية.

فكان رضي الله عنه يتحدث عن قصته تلك ويقول: فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا[٢٣٩].

قال ابن الديبع الشيباني تعليقًا على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصة من وجوب طاعته (ﷺ) والانقياد لأمره وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس أو كرهته النفوس ،فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الخير فيما أمر به، وأنه عين الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة، وأنه جاء على أتم الوجوه وأكملها غير أن أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته وعاقبة أمره[٢٤٠].

ثالثًا: أنموذج من التربية النبوية:

في قول رسول الله (ﷺ): «**من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل**»[٢٤١].

يظهر في هذا الحديث جانب عظيم من جوانب التربية النبوية يستحق التأمل والتدبر، فرسول الله (ﷺ) يشجع أصحابه على صعود الثنية ثم يخبرهم أن الذي يجتازها سينال

(٢٣٥) نفس المصدر ص(٣١٣).
(٢٣٦) انظر: غزوة الحديبية، للحكمي، (٣١٣).
(٢٣٧) نفس المصدر ص(١٧٩).
(٢٣٨) المصدر السابق ص(٣١٣).
(٢٣٩) انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسوار (٢/ ٦٢٢).
(٢٤٠) انظر: مرويات غزوة الحديبية ص(٣١٥).
(٢٤١) مسلم، كتاب الزكاة: (٥٣).

مغفرة من الله (تعالى)، وحين نتأمل هذا الحديث تبرز لنا معان عظيمة منها:

١- أن رسول الله (ﷺ) يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كل لحظة من لحظات حياتهم.

٢- أنه يريد لفت أنظارهم إلى أن كل حركة يتحركونها وكل عمل يقومون به - حتى ما يرون أنه من العادات أو من دواعي الغريزة- يجب استغلاله للتزود لذلك اليوم، وكان (ﷺ) يسعى دائمًا لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصحابة فنراه يقول في موطن آخر: **«وفي بضع أحدكم صدقة»** قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **«رأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»**(٢٤٢).

ويقول في موطن ثالث: **«وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى فيّ امرأتك»**(٢٤٣).

إن تلك المعاني -إذا تمكنت في قلب المسلم- لكفيلة بأن تصبغ حياته كلها بصبغة العبودية لله وحده، وإذا شملت العبادة كل نواحي حياة المسلم فإن لهذا الشمول آثار مباركة سوف يشعر بها الفرد في نفسه ثم يلمسها فيمن حوله(٢٤٤).

ومن أبرز تلك الآثار أمران:

أ- أن يصبغ حياة المسلم وأعماله بالصبغة الربانية ويجعله مشدودًا إلى الله في كل ما يؤديه، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله (تعالى) كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه، مادام يقدمه إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

ب- أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة ووحدة الغاية في حياته كلها. فهو يرضى ربا واحدًا في كل ما يأتي ويدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والدنيوي، لا انقسام ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته(٢٤٥).

ولقد عاش الصحابة الكرام تلك المعاني وحوّلوها إلى حقائق ملموسة في حياتهم كلها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتدي بهم في حياتنا وتكون حجة على كل من جاء بعدهم(٢٤٦).

---

(٢٤٢) مسلم، كتاب الزكاة: (٥٣).

(٢٤٣) البخاري، مع الفتح، كتاب الوصايا: (٢٧٤٢).

(٢٤٤) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي ص(٣١٥).

(٢٤٥) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي ص(٦٦).

(٢٤٦) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي ص(٣١٦)؛ لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبير من كتاب مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، وصلح الحديبية، باشميل، غزوة الحديبية لأبي فارس وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.



الفصل الرابع عشر

أهم الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكة



المبحث الأول

غزوة خيبر

أولاً: تاريخها وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق[١] أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي[٢] أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد[٣] إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك إنها في محرم من السنة السادسة[٤]، وظاهر الخلاف بين ابن إسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك: مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك، وقد رجح ابن حجر[٥] قول ابن إسحاق على قول الواقدي[٦].

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير، الذي حز في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافيًا لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئي مثله في حي من الناس في زمانهم[٧].

وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها[٨].

وكان تزعم هؤلاء ليهود خيبر كافيًا في جرها إلى الصراع والتصدي والانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب[٩]، بل إنهم أنفقوا أموالهم واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب وطعن المسلمين في ظهورهم[١٠]، وهكذا

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٤٥٥) معلقًا.
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٦٣٤).
(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٠٦).
(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٣٣)
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص (٥٠٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية الأصلية (١/ ٣١٩).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).
(٩) نفس المصدر (١/ ٣١٩).
(١٠) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٤٩).

أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية.

تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدًا إلهيًا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة[١١]، قال (تعالى): ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (سورة الفتح، الآيات ١٨- ٢١).

ثانيًا: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي (ﷺ) أن يرفقوا بأنفسهم: قائلاً: **«أيها الناس ... إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»**[١٢].

وكان سيره (ﷺ) بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النبي (ﷺ) إلى خيبر فسرنا ليلاً[١٣] وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك[١٤] ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله (ﷺ): **«من هذا السائق؟»** قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: **«يرحمه الله»**.

قال رجل -وهو عمر بن الخطاب-[١٥] من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا متعتنا به[١٦].

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء - وهي من أدنى خيبر- صلى العصر، ثم دعا

---

(١١) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٤٩).

(١٢) البخاري، كتاب الدعوات رقم (٦٣٨٤).

(١٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).

(١٤) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).

(١٥) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٦).

(١٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).

بالأزواد، فلم يؤت إلاّ السويق، فأمر به فثري، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلى بالصحابة ولم يتوضأ(١٧).

وكان (ﷺ) قد بعث عباد بن بشر رضي الله عنه في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عينًا لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغي أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها. قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاؤوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء وأنى يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، أصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود. . . . وقال لي كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، وأحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم(١٨).

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر، قال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: **«قفوا»**. ثم قال: **«اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا باسم الله»**، وكان يقولها لكل قرية دخلها(١٩).

ولما أدرك رسول الله (ﷺ) الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان(٢٠).

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم(٢١) ومكاتلهم(٢٢)، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي (ﷺ): **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**(٢٣).

(١٧) انظر الصراع مع اليهود (٢/ ٣٠).
(١٨) المغازي للواقدي (٢/ ٦١٠-٦٤١).
(١٩) انظر: المستدرك (٢/ ١٠٠) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.
(٢٠) الصراع مع اليهود (٢/ ٤٥).
(٢١) المساحي: جمع ومفردها مسحاه، والمسحاه المجرفة من الحديد.
(٢٢) المكاتل: جمع مكتل، وهو المقطف الكبير.
(٢٣) البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٢١٠).

ثالثا: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحدًا تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة وأبى النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن بن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم[٢٤].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن[٢٥]، والذي استغرق فتحه عشرة أيام[٢٦]، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله (ﷺ) إنه سيدفع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه[٢٧]، وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول (ﷺ)، فبصق رسول الله (ﷺ) في عينيه ودعا له، فبرئ[٢٨] ولقد أوصى الرسول (ﷺ) عليًا بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن تكون لك حمر النعم**»[٢٩]. وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[٣٠].

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سببًا في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله[٣١]، مما أثر سلبيًا في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم[٣٢].

ووردت مجموعة من روايات تخبر بأن عليًا رضي الله عنه تترس بباب عظيم كان عند حصن ناعم بعد أن أسقط يهودي ترسه من يده، وكلها روايات ضعيفة[٣٣]، وعدم الاعتماد

---

(٢٤) انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص (٥٠١).
(٢٥) نفس المصدر ص(٥٠١).
(٢٦) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٧).
(٢٧) انظر المستدرك (٣/ ٣٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٢٨) مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم (٢٤٠٦).
(٢٩) مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم (٢٤٠٤، ٢٤٠٥).
(٣٠) مسلم (٢/ ١٨٧٢) رقم (١٤٠٥).
(٣١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (٥٠٢).
(٣٢) نفس المصدر ص(٥٠٢).
(٣٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٤).

عليها لا ينفي قوة علي وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير[٣٤].

توجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسنًا حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطاة التي كان فيها أشد اليهود، ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق وبدأوا بحصن أُبَيّ، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نَزار وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع وحصن الوطيح وحصن السُّلالم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يومًا حتى طلبوا الصلح[٣٥].

وهكذا فتحت خيبر عنوة[٣٦]، استنادًا إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري[٣٧] ومسلم[٣٨]، وأبو داود[٣٩] من أن رسول الله (ﷺ) غزا خيبر وافتتحها عنوة[٤٠].

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين، وسارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح وأن يسيرهم ويحقن دماءهم وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم[٤١] فكانت فدك خالصة لرسول الله (ﷺ) لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي[٤٢] ثم استسلمت فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى[٤٣].

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً[٤٤]، وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن

---

(٣٤) نفس المصدر (١/ ٣٢٤).
(٣٥) انظر الواقدي (٢/ ٦٥٨-٦٧١).
(٣٦) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٠٤).
(٣٧) نفس المصدر ص(٥٠٤).
(٣٨) مسلم (٣/ ١٤٢٧) رقم (١٣٦٥).
(٣٩) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٠٤).
(٤٠) نفس المصدر ص(٥٠٤).
(٤١) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٦٩٩).
(٤٢) انظر : تاريخ خليفة (٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق.
(٤٣) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤, ٣٥٥).
(٤٤) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٠٤).

أخطب فاعتقها رسول الله (ﷺ) وتزوجها[٤٥].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[٤٦]، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي[٤٧].

رابعًا: الأعرابي الشهيد، والراعي الأسود، وبطل إلى النار:

١- الأعرابي الشهيد:

جاء رجل من الأعراب إلى النبي (ﷺ)، فآمن به، واتبعه. فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله (ﷺ) شيئًا فقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله (ﷺ)، فأخذه فجاء به للنبي (ﷺ)، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**قسم قسمته لك**»، قال: ما على هذا اتبعك، ولكن اتبعتك على أن أرمي ها هنا -وأشار إلى حلقه- بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: «**إن تصدق الله يصدقك**»، ثم نهض إلى قتال العدو، فأتي به إلى النبي (ﷺ)، وهو مقتول، فقال: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم.

قال: «**صدق الله فصدقه**».

فكفنه النبي (ﷺ) في جبته، ثم قدمه، فصلى عليه، وكان من دعائه له: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، قتل شهيدًا، وأنا عليه شهيد**»[٤٨].

٢- الراعي الأسود:

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله (ﷺ) فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «**أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وألا تعبد إلا الله**»، قال العبد: فما لي إن شهدت وآمنت بالله (عز وجل)، قال: «**لك الجنة إن مت على ذلك**».

فأسلم ثم قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله (ﷺ): «**أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء) فإن الله سيؤدي عنك أمانتك**»، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله (ﷺ) في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتل - فيمن قتل- العبد

---

(٤٥) مسلم، كتاب النكاح (٢/ ١٠٤٥).

(٤٦) انظر السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٧).

(٤٧) انظر: المغزي (٢/ ٧٠٠).

(٤٨) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١)، والحاكم (٣/ ٥٩٥)، والبيهقي (٤/ ١٥، ١٦)، واسناده صحيح نقلاً عن زاد المعاد (٣/ ٣٢٤).

الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله (ﷺ) اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «**لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خير، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصل لله سجدة قط**»(٤٩).

٣- بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة(٥٠) إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله (ﷺ): «**أما إنه من أهل النار**» فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبدًا، فاتبعه حتى جرح، فاشتدت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدَييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد إنك رسول الله، قال: «**وما ذاك**» فأخبره. فقال النبي (ﷺ): «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه لمن أهل الجنة**»(٥١).

خامسًا: قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله يوم فتح خيبر، فقبل رسول الله (ﷺ) بين عينيه والتزمه وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**»، وكان (ﷺ) قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين(٥٢)، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: بلغنا مخرج النبي (ﷺ) ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعًا، فوافقنا النبي (ﷺ) حين افتتح خيبر(٥٣).

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عامًا، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة - وقد فاتهم هذا كله- أقل قدرًا من غيرهم(٥٤).

فعن أبي موسى: ... كان أناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت

---

(٤٩) انظر زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، والسيرة المحلية (٣/ ٣٩).
(٥٠) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.
(٥١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٠٢، ٤٢٠٧).
(٥٢) انظر: معين السيرة ص(٣٥٣).
(٥٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٣٠، ٤٢٣١)
(٥٤) انظر: فقه السيرة للغزالي ص(٣٥٠).

عميس على حفصة زوج النبي زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر- فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه ؟ قالت أسماء: ابنة عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم. وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاءت النبي (ﷺ) قالت: كذا وكذا. قال: «**ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم -أهل السفينة- هجرتان**»[٥٥].

فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا[هامش] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي (ﷺ)[٥٦].

وقد أشركهم النبي (ﷺ) في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة رضي الله عنهم الذين شاركوا في فتحها[٥٧].

سادسًا: تقسيم الغنائم:

١- كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول (ﷺ) غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ الغنائم تتكون من:

أ- الطعام: فقد غنم المسلمون كثيرًا من الأطعمة من حصون خيبر، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك، فأباح رسول الله (ﷺ) الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمسها[٥٨].

ب- الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم: لقد أخذ رسول الله (ﷺ) خمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

ج- السبي: لقد سبى رسول الله (ﷺ) كثير من نساء اليهود، ووزع السبي على المسلمين، فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

د- أما الأراضي والنخيل: فقد قسمها النبي إلى ستة وثلاثين سهمًا، جمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله (ﷺ) وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه

(٥٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم(٤٢٣١).
(٥٦) انظر: فقه السيرة للغضبان ص(٥٣٥).
(٥٧) مسلم، فضل الصحابة، رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).
(٥٨) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٣/ ٩٦).

وما ينزل به من أمور المسلمين[٥٩].

هـ- وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردّها، فأمر بتسليمها إليهم ولم يصنع (ﷺ) ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة[٦٠].

وقد أبقى رسول الله (ﷺ) يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي (ﷺ) وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم ،فوافق على ذلك بعد أن همّ بإخراجهم منها[٦١].

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعة سياسية جديدة في عقد الشروط، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود وبخاصة وأنهم لن يأخذوا أجرًا، ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قلّ أو كثر.

وقد ضمن الرسول بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون إخضاعهم وكسر شوكتهم، لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئًا يضر بالمسلمين يطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبدًا.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول (ﷺ) اعتدوا على عبد الله بن سهل فقتلوه ،فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم[٦٢] وحاول يهود خيبر أن يخفوا الفضة والذهب وغيبوا مسكًا[٦٣] لحيي بن أخطب، وكان قد قتل مع بني قريظة، وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير، فسأل رسول الله (ﷺ) سعية عم حيي بن أخطب: **«أين مسك حيي بن أخطب؟»**.

قال: أذهبته الحروب والنفقات[٦٤].

فقال رسول الله (ﷺ): **«العهد قريب والمال أكثر من ذلك»**. فدفعه رسول الله (ﷺ) إلى الزبير بن العوام، فمسّه بعذاب، وقد كان حُـيـيٌ قبل ذلك دخل خربة، فقال عمه: قد رأيت حُيـيًا يطوف في خربة هاهنا: فذهبوا فطافوا. فوجدوا المسك في الخربة[٦٥]، وبعد الاتفاق

---

(٥٩) نفس المصدر (٣/ ١٤٠).
(٦٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤١٩).
(٦١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٨).
(٦٢) انظر: تأملات في سيرة الرسول، لمحمد سيد الوكيل ص(٢٢٨، ٢٢٩).
(٦٣) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).
(٦٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٦). (٦٥) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي ص(٤٢٤).

الذي تم بين رسول الله (ﷺ) ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله (ﷺ) عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمّنهم الشطر. فشكوا إلى رسول الله (ﷺ) شدة خرصه[٦٦]، وأرادوا أن يُرْشُوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على ألا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض[٦٧].

لقد أصبحت خيبر ملكًا للمسلمين وصارت موردًا مهما لهم قال ابن عمر رضي الله عنه: ما شبعنا حتى فتحت خيبر[٦٨]، وقد تحسن الوضع الاقتصادي بعد خيبر ورد المهاجرون المنائح التي أعطاهم إياها الأنصار[٦٩] من النخل.

سابعًا: زواج رسول الله من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص -حصن بني أبي الحقيق- كانت صفية في السبي، فأعطاها دحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي (ﷺ) ما أشار به الرجل، وقال لدحية: خذ جارية من السبي غيرها[٧٠]، ثم أخذها رسول الله (ﷺ) وأعتقها وجعل عتقها صداقها[٧١]، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها[٧٢] وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النبي (ﷺ) من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرّس بها فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي (ﷺ) وبنى بها، فسألها: «**ما حملك على الامتناع من النزول أولاً**» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطّأ له خلفه ومدّ عليها الحجاب، فأيقنوا أنها إحدى أمهات المؤمنين[٧٣].

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي رحمهالله بإسناد

---

(٦٦) الخرص: الحزر والحسد والتخمين. وخرص العدد قدره تقديرا بظن لا إحاطة.

(٦٧) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي؛ المغازي ص(٤٢٤).

(٦٨) البخاري كتاب المغازي، غزوة خيبر رقم (٤٢٤٣).

(٦٩) انظر: معين السيرة ص(٣٥٢).

(٧٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٣).

(٧١) نفس المصدر (٢/ ٣٨٣).

(٧٢) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٠١).

(٧٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤).

صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله (ﷺ) بعين صفية خضرة، فقال: «**يا صفية ما هذه الخضرة؟**» فقالت: كان رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب(٧٤).

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمها بالزواج من رسوله (ﷺ)، وأعتقها من النار، وجعلها أمًا للمؤمنين، وزوجًا في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين(٧٥) وقد أكرمها رسول الله (ﷺ) غاية الإكرام وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبتها حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب(٧٦).

وهذه صفية رضي الله عنها تحدثنا عن خلق رسول الله (ﷺ) فتقول: ما رأيت أحدًا قط أحسن خلقًا من رسول الله (ﷺ) لقد رأيته ركب بي في خيبر وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: «**يا هذه مهلاً**»(٧٧).

وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله (ﷺ) من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها (ﷺ) فأخبرته، فقال: «**ألا قلت: وكيف تكونا خيرًا مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى**»(٧٨).

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله (ﷺ) وأصبح (ﷺ) أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبح أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله (ﷺ) سليمًا معافى، فقد أخرج ابن سعد (رحمه الله) بإسناد حسن عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: اجتمع نساؤه (ﷺ) في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله (ﷺ) فقال: «**مضمضن**» فقلن: من أي شيء فقال: «**من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة**»(٧٩).

ومما له صلة بزواج رسول الله (ﷺ) بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله (ﷺ) بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق... فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد ابن زيد، أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله (ﷺ)، ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله (ﷺ)، فلما رأى مكانه قال: «**مالك يا أبا أيوب؟**» قال: يا رسول الله،

---

(٧٤) انظر: السنن الكبرى (٩/١٣٨) نقلاً عن الصراع مع اليهود (٣/١٠٣).

(٧٥) الصراع مع اليهود (٣/١٢٢).

(٧٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٣٨٤).

(٧٧) انظر: السيرة الحلبية (٣/٤٥).

(٧٨) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/٢٣٣).

(٧٩) نفس المصدر (٢/٢٣٣).

خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك[٨٠]، فسر رسول الله (ﷺ) بعمله الذي ينبئ على غاية الحب، والإيمان وقال: «**اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني**»[٨١].

وكان زواج رسول الله (ﷺ) بصفية فيه حكمة عظيمة، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعًا للغريزة كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها فقد قتل أبوها من قبل وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه، والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد[٨٢]. وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة، وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيل سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها وأرضاها[٨٣].

ثامنًا: محاولة أثيمة لليهود: الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله (ﷺ) شاة فيها سم، فقال رسول الله (ﷺ): «**اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود**»، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله (ﷺ): «**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟**».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله (ﷺ): «**من أبوكم؟**».

قالوا: أبونا فلان.

فقال رسول الله (ﷺ): «**كذبتم بل أبوكم فلان**».

فقالوا: صدقت وبررت.

فقال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

---

(٨٠) انظر زاد المعاد (٣/٣٢٨).

(٨١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

(٨٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

(٨٣) نفس المصدر (٢/ ٣٨٥).

قال لهم رسول الله (ﷺ): «من أهل النار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا.

فقال لهم رسول الله (ﷺ): «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا».

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا».

فقالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم على ذلك؟».

فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[٨٤].

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة، ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها[٨٥].

وفي المغازي عن عروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظمًا آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله (ﷺ)، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت ألا تكون رغمتها وفيها بغي[٨٦].

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله، فقالت: أردت قتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك عليّ»، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا»، ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم[٨٧].

وقد اختلف في قتل المرأة والصحيح أنه لما مات بشر، قتلها[٨٨] ولقد كان السم الذي وضعته اليهودية قويًّا جدًا إذ مات بشر بن البراء فورًا، وبقي رسول الله (ﷺ) يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها[٨٩]، وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن

(٨٤) البخاري، كتاب الجهاد والسير (٤/ ٧٩) رقم (٣١٦٩).

(٨٥) انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣).

(٨٦) انظر: مغازي رسول الله، لعروة بن الزبير ص(١٩٨).

(٨٧) زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).

(٨٨) نفس المصدر (٣/ ٣٣٦).

(٨٩) انظر الصراع مع اليهود (٣/ ١٢١).

عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي (ﷺ) يقول في مرض موته الذي مات فيه: «**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري**[٩٠] **من ذلك السم**»[٩١].

تاسعًا: الحجاج بن علاط السلمي وإرجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: لما افتتح رسول الله (ﷺ) خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالا وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن أكاتبهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك وقلت شيئًا؟ فأذن له رسول الله (ﷺ) أن يقول ما يشاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، أو أصبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحًا وسرورًا، قال: وبلغ الخبر العباس رضي الله عنه فعقر، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابنًا له يشبه رسول الله (ﷺ) يقال له: قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

حبِّي قثم، حبِّي قثم ... شبيه ذي الأنف الأشم
نبي رب ذي النعم ... برغم أنف من رغم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلامًا له إلى الحجاج فقال: ويلك ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: أقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحًا، حتى قبل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه. قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله (ﷺ) قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله (ﷺ) صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته[٩٢]، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي (ﷺ) فأذن لي، فأخف عليّ يا أبا الفضل ثلاثًا، ثم اذكر ما شئت[٩٣]. فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل، لا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله (ﷺ)، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله (ﷺ) صفية بن حيي لنفسه، فإن كانت لك

---

(٩٠) أبهري: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٩١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (٩/ ١٥٩-١٩٦) طبعة الحلبي.
(٩٢) انظر صحيح السيرة النبوية ص(٤٥٩).
(٩٣) انظر تاريخ الذهبي المغازي ص(٤٣٩).

حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقًا، قال فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ أمر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله (ﷺ)، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هاهنا، ثم يذهب، قال: فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئبًا حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر وسر المسلمون، ورد الله (تبارك وتعالى) ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين[٩٤] وفي هذا الخبر فقه غزير منه: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، بمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولاسيما تكميل الفرح والسرور، وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سببًا في حصول هذه المصلحة الراجحة.

عاشرًا: بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكام شرعية كثيرة منها:

١- تحريم أكل لحوم الحمر الإنسية:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله (ﷺ) نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية[٩٥].

٢- حرمة وطء السبايا الحوامل:

قال رسول الله (ﷺ): «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره**»[٩٦].

٣- حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:

قال رسول الله (ﷺ): «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقضي على امرأة من السبي حتى يستبرئها**»[٩٧].

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط ولا تجب عليها العدة وإن كانت

---

(٩٤) أخرجه أحمد في المسند: (٣/ ١٣٨، ١٣٩)؛ عبد الرزاق في المصنف رقم (٩٧٧١)، وأبو يعلي برقم (٣٤٧٩)، والبيهقي في السنن (٩/ ١٥١)، والدلائل (٤/ ٥٢٦٦، ٥٢٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٥٤-١٥٥): رواه أحمد، وأبو يعلي، والبزار والطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير في البداية (٤/ ٢٣) عن سند أحمد: وهذا الإسناد على شرط الشيخين، نقلاً عن صحيح السيرة النبوية ص(٤٦٠).

(٩٥) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٢٢-١٢٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٥).

(٩٦) انظر: الطبقات (٢/ ١١٣). (٩٧) انظر: الروض الأنف (٤/ ٤١).

متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حيًا. لأن العدة وفاء للزوج الميت وحداد عليه، ولا يحد على الكافر كما علمت[(٩٨)].

٤- حرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله (ﷺ) استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله (ﷺ): «**كل تمر خيبر هكذا؟**» فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: «**لا تفعل، بعِ الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا**»[(٩٩)].

فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشترى صاعًا بأكثر من صاع، فالزيادة هنا هي الربا، وهذا محرم كما رأيت، إذ نهى النبي (ﷺ) عن ذلك، وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر، لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا[(١٠٠)].

٥- حرمة بيع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين:

روي عن عبادة بن الصامت، أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال: «**ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين**»[(١٠١)].

والمراد من الحديث: أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل، والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص؛ وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترك المماثلة، كما هو معلوم، وثابت في الصحاح[(١٠٢)].

٦- مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي (ﷺ) خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها[(١٠٣)].

وقد تساءل بعض الباحثين لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحًا جديدًا بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري كثيرًا في يثرب[(١٠٤)].

---

(٩٨) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).
(٩٩) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٤٤).
(١٠٠) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).
(١٠١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (٤/ ٤١).
(١٠٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٣٢١).
(١٠٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٤٨).
(١٠٤) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٠٤)؛ الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٦).

٧- حل أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله (ﷺ) يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخص في الخيل[١٠٥].

٨- تحريم المتعة:

عن علي رضي الله عنه قال: أن رسول الله (ﷺ) نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية[١٠٦].

٩- مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله (ﷺ) في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا -وهو السير إلى خيبر- فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال: «**على بركة الله**». قالت: فخرجنا معه، قالت: فوالله لنزل رسول لله (ﷺ) إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم مني -وكانت أول حيضة حضتها- قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت. فلما رأى رسول الله (ﷺ) ما بي ورأى الدم قال: «**ما لك؟ لعلك نفست؟**» قال: قلت: نعم؟ قال: «**فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحًا ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك**» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبدًا[١٠٧]، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحًا، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت[١٠٨].

وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين[١٠٩].

وهكذا كانت حياة الرسول (ﷺ) تعليمًا وتربية للأمة في السلم والحرب على معاني العقيدة، وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض وجزء من كل.

هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دويًّا هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم ومتاعهم[١١٠]، أما

---

(١٠٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٩) .

(١٠٦) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢١٥ .

(١٠٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٥) .

(١٠٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٧٢،٣٧٣) .

(١٠٩) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان ص٥٣٤ .

(١١٠) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٥٣) .

القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعًا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي(١١١).

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمّر عليها (ﷺ) كبار الصحابة وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال(١١٢).

---

(١١١) نفس المصدر (١/ ٣٥٣).

(١١٢) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٢٢١).



المبحث الثاني

دعوة الملوك والأمراء

أولاً: كان صلح الحديبية إيذانًا ببداية المد الإسلامي:

فقد انساح هذا المد إلى أطراف الجزيرة العربية بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية فمذ (أن عقد الرسول (ﷺ) صلح الحديبية مع قريش وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ووادي القرى وتيماء، وفدك، إلى سيادة الإسلام، فإن الرسول لم يأل جهدًا لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز وكذلك خارج حدود الجزيرة العربية وقد عبّر عليه الصلاة والسلام عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عددًا من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية.

وتُعَدُّ هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والإسلام، ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة)(١١٣).

ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول (ﷺ) أسلوبًا جديدًا من أساليب الدعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجًا سياسيًا وعسكريًا واضحًا ومتميزًا(١١٤) **وإليك أهم هذه الرسائل:**

١- فقد وردت رواية صحيحة(١١٥)، تضمنت نص كتاب النبي (ﷺ) الذي بعثه مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم(١١٦) وذلك في مدة هدنة الحديبية وهو كما يلي:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ**

(١١٣) انظر: السفارات النبوية، د. محمد العقيلي ص١٥.
(١١٤) انظر: العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد المهجر ص١١٢.
(١١٥) مسلم، (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧) رقم ١٧٧٣.
(١١٦) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٤٤) اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرسائل.

﴿فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية ٦٤)[١١٧].

ولقد تسلم هرقل رسالة النبي (ﷺ) ودقق في الأمر كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصحيحين حين سأله عن أحوال النبي، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أعلم أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه)[١١٨].

٢- أرسل النبي (ﷺ) بكتاب إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، مع عبد الله بن حذافة السهمي، (أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[١١٩]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله (ﷺ) أن يُمَزَّقُوا كُلَّ ممزق)[١٢٠]، ونص الرسالة كما أورده الطبري كالتالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًا، أسلم تسلم، فإن أبيت عليك إثم المجوس»[١٢١].

٣- أما كتاب النبي (ﷺ) إلى النجاشي ملك الحبشة فقد أرسلها مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء في الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة عن طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله (عز وجل) وقد بلَّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[١٢٢].

٤- أما كتاب النبي (ﷺ) إلى المقوقس حاكم مصر[١٢٣]، وكذلك رد المقوقس إليه[١٢٤]، فلم تثبت من طرق صحيحة، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أن

---

(١١٧) مسلم شرح النووي، كتاب الجهاد ، كتب النبي (١٠٧/١٢) .

(١١٨) مسلم (١٣٩٣/٣) رقم (١٧٧٣) .

(١١٩) شرح المواهب اللدنية (٣٤١/٣) .

(١٢٠) البخاري مع فتح الباري (٢٦/٨) رقم ٤٤٢٤، وكانت الرسالة في محرم سنة ٧هـ كما في زاد المعاد.

(١٢١) انظر: تاريخ الطبري (٦٥٤/٢-٦٥٥) .

(١٢٢) انظر: نصب الراية للزيلعي (٤٢١/٤) نقلاً عن نظرة النعيم (٣٤٦/١) .

(١٢٣) انظر: نظرة النعيم (٣٤٦/١) .

(١٢٤) نفس المصدر (٣٤٦/١) .

ذلك لا يعني الطعن بصحة النصوص من الناحية التاريخية فربما تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون غير أنها لا يمكن أن يحتج بها في السياسة الشرعية[١٢٥]، فلقد أورد محمد ابن سعد في طبقاته[١٢٦] أن النبي (ﷺ) بعث إلى المقوقس، جُريح بن مينا ملك الإسكندرية وعظيم القبط، كتابًا مع حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، وأنه قال خيرًا وقارب الأمر، غير أنه لم يسلم وأهدى إلى النبي (ﷺ) عِدة هدايا كان بينها مارية القبطية، وأنه لما ورد جواب المقوقس إلى النبي (ﷺ) قال: «**ضنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه**»[١٢٧].

٥- وبعث رسول الله (ﷺ) شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خزيمة، برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق[١٢٨]، حين عودته والمسلمين من الحديبية وقد تضمن نص الرسالة قوله: «**سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يُبْقي لك ملكك**»[١٢٩].

٦- وأرسل رسول الله (ﷺ) سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي الحنفي[١٣٠] عند مقدمه من الحديبية وقد اشترط هوذة الحنفي على الرسول (ﷺ) بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النبي (ﷺ) أن يقبل ذلك[١٣١].

٧- وأرسل (ﷺ) أبا العلاء الحضرمي[١٣٢] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبدي، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي (ﷺ)، فأسلم، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم دينار[١٣٣]، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي (ﷺ) إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه:

«**سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فإن الجزية عليه**»[١٣٤].

---

(١٢٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٩).
(١٢٦) انظر: الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٠-٢٦١).
(١٢٧) البداية والنهاية (٥/ ٣٤٠).
(١٢٨) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٢).
(١٢٩) نفس المصدر (٢/ ٦٥٢).
(١٣٠) كان صاحب اليمامة، ومات بعد فتح مكة بقليل.
(١٣١) انظر: نصب الراية (٤/ ٤٢٥)؛ إعلام السائلين، ابن طولون ص(١٠٥، ١٠٧).
(١٣٢) انظر: صبح الأعشى القلقشندي (٦/ ٣٦٨).
(١٣٣) الزيلعي تخريج أحاديث الهداية (٤/ ٤١٩-٤٢٠).
(١٣٤) الأموال لأبي عبيد ص(٢٨).

وفي ذي القعدة سنة ٨هـ بعث النبي (ﷺ) عمرو بن العاص بكتابه إلى جَيْفر وعبد ابني الجلندي الأزديين بعمان[١٣٥]. وقد جاء فيه: «**من محمد النبي رسول الله لعباد الله الأسديين ملوك عمان، وأسد عمان، ومن كان منهم بالبحرين إنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا حق النبي (ﷺ)، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنهم آمنون وأن لهم ما أسلموا عليه، غير أن مال بيت النار ثُنْيًا لله ورسوله، وأن عشور التمر صدقة، ونصف عشور الحب، وأن للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأن لهم على المسلمين مثل ذلك، وأن لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا**»[١٣٦].

وأوردت المصادر بعد ذلك عددًا كبيرًا من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من الناحية الحديثية[١٣٧].

ثانيًا: مواصفات رجل الدبلوماسية الإسلامية:

قام اللواء الركن محمود شيت خطاب بجمع الرسائل وتحدث عن الرسل في كتابه الفريد سفراء النبي (ﷺ) استنبط من خلالها شروط ومواصفات رجل الدبلوماسية الإسلامية ومن أهم تلك الشروط والمواصفات:

١- الإسلام والدعوة إليه:

قال (تعالى): ﴿ **قُلْ هَـذِه سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (سورة يوسف، آية ١٠٨).

وإذا كان المسلمون كلهم دعاة إلى الله (تعالى) فرسل النبي (ﷺ) إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدعاة[١٣٨].

٢- الفصاحة والوضوح:

الفصاحة وجزالة اللفظ والدقة في توصيل المعاني إلى السامعين شرط أساس في الرجل الذي يتصدى للمهمة الدبلوماسية، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه: ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** ﴾ (سورة طه، آيات ٢٩، ٣٠، ٣١). وقد اختار الرسول (ﷺ) كل سفرائه ومبعوثيه من العرب الذين تربوا في الجزيرة العربية ومع البدو أحيانًا فقد كانوا أصحاب نقاوة لم تتكدر باختلاط الأعاجم بعد، فقد كانوا على قدر كبير من الفصاحة والوضوح.

٣- حسن الخلق:

أخلاق السفير النبوي، هي أخلاق الإسلام التي بينها الله (سبحانه وتعالى) في القرآن

(١٣٥) انظر: صبح الأعشى (٦/ ٣٧٦).
(١٣٦) انظر: الأموال لأبي عبيد ص٢٨، ٢٩.
(١٣٧) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٤٨).
(١٣٨) انظر: سفراء الرسول، محمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٨).

الكريم وفصلها رسول الله (ﷺ) في سنته وأهمها في السفير الصدق والتواضع[١٣٩].

٤- العلم:

لا نريد هنا أن نبين منزلة العلم لأن الكلام على هذه المسـألة طويل ولكننا نؤكد هنا أن العلم بالشيء هو وسيلة نقل الفكرة والمبدأ، لذا عندمـا تنظر إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يحاور النجاشي ثم يقرأ عليه سورة ﴿كهيعص﴾ تتيقن من دقة الاختيار النبوي ونصاعة خطاب العالم ودقة اختياره للألفاظ والعبارات[١٤٠].

٥- الصبر:

قال (تعـالى): ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سـورة الأحقاف، الآية ٣٥). والحقيقة أن الصبر هو عدة الداعية، وزاده المستمر ولو تصفحت سيرة الرسول (ﷺ) وسيرة صحابته الأجلاء لوجدتها حافلة بالصبر على الدعوة، وموقف الطائف شاهد على ذلك.

٦- الشجاعة:

وقد تحدث التاريخ الإسلامي عن شجـاعة السفراء والذين أرسلهم الرسول (ﷺ) إلـى الملوك وأنهم كانوا لا يخافون لومة لائم.

٧- الحكمة:

وقد كان سفراء الرسول (ﷺ) يتصفون بالحكمة، فهذا عمرو بن العاص كان في أقواله وأفعاله، قيل لعمرو: ما العاقل؟ قـال: (الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان) ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، إنما العاقل الذي يعرف خير الشرين[١٤١].

٨- سعة الحيلة:

يجب أن يكون السفير مدركـًا لأبعاد المناورة السياسية، متأنيًا كتـومًا، وسعة الحيلة التي ترتكز أولاً وقبل كل شيء عـلى الذكاء من أهم سمـات السفير، وقـد كان سفـراء الرسول (ﷺ) يتصفون بالذكاء، والدهاء وتوقع الأحداث، والحساب لكل ما يمكن أن يحدث، وهذه مقومات سعة الحيلة.

٩- المظهر:

تميز سـفراء النبي (ﷺ) بالمظهر الحسن مع نقاء المخـبر، وقد حرص النبي (ﷺ) علـى اختيار سفرائه مـن بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جـميلة إلى جانب سماتهم

---

(١٣٩) انظر: سفراء الرسول (٢/ ٢٧٨).

(١٤٠) الفقه السياسي للوثائق النبوية، خالد الهفداوي ص١١٤.

(١٤١) انظر: الفقه السياسي للوثائق النبوية وقد نقل عن سفراء الرسول (٢/ ٣٠١).

العقلية والنفسية سالفة الذكر(١٤٢).

هذه أهم الصفات التي استخلصها اللواء الركن محمود شيت خطاب من خلال دراسته القيمة لسفراء النبي (ﷺ) والتي ينبغي للسفير المسلم أن يتحلى بها وتكون للدولة الإسلامية مقياس في اختيار من ترشحه لهذا المنصب الخطير.

ثالثًا: دروس وعبر وفوائد:

١- الأريسيون:

وردت كلمة «الأريسيين» أو «اليريسيين» -على اختلاف الروايات- في الكتاب الذي وجه إلى (هرقل) وحده، ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت إلى غيره، واختلف علماء الحديث واللغة من مدلول هذه الكلمة، فالقول المشهور أن «الأريسيين» جمع «أريسي» وهم الخول، والخدم والأكارون(١٤٣).

وذهب العلامة أبو الحسن الندوي إلى أن المراد بالأريسيين هم أتباع «أريوس» المصري وهو مؤسس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والإصلاح الديني، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمنًا طويلاً، و«أريوس» هو الذي نادى بالتوحيد، والتمييز بين الخالق والمخلوق والأب والابن -على حد تعبير المسيحيين- لعدة قرون(١٤٤).

ودامت عقيدة «أريوس» ودعوته تصارعان الدعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح وتسويته بالإله الواحد الصمد وكانت الحرب سجالاً، وقد دان بهذه العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من المملكة البيزنطية إلى أن عقد تيوسورس الكبير مجمعًا مسيحيًا في القسطنطينية، قضى بألوهية المسيح وابنيته، وقضى هذا الإعلان على العقيدة التي دعا إليها «أريوس» واختفت ، ولكنها عاشت بعد ذلك، ودانت بها طائفة من النصارى، اشتهرت بالفرقة الأريسية أو الأريسيين، فمن المرجح المعقول أن النبي (ﷺ) إنما عنى هذه الفرقة بقوله: «**فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين**» فإنها هي القائمة بالتوحيد النسبي في العالم المسيحي الذي تتزعمه الدولة البيزنطية العظمى، التي كان على رأسها (هرقل)(١٤٥).

وقد تحدث الإمام أبو جعفر الطحاوي عن هذه الفرقة فقال: وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني أن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية، توحد الله، وتعترف بعبودية المسيح

---

(١٤٢) انظر: مقومات السفراء في الإسلام، حسن فتح الباب ص(٦٠).

(١٤٣) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٠٤).

(١٤٤) نفس المصدر ص(٣٠٥).

(١٤٥) وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة الندوي، الدكتور معروف الدواليبي في الأريسيين ويؤيد ماقاله الندوي أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنى بقوله: «فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين» أتباع أريوس الفرق المسيحية الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النافية لألوهيته وقد جاء هذا البحث القيم في رسالة نظرات إسلامية ص(٦٨-٨٣). انظر: السيرة للندوي ص(٣٠٧).

له عز وجل، ولا تقول شيئًا مما يقول النصارى في ربوبيته وتؤمن بنبوته، فإنها تمسك بدين المسيح مؤمنة بما في إنجيله جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك وإذا كان ذلك كذلك جاز أن يقال لهذه الفرقة «الأريسيون» في الرفع ضعيف: «الأريسيين» في النصب والجر، كما ذهب إليه أصحاب الحديث)(١٤٦).

٢- اعتبارات حكيمة خاصة بالملوك:

في رسائل رسول الله (ﷺ) للملوك فوارق دقيقة مؤسسة على حكمة الدعوة روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، (والخلفيات) التي يمتازون بها، فلما كان هرقل والمقوقس يدينان بألوهية المسيح كليًا أو جزئيًا، وكونه ابن الله، جاءت في الكتابين اللذين وجّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النبي (ﷺ) صاحب هاتين الرسالتين، فيبتدئ الكتابان بعد التسمية بقوله: «**من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم**» وبقوله: «**من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط**» بخلاف ما جاء في كتابه (ﷺ) إلى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: «**من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس**» وجاءت كذلك آية: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (سورة آل عمران، آية ٦٤) في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز لأن الآية تخاطب أهل الكتاب الذين دانوا بألوهية المسيح، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وقد كان هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين، وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلاف يسير في الاعتقاد في المسيح هل له طبيعة أم طبيعتان(١٤٧).

ولما كان كسرى أبرويز وقومه يعبدون الشمس والنار، ويدينون بوجود إلهين، أحدهما يمثل الخير وهو يزدان، والثاني يمثل الشر وهو اهرمن، وكانوا بعيدين عن مفهوم النبوة والتصور الصحيح للرسالة السماوية، جاءت في الكتاب الذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: «**وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا**»(١٤٨).

وقد كان تلقي الملوك لهذه الرسائل يختلف، فأما هرقل، والنجاشي والمقوقس، فتأدبوا، وتلطفوا في جوابهم، وأكرم (النجاشي والمقوقس رسل رسول الله (ﷺ) وأرسل المقوقس هدايا منها جاريتين كانت أحداهما مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، وأما كسرى ابرويز فلما قرء عليه الكتاب مزقه، وقال: «**يكتب إلي هذا وهو عبدي؟**» فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فقال: «**مزق الله ملكه**»(١٤٩).

---

(١٤٦) انظر: مشكل الآثار (٣/ ٣٩٩).
(١٤٧) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ص٣٨-٣٩.
(١٤٨) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٢٩٠.
(١٤٩) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٩٠).

وأمر كسرى باذان وهو حاكمه على اليمن بإحضاره، فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فأخبره رسول الله (ﷺ) بأن الله سلط على كسرى ابنه شروية فقتله(١٥٠).

وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله بكل دقة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ(شرويه) وقتل كسرى ذليلاً مهانًا بإيعاز منه سنة ٦٢٨م وقد تمزق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه مدة أربع سنوات عشرة ملوك، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى انقراض الدولة الساسانية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضًا كليًا، وكان ذلك في سنة ٦٣٧م، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين(١٥١).

٣- الوصف العام لرسائل الرسول:

ويلاحظ الباحث أن الوصف العام لكتب الرسول إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحدًا، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التالية:

أ- نلاحظ أن جميع كتب الرسول (ﷺ) التي أرسلها إلى الملوك والرؤساء يفتتحها (ﷺ) بالبسملة، والبسملة آية من كتاب الله (تبارك وتعالى) وفي تصدير الكتاب بها أمور مهمة؛ كاستحباب بدء الكتب ببسم الله الرحمن الرحيم اقتداءً برسولنا محمد (ﷺ)، فقد واظب عليها في كتبه (ﷺ)، كما فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب، وإن كان هذا الكتاب موجها إلى الكافرين، وفيها جواز قراءة الكافر لآية أو أكثر من القرآن الكريم، لأن كتب رسول الله (ﷺ) تضمنت البسملة وغيرها، وفيها جواز قراءة الجنب لآية أو أكثر من القرآن الكريم؛ لأن هذا الكافر الذي أرسلت إليه الرسالة تضمنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة والنجاسة فيقرأ الرسالة التي اشتملت على آيات من القرآن الكريم وهو جنب.

ب- ونستنبط من رسائل رسول الله (ﷺ) إلى الملوك والأمراء الآتي:

* مشروعية إرسال السفراء المسلمين إلى زعماء الكفر، لأن كل كتاب كان يكتبه الرسول (ﷺ) يكلف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل.

* مشروعية الكتابة إلى الكفار في أمر الدين والدنيا.

* ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المرسل والمرسل إليه وموضوع الكتاب وهو واحد في جميع الكتب ويتلخص في دعوتهم إلى الإسلام.

* عدم بدء الكافر بتحية الإسلام، وهي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ذلك لأن

(١٥٠) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٩٠-٩١).
(١٥١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٠٠).

النبي (ﷺ) لم يطرح السلام في كتبه على ملك من ملوك الكفر، بل كان يصدر كتبه بقوله: السلام على من اتبع الهدى، أي آمن بالإسلام، ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحية الإسلام.

* اتخاذ الخاتم: فقد كان رسول الله (ﷺ) يختم رسائله بعد كتابته بخاتمه وقد كتب عليه ثلاث كلمات:

الله...

رسول...

محمد...(١٥٢)

فعن أنس رضي الله عنه قال: لما أراد النبي (ﷺ) أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا أن يكون مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة، فكأني أنظر إلى بيضة يده، ونقش فيه محمد رسول الله(١٥٣).

٤- تقدير الرجال:

لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميرًا على اليمن لم يعزله رسول الله (ﷺ) بل أبقاه أميرًا عليها بعد إسلامه، حين رأى فيه الإداري الناجح والحاكم المناسب، مما يدلل على أن الرسول (ﷺ) يقدر الكفاءات في الرجال ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) قد ولى ولده شهرًا أميرًا على اليمن بعد موته(١٥٤).

٥- جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النبي (ﷺ) الذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدد فيه الموقف من اليهود والمجوس، إذ ورد فيه: (ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية)(١٥٥).

وقد ذهب ابن القيم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كل إنسان يبذلها، سواء أكان كتابيًا أم غير كتابي كعبدة الأوثان من العرب وغيرهم فقد جاء في زاد المعاد: قد قالت طائفة في الأمم كلها إذا بذلوا الجزية؛ قبلت منهم، أهل الكتابين بالقرآن، والمجوس بالسنّة، ومن عداهم ملحق بهم لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم، فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين، وإنما لم يأخذها (ﷺ) من عبدة الأوثان من العرب لأنهم أسلموا قبل نزول آية الجزية، فإنها نزلت بعد تبوك(١٥٦).

---

(١٥٢) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس ص(٢٣٩، ٢٤٠).
(١٥٣) البخاري، باب دعوة اليهود والنصارى - فتح الباري (٦/١٠٨).
(١٥٤) غزوة الحديبية لأبي فارس ص(٢٤٢).
(١٥٥) نفس المصدر ص(٢٤٢).
(١٥٦) انظر: زاد المعاد (٥/٩١).

٦- جواز أخذ هدية الكافر:

فقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة وهو كافر هدية تشتمل على جاريتين وكسوة للرسول (ﷺ) وبغلة يركبها ،فقبلها رسول الله (ﷺ)، وإحدى هاتين الجاريتين مارية القبطية(١٥٧).

٧- من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

أظهر الرسول (ﷺ) في سياسته الخارجية دراية سياسية فاقت التصور، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر (ﷺ) قوة وشجاعة فائقتين، فلو كان غير رسول الله (ﷺ) لخشي عاقبة ذلك الأمر، لا سيما وأن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس، ولكن حرص رسول الله وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله (سبحانه وتعالى)، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه **وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:**

أ- وطد الرسول (ﷺ) بهذه السياسة أسلوبًا جديدًا في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.

ب- أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها وفرضت وجودها على الخارطة الدولية لذلك الزمان.

ج- كشفت للرسول (ﷺ) نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه وحكمهم على دعوته.

د- كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيرًا عمليًا على عالمية الدعوة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله (تعالى): ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الأنبياء، الآية ١٠٧).

وهكذا، فإن رسائل النبي (ﷺ) إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تعتبر نقطة تحول في سياسة دولة الرسول الخارجية، فعظم شأنها، وأصبحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذه السياسة مهدت لتوحيد الرسول (ﷺ) لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود(١٥٨).

●●●

(١٥٧) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس ص(٢٤٣).

(١٥٨) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ص(٣٥١).



المبحث الثالث

عمرة القضاء

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول (ﷺ) إلى مكة قاصدًا العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من استشهد في خيبر أو مات قبل عمرة القضاء[١٥٩].

وقد اتجه رسول الله (ﷺ) وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكة المكرمة في موكب مهيب يشق طريقه عبر القرى والبوادي، وكان كلما مر الموكب النبوي بمنازل قوم من الذين يسكنون على جانبي الطريق بين مكة والمدينة خرجوا وشاهدوا منظرًا لم يألفوه من قبل، حيث المسلمين بزي واحد من الإحرام وهم يرفعون أصواتهم بالتلبية ويسوقون هديهم في علاماته وقلائده في مظهر بهي لم تشهد المنطقة له مثيلاً[١٦٠].

أولاً: الحيطة والحذر من غدر قريش:

اصطحب النبي (ﷺ) معه السلاح الكامل، ولم يقتصر على السيوف، تحسبًا لكل طارئ قد يقع، خاصة وأن المشركين في الغالب لا يحافظون على عهد قطعوه، ولا عقد عقدوه[١٦١].

وما أن وصل قريشًا خبر مسير النبي (ﷺ)، ومعه هذا العدد الضخم، وهذه الأسلحة المتنوعة، وفي مقدمة القافلة مائتا فارس بقيادة محمد بن مسلمة ،حتى أرسلت إلى رسول الله (ﷺ) مكرز بن حفص في نفر من قريش، ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوه في بطن يأجج[١٦٢] بمر الظهران فقالوا له: يا محمد! والله ما عرفناك صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها، فقال رسول الله (ﷺ) : «لا ندخلها إلا كذلك» ثم رجع مكرز مسرعًا بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمدًا لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم[١٦٣].

ووضع رسول الله (ﷺ) السلاح خارج الحرم قريبًا منه تحسبًا لكل طارئ، وأبقى عنده مائتي فارس بقيادة محمد بن مسلمة يحرسونه وينتظرون أمر الرسول ليتحركوا في أي جهة وينفذوا أي أمر، ويقاتلوا متى دعت الضرورة لذلك[١٦٤].

(١٥٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة ص٤٦٤ .
(١٦٠) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ص٣١٠ .
(١٦١) صلح الحديبية لأبي فارس ص٢٦٧ .
(١٦٢) موضع قرب مكة على ثمانية أميال منها .
(١٦٣) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٧٣٤)؛ طبقات ابن سعد . ()
(١٦٤) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص٢٦٨ .

إن النبي (ﷺ) لم يأمن غدر مشركي قريش وخيانتهم، فقد تسول لهم أنفسهم أن ينصبوا كمينًا أو أكثر للمسلمين ويشنوا عليهم هجومًا مباغتًا ولذلك احتاط وأخذ الحذر ووفى بعهده ووعده لقريش وعلّم الأمة لكي تحذر من أعدائها(١٦٥)، وفي بقاء كوكبة من الصحابة في حراسة الأسلحة والعتاد لكي يراقبوا الموقف بدقة وتحفز معنى من معاني العبادة في هذا الدين(١٦٦).

ثانيًا: دخول مكة والطواف والسعي:

ومن بطن يأجج تابع رسول الله (ﷺ) سيره نحو مكة على راحلته القصواء، فدخلها من الثنية التي تطلعه على الحجون والمسلمون حوله متوشحون سيوفهم، محدقون به كل جانب، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيء، وأصواتهم تعجّ بالتلبية لله العلي الكبير(١٦٧).

هذه التلبية الجماعية التي تعج أصوات المسلمين بها، والتي لم تنقطع منذ أن أحرموا واستمرت حتى دخلوا مكة، فقد كان للتلبية مغزى ومعنى، فهي تعلن التوحيد وترفع شعاره، وتعني إبطال الشرك وإسقاط رايته، وتعلن الحمد والثناء على الله الذي مكنهم من أداء هذا النسك(١٦٨) فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وكان عبد الله بن رواحة آخذًا بزمام راحلته وهو يرتجز بشعره:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلو فكلُّ الخير في رسوله

يا رب إني مؤمن بقيله ... أعرف حق الله في قبوله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله(١٦٩)

وكان مظهرًا دعويًا مؤثرًا عندما بدأ الموكب النبوي الكريم يقترب من بيوت مكة المكرمة وأبنيتها شاقًا طريقه باتجاه الكعبة المشرفة وهم في مظهرهم المهيب، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية، فقد ذكرت معظم كتب السير والمغازي أن قسمًا من أهالي مكة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة الشريفة آنذاك، ليشاهدوا رسول الله (ﷺ) وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام(١٧٠).

---

(١٦٥) نفس المصدر ص(٢٧٥).

(١٦٦) المصدر السابق ص(٢٧٧).

(١٦٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ص(٣٥٣).

(١٦٨) انظر: صلح الحديبية ص(٢٧٧).

(١٦٩) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٤٨١).

(١٧٠) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ص(٣١٤).

وكان المشركون قد أطلقوا شائعة ضد المسلمين مفادها أنهم وهنتهم[١٧١] حُمَّى يثرب، فأمر النبي (ﷺ) أصحابه أن يرملوا في الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين[١٧٢]، لكي يرى المشركون قوتهم، ودخل رسول الله (ﷺ) البيت الحرام واضطبع[١٧٣] بردائه فأخرج عضده اليمنى وشرع في الطواف وأصحابه يتابعونه ويقتدون به، ولما رأى المشركون ذلك قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم. هؤلاء أجلد من كذا وكذا[١٧٤].

وقد قصد رسول الله (ﷺ) بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضطباع، والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية، أن يرهب قريشًا، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم، وقد أثر هذا الأسلوب في نفوس المشركين[١٧٥] وبهذا الأسلوب النبوي الكريم أغاظ الرسول (ﷺ) المشركين وكايدهم، فقد كان (ﷺ) يتقرب إلى الله بمكايدتهم وإغاظتهم، ففي غزوة أحد أذن (ﷺ) لأبي دجانة أن يمشي متبخترًا أمام المشركين لإظهار عزة المؤمن ولأن ذلك يغيظ المشركين، وزيادة في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرسول (ﷺ) ذلك ،وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله (ﷺ) في الهدي جمل أبي جهل الذي غنمه في بدر، ليراه المشركون فيزدادون غيظًا حين يذكرون مصارع قتلاهم وذل أسراهم ،وها هو ذا (ﷺ) يأمر المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التجلد والهرولة لإغاظتهم ومكايدتهم ورد كيدهم في نحورهم[١٧٦]، وقد ذكر ابن القيم: (بأن رسول الله (ﷺ) كان يكيد المشركين بكل ما يستطيع)[١٧٧].

فهذه حرب نفسية شنها رسول الله (ﷺ) على المشركين وقد آتت أكلها ،ولقد أقام الرسول في مكة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التوحيد، ويطوفون بالبيت العتيق، ويرفعون الأذان ويقيمون الصلاة، ويصلي بهم رسول الله (ﷺ) الصلوات الخمس في جماعة، وكان بلال بن رباح بصوته الندي يرفع الأذان من على ظهر الكعبة، فكان وقعه على المشركين كالصاعقة[١٧٨].

ولم ينس (ﷺ) مجموعة الحراسة التي كانت تحرس الأسلحة والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمتهم ممن طاف وسعى مكانهم ويأتي هؤلاء ليؤدوا النسك، فقد كان (ﷺ) يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام، وما جاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشاسعة إلا لتنال هذا الشرف، وتبل هذا الظمأ، فتطوف مع الطائفين وتسعى مع الساعين،

---

(١٧١) أضعفتهم .
(١٧٢) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ٦) رقم (٤٢٥٦) .
(١٧٣) الاضطباع: هو أن يدخل بعض رداءه تحت عضده اليمين ويجعل طرف على منكبه .
(١٧٤) صحيح السيرة النبوية ص(٤٨١) .
(١٧٥) انظر: منهج الإعلام الإسلامي ص(٣١٥) .
(١٧٦) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٢٨٢) .
(١٧٧) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٧١) .
(١٧٨) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٢٧٠) .

فعـمل (ﷺ) على مراعاة النفوس، وساعدها ولبى مطالبـها من أجل إصلاحها والرقي بها؛ إنه من منهج النبوة في التربية[١٧٩].

ثالثا: زواجه (ﷺ) من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث:

كانت مـيمونة، أخت أم الفـضل، زوجة العبـاس بن عبـد المطلب، فتاة في السـادسة والعشرين، قـد جعلت أمر زواجها بعد وفـاة زوجها أبو رهم بن عبد العزى إلى أختـها أم الفضل، فجعلته أم الفضل إلى زوجها العـباس، فزوجها العباس من ابن أخيه النبي (ﷺ)، وأصدقـها عنه أربعـمائة درهم[١٨٠]، وهي خالة عـبد الله بن عباس، وخـالد بن الوليد ولما انقضت الثلاثة أيام، التي نص عليها عهد الحديبية، أراد النبي (ﷺ) أن يتخذ من زواجه من ميمـونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فـجاءه سهيل بن عمرو، وحـويطب بن عبد العزى، موفدين من نفـر من قريش فقالوا: إنه قد انقضى أجلك، فـاخرج عنا، فقال النبي (ﷺ) كما ذكر ابن إسحاق: «**وما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعمًا فحضرتموه؟**».

قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا[١٨١].

فخـرج، وخلف أبا رافع مولاه على ميـمونة، حـتى أتاه بها في بسرف (مـوضع قرب التنعيم) فبنى بها هناك[١٨٢]، وهي آخر من تزوج الرسول (ﷺ) من نسائه وآخـر من مات من نسائه بعـده، وماتت ودفنت بسرف، فمكان عـرسها هو مكان دفنها، فـرضي الله عنها وأرضاها[١٨٣].

وفي زواج رسـول الله (ﷺ) بميمونة مسألة فقهية اختلف الفقهاء فيها وهي: هل تزوج (ﷺ) بميمونة وهو محرم (عقد نكاحها عليـها فقط) أو عقد عليها بعد التحلل؟[١٨٤] وقـد أجاد الفقهاء في تفصيلها.

رابعًا: التحاق بنت حمزة بن عبد المطلب بركب المسلمين:

لقد تغيرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيرًا عظيمًا، فعادت البنت -التي كان يتعير بها أشراف العرب، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فرارًا من العار، وزهدًا في البنات- حبيبة يتنافس في تربيتها المسلمون، وكانوا سواسية، لا يرجح بعضهم على بعض إلا بفضل أو حق[١٨٥] فلما أراد النبي (ﷺ) الخروج من مكة، تبعته ابنة حمزة تنادي يا عم! يا عم!

(١٧٩) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٢٧٧).
(١٨٠) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٣٢٦).
(١٨١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٩).
(١٨٢) نفس المصدر(٤/١٩).
(١٨٣) انظر: هذا الحبيب محمد يامحمد، للجزائري ص(٣٧٥).
(١٨٤) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص(٢٥٨).
(١٨٥) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٢١).

فتناولها عليّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك، فاختصم فيها عليّ وزيد وجعفر.

قال عليّ: أنا أخذتها وهي بنت عمي وقال جعفر: هي ابنة عمي وخالتها تحتي وقال زيد: ابنة أخي فقضى بها النبي (ﷺ) لخالتها وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**» وقال لعليّ: «**أنت مني وأنا منك**» وقال لجعفر: «**أشبهت خَلْقي وخُلُقي**» وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**» وقال عليّ: ألا تتزوج بنت حمزة. قال: انها إبنة أخي من الرضاعة[١٨٦].

وفي هذه القصة دروس وعبر وأحكام وفوائد منها:

١- الخالة بمنزلة الأم.

٢- الخالة تقدم على غيرها في الحضانة إذا لم يوجد الأبوان.

٣- تزكية رسول الله (ﷺ) لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ووصفه له بقوله: «**أشبهت خَلقي وخَلقي**».

٤- منقبة عليّ تأمل قوله (ﷺ): «**أنت مني وأنا منك**»، والمعنى أنت مني وأنا منك في النسب والصهر، والسابقة والمحبة.

٥- منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرسول «**أنت أخونا مولانا**» لأنه كان أخًا لحمزة بن عبد المطلب فقد آخى الرسول (ﷺ) بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشقيق من واجبات ،والواجب هنا أن يكون وليًا على بنت حمزة رضي الله عنه.

٦- الخالة تقدم على العمة في الحضانة: لقد حكم النبي (ﷺ) إلى زوجة جعفر بالحضانة وعمتها صفية بنت عبد المطلب حية موجودة.

٧- زواج المرأة لا يسقط حقها في الحضانة: فقد حكم الرسول (ﷺ) بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

٨- لا بد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها، لأن الزوجة محتسبة لمصلحته ومنفعته، والحضانة قد تفوت هذه المصلحة جزئيًا، فلا بد من استئذانه، ونلاحظ هنا أن جعفر بن أبي طالب قد طالب بحضانة بنت عمه حمزة لخالتها وهي زوجة له، فدل على رضاه بذلك.

٩- إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخًا له في الرضاعة، وتصبح بناته كلها بنات أخيه في الرضاعة، فيحرم عليه نكاحهن[١٨٧].

خامسًا: أثر عمرة القضاء على الجزيرة وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة:

لقد كان تأثير هذه العمرة على قريش وعلى عرب الجزيرة تأثيرًا بالغًا، فقد حملت في

---

(١٨٦) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٠) رقم (٤٢٥١) .

(١٨٧) انظر: زاد المعاد فيه تفصيل كثير (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)؛ صلح الحديبية لأبي فارس ص(٢٨٦، ٢٨٧) .

مضمونها مهمة دعوية عظيمة، ولقد تأثر أهل مكة في هذه العمرة السلمية.

يقول اللواء محمود شيت خطاب: (أثرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريش تأثيرًا كبيرًا، فقد وقف الكثير من قريش عند دار الندوة بمكة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرسول (ﷺ) وأصحابه، فلما دخل رسول الله (ﷺ) المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة»، ثم استلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه. فلم يكد يترك الرسول (ﷺ) مكة، حتى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش: لقد استبان لكل ذي عقل أن محمدًا ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق كل ذي لب أن يتبعه، وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد، فبعث في طلبه، وسأله عن صحة ما سمع فأكد له خالد صحته، فاندفع أبو سفيان إلى خالد في غضبة، فحجز عنه عكرمة، وكان حاضرًا، وقال: مهلاً يا أبا سفيان، فوالله خفتُ للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالدًا على رأي رآه. وهذه قريش كلها تابعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم. وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كل بيت من قريش سرًا وعلانية، وبهذه النتيجة الطيبة يمكننا القول: بأن عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها)[١٨٨].

ويقول الأستاذ محمود العقاد: (... وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما في رجاحة العقل والخلق مثلان متكافئان يحتذى بهما)[١٨٩].

١- إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه:

ونترك عمرو بن العاص يحدثنا عن إسلامه حيث قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوًا منكرًا، وإني قد رأيت أمرًا، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا، فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم[١٩٠]، فجمعنا له أدمًا كثيرًا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله (ﷺ) قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه، ثم خرج

(١٨٨) انظر: الرسول القائد ص(٢٠٩، ٢١٠).
(١٨٩) انظر: عبقرية محمد ص(٦٩).
(١٩٠) الأدم: الجلد.

من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو دخلت على النجاشي، وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني أجزأت عنها[١٩١]، حيث قتلت رسول محمد.

قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا صديقي، أهديت إليّ من بلادك شيئًا؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدمًا كثيرًا، قال: ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مد يده، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقًا منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لقتله. قال: قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت على أصحابي إسلامي ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم[١٩٢]، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟! قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

قال: فقدمنا المدينة على رسول الله (ﷺ)، فتقدم خالد بن الوليد، فأسلم، وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله (ﷺ)، إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر. قال: فقال رسول الله (ﷺ): **«يا عمرو، بايع، فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها»**، قال: فبايعته ثم انصرفت[١٩٣]. وفي رواية قال: . . . فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي (ﷺ) فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي. قال: **«أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»**[١٩٤].

٢- إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدثنا عن قصة إسلامه فيقول: (. . . لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حُبّ الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها

---

(١٩١) اجزأت عنها: كفيتها.

(١٩٢) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح.

(١٩٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٤٩٤).

(١٩٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله رقم (١٢١).

على محمـد، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء وأن محمدًا سيظهـر، فلما خرج رسول الله (ﷺ) إلى الحديبية خـرجت في خيل المشركين فلقـيت رسول الله (ﷺ) في أصحابه بعُسْفان، فـقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر آمنًا منا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يُعـزَم لنا-وكانت فيه خيرة- فاطلع على ما في أنفسنا مـن الهموم فـصلى بأصحابـه صلاة العصـر صلاة الخوف، فـوقع ذلك مني موقـعًا وقلت: الرجل مَمنوع! وافترقنا وعدل عن سَنَن خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشًا بالحديبية ودافعتـه قريش بالرّواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب إلى النجاشي؟ فقد اتبع محـمدًا، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل؟ فـأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهـودية، فأقيـم مع عجمٍ تابعًـا، أو أقيم في داري فـيمن بقى؟ فـأنا على ذلك إذ دخل رسـول الله (ﷺ) عمرة القضيّة، فتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي (ﷺ) في عُمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتابًا فإذا فيه: بسم الله الرحمـن الرحيم، أما بعـد: فإني لم أرَ أعـجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعَـقْلُك عَقْلُك! ومـثل الإسلام جَهَله أحد؟ وقد سـألني رسول الله (ﷺ) عنك فـقال: أين خـالد؟ فقلت يأتي الله به؟ فقال: «**ما مثله جهل الإسلام! ولو كـان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيرًا لـه، ولقدمناه على غيره**»، فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة.

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام وسرني مقالة رسول الله. قال خـالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضـيقـة جديبة، فـخرجت إلى بلد أخـضر واسع، فـقلت: إن هذه لرؤيا . . . فلما قـدمت المدينة قلت: لأذكـرنّها لأبي بكر. قـال: فذكرتها فقال: هو مخـرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، فلما أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أَكَلَةُ رأس[١٩٥]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قـدمنا على محمد فاتبـعناه فإن شرف محمـد على العرب، فأبى أشدّ الإباء وقـال: لو لم يبق غيـري من قريش ما اتـبعتـه أبدًا. فافتـرقنا وقلت: هذا رجل موتور يطلب وترًا، قـد قُتل أبوه وأخـوه ببدر. فلقيت عكرمـة بن أبي جهل فـقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قـال صفوان، قلت: فاطو ما ذكرت من قُتل من آبائه فكرهتُ أذكِّره، ثم قلت: وما عليّ وإنـي راحل من ساعتي. فذكرت له ما صـار الأمر إليه فقلت: إنما نحـن بمنزلة ثعلب في جُحر، لـو صُبَّ عليه ذَنوب[١٩٦] من ماء لخـرج. قال: وقلت له نحو مما قلت لصاحـبيه، فأسرع في الإجابة وقال: لـقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بضحّ مناخة. قال: فاتّعدت أنا وهو بيأجج، إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه. قـال: فادّلجنا سحرًا فلم يطلع الفجر حـتى التقينا بيأجج، فغدونا حـتى انتهينا

(١٩٥) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل.
(١٩٦) الذنوب: الدلو العظيمة.

إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها فقال: مرحبًا بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكما؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد (ﷺ). قال: وذلك الذي أقدمني.

قال: فاصطحبْنا جميعًا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرّة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله (ﷺ) فسُرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله (ﷺ)، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله (ﷺ) قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم. فأسرعت المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: «**الحمد لله الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير**». قلت: يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا عن الحق فادع الله أن يغفرها لي فقال رسول الله (ﷺ): «**الإسلام يجُب ما كان قبله**»، قلت: يا رسول الله، على ذلك؟ فقال: «**اللهم اغفر لخالد كلّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك**». قال خالد: وتقدم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله (ﷺ)، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله (ﷺ) من يوم أسلمت يعدل لي أحد من أصحابه فيما حَزَبه[197].

وفي إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما دروس ولطائف وعبر منها:

أ- غضبة النجاشي تدل على صدق إيمانه وحبه لرسول الله (ﷺ)، وحبه للمسلمين، وصدق النجاشي كان له أثر في إيمان عمرو بن العاص ودخوله في الإسلام، وبذلك نال النجاشي أجرًا عظيمًا حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش[198].

ب- كان إسلام عمرو بن العاص نصرًا كبيرًا للإسلام، والمسلمين فلقد سخَّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيرة لأنهم كانوا يُعدّونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين[199].

ج- أدرك خالد بن الوليد أن العاقبة لرسول الله (ﷺ) وتأمل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر[200] وفي هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام[201].

د- الاهتمام بالبشر طريق من طرق التأثير عليهم وكسبهم إلى الصف المؤمن، ولذلك

(١٩٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠)؛ التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).
(١٩٨) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٠).
(١٩٩) نفس المصدر (٧/ ٩١).
(٢٠٠) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس ص(٢٦٣).
(٢٠١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٩٥).

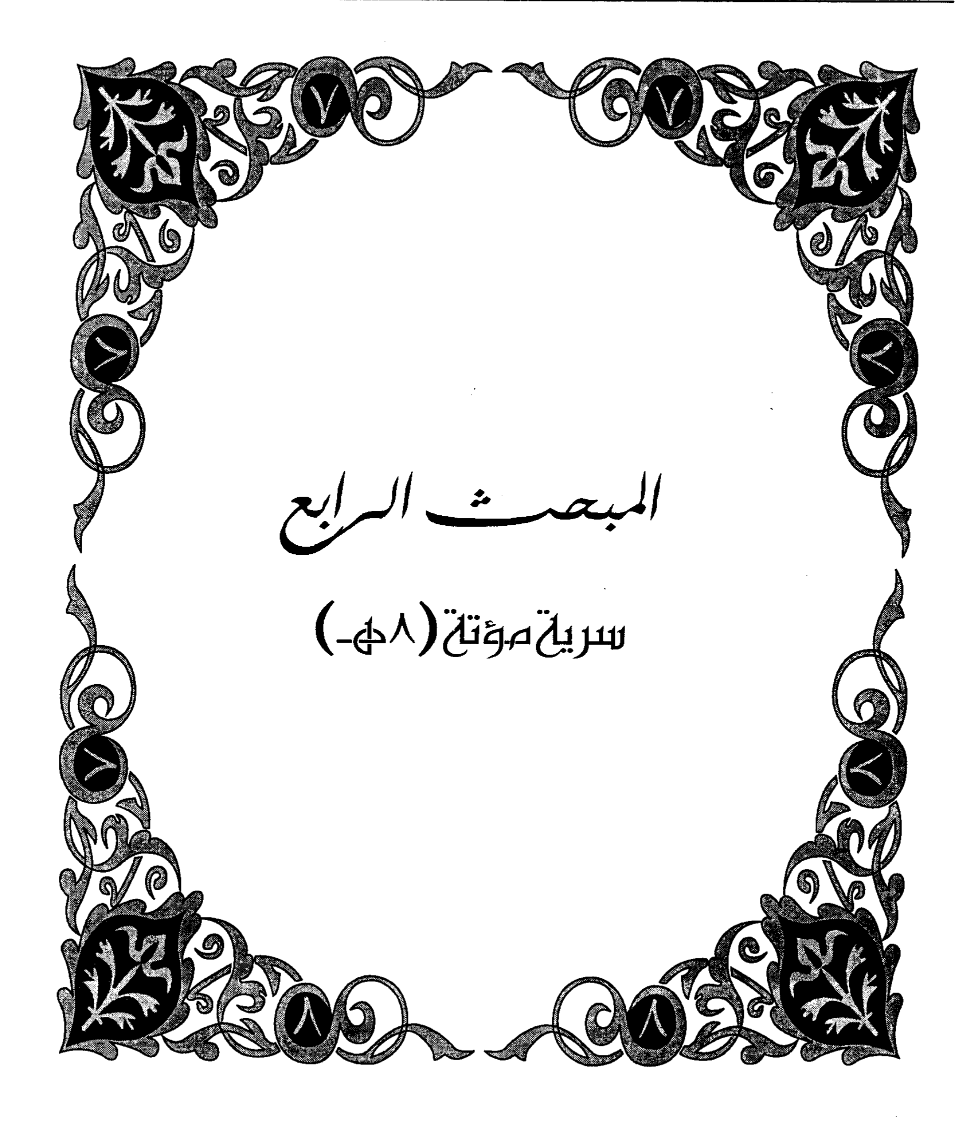
قال رسول الله للوليد بن الوليد: «ما مثل خالد يجهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له ولقدمناه على غيره»[٢٠٢]، فكانت لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام، وقد كان رسول الله (ﷺ) عليمًا في مخاطبة النفوس والتأثير عليها، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة والزعامة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المضمار، ومدح (ﷺ) سداد رأيه ورجاحة عقله، ونضوج فكره، فانتزع (ﷺ) بهذه الكلمات كل الجوانب التي تجعل خالدًا يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعًا به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادة وتصدر، فلما كان ما هيأه له المشركون سيحصل له إذا دخل في الإسلام، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملاً شجعه ذلك على التغلب على وساوس إبليس ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام ،فعزم على الدخول فيه، لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوة للإسلام وضعفًا للشرك، وكتب الله على أيديهم صفحات مشرقة من تاريخ المسلمين الجهادي أصبحت باقية في ذاكرة الأمة وتاريخها المجيد على مر الدهور وكر العصور وتوالي الأزمان[٢٠٣].

•••

---

(٢٠٢) نفس المصدر (٧/ ٩٥) .

(٢٠٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٩٦) .



المبحث الرابع

سرية مؤتة (٨هـ)

أولاً: أسبابها وتاريخها:

أشعل عـرب الشام فتيـل الصراع بين المسلمين والبيـزنطيين، فقد دأبت قـبيلة كلب من قضاعة التي كانت تنزل على دومة الجندل على مـضايقة المسلمين وحاولت أن تفرض عليهم نوعًا من الحصار الاقـتصادي عن طريق إيذائها للتجار الذين كـانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة، ولذلك غزا رسولالله (ﷺ) قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥هـ) لكنه وجدهم قـد تفرقوا، كـما أن رجالاً مـن جُذام ولَخمْ قطعوا الطريق علـى دحية بن خليـفة الكلبي عند مروره بِحسمى بعد إنجازه لمهمة أناطها بهَ رسول الله (ﷺ) واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بنَ حَـارثة إلى حسمى في سنة ٦هـ، ويضاف إلى ذلك أيضًـا ما قامت به قبيلتا مذحج وقضاعة من اعـتداء على زيد بن حارثة وصحبه في العام المذكور (٦هـ) وذلك عندما ذهبوا إلى وادى القرى في بعثه بغرض الدعوة إلى الله، وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحنى أكثر خطورة[٢٠٤]، بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى حـاكم (بصرى) التابع لحـاكم الروم، فقد قـام شرحبـيل بن عمرو الغـساني بضرب عنق رسول رسول الله ولم تجر العادة بقـتل الرسل والسفراء، كما أن الحارث بن أبي شمـر الغساني حـاكم دمشق أساء اسـتقـبال مبـعوث رسول الله وهدد بإعـلان الحرب على المدينة، ثم حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغـفاري ليـدعو إلى الإسلام في مـكان يقال له: (ذات أطلاح) ،فلم يسـتجب أهل المنطقة إلى الإسلام وأحاطوا بالدعاة من كل مكان وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعًا إلا أميرهم كان جريحًا فتحامل على جـرحه حتى وصل إلى المدينة فأخبر رسول الله (ﷺ)[٢٠٥]، وقـد قام نصارى الشام بزعامة الإمبراطورية الرومانية بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والي مَعَانَ حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام[٢٠٦].

كانت هذه الأحداث المؤلمة -وبخاصـة مقتل سفير رسول الله الحـارث بن عمير الأزدي -محركـة لنفوس المسلمين، وباعثًا لهم ليـضعوا حدًا لهذه التـصرفات النصرانيـة العدوانية، ويثأروا لإخوانـهم في العقيدة الذين سـفكت دماؤهم بغير حق إلا أن يقـولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله[٢٠٧]، كما أن تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية والذين دأبو على استفزاز المسلمين وتحـديهم وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم أصبح هدفًا مهـمًا، لأن تحقيق هذا

---

(٢٠٤) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد سالم ص(٨٧) .
(٢٠٥) انظر: تاريخ الطبري (٣/١٠٣) .
(٢٠٦) انظر: خاتم النبيين (٢/١١٣٩) نقلاً عن الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ص(٢٠) .
(٢٠٧) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ص(٢٠) .

الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية في تلك المناطق بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم في المستقبل وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة[٢٠٨].

وفي سنة ٨هـ أمر رسول الله (ﷺ) المسلمين بالتجهز للقتال، فاستجابوا للأمر النبوي وحشدوا حشودًا لم يحشدوها من قبل، إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، واختار النبي (ﷺ) للقيادة ثلاثة أمراء على التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة[٢٠٩]، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أمّر رسولالله (ﷺ) في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله (ﷺ): «**إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة**»[٢١٠].

وقد أمر رسول الله (ﷺ) الجيش الإسلامي أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه وأن يدعو من كان هناك إلى الإسلام فإن أجابوا فبها ونعمت وإن أبوا استعينوا بالله عليهم وقاتلوهم[٢١١].

وقد زود الرسول (ﷺ) الجيش في هذه السرية وغيرها من السرايا بوصايا تتضمن آداب القتال في الإسلام[٢١٢]، فقد أوصى رسول الله (ﷺ) أصحابه بقوله: «**أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب..**»[٢١٣].

ثانيًا: وداع الجيش الإسلامي:

لما تجهز الجيش الإسلامي وأتم استعداده، توجه رسول الله (ﷺ) والمسلمون يودعون الجيش ويرفعون أكف الضراعة لله (عز وجل) أن ينصر إخوانهم المجاهدين، لقد سلموا عليهم وودعوهم بهذا الدعاء: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين[٢١٤].

ولما ودع الناس عبد الله بن رواحة وسلموا عليه بكى وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة فتعجب الناس من ذلك وقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: والله ما بي حب الدنيا وصبابة، ولكن سمعت رسول الله (ﷺ) يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿**وَإِن**

---

(٢٠٨) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة ص(٨٩).
(٢٠٩) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٢٠).
(٢١٠) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٢) رقم (٤٢٦١).
(٢١١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٧٨٧).
(٢١٢) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٢١).
(٢١٣) انظر: المغازي (٢/ ٧٥٧، ٧٥٨).
(٢١٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢١).

مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (سورة مريم، الآية ٧١)، فلست أدري كيف بي بالصدر بعد الورود، فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فراغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا[٢١٥]

وودع رسول الله (ﷺ) عبد الله بن رواحة، فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله (ﷺ):

يثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذي نصروا
إني تفرست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر[٢١٦]

ثالثًا: الجيش يصل إلى معان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لما وصل الجيش الإسلامي إلى معان من أرض الشام -وهي الآن محافظة من محافظات الأردن- بلغه أن النصارى الصليبيين من عرب وعجم قد حشدوا حشودًا ضخمة لقتالهم، إذ حشدت القبائل العربية مائة ألف صليبي من لخم وجذام وبهراء وبلى، وعينت لهم قائدًا هو مالك بن رافله ،وحشد هرقل مائة ألف نصراني صليبي من الروم فبلغ جيشهم مائتي ألف مقاتل، مزودين بالسلاح الكافي يرفلون في الديباج لينبهر المسلمون بهم وبقوتهم[٢١٧]، ولقد قام المسلمون في معان يومين يتشاورون في التصدي لهذا الحشد الضخم فقال بعضهم: نرسل إلى رسول الله (ﷺ) في المدينة نخبره بحشود العدو فإن شاء أمدنا بالمدد وإن شاء أمرنا بالقتال[٢١٨] وقال بعضهم لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شيء[٢١٩]، ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: (يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة؛ ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا؛ فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فألهبت كلماته مشاعر المجاهدين، واندفع زيد بن حارثة بالناس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث آثر الاصطدام بالروم هناك، فكانت ملحمة سجل فيها القادة الثلاثة بطولة عظيمة انتهت باستشهادهم[٢٢٠]، فقد استبسل زيد بن

---

(٢١٥) نفس المصدر (٤/ ٢١).
(٢١٦) انظر: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير ص٢٠٤-٢٠٥.
(٢١٧) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٧١).
(٢١٨) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٨٢).
(٢١٩) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٣٩٦).
(٢٢٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٦٨).

حارثة وتوغل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله (ﷺ) حتى شاط في رماح القوم[٢٢١].

ثم أخذ الراية جعفر وانبرى يتصدى لجموع المشركين الصليبيين، فكثفوا حملاتهم عليه، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، فلم تلن له قناة، ولم تهن له عزيمة، بل استمر في القتال وزيادة في الإقدام ونزل عن فرسه وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابها	طيبة وباردًا شرابُها
والروم روم قد دنا عذابها	كافرة بعيدة أنسابُها

عليَّ إذ لاقيتها ضِرابُها[٢٢٢]

لقد أخذ رضي الله عنه اللواء بيده اليمنى فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه وانحنى عليه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولقد أثخن رضي الله عنه بالجراح إذ بلغ عدد جراحه تسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم وليس من بينهما جرح في ظهره بل كلها في صدره[٢٢٣].

روى الإمام البخاري (رحمه الله) في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة أو رمية[٢٢٤].

ولقد عوض الله (تبارك وتعالى) جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأكرمه على شجاعته وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عامر قال: كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين[٢٢٥].

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب استلم الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه وامتطى جواده، وهو يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه	لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجْلَبَ[٢٢٦] الناسُ وشدوا الرَّنَّة[٢٢٧]	ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة	هل أنت إلا نطفة في شنة
يا نفس إلا تقتلي تموتي	هذا حمام الموت قد صَليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلي فِعْلهما هُديت[٢٢٨]

(٢٢١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٥).

(٢٢٢) نفس المصدر (٤/ ٢٦).

(٢٢٣) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٥٨).

(٢٢٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٢) رقم (٤٢٦١).

(٢٢٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٣) رقم (٤٢٦٤).

(٢٢٦) إن أجلبَ القوم: صاحوا واجتمعوا.

(٢٢٧) الرنة: صوت ترجيع شبه البكاء. (٢٢٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٦، ٢٧).

ويذكر أن ابن عم لعبد الله بن رواحة قد قدم له قطعة من لحم وقال له: شد بهذا صلبك، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهش منه نهشة، ثم سمع جلبة وزحامًا في جبهة القتال، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدنيا؟! ثم ألقى قطعة اللحم من يده وتقدم يقاتل العدو حتى استشهد رضي الله عنه وكان ذلك في آخر النهار[٢٢٩].

رابعًا: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائدًا:

ولما استشهد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وسقطت الراية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان البلوي الأنصاري وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت ، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد[٢٣٠]، وجاء في إمتاع الأسماع أن ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان، فقال: لا آخذه ، أنت أحق به، أنت رجل لك سن، فقد شهدت بدرًا، فقال ثابت: خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه[٢٣١]، وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد، في تلك الساعة العصيبة من القتال، أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدرًا دقيقًا، ودرس ظروف المعركة درسًا وافيًا وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل، فقوة العدو تبلغ (٦٦) ضعفًا لقوة المسلمين، فلم يبق أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم **وعلى هذا الأساس وضع خالد الخطة التالية:**

أ- الحؤول بين جيش الروم وجيش المسلمين، ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب- لبلوغ هذا الهدف، لا بد من تضليل العدو بإيهامه أن مددًا قد ورد إلى جيش المسلمين ،فيخفف من ضغطه وهجماته ويتمكن المسلمون من الانسحاب، وصمد خالد حتى المساء عملاً بهذه الخطة، وغيرّ، في ظلام الليل، مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدمة القلب بالمؤخرة. وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو، عند الفجر، بهجمات سريعة متتالية وقوية ليُدخل في روعه إن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين[٢٣٢].

ونجحت الخطة، إذ بدا للعدو صباحًا أن الوجوه والرايات التي تواجهه جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقن أنهم تلقوا إمدادات، وأن جيشًا جديدًا نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فتّ في عضد الروم وحلفائهم، فأدركوا أن إحراز نصر حاسم ونهائي على المسلمين أمر مستحيل، فتخاذلوا وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخف الضغط عن جيش

---

(٢٢٩) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٦١).
(٢٣٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٧) .
(٢٣١) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٣٤٨، ٣٤٩) .
(٢٣٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧)؛ الواقدي(٢/ ٧٦٤).

المسلمين، وانتهز خالد الفرصة فباشر الانسحاب وكانت عملية التراجع التي قام بها خالد في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحًا، بل إنها تتفق وتتلائم مع التكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحين بمنأى عن العدو، وفي مأمن منه، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين، إلى أن تمكن وضمن سلامة الانسحاب كليًا(٢٣٣)، ويقول المؤرخون: إن خسارة المسلمين لم تتعد الاثنى عشر قتيلاً في هذه المعركة، وأن خالدًا قال:)لقد انقطع في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي إلا صفيحة يمانية)(٢٣٤).

ويمكن القول: إن خالدًا بخطته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمة ماحقة، وقتل محقق، وأن انسحابه كان قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة، حيث يكون الانسحاب، في ظروف مماثلة، أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها(٢٣٥).

خامسًا: معجزة للرسول (ﷺ) وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزة للرسول (ﷺ) في أمر هذه السرية فقد نعى المسلمين في المدينة زيدًا وجعفرًا وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم، وحزن رسول الله (ﷺ) لما وقع للسرية وذرفت عيناه الدموع ثم أخبرهم باستلام خالد للراية، وبشرهم بالفتح على يديه وأسماه سيف الله(٢٣٦)، وبعد ذلك قدم من أخبرهم بأخبار السرية، ولم يزد عما أخبرهم به النبي (ﷺ)(٢٣٧).

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقاهم رسول الله (ﷺ) والمسلمون ولقيهم الصبيان ينشدون، ورسول الله (ﷺ) مقبل مع القوم على دابة فقال: «**خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر**»، فأتي بعبد الله، فأخذه، فحمله على يديه، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون ،يا فُرّار أفررتم في سبيل الله، ويقول رسول الله (ﷺ) «**ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله (تعالى)**»(٢٣٨).

وإن الإنسان ليعجب من هذه التربية النبوية التي صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركة دون شهادة في سبيل الله، فرارًا من سبيل الله، لا يكافأون عليه إلا بحثو التراب في وجوههم، فأين شبابنا المتسكعون في الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟ ولن تستطيع الأمة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النبيلة والقمم الشوامخ إلا بالتربية الإسلامية الجادة القائمة على المنهاج النبوي الكريم(٢٣٩).

---

(٢٣٣) انظر: معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد ص(١٧٣).

(٢٣٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٣) رقم (٤٢٦٦).

(٢٣٥) انظر: معارك خالد بن الوليد ص(١٧٥).

(٢٣٦) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٦٠).

(٢٣٧) انظر: البداية والنهاية، (٤/ ٢٥٥).

(٢٣٨) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣٢٨؛ تاريخ الذهبي ص(٤٩١).

(٢٣٩) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوي ص(٣٥٨).

سادساً: دروس وعبر وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروس وعبر كثيرة، منها:

١- أهمية هذه المعركة:

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم، لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين، وأثرت تلك المعركة على مستقبل الدولة الرومانية، فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان ونستطيع أن نقول: إن تلك الغزوة هي خطوة عملية قام بها النبي (ﷺ) للقضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام، فقد هز هيبتها من قلوب العرب وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي النصراني(٢٤٠)، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢- حب الشهادة باعث للتضحية:

إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلت في كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند، كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين والرغبة في نيل الشهادة لكي يكرمهم الله برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ويدخلون جنات الله الواسعة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٣- تميز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة التي جاء خبرها من السماء، إذ نعى النبي (ﷺ) استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل وأخبر النبي (ﷺ) عن أحداثها، وتمتاز أيضًا عن غيرها بأنها الوقعة الوحيدة التي اختار النبي (ﷺ) لها ثلاثة أمراء على الترتيب: زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة(٢٤١).

٤- إكرام النبي (ﷺ) لآل جعفر:

لما أصيب جعفر دخل رسول الله (ﷺ) على أسماء بنت عميس فقال: **«ائتني ببني جعفر»**، فأتت بهم فشمهم وقبلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: **«نعم»**، أصيبوا هذا اليوم، فجعلت تصيح وتولول فقال النبي (ﷺ): **«لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»**(٢٤٢).

ونلحظ في هذا الخبر عدة أمور منها:

أ- جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفي:

أخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رضي الله عنها حينما نعى النبي (ﷺ) زوجها

---

(٢٤٠) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٦٤).

(٢٤١) نفس المصدر ص(٦٦).

(٢٤٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٨).

ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبي (ﷺ)، ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعًا لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائدًا عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سببًا في معصية الخالق سبحانه.

ب- استحباب صنع الطعام لأهل الميت:

وقد ندب الرسول (ﷺ) الناس أن يصنعوا طعامًا لآل جعفر، وهذا فيه مواساة لأهل المتوفى وتخفيف مصابهم، وفي الوقت نفسه تكافل بينهم، وهذه السنّة خالفتها بعض الشعوب الإسلامية وأصبح أهل الميت يصنعون الطعام للقادمين، وهذا أمر قبيح ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون[٢٤٣].

هذا وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن البكاء بعد ثلاث فقد دخل على أسماء وقال لها: «**لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعو لي بني أخي**» فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب وأما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي، ثم أخذ بيمين عبد الله وقال: «**اللهم اخلُف جعفرًا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه**» قالها ثلاثًا[٢٤٤]. ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم قال لها: «**العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة**»[٢٤٥]. وهذا منهج نبوي كريم خطه رسول الله (ﷺ) لرعاية وتكريم أبناء الشهداء لكي تسير الأمة على نهجه الميمون[٢٤٦].

ج- زواج أبي بكر الصديق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتزوجها وولدت له محمد بن أبي بكر وبعدما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب وولدت له أولادًا رضي الله عنه وعنها وعنهم أجمعين[٢٤٧].

وقد ذكر ابن كثير أن أسماء بنت عميس رثت زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة ... عليك ولا ينفكُّ جلدي أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمر في الهياج وأصبرا[٢٤٨]

---

(٢٤٣) انظر: الصراع مع الصليبيين ص٦٨.
(٢٤٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢).
(٢٤٥) نفس المصدر (٤/ ٢٥٢).
(٢٤٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٣٠).
(٢٤٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٢٤٨) نفس المصدر (٤/ ٣٥٢).

٥- من فقه القيادة:

إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائدًا. وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل.... فاصطلح الناس على خالد.

وفي رواية أن ثابتًا مشى باللواء إلى خالد فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به فقال: والله ما أخذته إلا لك.

إن مضمون كلا الروايتين واحد، أن ثابتًا جمع المسلمين أولاً وأعطى القوس باريها، فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد[٢٤٩]، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا. ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله (تعالى)، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتًا لم يكن عاجزًا عن قيادة المسلمين -وهو ممن حضر بدرًا- ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل[٢٥٠].

إن كثيرًا ممن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفًا على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٦- درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه :خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ورافقني مَدَديّ من اليمن[٢٥١] ... ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وله سلاح مذهب، فجعل الرومي يضرب بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه بسيفه، وفر الرومي، فعلاه بسيفه فقتله وحاز فرسه وسلاحه فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب قال عوف: فأتيت خالدًا، وقلت له: أما علمت أن رسول الله (ﷺ) قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى ولكني استكثرته، قلت: لتردنها إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله (ﷺ)،

---

(٢٤٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٢٤).

(٢٥٠) انظر: من معين السيرة للشامي ص(٣٧٦).

(٢٥١) مددي أي جاء مددًا. وفي رواية: رجل من حمير.

فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسول الله (ﷺ): «**يا خالد ما حملك على ما صنعت؟**» قال: استكثرته، فقال: «**رد عليه الذي أخذت منه**».

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله (ﷺ): «وما ذلك؟» فأخبرته قال: فغضب رسول الله (ﷺ) وقال: «**يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره**»[٢٥٢].

هذا موقف عظيم من النبي (ﷺ) في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم، فهم بشر معرضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقص ولا إهانة، فخالد حين منع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه وإنما اجتهد فغلّب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عدداً أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالك أدى مهمته في الإنكار على خالد، ثم رفع الأمر إلى رسول الله (ﷺ) حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك، لأنه -والحال هذه- قد دخل في أمر من أوامر الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يده، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر شيئًا من التشفي من خالد، ولم يقره النبي (ﷺ) على ذلك، بل أنكر عليه إنكارًا شديدًا وبين حق الولاة على جنودهم، وكون النبي (ﷺ) أمر خالدًا بعد رد السلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع، لأنه لا يمكن أن يأخذ رسول الله (ﷺ) إنسانًا بجريرة غيره، فلا بد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضى، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر[٢٥٣].

إن الأمة التي لا تقدر رجالها ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظام، إن التربية النبوية استطاعت بناء هذه الأمة بناءً سليمًا، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في مكانه وأن يحترم ويقدر، بمقدار ما يقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سورة المائدة الآية ٥٤).

وفي قوله (ﷺ): «**هل أنتم تاركون لي أمرائي**» وسام آخر يضاف إلى خالد رضي الله عنه حيث عُدَّ من أمراء الرسول (ﷺ) وهذا من المنهاج النبوي الكريم في تقدير الرجال[٢٥٤].

(٢٥٢) مسلم، كتاب الجهاد ص(١٣٧٣) رقم(١٧٥٣).
(٢٥٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٠). (٢٥٤) انظر: معين السيرة ص(٣٧٨).

٧- مقاييس الإيمان وأثرها في المعارك:

توقف الجيش الإسلامي في معان يناقش كثرة جيش العدو وكانت المقاييس المادية لا تشجعهم على خوض المعركة ،ومع ذلك تابعوا طريقهم ودخلوا بمقاييس إيمانية، فهم خرجوا يطلبون الشهادة ،فلماذا إذن يفرون مما خرجوا لطلبه؟.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتًا منها:

وجـــاء المسلمـــون وغـــادروني ... بأرض الشـــام مُـشــتـــهى الثَّــواء

فلما سمعتها منه بكيت. قال: فخفقني بالدرة وقال: وما عليك يا لُكَعْ أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرَّحل[٢٥٥].

إن المتأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي لدى الأعداء، لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (... هذا عظيم جدًا أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين؛ أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف ، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها، دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن في ذلك الزمان وفي كل أوان....)[٢٥٦].

٨- من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة:

حيث قال:

في ليلة وردت عليَّ همومها ... طورًا أحِنُّ[٢٥٧] وتارة أتململ[٢٥٨]

واعتادني حُزنٌ فبت كأنني ... ببنات نعش والسِّماك موكَّل[٢٥٩]

وكأنما بين الجوانح والحشَى ... مما تأوبني شِهاب مُدْخل[٢٦٠]

وجْدا على النَّفَر الذين تتابعوا ... يومًا بمؤتة أسندوا لم يُنقلوا

(٢٥٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٤، ٢٥).
(٢٥٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).
(٢٥٧) أحن: من الحنين وفي رواية أخن: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.
(٢٥٨) أتململ: أتقلب متبرمًا بمضجعي.
(٢٥٩) يريد أنه بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد.
(٢٦٠) المدخل: النافذ إلى الداخل.

صلى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل[٢٦١]

صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن يَنْكُلُوا[٢٦٢]

فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فُنُق[٢٦٣] عليهن الحديد المُرْفَل[٢٦٤]

إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قُدَّام أوَّلهم فنعم الأوّل

حتى تفرّجت الصفوف وجعفر ... حيث التقى وعْثُ الصفوف مَجدّل

فتغير القمر المنير لفقده ... والشمس قد كَسَفت وكادت تأفل[٢٦٥]

هذه بعض الأبيات التي بكى بها مالك بن كعب شهداء مؤتة ولم يتغيب حسان بن ثابت رضي الله عنه عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة، وبكاء جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة فقد كانت المؤسسة الإعلامية تقوم بدورها بتفوق وجدارة وتتعبد المولى عز وجل بما أخصها به من ملكات ومواهب شعرية فذة.

●●●

---

(٢٦١) المسبل: الممطر.

(٢٦٢) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون. ينكلوا: يرجعوا خائبين.

(٢٦٣) فُنُق: الفحول من الإبل.

(٢٦٤) المُرفل: الذي تنجر أطرافه على الأرض. يريد أن دروعهم سابغة.

(٢٦٥) تأفل: تغيب، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٣، ٣٤).



المبحث الخامس

سرية ذات السلاسل

لم تمض سوى أيام على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة حتى جهز النبي (ﷺ) جيشًا بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قضاعة التي غرها ما حدث في مؤتة التي اشتركت فيها إلى جانب الروم فتجمعت تريد الدنو من المدينة، فتقدم عمرو بن العاص في ديارها ومعه ثلثمائة من المهاجرين والأنصار، ولما وصل إلى مكان تجمع الأعداء بلغه أن لهم جموعًا كثيرة، فأرسل إلى رسولالله (ﷺ) يطلب المدد فجاءه مددًا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح[٢٦٦]، وقاتل المسلمون الكفار وتوغل عمرو في ديار قضاعة التي هربت وتفرقت وانهزمت ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين، وإسلام الكثيرين من بني عبس، وبني مرة، وبني ذبيان، وكذلك فزارة وسيدها عيينة بن حصن في حلف مع المسلمين، وتبعها بنو سُلَيم، وعلى رأسهم العباس بن مرداس، وبنو أشجع، وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب، وإن لم يكن في بلاد العرب جميعها[٢٦٧].

وفي هذه السرية دروس وعبر وحكم منها:

١- إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله (ﷺ) فقال: «**خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم ائتني**»، فأتيته، وهو يتوضأ، فصعَّد فيَّ النظر، ثم طأطأ، فقال: «**إني أريد أن أبعثك على جيش**[٢٦٨]**، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة**»، قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ): «**يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح**»[٢٦٩].

فهذا الموقف يدل على قوة إيمان وصدق وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله (ﷺ)، وقد بين له رسول الله (ﷺ) أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح، لأنه يبتغي به وجه الله ويصرفه في وجوه الخير ويُعفُّ به نفسه وأسرته[٢٧٠].

(٢٦٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٧١).

(٢٦٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٣٣).

(٢٦٨) جيش سرية ذات السلاسل.

(٢٦٩) رواه ابن حبان كما في الموارد (٢٢٧٧)، صحيح السيرة ص(٥٠٨). صححه الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد.

(٢٧٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٣).

٢- الاتحاد قوة والتنازع ضعف:

عندما وصل المدد الذي بعثه رسول الله (ﷺ) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السلاسل، أراد أبو عبيـدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرو، فقـال له عمرو: إنما قدمت علي مددًا لي، وليس لك أن تؤمني، وأنا الأمير، وإنما أرسلك النبي (ﷺ) إليَّ مددًا، فقال المهاجرون: كلا، بل أنت أمير أصحابك وهو أمـير أصحابه، فقال عمرو: لا، بل أنتم مدد لنا، فلما رأى أبو عـبيدة الاخـتلاف وكان حسـن الخلق، لين الطبع قال: لتطمئن يا عـمرو وتعلمن أن آخر مـا عهد إليَّ رسـول الله أن قال: «**إذا قـدمت على صاحـبك فتطاوعـا ولا تخـتلفـا**» وأنك والله إن عصـيتني، لأطـيعنك فأطـاع أبو عبيـدة، فكان عمـرو يصلي بالناس(٢٧١).

لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أن أي اخـتلاف بين المسلمين في سرية ذات السلاسل يؤدي إلى الفـشل ومن ثم تغلب العدو عليـهم، ولهذا سـارع إلى قطع النزاع وانضم جنديا تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول (ﷺ) «**لا تختلفا**»(٢٧٢).

٣- حرص عمرو بن العاص على سلامة قواته:

ظهرت عبقرية عمرو الـعسكرية في ذات السلاسل في حرصه على وحدة الصف، وفي حرصه على سلامة قوته، ويتجلى ذلك في عدة صورة منها:

أ- أنه كان يسير ليلاً ويختفي نهارًا:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره وبعد نظره أن العدو يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما، فـيستعد للقاء جيش المسلمين، ولهذا رأى عمـرو رضي الله عنه أن السير ليلاً والاختفاء نهارًا هو أفضل أسلوب للمحافظة على قواته، وحقق بذلك أمرين مهمين:

* إخفاء تحركاته عن عدوه وبذلك يضمن سلامة قواته.

* حماية الجـند من شدة الحر وحتى يبـقى لهم نشاطهم فيصلون إلى مكـان المواجهة، وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

ب- عدم السماح للجند بإيقاد النار:

عندما طلـب الجنود من عمرو أن يسـمح لهم بإيقاد النار لحـاجتهم الماسـة إلى التدفـئة منعهم من ذلك معتمدًا في ذلك، على خبرته الحربية وعمق فكره العسكري وخوفًا من وقوع مفسدة أعظم من تلك المصلحة، وهي أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين -وهم قلة- لأعدائهم فيهجمـوا عليهم، ويتجلى هذا الفقه في حزمه الشديد مع أصـحابه عندما كلمه أبو بكر في ذلك، فقـال: لا يوقد أحد منهم نارًا إلا قذفـته فيـها، فلما رجعـوا إلى المدينة ذكروا ذلك لرسـول الله (ﷺ)، فسـأله رسول الله (ﷺ) فقال: كرهت أن آذن لهـم أن يوقدوا نارًا فيرى

(٢٧١) انظر: مغازي رسول الله لعروة ص(٢٠٧) وأسانيدها ضعيفة.
(٢٧٢) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس ص(٢٠٩).

عدوهم قلتهم[٢٧٣]، فأقره النبي (ﷺ) على فعله.

ج- منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم وتتبع فلولهم ولكن قائد السرية منع جنده من ذلك؛ لئلا يترتب على هذه المطاردة مفسدة أعظم منها وهي أن يقع المسلمون في كمين، ويتجلى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرسول الله (ﷺ): وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد[٢٧٤]، فأقره النبي (ﷺ) على هذا التصرف الحكيم الذي حقق للجيش الأمن والحماية[٢٧٥].

٤- من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي (ﷺ) فقال: «**يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟**» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: **﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** (سورة النساء، آية ٢٩) فضحك رسول الله (ﷺ) ولم يقل شيئًا[٢٧٦]، **وقد استنبط بعض الأحكام من هذه القصة:**

أ- التيمم يقوم مقام الغسل بالنسبة للجنب مع وجود الماء إذا خشي أن يؤدي استخدام الماء إلى الضرر، فلقد تيمم عمرو بن العاص لما أصبح جنبًا مع وجود الماء عنده وصلى وأقره الرسول (ﷺ) ولم ينكر عليه.

ب- يجوز الاجتهاد في عهده (ﷺ): فقد اجتهد عمرو بن العاص فتوضأ واغتسل وصلى وقد احتلم في تلك الليلة الباردة اعتمادًا على قوله (تعالى): **﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** (سورة النساء، الآية ٢٩) فلم ينكر عليه الرسول (ﷺ) اجتهاده بل أقره على أمرين: الأول: جواز الاجتهاد، والثاني: تصحيح اجتهاده.

ج- من الأسباب المبيحة للتيمم: تعذر استخدام الماء وإن وجد كالبرد الشديد.

د- تجوز إمامة المتيمم بالمتوضيء: فقد صلى عمرو بن العاص وهو متيمم إمامًا بخمسمائة صحابي قد توضؤوا، وأقره الرسول على ذلك ولم ينكر عليه.

هـ- اجتهاد عمرو بن العاص يدل على فقهه ووفور عقله، ودقة استنباطه الحكم من دليله[٢٧٧]؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرعون عليها الأحكام فإن الذي

---

(٢٧٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٠٩).
(٢٧٤) نفس المصدر ص(٥٠٩).
(٢٧٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ص(٥٤٠).
(٢٧٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٠٩) قال إبراهيم العلي: الحديث إسناده صحيح.
(٢٧٧) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس ص(٢١٠).

يستوقفنا[٢٧٨] في السيرة منها تلك السرعة في أخذ عمرو للقرآن وصلته به حتى بات قادرًا على فقه الأمور من خلال الآيات وهو لم يمض على إسلامه أربعة أشهر، إنه الحرص على الفقه في دين الله، وقد يكون عمرو -وهذا احتمال وارد- على صلة بالقرآن قبل إسلامه يتتبع ما يستطيع الوصول إليه، وحينئذ نكون أمام مثال آخر من عظمة هذا القرآن الذي لوى أعناق الكافرين وجعلهم وهم في أشد حالات العداوة لهذا الدين يحاولون استماع هذا القرآن، كما رأينا ذلك في العهد المكي، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب من النجاشي أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام[٢٧٩].

٥- من نتائج سرايا رسول الله (ﷺ) في الشمال:

اتجهت حملات المسلمين العسكرية بعد صلح الحديبية نحو الشمال وأصبح غرب الجزيرة وجنوبها الغربي -حيث تقع مكة- آمنة في ظلال الصلح[٢٨٠]، وحققت سرايا رسول الله (ﷺ) أهدافها ومقاصدها في شمال الجزيرة، فوصلت إلى حدود الروم، فأمنت حدود الدولة الإسلامية ، وبسطت هيبتها وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة وبذلك حققت سياسة النبي (ﷺ) في حركة السرايا هدفين عظيمين هما:

١- تأمين حماية الدين الإسلامي في الداخل.

٢- حمايته في الخارج[٢٨١].

وما من شك أنَّ المتتبع لأحداث السيرة النبوية الشريفة والمطَّلع على تفاصيلها ودقائقها بإمعان يجد بحق أن صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السياسية، والعسكرية، والإعلامية، بل هو حصيلة كسب لأعظم معركة دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي، من حيث النتائج الإيجابية التي رسخت دعائم الإسلام من جهة، وصدعت بفعلها قواعد الشرك والوثنية من جهة أخرى وما حدث في خيبر من فتوح، وفي مؤتة من نصر، وفي ذات السلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلامية إلا نتائج تابعة لصلح الحديبية[٢٨٢]، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النبي (ﷺ) مع سنن الله في المجتمعات والشعوب، وبناء الدول.

●●●

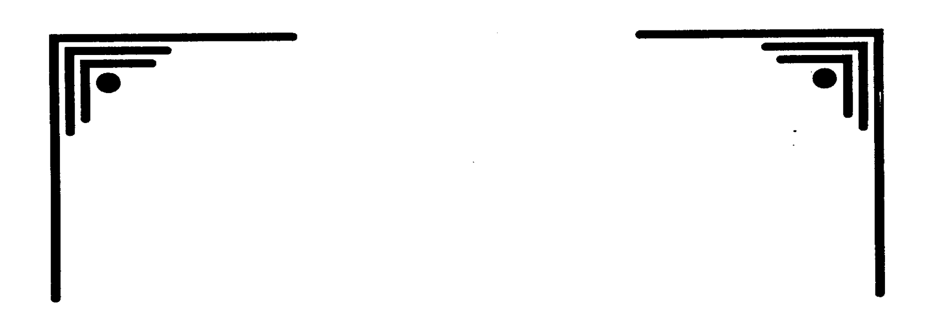
(٢٧٨) القائل هو صالح أحمد الشامي صاحب معين السيرة ص(٣٨١) .

(٢٧٩) انظر: معين السيرة ص(٣٨١) .

(٢٨٠) انظر: المجتمع المدني للعمري ص(١٧٠).

(٢٨١) الإعلام في صدر الإسلام، د .عبد اللطيف حمزة ص(١٧٣) .

(٢٨٢) انظر: منهج الإعلام الإسلامي ص(٣٣٧) .



الفصل الخامس عشر

غزوة فتح مكة (٨ هـ)





المبحث الأول

أسبابها، والاستعداد للخروج والشروع فيه

أولاً: أسبابها:

١- ارتكبت قريش خطأ فادحًا عندما أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهاجم بنو بكر، وحلفاؤهم على قبيلة خزاعة عند ماء يقال له: الوتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[١]، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال، لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل! إنا قد دخلنا الحرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم[٢]، عندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله (ﷺ) في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله (ﷺ) وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدًا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلدا، وكنا والدًا ... تُمَت أسلمنا فلم ننزع يدا[٣]
فانصر هداك الله نصرًا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددًا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا ... إن قريشًا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في (كَدَاء) رُصَّدا
وزعموا أن لست أدعوا أحد ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجّدا ... وقتلونا ركّعا وسجدا

فقال النبي (ﷺ): «**نُصرتَ يا عمرو بن سالم![٤] لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب**». ولما عرض السحاب من السماء قال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب[٥].

وجاء في رواية: أن رسول الله (ﷺ) بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: «**أما بعد، فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أتُدوا خزاعة[٦]، وإلا أوذنكم بحرب**» فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم

(١) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١-٧٨٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٩).
(٣) يريد أن أم عبد مناف وأم قصير خزاعيتان.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤).
(٥) نفس المصدر (٤/ ٤٤)؛ البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).
(٦) أي تدفعوا دية قتلاهم.

مشائيم، فلا ندى ما قتلوا لنا سَبَد، ولا لَبَد[٧]، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم، ولكن نؤذنه بحرب[٨].

وفي هذا دليل على أن رسول الله (ﷺ) لم يفاجئ قريشًا بالحرب وإنما خيرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[٩].

٢- أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة ودخل على رسول الله (ﷺ) يعرض حاجته، أعرض عنه النبي (ﷺ) ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعًا، فعاد أبو سفيان إلى مكة من غير أن يحظي بأي اتفاق أو عهد[١٠]، ومما يذكر عند نزوله في المدينة دخل على ابنته أم حبيبة -أم المؤمنين- وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه؛ فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر[١١].

وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ستة عشر سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدر ويُحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة[١٢]، وهذا ما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين، وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية[١٣].

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله (ﷺ) على فتح مكة وتأديب كفارها، **وقد ساعده على ذلك العزم -بعد توفيق الله- عدة أسباب منها:**

أ- قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها، فقد تخلصت الدولة الإسلامية من

---

(٧) السَّبد الشعر واللَّبد الصوف، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء .

(٨) انظر: المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) رقم (٤٣٦١) . قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد .

(٩) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤) .

(١٠) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي ص(٣٦٥) .

(١١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٧٩) .

(١٢) انظر: معين السيرة ص(٣٩٥) .

(١٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٧٠، ١٧١) .

غدر اليهود وتم القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة ويهود خيبر.

ب- ضعف جبهة الأعداء في الداخل، وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم وهو يهود المدينة فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.

ج- اهتم رسول الله (ﷺ) بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح، وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش من حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

د- كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصاديًا وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصاديًا فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالاً كثيرة.

هـ- انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

و- قيام السبب الجوهري والقانوني لغزو مكة وهو نقض قريش للعهد والعقد[١٤]، ونلحظ أن النبي (ﷺ) لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر وذلك بعد صلح الحديبية ،والآن تتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيرت موازين القوى في المنطقة، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعد (ﷺ) جيشًا لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصل عدته إلى عشرة آلاف رجل[١٥].

ثانيًا: الاستعداد للخروج:

إن حركة النبي (ﷺ) في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات تعلمنا كيفية التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب سواءً كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنّة واضحة في هديه (ﷺ) ، فعندما قرر (ﷺ) السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه ،وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١- أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي (ﷺ) بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر رضي الله عنه أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية ولا باتجاه حركته ولا بالعدو الذي ينوي قتاله ،بدليل أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول (ﷺ) قالت له: ما سمى لنا شيئًا وكانت أحيانًا تصمت. وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئًا عن مقاصده (ﷺ)[١٦].

(١٤) انظر: السيرة لأبي فارس ص(٤٠١).
(١٥) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٢٤٤)؛ التاريخ السياسي والعسكري ص(٣٦٦).
(١٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢)؛ الرسول القائد، شيت خطاب ص(٣٣٣، ٣٣٤).

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهن ربما يذعن شيئًا من هذه الأسرار عن حسن نية فتتنقلها الألسن حتى تصير سببًا في حدوث كارثة عظيمة[١٧].

٢- أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم:

بعث النبي (ﷺ) قبل مسيرة مكة سَرَيَة مكونة من ثمانية رجال وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همّ رسول الله (ﷺ) بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سَرَيَة إلى بطن إضَم[١٨]، ليظن ظان أن رسول الله (ﷺ) توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بتلك الأخبار... فمضوا ولم يلقوا جمعًا، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب[١٩]، فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبن) حتى لقوا النبي (ﷺ) بالسُّقيا[٢٠،٢١].

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام ،التي من شأنها صرف أنظار النساء عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها[٢٢].

٣- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث (ﷺ) رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، وأخذ رسول الله (ﷺ) بالأنقاب[٢٣]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول: لا تدعوا أحدًا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه... إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة[٢٤].

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين، وقد استفاد الرسول (ﷺ) من حدِّه النافع لصالح المسلمين ،وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرية واتخاذها أساسًا لتحركاته واستعداداته، ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة[٢٥].

---

(١٧) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ص(٣٩٥،٣٩٦).

(١٨) بطن إضَم: وادي المدينة التي تجتمع فيه الوديان الثلاثة، بطحان وقناة، والعقيق.

(١٩) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة ٣٥ ميلاً.

(٢٠) السُّقيا: موضع يقع في وادي القرى. معجم البلدان (٣/ ٢٨٨).

(٢١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢).

(٢٢) انظر: القيادة العسكرية ص٤٩٨.

(٢٣) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.

(٢٤) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ، مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٦).

(٢٥) انظر: القيادة العسكرية ص٣٦٥.

٤- دعاؤه (ﷺ) بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله (ﷺ) بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله (عز وجل)- بالدعاء والتضرع قائلاً: «**اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يَرَونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة**»[٢٦].

وهذا شـأن النبي (ﷺ) في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

٥- إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي (ﷺ) استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي (ﷺ) إليهم، ولكن الله (سبحانه وتعالى) أطلع نبيه (ﷺ) عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى (ﷺ) على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي (ﷺ) عليًّا والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثنى عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم، ثم استدعي حاطب رضي الله عنه للتحقيق فقال: يا رسول الله ، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش -يقول: كنت حليفًا- ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله (ﷺ) : «**إما إنه قد صدقكم**».

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال (ﷺ): إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[٢٧]، فأنزل الله (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ (سورة الممتحنة، الآية ١).

إن الآية السابقة رسمت منهجًا للمسلمين في تعاملهم مع الكافرين، فمعنى قوله (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾.

قال القرطبي: السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار[٢٨] والمراد بهم: المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء[٢٩].

(٢٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).

(٢٧) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (٥/ ١٠٥) رقم ٤٢٧٤ .

(٢٨) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٥٢).

(٢٩) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٦).

وقوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم وهم كافرون بنبيكم وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح.

وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن كثير: هذا مع قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهركم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. ولهذا قال (تعالى): ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين(٣٠).

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم(٣١).

وقوله (تعالى): ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ أي تسرون إليهم بالنصيحة.

قال ابن كثير: أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر(٣٢).

ثم ختم (سبحانه) الآية الكريمة بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي من يسر لهم ويكاتبهم منكم فقد أخطأ قصد الطريق(٣٣).

يقول أستاذي وشيخي الدكتور محمد بن بكر آل عابد: هذه الآية الكريمة نجدها تمهيدًا بين يدي فتح مكة حيث حث الله المسلمين على عدم موالاة الكفار، حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم والقربى والمصلحة المادية التي كانت تربط كثيرًا منهم بأهل مكة(٣٤).

ويقول الأستاذ سيد قطب: على الرغم من كل ما ذاق المهاجرون من العنت والأذى من قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه... فكان يأخذهم يومًا بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث، ليكون العلاج على مسرح الأحداث وليكون الطرق والحديد ساخن(٣٥).

إن ما قام به حاطب أمر عظيم ولذلك نزل القرآن الكريم، يوجه المجتمع المسلم نحو ما يجب عليهم فعله نحو أعداء دينهم، كما أن النبي (ﷺ) عامل حاطب معاملة رحيمة تدل

---

(٣٠) نفس المصدر (٤/ ٣٤٧).
(٣١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٧).
(٣٢) نفس المصدر (٤/ ٣٤٧).
(٣٣) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٥٤).
(٣٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٦٨، ٥٦٩).
(٣٥) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).

على حرصه الشديد على الوفاء لأصحابه وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة منهم، لقد جعل (ﷺ) من ماضي حاطب المجيد سببًا في العفو عنه، وهذا منهج نبوي حكيم، فلم ينظر النبي (ﷺ) إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب وإن كانت كبيرة ، وإنما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله (تعالى) وإعزاز دينه، فوجد أنه قد شهد بدرًا، وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرة متكاملة، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال الدعوة، والجهاد، والعلم، والتربية، . . . فإن الذي يساهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمة يستحق التقدير والاحترام، وإن بدرت منه بعض الأخطاء، هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأ محض وزلة قدم، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأي علمي ناتج عن الاجتهاد وهم أهل ذلك؟

إن بعض طلاب العلم في عصرنا هذا يتسرعون في نقد العلماء والدعاة بسبب آراء اجتهادية يرى بعض العلماء أنهم أخطؤوا فيها، وقد يصل النقد إلى حد السخرية والاستهزاء بهم، وترى هؤلاء الطلاب يُجسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ويبرزونها بشكل يوحي للسامعين والقراء أن أولئك الذين تعرض إنتاجهم للنقد ليس لهم أي رصيد في خدمة الإسلام والمسلمين، والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أولاً ويعرِّف المسلمون بجهادهم وبلائهم في الإسلام وجهودهم في مجال العلم والدعوة، ثم تذكر الأمور التي يراها المنتقدون أخطاء وما يرونه من الصواب في ذلك من لزوم الأدب في النقد العلمي، والبعد عن أسلوب السخرية والتنقيص، هذا شيء مما يرشدنا له أسلوب النبي (ﷺ) في مواجهة هذا الخطأ الكبير الذي ارتكبه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إن تاريخ حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله شفع له عند رسول الله (ﷺ)، ولذلك لم يتعرض للإدانة أو للعقوبة، بل كان مانعًا له مما هو أقل من ذلك حيث لم يُسمع من مسلم كلمة واحدة في نقده والإساءة إليه بعد قول النبي (ﷺ): **«ولا تقول له إلا خيرًا»**[٣٦].

ومن الحوار الذي تم بين الرسول وعُمر بن الخطاب في شأن حاطب يمكن أن **نستخرج بعض الدروس والعبر**:

١- حكم الجاسوس القتل: فقد أخبر عمر بذلك ولم ينكر عليه الرسول (ﷺ) ولكن منع من إيقاع العقوبة بسبب كونه بدريًا.

٢- شدة عمر في الدين: لقد ظهرت هذه الشدة في الدين حينما طالب بضرب عنق حاطب.

٣- الكبيرة لا تسلب الإيمان: إن ما ارتكبه حاطب كبيرة وهي التجسس ومع هذا ظل مؤمنًا.

٤- لقد أطلق عمر على حاطب صفة النفاق بالمعنى اللغوي لا بالمعنى الاصطلاحي في

(٣٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميد (٧/ ١٧٦).

عهده (ﷺ). إذ النفاق إبطان الكفر والتظاهر بالإسلام، وإنما الذي أراده عمر، إنه أبطن خلاف ما أظهر إذ أرسل كتابه الذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله ويبذل دمه في سبيله(٣٧).

٥- تأثر عمر من رد الرسول (ﷺ)، فتحول في لحظات من رجل غاضب ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطب إلى رجل يبكي من الخشية والتأثير ويقول: الله ورسوله أعلم، ذلك لأن غضبه كان لله ولرسوله فلما تبين له أن الذي يرضي الله (تعالى) ورسوله (ﷺ) هو غض النظر عن ذلك الخطأ ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديرًا لرصيده في الجهاد استجاب لذلك(٣٨).

٦- لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطب؛ ذهب لهذا الرأي الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطب في العفو عمن يعمل عمله، لأن العفو عنه كان لعلة لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصحابة وهو كونه شهد بدرًا، فعلى الجماعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ مما يدل على أن إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطب أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقه(٣٩)، وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيم وذكر أقوال الأئمة الأربعة ثم قال: والصحيح أن قتله راجح إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح، استبقاه(٤٠).

ثالثًا: الشروع في الخروج وأحداث في الطريق:

١- خرج رسول الله (ﷺ) قاصدًا مكة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة(٤١)، واستخلف على المدينة أبا رهم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري(٤٢)، وكان عدد الجيش عشرة آلاف، فيهم المهاجرون والأنصار الذين لم يتخلف منهم أحد، فلما وصل الجيش الكديد الماء الذي بين قديد وعُسفان أفطر رسول الله (ﷺ) وأفطر الناس معه(٤٣)، وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب عمه وقد خرج مهاجرًا بعياله، فسُرَّ (ﷺ)(٤٤)، وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة إذا لاحظنا

(٣٧) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٤٠٤ .
(٣٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٧٦، ١٧٧) .
(٣٩) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٢) .
(٤٠) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٤٣) .
(٤١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٥٦٠، ٥٦١ .
(٤٢) نفس المصدر ص٥٦١ .
(٤٣) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٦) رقم ٤٢٧٦ .
(٤٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٦)؛ السيرة النبوية لأبي فارس ص٤٠٦ .

أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول (ﷺ) (٤٥)

٢- إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية:

خرج أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية بن المغيرة من مكة فلقيا رسول الله بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: لا حاجة لي فيهما أما ابن عمي، فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال؛ فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن رسول الله (ﷺ)، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله (ﷺ) رق لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أوان الحق أهدي وأهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ... وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
هداني هاد غير نفسي ودلني ... إلى الله من طردت كل مطرد
أفر سريعًا جاهدًا عن محمد ... وأدعى وإن لمن أنتسب لمحمد
هم عصبة من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلا قط ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فما كنت في الجيش الذي نال عامرًا ... ولا كلٌ عن غير لساني ولا يدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... توابع جاءت من سهام وسردد
وإن الذي أخرجتم وشتمتم ... سيسعى لكم امرىء غير مقدد (٤٦)

قال: فلما أنشد رسول الله (ﷺ): إلى الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله (ﷺ) في صدره، فقال: «**أنت طردتني كل مطرد**» (٤٧).

كان أبو سفيان بن الحارث يهجوا بشعره رسول الله (ﷺ) كثيرًا، وأما عبد الله بن أمية فقد قال لرسول الله (ﷺ): «**فوالله لا أؤمن بك حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصكّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك**» (٤٨).

---

(٤٥) انظر: تأملات في السيرة النبوية، محمد السيد الوكيل ص(٢٥٤).
(٤٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥١٧).
(٤٧) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٤٣-٤٥)؛ ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٤-١٦٧).
(٤٨) انظر: ابن هشام (١/ ٢٩٥-٣٠٠).

ومع فداحة جرمهما فإن النبي (ﷺ) عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثال عال في الرحمة والعفو والتسامح ولقد كفّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي (ﷺ) وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله في معركة حنين(٤٩).

٣- النزول بمر الظهران وإسلام أبي سفيان بن حرب سيد قريش:

وتابع رسول الله (ﷺ) سيره حتى أتى مر الظهران(٥٠)، فنزل فيه عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب(٥١).

قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله (ﷺ) مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال ابو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها(٥٢) الحرب، فقال: ابو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها... وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك، فداك أبي وأمي، قال: العباس قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله (ﷺ) في الناس واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك.

قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله (ﷺ) وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله (ﷺ)، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته... فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم. وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله (ﷺ) من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال

---

(٤٩) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).

(٥٠) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ (٢٢) كلم.

(٥١) انظر: معين السيرة ص(٣٨٧)، الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٥٢) حمشتها الحرب: احرقتها.

(ﷺ). «**ذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به**» .

فلما أصبح غدوت به فلما رآه رسول الله (ﷺ) قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا. فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا، قال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**» فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: «**يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها**». قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله (ﷺ) ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال يا عباس من هذا؟ فأقول: سُليم؟ فيقول: ما لي ولسُليم، ثم تمر به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول م: زينة فيقول: ما لي ولمزينة . . . حتى مر به رسول الله (ﷺ) في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله (ﷺ) في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك[٥٣].

إن في هذه القصة دروسًا وعبرًا وحكمًا في كيفية معاملة رسول الله (ﷺ) للنفوس البشرية، ومن أهم هذه الدروس:

١- عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النبي (ﷺ)، وهم به عمر، وأجاره العباس، ثم جاء في صبيحة اليوم الثاني ليمثل بين يدي رسول الله (ﷺ)، وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف وأهتز كيانه فلم يملك أن يقول: بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. إنه يفدي رسول الله (ﷺ) بأبيه وأمه، ويثني عليه الخير كله: ما أحلمك وأكرمك وأوصلك[٥٤]، وعندما قال العباس للنبي (ﷺ): إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا فقال النبي (ﷺ): «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**». . . ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيئًا يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[٥٥]، وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاص الحقد

(٥٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥١٨- ٥٢٠) .
(٥٤) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان ص(٥٦٤) .
(٥٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣) .

من قلب أبي سفـيان وبرهن له بأن المكانة التـي كانت له عند قريش، لن تنـتقص شيـئًا في الإسلام إن هو أخلص له وبذل في سـبيله[٥٦] وهذا منهج نبوي كريم عـلى العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس.

٢- وفي قول رسول الله (ﷺ) لعمه العباس عن أبي سفيان: «**احبسـه بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها**»[٥٧]، ففعل العباس وكان (ﷺ) يريد أن يشن حربًا نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنى له القـضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة، وحتى يرى أبو سفيـان بعيني رأسه مدى قـوة ما وصل إليه الجيش الإسـلامي من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط ،وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكة لتحـريرها من براثن الشرك والوثنية[٥٨]، وبالفعل تم مـا رسمه رسول الله (ﷺ) ،وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لا قبل لقريش بهم، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله (ﷺ) في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبلُ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصـبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًـا، قال: قلت: يا أبا سفيـان، إنها النبوة قال: فنعم إذًا ...[٥٩].

إنها النبوة، تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي (ﷺ) إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قـومية أو عصبية وهي كلمة جـاءت عنوانًا لحياة رسول الله (ﷺ) من أولها إلى آخـرها، فقد كانت سـاعات عمره ومـراحلها كلها دليـلاً ناطقًا على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض[٦٠].

لقد تعمد النبي (ﷺ) شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة ،حيث أمر رسـول الله (ﷺ) بإيقاد النيران فأوقدوا عـشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق، فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب القرشيين من شدة هوله[٦١] وقد قصد النبي (ﷺ) من ذلك تحطيم نفـسـيات أعـدائه والقضـاء على مـعنوياتهم حـتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجـبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفـه دون إراقة دماء، وبتطبيق هذا الأسلوب تم له (ﷺ) ما أراد و،لقد كان اهتمام النبي (ﷺ) بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقًا عسكريًا بدليل أن المدارس العسكريـة التي جاءت فيما بعد جـعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية[٦٢].

---

(٥٦) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد رواس ص(٢٤٥).
(٥٧) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢).
(٥٨) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ص(٤٤٧).
(٥٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٢).
(٦٠) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص(٢٧٥).
(٦١) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).
(٦٢) انظر: العبقرية العسكرية وغزوات الرسول، اللواء محمد فرج ص(٥٦٥).



المبحث الثاني

خطة النبي ﷺ لدخول مكة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصحابة:

عندما وصل النبي (ﷺ) إلى ذي طوى[٦٣] وزع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة[٦٤]، وبطن الوادي، فقال: «**يا أبا هريرة ادع لي الأنصار**» فدعاهم فجاؤوا يهرولون، فقال: «**يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش**» قالوا: نعم. قال: «**انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً**» وأحض بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «**موعدكم الصفا**»[٦٥].

وبعث رسول الله (ﷺ) الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله (ﷺ)، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلون إلا من قاتلهم[٦٦]، وبهذا كانت المسؤوليات واضحة، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه[٦٧].

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربعة في آن واحد ولم تلق تلك القوات مقاومة ،وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربعة ضربة قاضية لفلول المشركين حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله (ﷺ) عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد، ونجحت خطة الرسول (ﷺ)، فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها، في سلم واستسلام؛ إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد[٦٨]، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخندمة) وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام وصمموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش السيطرة على مكة المكرمة[٦٩]، وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن

(٦٣) انظر: معين السيرة ص(٣٨٩) .
(٦٤) البياذقة: الرجالة .
(٦٥) مسلم، باب فتح مكة .
(٦٦) انظر: معين السيرة ص(٣٩٠) .
(٦٧) انظر: معين السيرة ص(٣٩٠) .
(٦٨) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٣٩٧) .
(٦٩) انظر: قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم السياسية والعسكرية ص(١٢٢، ١٢٣).

قصة حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحًا لمقاتلة المسلمين وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعدّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يومًا: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء! فقال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . . . ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فما لي علة ... هذا سلاح كامل وألّة (٧٠)

وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئًا من قتال مع رجال عكرمة ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزمًا حتى بلغ بيته فقال لامرأته: أغلقي عليّ الباب . . .

فقالت المرأة لفارسها المعلَم: فأين ما كنت تقول؟

فقال: يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة (٧١) ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضربًا فلا تسمع إلا غمغمة

لهم نهيت (٧٢) خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي باللوم أدنى كلمة (٧٣)

لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، وجعل (ﷺ) لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه(٧٤).

لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعًا ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس -تشبهه بالزق لسمنه- قبح من طليعة قوم. قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني

---

(٧٠) ألة: حربة .

(٧١) المؤتمة: الاسطوانة، وأبو يزيد: سهيل بن عمرو .

(٧٢) النهيت: صوت الصدر .

(٧٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥) .

(٧٤) انظر: دراسة في السيرة، د . عماد الدين خليل ص(٢٤٥).

عنا دارك، قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرق الناس إلى دورهم والى المسجد[٧٥].

وحرص النبي (ﷺ)أن يدخل آل كداء التي بأعلى مكة[٧٦] تحقيقًا لقول صاحبه الشاعر المبدع حسان بن ثابت حين هجاء قريش وأخبرهم بأن خيل الله (تعالى) ستدخل من كداء وتعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسان حيث قال:

عدمنا خيلنا أن لم تروها ... تثير النقع[٧٧] موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافها الأسل والظلماء
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فأما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد اليوم ... يعز[٧٨] الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدا ... يقول الحق إن نصنع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جندًا ... هم الأنصار عرصتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ألا بلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة[٧٩] فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبد الدار سادتها الاماء
هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخير كما الفداء
هجوت مباركًا برًا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويحمده وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء[٨٠]

(٧٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).
(٧٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٢٤).
(٧٧) النقع: موضع قرب مكة أو الغبار.
(٧٨) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).
(٧٩) مغلغلة: رسالة محمولة من بلد إلى بلد.
(٨٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).

ومما يؤيد حرص النبي (ﷺ) على دخوله من كداء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله (ﷺ) عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر[٨١]، فتبسم إلى أبي بكر فقال: «**يا أبا بكر كيف قال حسان**»، فأنشده قوله:

تظل جيادنا متمطرات   تلطمهن بالخمر النساء[٨٢]

ثانيًا: دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال:

دخل رسول الله (ﷺ) مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام[٨٣]، وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح[٨٤]، مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز[٨٥]، وعندما دخل مكة فاتحًا -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد[٨٦]، وهو ابن مولى رسول الله (ﷺ) ولم يردف أحدًا من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة[٨٧].

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي (ﷺ) لمكة:

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله (ﷺ) على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ... إن الموكب الفخم المهيب الذي ينسب به حثيثًا إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول، كيف خرج مطاردًا؟ وكيف يعود اليوم منصورًا مؤيدًا وأي كرامة عظمى حفّه الله بها هذا الصباح الميمون، وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناءً..)[٨٨].

هذا وقد حرص النبي (ﷺ) على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة قال (ﷺ): «**هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة**»[٨٩]، وأخذ الراية

---

(٨١) الخمر جمع خمار، مأخوذ من الخَمر وهو الستر وهو ماتستر به النساء وجوهن.

(٨٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٣١).

(٨٣) مسلم رقم (١٣٥٨).

(٨٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٨) رقم (٤٢٨١).

(٨٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٣٩٦).

(٨٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٨٩).

(٨٧) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص(٣٣٧).

(٨٨) انظر: فقه السيرة للغزالي ص(٣٧٩، ٣٨٠).

(٨٩) البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح (٥/ ١٠٨) رقم (٤٢٨٠).

من سعد بن عبادة وسلمها لابنه قيس بن سعد وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنىً عنها، وفي نفس الوقت لم يُثره، ولا أثار الأنصار، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه(٩٠).

ولما نزل رسول الله (ﷺ) بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: **«جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»** والأصنام تتساقط على وجوهها(٩١)، وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذًا(٩٢)، ورأى في الكعبة الصور والتماثيل، فأمر بالصور، وبالتماثيل فكسرت(٩٣)، وأبى أن يدخل جوف الكعبة حتى أخرجت الصور وكان فيها صورة يزعمون أنها صورة إبراهيم وإسماعيل وفي يديهما من الأزلام، فقال النبي (ﷺ): **«قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط...»**(٩٤).

ثم دخل البيت وكبر في نواحيه ثم صلى، فقد روى ابن عمر أن رسول الله (ﷺ) دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقها عليه ثم مكث فيها قال ابن عمر: فسألت بلالاً حين خرج ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره وعمودًا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة، ثم صلى(٩٥).

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، قبل أن يسلم؛ فأراد علي رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السقاية؛ لكن النبي (ﷺ) دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ورده إليه قائلاً: اليوم يوم بر ووفاء(٩٦)، وكان (ﷺ) قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: **«يا عثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يومًا بيدي، أضعه حيث شئت»**، فقال: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: **«بل عمرت وعزت يومئذ»**، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعًا، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال(٩٧)، ولقد أعطى رسول الله (ﷺ) مفاتيح الكعبة قائلاً له: **«هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء(٩٨)، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»**(٩٩) وهكذا لم

(٩٠) انظر: قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم السياسية والعسكرية ص(١٩٦).
(٩١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٣٩).
(٩٢) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٢٨٢).
(٩٣) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٣٩).
(٩٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٠) رقم(٤٢٨٨).
(٩٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦١،٦٢).
(٩٦) نفس المصدر (٤/ ٦١).
(٩٧) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).
(٩٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٢).
(٩٩) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).

يشأ النبي (ﷺ) أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الإثارة أولاً، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق . . . هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله (ﷺ) البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا[١٠٠].

هذا وقد أمر النبي (ﷺ) بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة، فيؤذن للصلاة، فصعد بلال وأذن للصلاة وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين . . .

الله أكبر الله أكبر الله أكبر[١٠١]

ذلك الصوت الذي كان يهمس يومًا ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد، أحد، ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله (تعالى) قائلاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع منصت خاضع[١٠٢].

ثالثاً: إعلان العفو العام:

١- نال أهل مكة عفواً عامًا رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول (ﷺ) ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول (ﷺ) فيهم فقال: «**ما تظنون أني فاعل بكم؟**» فقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم**»[١٠٣].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة، لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب (تعالى)، لذلك ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها فهي مناخ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجاج والمعتمرين والعباد القاصدين، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكة وإجارة بيوتها، وأدلتهم قوية في حين أن أدلة المانعين مرسلة وموقوفة[١٠٤].

٢- إهدار النبي (ﷺ) لبعض الدماء:

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الذي لا بد أن تتصف به القيادة

---

(١٠٠) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٤٠١).
(١٠١) انظر: فقه السيرة للغزالي ص(٣٨٣).
(١٠٢) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٢٦٩).
(١٠٣) انظر: المجتمع المدني للعمري ص(١٧٩).
(١٠٤) نفس المصدر ص(١٨٠).

الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح(١٠٥).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث ابن نقيد -مصغرًا- ومقيس بن حبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي وذكر الحاكم أن فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة(١٠٦).

ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلمًا تائبًا فعفا عنه الرسول، وحسن إسلامه(١٠٧).

٣- خطبة النبي (ﷺ) غداة الفتح وإسلام أهل مكة:

وفي غداة الفتح بلغ النبي(ﷺ) أن خزاعة حلفاءه عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل في الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيبًا فقال: «**يا أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد -يقطع- فيها شجرًا لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله (ﷺ) قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلها لكم.**

يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً، لأدينّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قُدِّم قاتله، وإن شاؤوا فعقله»(١٠٨).

كان من أثر عفو النبي(ﷺ) الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مكة رجالاً ونساءً وأحرارًا وموالي في دين الله طواعية واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجًا، وتمت النعمة، ووجب الشكر(١٠٩) وبايع رسول الله (ﷺ) الناس جميعًا الرجال والنساء، والكبار والصغار وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال لرسول الله(ﷺ):

---

(١٠٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)؛ تأملات في السيرة ص(٢٦٢).

(١٠٦) فتح الباري (٧/ ٩).

(١٠٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).

(١٠٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١) وعقله: ديته.

(١٠٩) نفس المصدر (٢/ ٤٥٦).

جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقال: على أي شيء تبايعه؟ قال: «**أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد**»[١١٠].

وقد روى البخاري: أن رسول الله (ﷺ) قال يوم الفتح: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**[١١١]، **وإذا استنفرتم فانفروا**»، والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عز الإسلام، وثبت أركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجا، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلد لا يقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك فهي باقية إلى يوم القيامة، ولكن هذه دون تلك، فقد تكون واجبة؛ وقد تكون غير واجبة، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال (عز شأنه)[١١٢]: ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (سورة الحديد، آية ١٠).

ولما فرغ رسول الله (ﷺ) من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة، على ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبي: «**ولا يسرقن**» قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بني، فهل عليّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها (ﷺ): «**خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف**». ولما قال: «**ولا يزنين**» قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: «**وإنك لهند بنت عتبة؟**» قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله (ﷺ) من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لا والله، ما مست يد رسول الله يد امرأة قط) وفي رواية: ما كان يبايعهن إلا كلامًا ويقول: «**إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة**»[١١٣].

رابعًا: بعث خالد بن الوليد إلى بني جزيمة:

بعث رسول الله (ﷺ) خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعيًا إلى الإسلام وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة[١١٤] قبل حنين ومعه جنود من بني سليم ومدلج والأنصار والمهاجرين كان تعدادهم حوالي ثلثمائة وخمسين رجلاً فلما رأى بنو جذيمة الجيش

---

(١١٠) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٠٥) (٥/ ١١٤).
(١١١) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٣٠٩ (٥/ ١١٥).
(١١٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(١١٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣١٩).
(١١٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٢٤٨).

بقيادة خالد أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدرًا فقال: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد؛ والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدًا فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه، فلما وضع السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسرًا وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يومًا أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله (ﷺ) أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلاً: **«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»**[(١١٥)].

ودار كلام بين خالد وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتى كان بينهم شر، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالد ثأرًا لعمه الفاكه بن المغيرة الذي قتلته جذيمة في الجاهلية، ولعل هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المروي عند مسلم[(١١٦)] وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله (ﷺ): **«لا تسبوا أحد من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»**[(١١٧)]. وبعث رسول الله (ﷺ) عليًا فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييبًا لنفوسهم وبراءة من دمائهم[(١١٨)]، وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي (ﷺ) بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسىً وحزن[(١١٩)]، وكان قتل خالد لبني جذيمة تأولاً منه واجتهادًا خاطئًا وذلك بدليل أن الرسول (ﷺ) لم يعاقبه على فعله[(١٢٠)].

خامسًا: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طهر البيت الحرام من الأوثان التي كانت فيه، كان لا بد من هدم البيوت التي أقيمت للأوثان فكانت معالم للجاهلية ردحًا طويلاً من الزمن[(١٢١)]، **فكانت سرايا رسول الله تترى لتطهير الجزيرة منها:**

١- سرية خالد بن الوليد إلى العزى:

توجهت سرية قوتها ثلاثين فارسًا بقيادة خالد بن الوليد إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب (العزى) لإزالته من الوجود نهائيًا وعندما وصلت السرية

---

(١١٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٤).
(١١٦) مسلم (٤/ ١٩٦٧-١٩٦٨) رقم (٢٥٤١).
(١١٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٧٩).
(١١٨) في إسناده ضعف. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٧٩).
(١١٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٥).
(١٢٠) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٧٩).
(١٢١) انظر: معين السيرة ص(٣٩٤).

إلى العزى بمنطقة نخلة قام إليها خالد، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليه[١٢٢]، وهو يردد: كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك[١٢٣]، ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله (ﷺ) وقدم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبي (ﷺ) استدرك على قائد السرية وقال له: «**هل رأيت شيئًا؟**» قال: لا[١٢٤] فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئًا**»[١٢٥]، فرجع خالد وهو مغتبط حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السدنة إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة فهربوا إلى الجبل وهم يصيحون: يا عزى خبليه، يا عزى عوريه فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فتقدم إليها خالد رضي الله عنه بشجاعته المعروفة وضربها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله (ﷺ) فأخبره بذلك فقال: «**تلك هي العزى**»[١٢٦].

٢- سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة:

مناة اسم صنم كانت على ساحل البحر الأحمر مما يلي قديدًا[١٢٧] في منطقة تعرف بالمشلل[١٢٨] وكانت للأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم يعبدونها ويعظمونها في الجاهلية ويهلون منها للحج، وقد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تحرجًا وتعظيمًا لها حيث كان ذلك سنة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة[١٢٩] ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا (فلما قدموا مع النبي (ﷺ) للحج ذكروا ذلك له فأنزل الله(تعالى) هذه الآية[١٣٠]، قال(تعالى): ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾ (سورة البقرة، الآية ١٥٨).

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان محرف الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام عمرو بن لحي الخزاعي[١٣١]، فلما فتح الله على المسلمين مكة بعث رسول الله إلى مناة رجلاً من أهلها سابقًا الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه على رأس سرية قوتها عشرون فارسًا وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائيًا[١٣٢].

---

(١٢٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٢٨٢) .
(١٢٣) نفس المصدر ص(٢٨٢) .
(١٢٤) انظر: المغازي (٢/ ٨٧٤) .
(١٢٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٢٨٢) .
(١٢٦) نفس المصدر ص(٢٨٣) .
(١٢٧) ما بين مكة والمدينة .
(١٢٨) المشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة .
(١٢٩) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٢٨٦) .
(١٣٠) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢٢) .
(١٣١) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٢٨٧) .
(١٣٢) نفس المصدر ص(٢٨٧) .

انطلق سعد بن زيد ومن معه في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد ؟قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها(١٣٣).

فصاح بها السادن صيحة الواثق: مناة دونك بعض عصاتك(١٣٤) ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد رضي الله عنه بكل ذلك وضربها ضربة قاتلة قضت عليها ثم أقبل مع أصحابه على الصنم فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئًا، وانصرف راجعًا إلى رسول الله (ﷺ)(١٣٥).

٣- سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال (تعالى) مخبرًا عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (سورة نوح، آية ٢٣).

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنم كان لقوم نوح عليه السلام ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية(١٣٦)، وظل هذا الوثن منصوبًا تعبده هذيل وتعظمه حتى إنهم كانوا يحجون إليه(١٣٧)، حتى فتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخلت في دين الله أفواجا، فبعث رسول الله (ﷺ) سرية بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع، ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله (ﷺ) أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لم؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك هل يسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئًا ،ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله(١٣٨).

ونستفيد من حركة السرايا التي أرسلها رسول الله (ﷺ) للقضاء على الأصنام والأوثان: أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة.

---

(١٣٣) انظر: الطبقات (٢/ ١٤٦).

(١٣٤) نفس المصدر(٢/ ١٤٦).

(١٣٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٢٨٨). قال مؤلف الكتاب الدكتور بريكك العمري: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية ويمكن الاستئناس به تاريخيًا حيث ذكر أهل المغازي أن رسول الله أرسل بعض السرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربية ولايمكن استثناء مناة من ذلك لكونها أحد أكبر الطواغيت في الجزيرة. ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرسالة العلمية التي أشرف عليها الدكتور أكرم العمري.

(١٣٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٢٩٢).

(١٣٧) انظر: سبل الرشاد للشامي (٦/ ٣٠٣).

(١٣٨) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٧٠).

وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانًا وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز منها إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أو أعظم شركًا عندها وبها[١٣٩].

(١٣٩) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص(٣٠٢).



المبحث الثالث

دروس وعبر وفوائد

أولاً: تفسير سورة النصر وكونها علامة على أجل رسول الله (ﷺ):

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله (ﷺ) يكثر من قوله: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه**». قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. فقال: «**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** (سورة النصر)(١٤٠).

قال القرطبي: وذلك لما فتحت مكة قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان (أي طاقة) فكانوا يسلمون أفواجًا أمة أمة(١٤١) وكان عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممرّ الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحي إليه، أو أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذاك الكلام وكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه. فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق؛ فلما كانت وقعة أهل مكة بادر كل قوم بإسلامهم.

وهذه السورة تسمى سورة التوديع حيث جاءت مخبرة بقرب أجل المصطفى (ﷺ)(١٤٢)، فعن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله، فقال عمر إنه من حيث علمتم فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم قال: ما تقولون في قوله(تعالى): **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾**.

فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله (ﷺ) أعلمه له، قال: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾** -وذلك علامة أجلك- **﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول(١٤٣).

---

(١٤٠) مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥١).
(١٤١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠).
(١٤٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٥٧٢).
(١٤٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٩٤).

ويقول سيد قطب في بيان بعض ما يستفاد من هذه السورة: في مطلع السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث، ومايقع في هذه الحياة من حوادث، وعن دور الرسول (ﷺ)، ودور المؤمنين في هذه الدعوة، وحدهم الذين ينتهون إليه في هذا الأمر. . . هذا الإيحاء يتمثل في قوله: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ فهو نصر يجيء به الله في الوقت المناسب الذي يقدره في الصورة التي يريدها، للغاية التي يرسمها ،وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء وليس لهم في هذا النصر يد، وليس لأصحابه فيه كسب، وليس لذواتهم منه نصيب، وليس لنفوسهم منه حظ، إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراسًا، ويجعلهم عليه أمناء. . . . هذا هو كل حظهم من النصر والفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجًا[١٤٤].

وهذا معنى إيماني عميق حرص القرآن على تثبيته في نفوس المؤمنين، ألا وهو أن التمكين بيد الله (تعالى) فهو الذي يختار الزمان والمكان والأشخاص الذين يريد أن يجري على أيديهم نصره وفتحه (سبحانه وتعالى) وهو كرم وفضل من الله محض خص به الصادقين من عباده.

ثانيًا: مواقف دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النفوس:

١- إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله (ﷺ) مكة وظهر، انقحمت[١٤٥] بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل: أن أطلب لي جوارًا من محمد، وإني لا آمن من أن أقتل. وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثرًا مني، وإني لقيت رسول الله (ﷺ) يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدرًا وأحدًا، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله تؤمنه؟ فقال: «**نعم هو آمن بأمان الله، فليظهر!**» ثم قال رسول الله (ﷺ) لمن حوله: «**من لقي سهيلاً بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع!**» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سهيل: كان والله برًا، صغيرًا وكبيرًا! فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي (ﷺ) وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة[١٤٦].

لقد كانت لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله (ﷺ) بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه وكان مكثرًا من الأعمال الصالحة[١٤٧]، يقول الزبير بن بكار: كان سهيل بعد كثير الصلاة والصوم

---

(١٤٤) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦) . (١٤٥) أي رميت بنفسي .

(١٤٦) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٤٦، ٨٤٧)؛ المستدرك للحاكم (٣/ ٣٨١) .

(١٤٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٢١٦، ٢١٧) .

والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميرًا على كردوس[١٤٨] يوم اليرموك[١٤٩].

٢- إسلام صفوان بن أمية:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: . . . وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة[١٥٠]. وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: وَيْحك انظر من ترى قال: هذا عمير بن وهب. قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمد عليَّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حمّلتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عُمير قال لرسول الله (ﷺ): يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبي وأمي! قال رسول الله (ﷺ): **«قد أمنته»**، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله (ﷺ) قد أمنك. فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هاربًا يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله (ﷺ): **«خذ عمامتي»**.

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله (ﷺ) يومئذ مُعتجرًا[١٥١] به، بُرد حَبَرة[١٥٢].

فخرج عمير في طلبه الثانية، حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مَجْده مَجْدك، وعزه عزك، ومُلكه مُلكك ابن أمك وأبيك. اذكر الله في نفسك. قال له: أخاف أن أقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم وقد بعث إليك بُبْرده الذي دخل فيه معتجرًا، تعرفه؟ قال: نعم. فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله (ﷺ) يُصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يُصلي بهم محمد؟ قال: نعم. فلما سلّم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني بُبردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك. فإن رضيت أمرًا وإلا سيرتني

---

(١٤٨) كردوس: فرقة كبيرة.

(١٤٩) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).

(١٥٠) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).

(١٥١) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئًا تحت ذقنه. (النهاية ٣/ ٦٩).

(١٥٢) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

شهرين. قال: «**انزل أبا وهب**». قال: لا والله، حتى تبين لي، قال: «**بل تُسيَّر أربعة أشهر**»، فنزل صفوان.

وخرج رسول الله (ﷺ) قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال رسول الله (ﷺ): «**عارية مُؤَدَّاة**»، فأعاره، فأمره رسول الله (ﷺ) فحملها إلى حنين، فشهد حُنينًا، والطائف ثم رجع رسول الله (ﷺ) إلى الجعرانة، فبينما رسول الله (ﷺ) يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعْب مُلئ نَعَمًا وشاءً ورعاءً فأدام إليه النظر ورسول الله (ﷺ) يرمقه فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشِّعب؟**» قال: نعم. قال: «**هو لك وما فيه**». فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. وأسلم مكانه[١٥٣].

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي (ﷺ) حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ثم أسلم مكانه[١٥٤]، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي (ﷺ) فقال: (والله لقد أعطاني رسول الله (ﷺ) ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ)[١٥٥].

٣- إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسولالله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله (ﷺ): «**هو آمن**»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حَيٍّ من عَك[١٥٦]، فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له: أخلص! فقال: أي شيء أقول: قال: قل: لا إله إلا الله. قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لا تُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد استأمنت لك محمدًا رسول الله (ﷺ). قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنَّك فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة،

---

(١٥٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥٣-٨٥٥).

(١٥٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٠).

(١٥٥) مسلم، كتاب الفضائل رقم (٢٣١٣) ص(١٨٠٦).

(١٥٦) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية. معجم ما استعجم ص(٢٢٣).

وهو يؤمئذ لم يُسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: «**يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تَسبُّوا أباه، فإن سبّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت**» .

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة. فيقول: إن أمرًا منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي(ﷺ) عكرمة وثب إليه -وما على النبي(ﷺ) رداء- فرحًا بعكرمة، ثم جلس رسول الله(ﷺ) فوقف بين يديه، وزوجته مُتنقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني. فقال رسول الله(ﷺ) : «**صدقت، فأنت آمن!**» فقال عكرمة: فإلى ما تدعو يا محمد؟ قال: «**أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة -وتفعل، وتفعل**» ، حتى عدّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثًا وأبرّنا برًا. ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فسُرّ بذلك رسول الله(ﷺ) ، ثم قال: يا رسول الله علمني خيرَ شيء أقوله. قال: «**تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله**» . قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله(ﷺ) : «**تقول أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد**» . فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «**لا تسألني اليوم شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه**» ، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله(ﷺ) : «**اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب عنه!**» فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل لله ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيدًا(١٥٧).

وبعد أن أسلم رد رسول الله(ﷺ) امرأته له بذلك النكاح الأول(١٥٨).

كان سلوك النبي(ﷺ) في تعامله مع عكرمة لطيفًا حانيًا يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحب به وفي رواية قال له: «**مرحبًا بالراكب المهاجر**» (١٥٩)، فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله(ﷺ) وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما

---

(١٥٧) يعني يوم اليرموك .

(١٥٨) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١-٨٥٣) .

(١٥٩) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥) مرسل ورجاله رجال الصحيح في إحدى سنديه وأما الإسناد الآخر من رواية الطبراني: رجاله رجال الصحيح إلا مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة.

هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم ،وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم تُوّج بإسلامه بين يدي رسول الله (ﷺ) ، وكان صادقًا في إسلامه فلم يطلب من رسول الله (ﷺ) دنيًا وإنما سأله أن يغفر الله (تعالى) له من كل ما وقع فيه من ذنوب ماضيه، ثم أقسم أمام النبي (ﷺ) بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله (تعالى) بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية ،ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله (تعالى) في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيدًا في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله(١٦٠).

٤- مثل من تواضع النبي (ﷺ)؛ إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: لما دخل رسول الله (ﷺ) مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله (ﷺ) قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟**» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «**أسلم**» ، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله (ﷺ) : «**غيروا هذا من شعره**»(١٦١)، ويروى أن رسول الله (ﷺ) هنأ أبا بكر بإسلام أبيه(١٦٢).

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنّه النبي (ﷺ) في توقير كبار السن واحترامهم ويؤكد ذلك قوله (ﷺ) : «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**»(١٦٣). وفي قوله (ﷺ) : «**إن من إجلال الله (تعالى) إكرام ذي الشيبة المسلم**»(١٦٤)، كما أنه (ﷺ) سن إكرام أقارب ذوي البلاء والبذل والعطاء والسبق في الإسلام تقديرًا لهم على ما بذلوه من خدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعوة الله (تعالى)(١٦٥).

٥- مثل من عفو النبي (ﷺ) وحلمه؛ إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي (ﷺ) وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله (ﷺ) : «**أفضالة؟**» قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي (ﷺ) ، ثم قال: «**استغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما

---

(١٦٠) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥) .
(١٦١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٤، ٥٥) .
(١٦٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٧٧) .
(١٦٣) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر، باب (١٥) .
(١٦٤) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب (٢٠) .
(١٦٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٩٥) .

رفع يده عن صدري حتى ما منْ خلق الله شيء أحبُّ إلى منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هَلُمَّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا	**يأبى عليك اللهُ والإسلام**
لو ما رأيت محمدًا وقبيله	**بالفتح يوم تكسَّر الأصنام**
لرأيت دين الله أضحى بَيِّنًا	**والشرك يغشي وجهه الإظلام**[١٦٦]

ثالثًا: أتكلمني في حد من حدود الله؟

قال عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله (ﷺ) في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه. قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله. فلما كان العشيُّ قام رسول الله خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**». ثم أمر رسول (ﷺ) بتلك المرأة فقطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله (ﷺ)[١٦٧].

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لا يفرق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله (تعالى)، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير لعبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله (تعالى)، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلامية[١٦٨].

رابعًا: أجرنا من أجرتي يا أم هانئ:

قالت أم هانئ بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله (ﷺ) بأعلى مكة فر إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخروم، وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل عليَّ عليٌّ بن أبي طالب أخي، فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله (ﷺ) وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جَفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه، فتوشح به، ثم صلىَّ ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: «**مرحبًا وأهلاً يا أم هانئ ما جاء بك؟**» فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ؛

---

(١٦٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢١٣).

(١٦٧) البخاري، المغازي رقم (٤٣٠٤).

(١٦٨) انظر: معين السيرة ص(٤٠٢)؛ التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٣٣).

فقال: «قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما»[(١٦٩)].

خامسًا: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد أسلم وكتب الوحي ثم ارتد، فلما دخل رسول الله (ﷺ) مكة وقد أهدر دمه فر إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة، فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله (ﷺ) طويلاً ثم قال: «نعم» فلما انصرف مع عثمان قال رسول الله (ﷺ) لمن حوله «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله». فقالوا يا رسول الله: هلا أومأت إلينا؟ فقال: «إن النبي لا يقتل بإشارة»[(١٧٠)] وفي رواية: «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين»[(١٧١)].

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان[(١٧٢)].

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجد في صلاة الصبح أو بعد انقضاء صلاتها في بيته[(١٧٣)].

سادسًا: المحيا محياكم والممات مماتكم:

قال أبو هريرة: ... أتى رسول الله (ﷺ) الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله (ﷺ) حتى يقضي قال: فلما قضي الوحي رفع رأسه ثم قال: «يا معشر الأنصار قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: «فما اسمي إذن؟ كلاً، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»، قال: فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله (ﷺ): «فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم»[(١٧٤)].

سابعًا: إسلام عبد الله الزبعري شاعر قريش:

لما فتحت مكة فر عبد الله الزبعري السهمي إلى نجران فلحقته قوافي حسان فقد كان خصمًا عنيدًا للإسلام، فراح يعيره بالجبن والفرار فقال له:

لا تعد من رحلاً أحلّك بُغضُهُ   نجران من عيش أحذَّ ليم[(١٧٥)]

(١٦٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٩، ٦٠)؛ صحيح السيرة ص(٥٢٧).
(١٧٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٦).
(١٧١) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٢٨).
(١٧٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٨).
(١٧٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٦).
(١٧٤) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٢٩، ٥٣٠). (١٧٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧).

أي فليبق الله لنا محمدًا (ﷺ) هذا الرجل العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران، وليُدم الله عليك ابن الزبعري عيشًا ذليلاً مهينًا أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري وعلى نجله ويسأل الله(تعالى) أن يخلده في سوء العذاب وأليمه[١٧٦]:

غضب الإله على الزبعري وابنه ... وعذاب سوء في الحياة مقيم

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعري فقام وقعد وقلّب أموره ثم أراد الله به الخير فعزم على الدخول في الإسلام ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله (ﷺ) وأعلن إسلامه وطلب من رسول الله (ﷺ) أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام فقال له رسول الله: «**إن الإسلام يجب ما قبله**»[١٧٧]. ثم أدناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حلة[١٧٨]، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعري رضي الله عنه، قال بعد إسلامه شعرًا كثيرًا حسنًا يعتذر فيه إلى رسول الله (ﷺ)[١٧٩]، قال ابن عبد البر رحمه الله: وله -ابن الزبعري- في مدح النبي (ﷺ) أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره[١٨٠].

وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم، ومدح النبي (ﷺ) ، فأمر له بحلة[١٨١].

وقال القرطبي: (وكان شاعرًا مجيدًا، وله في مدح النبي (ﷺ)، أشعارًا كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى في كفره[١٨٢]...) وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه[١٨٣].

ومن القصائد الرائعة التي قالها في مدح النبي (ﷺ) وندمه على محاربة الإسلام وتأخره في الدخول فيه حيث قال:

منع الرقادَ بلابلٌ وهموم ... والليل معتلج[١٨٤] الرِّواق[١٨٥] بهيم[١٨٦]

مما أتاني أن أحمد لامني ... فيه فبت كأنني محموم

---

(١٧٦) الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري، محمد كابتي ص(٩٢) .

(١٧٧) المغازي (٢/٨٤٨) .

(١٧٨) الزركلي الأعلام (٤/٨٧)؛ الإصابة لابن حجر (٢/٣٠٨) نقلاً عن المرجع الذي بعده .

(١٧٩) انظر: الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري ص(٩٧) .

(١٨٠) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٣١٠) .

(١٨١) انظر: الإصابة (٢/٣٠٨) .

(١٨٢) انظر: تفسير القرطبي (٦/٤٠٧) .

(١٨٣) البداية والنهاية (٤/٣٠٨) .

(١٨٤) معتلج: ملتطم .

(١٨٥) الرِّواق: مقدم الليل . (١٨٦) بهيم: لاضوء فيه إلى الصباح .

يا خير من حملت على أوصالها عيرانه[١٨٧] سرح اليدين غشوم[١٨٨]
إني لمعتذر إليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة سهمٌ وتأمرني بها مخزوم
وأمدُّ أسبابَ الردى ويقودُنيً أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابُها ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدىً لك والديّ كلاهما زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة نور أغرُّ وخاتم مختوم
أعطاك بعدَ محبة برهانه شَرَفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينكً صادق حق وأنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل في الصالحين كريم
قرمٌ علا بنيانه من هاشم فرعٌ تمكّن في الذرى وأروم[١٨٩]

ثامنًا: من الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الغزوة ومكان نزول الرسول (ﷺ) بمكة:

١- اتضحت كثير من الأحكام الشرعية خلال فتح مكة منها:

أ- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية حيث صام الرسول في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدا فأفطر[١٩٠].

ب- صلى النبي (ﷺ) صلاة الضحى ثمان ركعات خفيفة[١٩١] واستدل قوم بهذا على أنها سنّة مؤكدة[١٩٢].

ج- قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي بمكة تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة[١٩٣].

د- تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاث أيام[١٩٤] ويرى الإمام النووي[١٩٥]، أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين، إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحرم يومها،

---

(١٨٧) عيرانة: راحلة.
(١٨٨) غشوم: شجاع لا يثنيه أمر عن عزمه.
(١٨٩) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨) أروم: أصل.
(١٩٠) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٥٧٤.
(١٩١) نفس المصدر ص(٥٧٤).
(١٩٢) المصدر السابق ص(٥٧٤).
(١٩٤) انظر: المجتمع المدني ص(١٨٥).
(١٩٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٧٥).
(١٩٥) النووي على شرح مسلم (٩/ ١٨١). اعتمدت على فقه الأحكام على ما استخرجه الدكتور العمري في المجتمع المدني، والدكتور مهدي رزق الله في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.

ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد ويرى ابن القيم[١٩٦] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح[١٩٧].

هـ- قرر الرسول (ﷺ) أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة، فقضى فيه رسول الله لعبد بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه[١٩٨].

و- عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول (ﷺ) في أن يوصي بأكثر من الثلث[١٩٩].

هذه بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث الغزوة والفتح العظيم.

٢- مكان نزول الرسول (ﷺ) بمكة:

نزل رسول الله (ﷺ) بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟**» مبينًا أنه لا يرث المسلم الكافر[٢٠٠]، وكان عقيل قد ورث أبا طالب هو وطالب أخوه وباع الدور كلها، وأما علي وجعفر فلم يرثاه لأنهما مسلمان وأبو طالب مات كافرًا[٢٠١].

تاسعًا: من نتائج فتح مكة:

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها:

١- دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف ومن ثم إلى العالم أجمع.

٢- أصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب: وبعد فتح مكة، تحققت أمنية الرسول (ﷺ) بدخول قريش في الإسلام وبرزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها، وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه[٢٠٢].

---

(١٩٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٤٣-٣٤٥ و٤٥٩-٤٦٤).

(١٩٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٥٧٥).

(١٩٨) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٠٣).

(١٩٩) المجتمع المدني للعمري ص١٨٦، سنن الترمذي (٣/ ٢٩١).

(٢٠٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤٨٢).

(٢٠١) نفس المصدر (٢/ ٤٨٢).

(٢٠٢) انظر: قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم السياسية والعسكرية، أحمد عرموش ص(١٢٩).

٣- كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر في هذا الفتح المبارك، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت في رفقه (ﷺ) بالناس وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم وتعيين من يعلمهم، ويفقههم في دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكة بعد انصرافه عنها ليصلي بالناس، ويفقههم في دينهم، وأما الآثار السياسية :فقد عين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة، يحكم في الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم(٢٠٣)، وأما الآثار الدينية: فإن فتح مكة، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعًا بأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجًا(٢٠٤).

٤- تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين بعد ما ضحوا بالغالي والنفيس وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه وقطعوا مرحلة وتعاملوا مع سننه كسنّة الابتلاء، والتدافع، والتدرج، وتغيير النفوس، والأخذ بالأسباب ،ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا للصلاة بعد أن عذب في بطحاء مكة وهو يردد أحد أحد في أغلاله وحديده ،ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو في نشوة الإيمان.

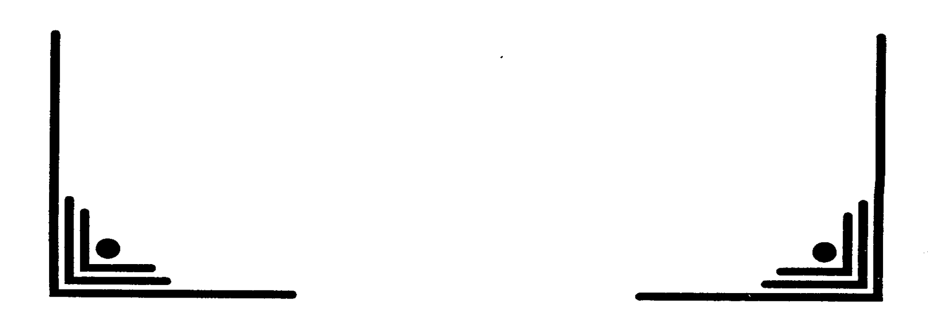
●●●

(٢٠٣) انظر: تأملات في سيرة الرسول ص٢٦٦ .
(٢٠٤) نفس المصدر ص٢٦٧ .



الفصل السادس عشر

غزوة حنين والطائف (٨هـ)





المبحث الأول

أسبابها وأحداث المعركة

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت له قريش خافت هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولَّوا عليهم مالك بن عوف النَّضري، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبني هلال، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب وكان معهم دريد بن الصمة، وكان معروفًا بشدة البأس في الحرب وأصالة الرأي، إلا أنه كان كبيرًا فلم يكن له إلا الرأي والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يخرجوا وراءهم النساء والذراري والأموال حتى لايفروا، فلما علم بذلك دريد سأله: لم ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك!! ولكنه لم يستمع لمشورته[١].

أولاً: أهم أحداث غزوة حنين:

تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوال[٢]، وقد استخلف الرسول (ﷺ) عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه وكان عدد جيش المسلمين اثنى عشر ألفًا من المسلمين أما عدد هوازن وثقيف، فكانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة ودخل الإعجاب في النفوس[٣].

أ- التعبئة التي اتخذها مالك بن عوف زعيم هوازن وثقيف:

اتخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئة عالية مرت بمراحل:

١- رفع الروح المعنوية لدى جنوده:

وقف مالك خطيبًا في جيشه وحثهم على الثبات والاستبسال، ومما قال في هذا الجمع الحاشد: إن محمدًا لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقي قومًا أغمارًا[٤]، لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم[٥].

---

(١) انظر: السيرة النبرية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٧)؛ السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨٨).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

(٤) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٥) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).

٢- حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم، لأن المقاتل -من وجهة نظره- إذا شعر أن أعزّ ما يملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار مخلفًا ما وراءه في ميدان المعركة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: افتتحنا مكة، ثم غزونا حنينًا فجاء المشركون بحنين صفوفًا رأيت، قال: فصفت الخيل ثم صفّت المقاتلة، ثم صفّت النساء من وراء ذلك ثم صفت الغنم ثم صفت النعم(٦).

٣- تجريد السيوف وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقًا لهذا، بدليل قولهم: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدّة رجل واحد عليهم(٧).

٤- وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كانت عند مالك بن عوف النصري معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فعمل بمشورة الفارس المحنك دريد بن الصمة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله (سبحانه وتعالى) وعنايته.

٥- الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين، لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالبًا ما يكون في مركز الضعف، ولهذا آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى -بفضل الله (تعالى)- ثم بثبات رسول الله (ﷺ) حيث كسب المسلمون الجولة وانتصروا على أعدائهم(٨).

٦- شن الحرب النفسية ضد المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوزاني، استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شنّ الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه في الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك(٩).

---

(٦) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٦) رقم (١٣٦).

(٧) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٧٩- ١٨٠) المستدرك للحاكم (٣/ ٤٨-٤٩) صحيح الإسناد.

(٨) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله ص(٢٥٢).

(٩) انظر: غزوة حنين للشيخ محمد أحمد باشميل ص(١٢٨-١٣١).

ب- خطوات الرسول (ﷺ) لصد هذه الحشود:

لما بلغ النبي (ﷺ) عزم هوازن على حربه بعد أن تم له فتح مكة -شرفها الله- قام بالآتي:

١- أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي حتى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب رضي الله عنه ومكث بينهم يومًا أو يومين ثم عاد وأخبر النبي (ﷺ) بما رأى(١٠).

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول (ﷺ) وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه قصَّر رضي الله عنه في أداء هذا الواجب حيث لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يُدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها ،وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة ،وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله (ﷺ)، لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله (سبحانه وتعالى) وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي (ﷺ) جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو(١١).

٢- عدة الجيش واستعارة الدروع والرماح:

أعدّ رسول الله (ﷺ) جيشًا قوامه عشرة آلاف وهم من خرجوا معه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثنى عشر ألفًا، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعَمِهم ومع النبي (ﷺ) يؤمئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء(١٢) وهم ألفان(١٣)، وسعى (ﷺ) لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعًا وتكفل (ﷺ) بالضمان ،وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهم، عن صفوان بن يعلي بن أمية عن أبيه عن النبي (ﷺ) قال: «**إذا أتتك رسلي فأعطهم**» -أو قال «**فادفع إليهم- ثلاثين درعًا**»، وثلاثين بعيرًا، أو أقل من ذلك فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي (ﷺ) «**نعم**»(١٤)، وفي رواية: أن رسول الله (ﷺ) استعار منه يوم حنين دروعًا فقال: أغصبًا يا محمد؟ قال: «**لا، بل عارية مضمونة**»، قال: فضاع بعضها

---

(١٠) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٧٣).

(١١) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله ص(٣٦٩).

(١٢) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة وخلى سبيلهم.

(١٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب أعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٥) رقم (١٣٥).

(١٤) أبو داود، كتاب البيوع، باب تضمين العارية (٣/ ٨٢٦) رقم (٨٥٦٦).

فعـرض عليـه رسول الله (ﷺ) أن يضعهـا له، فقال: أنا اليوم يـا رسول الله في الإسلام أرغب. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم[١٥].

٣- ثباته (ﷺ) وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختـاروا مواقعهم وبثوا كتـائبهم في شعابه، ومنعطفاته وأشـجاره، وكانت خطتهم تتـمثل في مباغـتة المسلمين بالسهام أثناء تقـدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم وماج بعضهم في بعض، ونتيجـة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول (ﷺ) ونفر قليل في الميدان يتصدّون لهجمات المشركين، ونترك الـعباس عمّ الـرسول (ﷺ) يصف لنا ذلك المشهـد المهيب حيث يقول: شـهدت مع رسول الله (ﷺ) يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله (ﷺ) فلم نفارقه، ورسول الله (ﷺ) على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله (ﷺ) يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله (ﷺ) أكـفهـا إرادة ألا تسرع فـقال رسـول الله (ﷺ): «**أي عـبـاس! نـاد أصـحـاب السَّـمُـرَة**»[١٦]، فقال العـباس -وكان رجلاً صـيتًا: فقلت: بأعلى صـوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله! لكأن عطفتهم حين سمـعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتلوا الكفار، والدعـوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج فنظر رسول الله (ﷺ) وهو على بغلته، كالمـتطاول عليها إلى قتالهم فـقال رسول الله (ﷺ): «**هذا حـين حـمي الوطيس**»[١٧].

لقد أيّد الله نبيه (ﷺ) يوم حنين بأمور منها:

* نزول الملائكة من السماء.
* سلاح الرعب[١٨].

تأثير قبضتي الحصى والتراب في أعين الأعداء:

من الأسلحة المادية التي أيد الله بها رسوله (ﷺ) يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتراب اللتين رمى بهـما وجوه المشـركين، حيث دخل في أعـينهم كلهم من ذلك الحـصى والتراب اللتين رمى بهـما وجوه المشـركين حيث دخل في أعـينهم كلهم من ذلك الحـصى والتراب،

---

(١٥) أبو داود، كتاب البيوع والإجارات، باب تضمين العارية (٣/ ٨٢٣) رقم (٣٥٦٢).
(١٦) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٣٩٨) رقم (١٧٧٥).
(١٧) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم (١٧٧٢).
(١٨) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٥٩).

فصار كل واحد يجد لها في عينيه أثرًا، فكان من أسباب هزيمتهم[١٩] قال العباس رضي الله عنه: ثم أخذ رسول الله (ﷺ) حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار. ثم قال: «**انهزموا وربّ محمد**»، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئة فيما أرى قال: فوالله ما هو إلاّ أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدّهم كليلاً وأمرهم مدبرًا[٢٠].

ثانيًا: مطاردة فلول الفارين إلى أوطاس والطائف:

أ- قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

لما فرغ النبي (ﷺ) من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقى دُريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشمي بسهم فأثبته في رُكبته. فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني ولّى، فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت فكفّ. فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتله، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي، أقرئ النبي (ﷺ) السلام وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيرًا ثم مات. فرجعت فدخلت على النبي (ﷺ) في بيته على سرير مُرمل[٢١]، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر**»، ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: «**اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس**»، فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا**».

قال أبو بردة[٢٢]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى[٢٣].

ب- محاصرة الفارين إلى الطائف:

حاصر رسول الله (ﷺ) أهل الطائف واستخدم أساليب متنوعة في القتال والحصار ومارس الشورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النفسية والدعاية في صفوف الأعداء ومن هذه الأساليب:

١- استخدم (ﷺ) أسلوبًا جديدًا في القتال:

استعمل النبي (ﷺ) في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من

---

(١٩) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله ص(٢٥٩).

(٢٠) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم (١٧٧٥).

(٢١) أي معمول بالرمال وهي حبال الحصى.

(٢٢) أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.

(٢٣) البخاري، المغازي، رقم ٤٣٢٣ (٥/ ١٢٠).

قبل وهذه الأسلحة هي:

• المنجنيق:

فقد ثبت أن الرسول (ﷺ) استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف. فعن مكحول رضي الله عنه: أن النبي (ﷺ) نصب المنجنيق على أهل الطائف(٢٤).

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وُجهّت إليه، فبحجارته تُهدَم الحصون والأبراج وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال(٢٥).

• الدبابة:

ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول (ﷺ) لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي(٢٦).

• الحسك الشائك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول (ﷺ) في حصاره لأهل الطائف الحسك الشائك وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمّران على هيئة الصليب، حتى تتألف منها أربعة شعب مدببة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال(٢٧).

وقد ذكر أصحاب المغازي والسِّير أن الرسول (ﷺ) استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف(٢٨) وفي هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصًا، والمسلمين عمومًا ألا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد الذي يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢- اختيار رسول الله (ﷺ) مكان مناسب عند القتال:

نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون وحينئذ عرض الحباب ابن المنذر على الرسول (ﷺ) فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل (ﷺ) هذه المشورة وكلَّف الحباب لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب رضي الله عنه ثم حدد المكان

(٢٤) أبو داود، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد ح (٣٥) مراسيل أبي داود ص(١٨٣).
(٢٥) انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية، اللواء محمد فرج ص(٤٠٧).
(٢٦) انظر: القيادة في عهد الرسول ص(٤٠٥).
(٢٧) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، اللواء عبد الرؤوف عون ص(١٩٥).
(٢٨) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢١٤).

المناسب وعاد فأخبر النبي (ﷺ) بذلك، فأمر النبي (ﷺ) جيشه بالتحول إلى المكان الجديد، وهذا شاهد عيان يحدثنا عن ما رأى ،قال عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد ،وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ودعا رسول الله (ﷺ) الحباب فقال: **«انظر مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم»**، فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف(٢٩) خارج من القرية، فجاء إلى النبي (ﷺ) فأخبره، فأمر النبي (ﷺ) أن يتحولوا(٣٠).

٣- استخدام الحرب النفسية والدعاية:

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي (ﷺ) بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرحم أن يترك هذا العمل ووجه النبي (ﷺ) نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامها(٣١).

٤- الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله (ﷺ) في رفع الحصار واضحة فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها، بل صارت ضمن سيادة الدولة الإسلامية، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك، وقد استشار رسول الله (ﷺ) من حوله في عملية الحصار(٣٢) فقال نوفل بن معاوية الديلي: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك فأمر رسول الله (ﷺ) ابن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله (ﷺ): **«فاغدوا على القتال»** فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله (ﷺ): **«إنا قافلون غدًا إن شاء الله»**، فسُرُّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله (ﷺ) يضحك(٣٣)، فلما ارتحلوا واستقلُّوا، قال: **«قولوا: آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون»**(٣٤)، وقيل يا رسول الله: ادع الله على ثقيف فقال: **«اللهم اهدِ ثقيفًا وائتِ بهم»**(٣٥).

●●●

---

(٢٩) مسجد الطائف: هو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس.

(٣٠) انظر: مغازي الواقدي (٤١٦/١).

(٣١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٥١٠/٢).

(٣٢) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع ص(٢٠٦).

(٣٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (١٤٠٣/٣) رقم (١٧٧٨).

(٣٤) انظر: زاد المعاد (٤٩٧/٣).

(٣٥) انظر: زاد المعاد (٤٩٧/٣)؛ صحيح السيرة النبوية ص(٥٦٦).



المبحث الثاني

فقه الرسول (ﷺ) في التعامل مع النفوس



ويظهر هذا الفقه في عدة مواقف من هذه الغزوة منها:

أ- لا رجعة للوثنية:

خرج مع رسول (ﷺ) إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية ،وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يومًا، وبينما هم يسيرون مع رسول الله (ﷺ) إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا (ذات أنواط) كما لهم (ذات أنواط)، فقال رسول الله (ﷺ): «**الله أكبر! قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُ ءالِـهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم**»[٣٦].

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم ولكن النبي (ﷺ) أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك وحذرهم من ذلك ولم يعاقبهم أو يعنفهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[٣٧]، وقد سمح لهم الرسول (ﷺ) المشاركة في الجهاد لأنه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تمامًا من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيرًا من العقائد والأحكام والأخلاق وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار[٣٨].

ب- الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:

الإعجاب بالكثرة حجب عن المسلمين النصر في بداية المعركة وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: **﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾** (سورة التوبة، آية: ٢٥).

وقد نبه إلى هذا رسول الله (ﷺ) حينما أوضح أنه لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول: «**اللهم بك أحاول وبك أصول، وبك أقاتل**»[٣٩].

(٣٦) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٤٩)، سنن الترمذي الفتن (٤/ ٤٧٥) رقم (٢١٨٠).

(٣٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

(٣٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٦٢).

(٣٩) سنن الدارمي (٥/ ١٣٥)، المسند للإمام أحمد (٤/ ٣٣٣).

وهكذا أخذ الرسول (ﷺ) يراقب المسلمين ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة[٤٠].

ومع الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة لأنهم فوجؤوا بما لم يتوقعوه إلا أن رسول الله (ﷺ) لم يعنف أحدًا ممن فر عنه حتى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطلقاء لأنهم فروا لم يوافق على هذا[٤١].

جـ-الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:

رأى (ﷺ) أن يتألف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفًا لقلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام فأعطى لزعماء قريش، وغطفان وتميم عطاء عظيمًا ،إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس ابن عدي[٤٢]، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب الإسلام أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[٤٣]، وعبر عن هذا صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله (ﷺ) ما أعطاني وأنه لأبغض الناس إلي فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي[٤٤].

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية وترددت بينهم مقالة، فراعى (ﷺ) هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم وخاطب الأنصار خطابًا إيمانيًا عقليًا عاطفيًا وجدانيًا ما يملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد بن عبادة على رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد**» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟**» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيِّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله (ﷺ)، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف**

(٤٠) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري ص(١٩٩).
(٤١) نفس المصدر ص(٢٠٤،٢٠٥).
(٤٢) انظر: معين السيرة ص(٤٢١).
(٤٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط (١٨٠٦/٤) رقم (٤٣١٢).
(٤٤) مسلم، كتاب الفضائل (١٨٠٦/٤) رقم (٢٣١٣).

الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشَّاء[٤٥] والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وواديًا، وسلكت الأنصار شعْبًا وواديًا لسلكت شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار[٤٦]، اللهم ارحَم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار». قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله (ﷺ) قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[٤٧] وفي رواية: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[٤٨].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديثو السن منهم بدليل ما ورد في الصحيحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن ناسًا من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله (ﷺ) يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله (ﷺ) من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم فلما اجتمعوا، جاءهم رسول الله (ﷺ) فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أنا منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله (ﷺ): «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم»[٤٩].

ويرى الإمام ابن القيم استدلالاً بهذه الحادثة: أنه قد يتعين على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه ودفع شرهم عن المسلمين فيقول: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم وقيام الدين، فإن تعيّن ذلك -أي التأليف- للدفع عن الإسلام والذبّ عن حوزته واستجلاب رؤوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرّهم، ساغ له ذلك، بل تعين عليه .. فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت

---

(٤٥) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام.

(٤٦) دثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.

(٤٧) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

(٤٨) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٨) رقم (١٠٦١).

(٤٩) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٤) رقم (١٠٥٩).

أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين[٥٠] .

والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع في أول الأمر، حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوق حلاوته .

ويوضح الشيخ محمد الغزالي حقيقة هذا الأمر في مثال محسوس فيقول: . . . إن في الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تُمدّ إليه فمها، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له[٥١].

إن النبي (ﷺ) ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي (ﷺ) الحكيمة في مخاطبة الأنصار[٥٢].

د- الصبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله (ﷺ) الكثير من الصبر على جفاء الأعراب وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، فكان مثالاً للمربي الذي يدرك أحوالهم وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، فكان يبين لهم خلقه ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيمًا، ولهم مربيًا ومصلحًا، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم التزموا بعبارات التعظيم والإجلال كما يفعل العبد مع ربه، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فكان كأحدهم يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدب بحضرته ويخاطبونه بصوت خفيض ويكنون له في أنفسهم المحبة العظيمة، وأما جفاة الأعراب فقد عنفهم القرآن على سوء أدبهم وجفائهم وارتفاع أصواتهم وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول (ﷺ)[٥٣] وهذه مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله (ﷺ) للأعراب:

١- الأعرابي الذي رفض البشرى:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النبي (ﷺ) وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي (ﷺ) أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «**أبشر**» فقال: قد أكثرت علي من أبشر. فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رد

---

(٥٠) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦) .
(٥١) انظر: فقه السيرة ص(٤٢٧) .
(٥٢) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة ص(٢١٩) .
(٥٣) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة ص(٢١٩).

البشرى، فاقبلا أنتما»، قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «**اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا**»، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة[٥٤].

٢-مقولة الأعرابي: ما أريد بهذه القسمة وجه الله:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله (ﷺ) ناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. قال: فقلت والله! لأخبرن رسول الله (ﷺ). قال: فأتيته، فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف. ثم قال: «**فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله**» قال: ثم قال: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثًا[٥٥].

هـ-تعامله مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا فقالوا يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر[٥٦] ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت رسول الله خير المكفولين ثم أنشأ يقول:

أُمنُنْ علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرءُ نرجوه وننتظر[٥٧]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها دَرَر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم فعادت فواضله عليه السلام عليهم قديمًا وحديثًا وخصوصًا وعمومًا[٥٨].

فلما سمع رسول الله (ﷺ) من الوفد قال لهم: «**نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا**

---

(٥٤) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٢٨).

(٥٥) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم حديث (١٠٦٢).

(٥٦) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥٢).

(٥٧) نفس المصدر (٤/٣٥٢).

(٥٨) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٦٣، ٣٦٤).

فقولوا: إنا نستشفع برسول الله (ﷺ) إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله (ﷺ) في أبنائنا ونسائنا فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم»، فلما صلَّى رسول الله (ﷺ) بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله (ﷺ) فقال: **«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»**، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله (ﷺ) وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله (ﷺ) وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينه: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله (ﷺ)، قال عباس بن مرداس لبني سليم وهنتموني؟ فقال رسول الله (ﷺ): **«من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه»** فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم[٥٩]، وفي رواية: . . . فخطب رسول الله (ﷺ) في المؤمنين فقال: **«إن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإني أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»**، فقال الناس: طيبنا يا رسول الله لهم. فقال لهم: إنا لا ندري من أذن منكم فيه ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاءكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبي (ﷺ) فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا[٦٠] وقد سُر الرسول (ﷺ) بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلمًا، فجاء مالك مسلمًا فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي (ﷺ) فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله — في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتذي — ومتى تشاء يخبر عمّا في غد
وإذا الكتيبة عرّدت[٦١] أنيابها — بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله — وسط الهباءة[٦٢] خادر[٦٣] في مرصد[٦٤]

لقد كانت سياسته (ﷺ) مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود، وبهذه السياسة الحكيمة استطاع (ﷺ) أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام ،واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربة يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفًا في الطائف حتى ضيق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن

---

(٥٩) نفس المصدر (٤/ ٣٥٢، ٣٥٣) .
(٦٠) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣١٩) .
(٦١) عرّدت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/ ٣١٣) .
(٦٢) الهباءة: غبار الحرب مختار الصحاح ص(٦٨٩) .
(٦٣) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت .
(٦٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤) .

أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان فلا تستطيع تحركًا ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله (ﷺ) وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه، وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوبًا عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذَّن في أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف(٦٥).

إن الإنسان ليعجب من فقه النبي (ﷺ) في معاملة النفوس وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله(تعالى)، لقد استطاع (ﷺ) أن يزيل معالم الوثنية، وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتب (ﷺ) الأمور التنظيمية للأراضي التي أضيفت للدولة الإسلامية، فعين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشدًا وموجهًا ومعلمًا ومربيًا(٦٦)، وعين على هوازن مالك بن عوف قائدًا ومجاهدًا ثم اعتمر ورجع إلى المدينة (ﷺ) .

●●●

(٦٥) انظر: السيرة النبويه لابن هشام (٤/ ١٩٢) .
(٦٦) نفس المصدر (٤/ ١٥٣) .



المبحث الثالث

دروس وعبر وفوائد

أولاً: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال(تعالى): ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة، آية: ٢٥- ٢٦- ٢٧).

في الآيات السابقة: تصوير بياني بديع لحال المسلمين، فيه تنقل بالسامع من صورة إلى صورة: من صورة المسلمين وهم معجبون بكثرتهم مسرورين بها، إلى صورة فشلهم وهزيمتهم مع هذه الكثرة فلم تنفعهم، إلى صورة الخوف الذي أصابهم حتى لم تعد الأرض تسعهم وأقفلت منافذها في وجوههم إلى الصورة الحسية لهذا الفشل في الفرار والنكوص وتولية الأدبار حتى لم يبق حول النبي (ﷺ) إلا القليل.

وبعد الخوف الشديد الذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين يجيء نصر الله الذي عبر عنه (سبحانه) بقوله: ﴿**ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ**﴾.

السكينة: الطمأنينة والرحمة والأمنة وهي فعلية من السكون وهو ثبوت الشيء بعد التحرك، أو من السكن وهو كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيرهم[٦٧].

وقوله(تعالى): ﴿**ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾ قال القاسمي: أي ما تسكنون وتثبتون به من رحمته ونصره، وانهزام الكفار واطمئنان قلوبهم للكر بعد الفر ﴿**عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي الذين انهزموا، وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حاليهما أو الذين ثبتوا مع رسول الله (ﷺ) ولم يفروا، أو على الكل وهو الأنسب[٦٨].

وقوله(تعالى): ﴿**وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾.

قال الطبري: هي الملائكة[٦٩]. وقوله: ﴿**وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ**﴾.

أي: وعذب الذين كفروا بالقتل والسبي والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا ما داموا يستحبون الكفر على الإيمان، ويعادون أهله ويقاتلونهم عليه[٧٠].

(٦٧) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٩٨).
(٦٨) انظر: تفسير القاسمي (٨/ ١٥١).
(٦٩) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٠٣، ١٠٤). (٧٠) انظر: تفسير المراغي (٤/ ٨٧).

ثم قال(تعالى) : ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

أي : ويتوب الله من بعد هذا التعذيب على من يشاء من المشركين بأن يوفقهم للدخول في الإسلام والله غفور رحيم لمن تاب وآمن ،فرحمته وسعت كل شيء(٧١) .

قال سيد قطب : . . . فباب المغفرة دائمًا مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب ،إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة. إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة:

إلى أن يقول . . . لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح(٧٢) .

إن غزوة حنين سجلت في القرآن الكريم لكي تبقى درسًا للأمة في كل زمان ومكان **ولقد عرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها الآتي**(٧٣) :

أ- بين القرآن الكريم أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم قال (تعالى) : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ثم بين القرآن أن هذه الكثرة لاتفيد﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ .

ب- بين القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهربوا ماعدا النبي (ﷺ) ونفر يسير من أصحابه. قال (تعالى) : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ .

جـ- بين القرآن الكريم أن الله نصر رسوله (ﷺ) في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين فقال(تعالى) : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

د- بين القرآن الكريم أن الله أمد نبيه محمدًا (ﷺ) بالملائكة في حنين قال (تعالى) : ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ .

وأكد (سبحانه) على أنه يقبل التوبة من عباده ويوفق من شاء إليها قال (تعالى) : ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

ثانيًا: أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

أ- أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى لعدة أسباب منها:

١- أن شيئًا من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي (ﷺ) فكانت الهزيمة.

٢- خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع.

(٧١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٩٩) .

(٧٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٨) .

(٧٣) انظر: حديث القرآن (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣) .

٣- أن عدد المشركين، كان كثيرًا بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤- أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

٥- كان العدو مهيأ ومنظمًا ومستعدًا للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رأيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم.

٦- وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثًا في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سببًا لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم[٧٤].

ب- عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين لعدة أسباب منها:

١- ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

٢- شجاعة القائد، فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب بل تقدم نحو عدوه راكبًا بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها ألا تسرع.

٣- ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

٤- سرعة استجابة الفارين والتحاقهم بالقتال.

٥- وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله (ﷺ).

٦- رمية الحصى، فقد أخذ النبي (ﷺ) حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: **«انهزموا ورب محمد»**[٧٥].

٧- الاستعانة والاستغاثة بالله (عز وجل)، فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

٨- إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتها فيها، وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم وفي سورة التوبة[٧٦]: **﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾**.

---

(٧٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٩).
(٧٥) مسلم بشرح النووي (١٢/ ١١٦- ١١٧).
(٧٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص(٤٢٣).

ثالثًا: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف:

١- نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (سورة النساء، آية ٢٤). في يوم أوطاس لبيان حكم المَسبيات المتزَوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل(٧٧).

٢- منع المخنثين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات:

وكان ذلك مباحًا إذ لا حاجة للمخنث بالنساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاري عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة، دخل عليَّ النبي (ﷺ) وعندي مخنث فسمعته يقول لعبد الله بن أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدًا، فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال النبي (ﷺ): «لا يدخلن عليكم»(٧٨).

وفي هذا المنع حرص النبي (ﷺ) على سلامة أخلاق المجتمع الإسلامي.

٣- النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء:

ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين وقد ذكر ابن كثير: أن رسول الله مر يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون(٧٩) عليها فقال رسول الله (ﷺ): «**ما كانت هذه لتقاتل**» وقال لأحدهم: «**الحق خالدًا فقل له لا يقتلن ذرية ولا عسيفًا**»(٨٠) وفي رواية فقال له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا(٨١).

٤- تشريع العمرة من الجعرانة:

أحرم النبي (ﷺ) بعمرة من الجعرانة وكان داخلاً إلى مكة وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير مما لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله (ﷺ) ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها(٨٢).

٥- إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحج:

قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي (ﷺ)، وهو بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خلوق(٨٣)، أو قال: أثر صفرة، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأنزل على

(٧٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٢٠).
(٨٧) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٢٠) رقم (٤٣٢٤).
(٧٩) متقصفون: متجمعون.
(٨٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٣٦).
(٨١) نفس المصدر (٤/ ٣٣٥).
(٨٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).
(٨٣) خلوق: طيب.

النبي (ﷺ) الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي (ﷺ)، وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيط (قال) فلما سري عنه قال: **«أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة»**، أو قال **«أثر الخلوق، واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك»**[٨٤].

٦- من قتل قتيل فله سلبه:

قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله فأسرعت إلى الذي يختله فرفع ليضربني وأضرب يده فقطعتها ثم أخذني فضمني ضمًا شديدًا حتى تخوفت ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمرُ الله ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله: **«من أقام بينة على قتيل قتله، فله سلبه، فقمت لألتمس بينة قتيلي فلم أرَ أحدًا يشهد لي»**، فجلست ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله (ﷺ) فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه فقال أبو بكر: كلا لا يعطه[٨٥] أصيبغ من قريش ويدع[٨٦] أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله (ﷺ)، قال: فقام رسول الله (ﷺ) فأداه إلي فاشتريت منه خرافًا[٨٧]، فكان أوّل مال تأثّلتُه في الإسلام[٨٨].

ونلحظ في هذا الخبر أن أبا قتادة الأنصاري رضي الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق رضي الله عنه فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق والدفاع عنه ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له[٨٩].

٧- النهي عن الغلول:

أخذ النبي يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلها بين إصبعيه ثم قال: **«أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط وإياكم والغلول، فإن الغلول عار، ونار، وشنار على أهله في الدنيا والآخرة»**[٩٠].

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله (ﷺ) أشفقوا على أنفسهم

---

(٨٤) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٧٨).

(٨٥) لا يعطه: أي لايعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله: أصيبغ: نوع من الطيور شبه له لعجزه وضعفه.

(٨٦) يدع: يترك.

(٨٧) خرافًا: أي بستانًا أقام الثمر مقام الأصل.

(٨٨) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٩) رقم (٤٣٢٢).

(٨٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٢٦).

(٩٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).

وخافوا خوفًا شديدًا فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر، فقال له (ﷺ): «**أما حقِّي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك**». فقال الأنصاري: أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها، فرمى بها من يده[٩١].

وأما عقيل بن أبي طالب فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطّخ دما، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئًا فليرده، حتى الخياط والمخيط فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم[٩٢].

وهذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، -ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه- يمثل مَعْلمًا من أهم معالم المنهج النبوي في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العملية إيمانًا وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التوجيه يتطهر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانية التي لا تليق بالمجتمع المسلم[٩٣].

٨- وفاء نذر كان في الجاهلية:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما قفلنا من حنين سأل عمر النبي (ﷺ) عن نذر كان نذره في الجاهلية اعتكاف فأمره النبي (ﷺ) بوفائه[٩٤].

رابعًا: مواقف لبعض الصحابة والصحابيات:

١- أنس بن أبي مرثد الغنوي وحراسة المسلمين:

قال رسول الله (ﷺ) قبل اندلاع معركة حنين: «**من يحرسنا الليلة**». فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال (ﷺ): «**فاركب**»، فركب ابن أبي مرثد فرسًا له، وجاء إلى رسول الله (ﷺ) فقال له (ﷺ): «**استقبل هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه ونُغَرَنَّ من قبلك الليلة**».

قال سهيل بن الحنظلية: فلما أصبحنا خرج رسول الله (ﷺ) إلى مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «**هل أحسنتم فارسكم؟**» قالوا: ما أحسناه، فثوّب بالصلاة، فجعل (ﷺ) يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**» فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشِّعب فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني (ﷺ)، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أرَ أحدًا، فقال (ﷺ): «**هل نزلت الليلة؟**» فقال: لا، إلا مصليًا

---

(٩١) نفس المصدر (٤/٣٥٣).

(٩٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٤٥).

(٩٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/٣٨٧، ٣٨٨).

(٩٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/١١٨) رقم (٤٣٣٠).

أو قاضي حاجة، فقال له (ﷺ): «**قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها**»[٩٥].

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الاهتمام بالأفراد، فقد ظهر اهتمام النبي (ﷺ) بطليعة القوم حتى جعل يلتفت في صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر هام، ثم إنه (ﷺ) قال: «**أبشروا فقد جاء فارسكم**». إنها الكلمة التي يستعملها (ﷺ) في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كمًا مهملاً، ولا رقمًا في سجل، ولا بزالاً في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة: ليؤتى بغيره. إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي[٩٦] في قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (سورة الإسراء، آية: ٧٠).

كما أن في هذه القصة معلمًا من معالم المنهج النبوي الكريم في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عددًا وعدة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة مهمة بالنسبة للقادة الذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض[٩٧].

وأما في قول الرسول (ﷺ): قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها، فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملاً صالحًا كبيرًا يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[٩٨].

٢- شجاعة أم سليم يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا[٩٩]، فكان معها فرآها أبو طلحة. فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله (ﷺ): «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله (ﷺ): يضحك. قالت: يا رسول الله: اقتل من بعدنا[١٠٠] من الطلقاء[١٠١] انهزموا بك[١٠٢] فقال رسول الله: «**يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن**»[١٠٣].

---

(٩٥) أبو داود في الجهاد رقم (٢٥٠١)؛ صحيح السيرة النبوية ص(٥٥٠).
(٩٦) انظر: معين السيرة ص(٤٢٩).
(٩٧) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/٣٦٦).
(٩٨) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤).
(٩٩) خنجرًا: سكين كبير ذات حدين.
(١٠٠) من بعدنا: من سوانا.
(١٠١) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.
(١٠٢) انهزموا بك: انهزموا عنك.
(١٠٣) مسلم، رقم (١٨٠٩)، صحيح السيرة النبوية، (٥٦٣).

٣- الشيماء بنت الحارث أخت النبي (ﷺ) من الرضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله (ﷺ) من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين: تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله، ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله (ﷺ) قالت: يا رسول الله! إني أختك من الرضاعة، قال: «**ما علامة ذلك؟**» قالت عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك[١٠٤]، وعرف رسول الله (ﷺ) العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها، وقال: «**إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت**»، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي[١٠٥]، ومتعها رسول الله (ﷺ) فأسلمت، وأعطاها رسول الله (ﷺ) ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء[١٠٦].

خامسًا: إسلام كعب بن زهير - الشاعر - والهيمنة الإعلامية على الجزيرة:

لما قدم رسول الله (ﷺ) من الطائف، جاءه كعب بن زهير - الشاعر ابن الشاعر- وكان قد هجا رسول الله (ﷺ) ثم ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثه أخوه (بجير) على أن يأتي رسول الله (ﷺ) تائبًا مسلمًا، وحذره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله (ﷺ) والتي اشتهرت بـ (قصيدة بانت سعاد) فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله (ﷺ) حين صلى الصبح، ثم جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله (ﷺ) لا يعرفه، فقال لرسول الله (ﷺ): إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله، أضرب عنقه، فقال رسول الله (ﷺ): «**دعه عنك فقد جاء تائبًا نازعًا**»، وأنشد كعب قصيدته اللامية التي قال فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول[١٠٧] ... متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول
وما سعاد غداة الطرف إذ رحلوا ... إلا أغنُّ قرير العين مكحول[١٠٨]

ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
شمُّ العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل[١٠٩]

(١٠٤) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.
(١٠٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣)؛ السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٦).
(١٠٦) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣٥٨.
(١٠٧) متبول: مغرم، مكبول: مقيد.
(١٠٨) أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنه.
(١٠٩) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٩- ٣٧١).

ويقال إنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه بردته، وهي التي صارت إلى الخلفاء[١١٠]، قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جدًا، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه فالله أعلم[١١١].

ويقال: إن الرسول (ﷺ) قال له بعد ذلك: «**لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل**»[١١٢]، فقال:

من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل ... في مقْنَب من صالحي الأنصار[١١٣]
ورثوا المكارم كابرًا عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار
المُكرهين السَّمْهريَّ بأذرع ... كسوالف الهندي غير قصار[١١٤]
والناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يومَ تعانق وكرار
والقائدين[١١٥] **الناس عن أديانهم ... بالمشرفيِّ وبالقنا الخطّار**[١١٦]
يتطهرون يرونه نُسكا لهم ... بدماءِ من علقوا من الكفار

إلى أن قال:

لو يعلم الأقوام علميَ كلَّه ... فيهم لصدَّقني الذي أماري[١١٧]
قوم إذا خَوتِ النجوم فإنهم ... للطارقين[١١٨] **النَّازلين مقاري**[١١٩]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة[١٢٠].

---

(١١٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة(٢/ ٤٨٧).
(١١١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).
(١١٢) نفس المصدر (٤/ ٣٧٣).
(١١٣) المقنب: الجماعة من الخيل. يريد به القوم على ظهور جيادهم.
(١١٤) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.
(١١٥) القائدين: المانعين الناس.
(١١٦) المشرفي: السيف، والقنا: الرماح جمع قناة، والخطار: المهتز.
(١١٧) أماري: أجادل.
(١١٨) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقون: الذين يأتون بالليل.
(١١٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٦٧، ١٦٨).
(١٢٠) انظر: معين السيرة ص(٤٣١-٤٣٣).

سادساً: من نتائج غزوة حنين والطائف:

١- انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

٢- كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبي (ﷺ) لمشركي العرب.

٣- رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفًا لهم لدخول الإسلام، حصول الأنصار على وسام عظيم وهو شهادة رسول الله لهم بالإيمان والدعاء لهم ولأبنائهم وأحفادهم ورجوعهم برسول الله (ﷺ) إلى المدينة.

٤- انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حربًا ضروسًا على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية في الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن دور كبير في مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا.

٥- توسعت الدولة الإسلامية وامتدّ نفوذها وأصبح لرسول الله (ﷺ) أمراء بمكة و على قبيلة هوازن وصارت تلك الأماكن جزء من الدولة الإسلامية التي عاصمتها المدينة النبوية، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوث دعوية بدون خوف أو وجل من أحد وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظم رسول الله فريضة الزكاة فكلف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة[١٢١].

●●●

(١٢١) انظر: الأساس في السنّة وفقهها في السيرة النبوية (٢/ ٩٦١).



المبحث الرابع

أهم الأحداث ما بين حنين وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصدقات:

شرع رسول الله (ﷺ) بعد عودته إلى المدينة في أواخر ذي القعدة في تنظيم الإدارة والجباية، وكان (ﷺ) قد استخلف عتاب بن أسيد على مكة حين انتهى من أداء العمرة وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس ويعلمهم القرآن، وكان هدي النبي (ﷺ) عندما تدخل القبائل في الإسلام يحرص على تعليمها وتربيتها ويعين من يشرف على ذلك، لأن النفوس تحتاج إلى العناية، والاهتمام وغرس العقائد الصحيحة، والتصورات السليمة فيها. وفي مطلع المحرم من العام التاسع وجّه الرسول (ﷺ) عماله إلى المناطق المختلفة، فبعث، بريدة ابن الحصيب إلى أسلم وغفار وعباد بن بشر الأشهلي إلى سُليم ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضحاك بن شعبان الكلابي إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب، وابن اللُّتبيّة الأزدي إلى بني ذبيان ورجلا من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم[١٢٢]، والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد[١٢٣]، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم[١٢٤].

وكان (ﷺ) يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف كما فعل مع عامله ابن اللتبية بن الأزد حيث حاسبه عندما قال الرجل[١٢٥] هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام رسول الله (ﷺ) على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: **«ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيام يحمله على عنقه إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»**، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: **«اللهم هل بلغت»** مرتين[١٢٦]، وكان يقول أيضًا: **«أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقًا فما أصاب بعد رزقه فهو غلولاً»**[١٢٧].

ثانيًا: أهم السرايا في هذه المرحلة:

أ- سرية الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفين:

كان النبي (ﷺ) قد بعث الطفيل بن عمرو من مقرّه في حنين وقبل أن يسير إلى

(١٢٢) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٨٤).

(١٢٣) نفس المصدر (١/ ٣٨٤).

(١٢٤) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٨٤).

(١٢٥) انظر: الدولة العربية الإسلامية، منصور الحرابي ص(٤٣).

(١٢٦) مسلم، باب محاسبة الإمام عماله رقم (١٨٣٢)؛ صحيح السيرة ص(٥٧٩).

(١٢٧) انظر: التراتيب الإدارية للكتاني (١/ ٢٦٥).

الطائف، أمره بأن يهدم (ذي الكفين) صنم عمرو بن حُمَمَه الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي (ﷺ) فهدم ذي الكفين وحرقه وقاد أربعمائة من قومه ومعهم دبابة ومنجنيق مددًا لرسول الله (ﷺ) فوصلوا إليه بعد مقدمه الطائف بأربعة أيام(١٢٨).

ب- سرية عبد الله بن حذافة السهمي ويقال: إنها سرية الأنصار:

قال علي بن أبي طالب: بعث النبي (ﷺ) سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس أمركم النبي (ﷺ) أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطبًا فجمعوا فقال: أوقدوا نارًا فأوقدوها فقال: ادخلوها فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضًا ويقولون :فررنا إلى النبي (ﷺ) من النار فما زالوا حتى خمدت النار فسكن غضبه فبلغ النبي (ﷺ) فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة الطاعة في المعروف**»(١٢٩).

جـ- سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفلس في بلاد طيئ:

وفي ربيع الآخر خرجت سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس - صنم لطيئ- ليهدمه وكان تعدادها خمسين ومائة رجل من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرسًا، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم- حاتم الطائي الذي ضرب المثل بجودة- مع الفجر فهدموا الفُلس وخربوه، وملؤوا أيديهم من السّبي والنَّعَم والشّاء وفي السبي أخت عدي بن حاتم. وهرب عدي إلى الشام(١٣٠).

د- سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخلصة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسول الله (ﷺ): «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**» فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبي (ﷺ) فضرب يده على صدْري حتى رأيت أثر يده في صدري فقال: «**اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًا**». قال: فما وقعت عن فرسي بعد، قال: وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخشعم وبجيلة، فيه نصب يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرّقها بالنار وكسرها، قال: ولمّا قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له إن رسول رسول الله (ﷺ) ها هنا فإن قدر عليك ضرب عنقك قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها ولتشهد أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك قال: فكسرها وشهد ثم بعث جرير رجُلاً من أحمس يُكنى أبا أرطاة إلى النبي (ﷺ) يبشره بذلك فلّما أتى النبي (ﷺ) قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب

(١٢٨) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٨٥).
(١٢٩) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٢٦) رقم (٤٣٤٠).
(١٣٠) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي ص(٦٢٤).

قال: فبرّك النبي (ﷺ) على خيل أحمس ورجالها خمس مرّات[١٣١].

ثالثًا: إسلام عدي بن حاتم:

عندما وقعت أخت عدي بن حاتم في أسر المسلمين عاملها رسول الله معاملة كريمة وبقيت معززة مكرمة ثم كساها النبي (ﷺ) وأعطاها ما تتبلغ به في سفرها، وعندما وصلت إلى أخيها في الشام شجعته على الذهاب لرسول الله (ﷺ)، فتأثر بنصيحتها وقدم على المدينة[١٣٢] ونترك أبو عبيدة بن حذيفة يحدثنا عن قصة إسلام عدي:

قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أحدَّثُ عن عدي بن حاتم فقلت: هذا عدي في ناحية الكوفة، فلو أتيته، فكنت أنا الذي أسمع منه، فأتيته فقلت: إني كنت أحدث عنك حديثًا، فأردت أن أكون أنا الذي أسمعه منك. قال: لما بعث الله (عز وجل) النبي (ﷺ) فررت منه حتى كنت في أقصى أرض المسلمين مما يلي الروم.

قال: فكرهت مكاني الذي أنا فيه حتى كنت له أشد كراهية له مني من حيث جئت، قال: قلت لآتين هذا الرجل فوالله إن كان صادقًا فلأسمعن منه، وإن كان كاذبًا ما هو بضائري.

قال: فأتيته واستشرفني الناس وقالوا: عدي بن حاتم، عدي بن حاتم، قال: أظنه قال ثلاث مرار، قال: فقال لي: «**يا عدي بن حاتم أسلم تسلم**»، قال: قلت: إني من أهل دين. قال: «**يا عدي بن حاتم أسلم تسلم**»، قال: قلت: إني من أهل دين، قالها ثلاثًا. قال: «**أنا أعلم بدينك منك**». قال: قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «**نعم**» قال: «**أليس ترأس قومك؟**» قال، قلت: بلى. قال: فذكر محمد الركوسية[١٣٣] قال كلمة التمساها يقيمها فتركها قال: «**فإنه لا يحل في دينك المرباع**»[١٣٤].

قال: فلما قالها، تواضعت لها. قال: «**وإني قد أرى أن مما يمنعك خصاصة تراها ممن حولي، وأن الناس علينا إلبًا واحدًا هل تعرف مكان الحيرة؟**» قال: قلت: قد سمعت بها ولم آتها. قال: «**لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز تفتح**»، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز**» ثلاث مرات، «**وليوشكن أن يبتغي من يقبل ماله منه صدقة فلا يجد**»، قال: فلقد رأيت اثنتين، قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة وكنت في الخيل التي أغارت على المدائن، وايمالله لتكونن الثالثة إنه لحديث رسول الله (ﷺ) حدثنيه[١٣٥]. وفي رواية جاء فيها: . . . فخرجت حتى أقدم على رسول الله (ﷺ) المدينة، فدخلت عليه، وهو في

(١٣١) البخاري، المغازي (٥/ ١٣٢) رقم (٤٣٥٧).

(١٣٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ٨١).

(١٣٣) قوم لهم دين بين النصارى والصائبة. النهاية (٢/ ٢٥٩).

(١٣٤) المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيد القوم قبل القسمة.

(١٣٥) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٨٠).

مسجده، فسلمت عليه، فقال: «من الرجل؟» فقلت عدي بن حاتم، فقام رسول الله (ﷺ)، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك قال: ثم مضى بي رسول الله (ﷺ) حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم[١٣٦]، محشوة ليفًا، فقذفها إليَّ، فقال: اجلس على هذه قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت»، فجلست عليها، وجلس رسول الله (ﷺ) بالأرض قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك[١٣٧].

وفي هذه القصة دروس وعبر كثيرة منها:

١- كان عدي وهو مقبل على رسول الله يحمل في تصوره أنه أحد رجلين إما نبي، أو ملك، فلما رأى وقوف رسول الله مع المرأة الضعيفة الكبيرة مدة طويلة شعر بخلق التواضع وانسلخ من ذهنه عامل الملك، واستقر في تصوره عامل النبوة.

٢- كان النبي (ﷺ) موفقًا حينما انتقد عديًا في مخالفته للدين الذي يعتنقه، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله (ﷺ) الذي يعلم من دينه ما لا يعلمه الناس من حوله.

٣- لما ظهر للنبي أن عديًا قد أيقن بنبوته تحدث عن العوائق التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وما هم فيه من الفقر، فأبان له النبي (ﷺ) بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأن المال سيفيض حتى لا يقبله أحد، فلما زالت عن عدي هذه المعوقات أسلم.

٤- كان النبي (ﷺ) موفقًا في دعوته حيث كان خبيرًا بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يخاطب كل إنسان بما يلائم علمه وفكره وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه ولذلك أثر في زعماء القبائل ودخل الناس في دين الله أفواجًا[١٣٨].

٥- وجد عدي سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته (ﷺ) وحياته، ووجد هذه السمات أيضًا في لون حديثه وكلامه ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سببًا في إسلامه وزيادة يقينه وانخلاعه عن زخارف الحياة الدنيا ومظاهر الأبهة والترف التي كان قد أسبغها عليه قومه[١٣٩].

رابعًا: أحداث متفرقة في سنة ثمان:

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي: ... وفي هذه السنة بعث رسول الله (ﷺ) عمرو بن

(١٣٦) أدم: هو بفتحتين الجلد.
(١٣٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٣٦).
(١٣٨) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/٥٨،٨٦).
(١٣٩) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٣٢١.

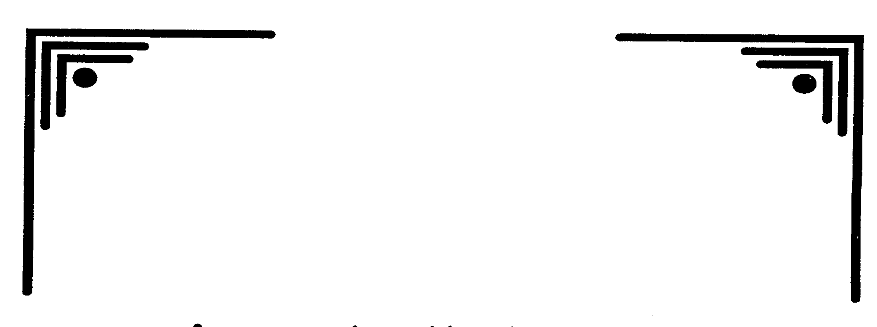
العاص إلى جيفر وعمرو ابني الجلندي من الأزد، وأخذت الجزية من مجوس بلدها ومن حولها من الأعراب، وفيها تزوج رسول الله فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة فاستعاذت منه عليه السلام ففارقها، وفي ذي الحجة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطية فاشتدت غيرة أمهات المؤمنين منها حين رزقت ولدًا ذكرًا(١٤٠).

وفي عام ٨ هـ توفيت السيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الربيع، ولدت قبل المبعث بعشر سنين وكانت أكبر بناته (ﷺ) تليها رقية ثم أم كلثوم، ثم فاطمة رضي الله عنهن، كان رسول الله محبًا لها، أسلمت قديمًا ثم هاجرت قبل إسلام زوجها بست سنين، وكانت قد أجهضت في هجرتها ثم نزفت، وصار المرض يعاودها حتى توفيت ولما ماتت قال رسول الله (ﷺ): «**اغسلنها وِتْرًا: ثلاثًا، أو خمسًا، واجعلن في الآخرة كافورًا**»(١٤١).

●●●

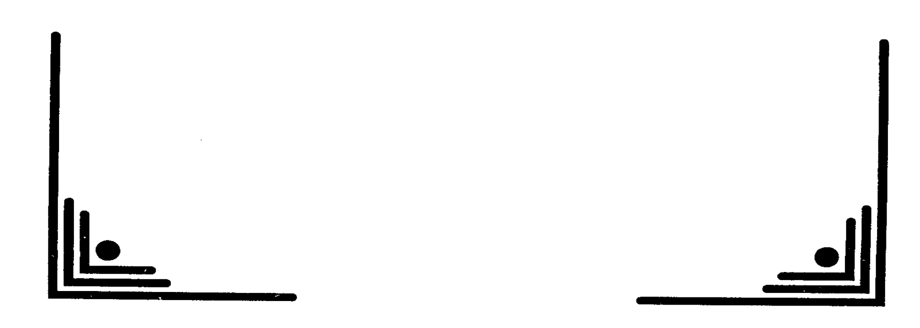
(١٤٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٧٤).

(١٤١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٩٠). الكافور: نبت طيب الرائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ويجعله صلبًا متماسكًا، ويمنع إسراع الفساد إليه.



الفصل السابع عشر

غزوة تبوك ٩هـ وهي غزوة العسرة





المبحث الأول

تاريخ الغزوة، وأسماؤها وأسبابها

أولاً: تاريخها وأسماؤها:

خرج رسول الله (ﷺ) لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري[١]، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر[٢].

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان هو عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله (ﷺ) قال: «**ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي**»[٣].

وللغزوة اسم آخر وهو غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال (تعالى): ﴿**لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة: ١١٧)، وقد روى البخاري بسنده إلى أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله (ﷺ) أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة)[٤].

لقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه[٥]، ففي تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء[٦]، وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين فيقول: خرجنا مع رسول الله (ﷺ) إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٤٠- ٥٤٢)؛ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٦١٤).
(٢) انظر: فتح الباري (١٦/ ٢٣٧).
(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤) رقم (٧٠٦).
(٤) البخاري (٥/ ١٥٠) رقم (٤٤١٥).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس ص(٨٣).
(٦) فتح الباري (٩/ ١٧٤).

بطنه[٧].

وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة ذكره الزرقاني (رحمه الله) في كتابه شرح المواهب اللدنية[٨]، وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين[٩].

وأما موقع تبوك فيقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك[١٠].

ثانيًا: أسبابها:

ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبي (ﷺ) من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعًا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء[١١]، فأراد النبي (ﷺ) أن يغزوهم قبل أن يغزوه[١٢].

ويرى ابن كثير: إلى أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد ولذلك عزم رسول الله (ﷺ) على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله قال (تعالى): **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** (سورة التوبة، آية: ١٢٣).

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب، إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة بما فيهم أهل الكتاب الذين وقفوا في طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير[١٣].

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم، لأن أصل الخروج كان واردًا.

لقد كان المسلمون على حذر من مجيء غسان إليهم من الشام ويظهر ذلك جليًا مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي (ﷺ) آلى من نسائه شهرًا فهجرهن، ففي صحيح البخاري: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر

---

(٧) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤).

(٨) انظر: شرح المواهب اللدنية (٣/ ٦٢).

(٩) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٨٤).

(١٠) انظر: المجتمع الاسلامي للعمري ص(٢٢٩).

(١١) البلقاء: هي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمّان.

(١٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٦٥).

(١٣) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٣).

عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه، وأطول طلق رسول الله (ﷺ) نساءه . . . [١٤].

ثالثًا: الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد:

حث رسول الله (ﷺ) الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة، لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القدح المعلى في الإنفاق في هذه الغزوة[١٥] فهذا عبدالرحمن بن خُباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي (ﷺ) وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: «**ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه**»[١٦]، وعن عبد الرحمن بن سمرة رضيالله عنهما قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي (ﷺ) بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي (ﷺ) جيش العسرة، قال: فجعل النبي (ﷺ) يقلبها بيده ويقول: «**ما ضرّ ابن عفان ماعمل بعد اليوم**» يرددها مرارًا[١٧].

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله (ﷺ) يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله (ﷺ): «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله (ﷺ): «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[١٨].

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة[١٩].

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي رضي الله عنهم[٢٠].

---

(١٤) البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته (٦/ ١٨٠) رقم (٥١٩١) .
(١٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٦١٥) .
(١٦) سنن الترمذي، مناقب (٥/ ٦٢٥- ٦٢٦) رقم (٣٧٠٠) .
(١٧) سنن الترمذي، المناقب (٥/٦٢٦) رقم ٣٧٠٢؛ مسند أحمد (٥/٦٣) .
(١٨) سنن أبي داود، الزكاة (٢/ ٣١٢- ٣١٣) رقم (١٦٧٨) .
(١٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٦١٦) .
(٢٠) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٣٩١) .

وهكذا يفهم المسلمون أن المال وسيلة واستطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنوا أن مالهم في خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طواعية ورغبة، وإن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرف، لأنه تاريخ المال في يد الرجال لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقدموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم في سبيل الله (تعالى)(٢١).

إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرسًا كريمًا(٢٢).

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عُقيل بنصف صاع تمر وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوها قائلين: إن الله لغني عن صدقة هذا !!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (٢٣) (سورة التوبة، الآية: ٧٩).

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء(٢٤).

لقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد فهذا عُلَبَة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابتني بها في جسد أو عرض، فأخبره النبي (ﷺ) أنه قد غفر له(٢٥).

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصرة دينالله وبث دعوته في الآفاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشون في حياتهم عيشة عملية(٢٦).

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته: . . . عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت - وقد خرج أول صحابة رسول الله- فطفقت في المدينة

---

(٢١) انظر: معين السيرة ص٤٤٩ .

(٢٢) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي ص١٦١ .

(٢٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٦١٦ .

(٢٤) نفس المصدر ص٦١٧ .

(٢٥) وردت من طرق ضعيفة ولها شاهد صحيح وهي بالجملة تصلح للشاهد التاريخي . انظر: المجتمع المدني للعمري ص٢٣٥ .

(٢٦) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٤٤٣) .

أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله عقبة[٢٧]، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال: فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا[٢٨]، فأصابني قلائص[٢٩]، فسقتهن حتى أتيته، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كرامًا، فقلت: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا[٣٠].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية، أجرًا وثوابًا يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنة رسوله، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متمم بعضها لبعضها الآخر[٣١].

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي (ﷺ) أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل[٣٢].

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقًا للجهاد وتحرجًا من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٩١- ٩٢).

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[٣٣] وهم الذين عناهم رسول الله (ﷺ) عندما قال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم**

---

(٢٧) عقبة: أي بالتعاقب.
(٢٨) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.
(٢٩) قلائص: إبل.
(٣٠) انظر: جامع الأصول رقم (٦١٨٨)؛ معين السيرة ص(٤٥٣).
(٣١) انظر: معين السيرة ص(٤٥٣).
(٣٢) انظر: المجتمع المدني ص(٢٣٦).
(٣٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٦١٨).

العذر»(٣٤).

رابعًا: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول (ﷺ) النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله (تعالى) ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (سورة التوبة، آية: ٨١- ٨٢).

وقال رسول الله (ﷺ) وهو في جهازه لتبوك - للجد بن قيس: «**يا جد: هل لك العام في جلاد الأصفر؟**»، فقال: **يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر» ألا أصبر**، فأعرض عنه رسول الله (ﷺ)، وقال: «**قد أذنت لك**» ففيه نزلت الآية: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ٤٩). وذهب بعضهم إلى النبي (ﷺ) مبدين أعذارًا كاذبة ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ٤٣).

وبلغ رسول الله (ﷺ) أن ناسًا منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله (ﷺ)، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم(٣٥).

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدق أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات وابتكار أساليب التثبيط واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازمًا حاسمًا، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفذه ونفذ بحزم، وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسؤول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الإشاعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول، لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها(٣٦).

لقد تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة وأثنائها وبعدها ومما جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمن استئذانهم، وتخلفهم عن الخروج وكان ممن تخلف عبد الله بن أبي بن سلول وقد تحدث القرآن عنهم فقال

(٣٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٣٣).
(٣٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٦١٨).
(٣٦) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٢١).

(تعالى): ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٤٢). فقد بين (سبحانه وتعالى) - موقف المنافقين وأنهم تخلفوا بسبب بعد المسافة وشدتها وأنه لو كان الذي دعوتهم إليه - يا محمد- عرضًا من أعراض الدنيا ونعيمها وكان السفر سهلاً لاتبعوك في الخروج ولكنهم تخلفوا ولم يخرجوا. فالآية تشرح وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة، وأسباب هذا الموقف، ثم حكى (سبحانه) ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

كان نزول هذه الآية قبل رجوعه (ﷺ) من تبوك.

والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله - كذبًا وزورًا- قائلين: لو استطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد في تبوك لخرجنا، فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التي حملتنا على التخلف[37].

وقوله (سبحانه): ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال ابن عاشور: أي يحلفون مهلكين أنفسهم أي موقعينها في الهلك - والهلك الفناء والموت، ويطلق على الأضرار الجسمية وهو المناسب هنا- أي يتسببون في ضر أنفسهم بالإيمان الكاذبة وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة وفي هذه الآية دلالة على أن تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[38].

ثم عاتب الله (تعالى) نبينا محمداً (ﷺ) بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

قال مجاهد[39]: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله (ﷺ) فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا وهؤلاء هم فريق من المنافقين، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسع وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة[40].

والآية الكريمة عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه لحبيبه (ﷺ) على ترك الأولى وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال[41]، ثم قال (تعالى): ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

(٣٧) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).
(٣٨) انظر: تفسير التنوير والتحرير (١٠/ ٢٠٩).
(٣٩) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠).
(٤٠) انظر: التنوير والتحرير (١٠/ ٢١٠).
(٤١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/

(سورة التوبة، آية: ٤٤-٤٥).

هذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال[٤٢]، فبين (سبحانه) أنه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاستئذان وترك الجهاد في سبيل الله وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر وصفهم (سبحانه) بقوله: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ما جئتهم به، وقوله: ﴿فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء[٤٣].

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين ولم يعد هناك أي مجال للتستر على المنافقين أو مجاملتهم بل أصبحت مجابهتهم أمرًا ملحًا بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله (تعالى) ورسوله (ﷺ) والذي نزل به القرآن الكريم، بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبًا شرعيًا[٤٤].

خامسًا: إعلان النفير وتعبئة الجيش:

أعلن النفير العام للخروج لغزوة تبوك حتى بلغ عدد من خرج مع النبي (ﷺ) إلى تبوك ثلاثين ألفًا، وقد عاتب القرآن الكريم الذين تباطؤوا بقوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٨).

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شبانًا وشيوخًا وأغنياء وفقراء بقوله (تعالى): ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٤١).

لقد استطاع رسول الله (ﷺ) أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل[٤٥] من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى ولقد أعلن رسول الله (ﷺ) على غير عادته في غزواته هدفه ووجهته في القتال، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بني الأصفر)الروم(، علمًا بأن هديه في معظم غزواته أن يوري فيها[٤٦]، ولا يصرح بهدفه ووجهته وقصده حفاظًا على سرية الحركة ومباغتة العدو[٤٧].

وقد استدل بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التصريح لجهة الغزو إذا لم تقتض

---

(٤٢) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٢٧).
(٤٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).
(٤٤) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٨٩).
(٤٥) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٩٧).
(٤٦) نفس المصدر ص(٩٧). (٤٧) المصدر السابق ص(٩٧).

المصلحة ستره، وقد صرّح (ﷺ) في هذه الغزوة - على غير العادة- بالجهة التي يريد غزوها وجلّى هذا الأمر للمسلمين لأسباب منها:

١- بعد المسافة، فقد كان رسول الله (ﷺ) يدرك أن السير إلى بلاد الروم يُعدُّ أمرًا صعبًا، لأن التحرك سيتم في منطقة صحراوية ممتدة، قليلة الماء والنبات، ولا بدّ حينئذ من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة، حتى لايؤدي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

٢- كثرة عدد الروم بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعدادًا خاصًا، فهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي (ﷺ) من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة وقدرتهم القتالية فائقة(٤٨).

٣- شدة الزمان، وذلك لكي يقف كل امرئ على ظروفه ويعدّ النفقة اللازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه(٤٩).

٤- أنه لم يعد مجال للكتمان في هذا الوقت، حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة(٥٠).

لقد شرع رسول الله (ﷺ) لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربية، ومراعاة المصلحة العامة في حالتي الكتمان والتصريح ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال(٥١).

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة سارعوا إلى الخروج إليها وحث الرسول (ﷺ) على النفقة قائلاً: من جهز جيش العسرة فله الجنة(٥٢).

واستخلف رسول الله (ﷺ) على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلّف علي بن أبي طالب على أهله، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلّفه إلا استثقالاً وتخففا منه، فأخذ علي رضي الله عنه سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله (ﷺ) وهو نازل بالجرف(٥٣)، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: **«كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي»**(٥٤) فرجع علي إلى المدينة(٥٥).

وكان استخلاف علي رضي الله عنه في أهله، باعتبار قرابته ومصاهرته فكان استخلافه

(٤٨) انظر: الرسول القائد ص(٣٩٨).

(٤٩) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤).

(٥٠) انظر: غزوة تبوك ص(٥٧)، محمد أحمد باشميل.

(٥١) انظر: القيادة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ص(٥١٠).

(٥٢) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٣).

(٥٣) انظر: زاد المعاد

(٥٤) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٥٨٩، البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤١٦).

(٥٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٣٠).

في أمر خاص، وهو القيام بشأن أهله وكان استخلاف محمد بن مسلمة الأنصاري في الغزوة نفسها استخلافًا عامًا، فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول، لأن خلافته كانت في أهله خاصة[٥٦].

وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله، اختار الأمراء والقادة وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى لواء الأعظم إلى أبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير ابن العوام رضي الله عنه ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواءً[٥٧]، واستعمل رسول الله (ﷺ) على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان رضي الله عنه يطوف في أصحابه على العسكر[٥٨]، وكان دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك[٥٩].

وقد انفرد الواقدي بالمعلومات عن طريق الجيش وتوزيع الرايات، وهو متروك، ولكنه غزير المعلومات في السيرة، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضر[٦٠].

ويلاحظ الباحث التطور السريع لعدد المقاتلين بشكل عام ولسلاح الفرسان بشكل خاص: إن الذي يدرس تاريخ الدعوة الإسلامية، ونشوء الدولة الإسلامية ومؤسساتها العامة، وفي مقدمة هذه المؤسسات الجيش الإسلامي القوة الضاربة للدولة، يلاحظ أن هناك تطورًا سريعًا جدًا في مجال القوة العسكرية إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدر الكبرى ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً، وفي غزوة أحد بلغ سبعمائة مقاتل تقريبًا وفي غزوة الأحزاب ثلاث آلاف مقاتل، وفي غزوة فتح مكة عشرة آلاف، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثنى عشر ألف مقاتل وأخيرًا بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتل أو يزيد.

وإن الدارس يلاحظ هذا التطور السريع الملفت للنظر في مجال سلاح الفرسان ففي غزوة بدر كان عدد الفرسان فارسين في بعض الروايات، وفي غزوة أحد لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدر ويقفز العدد بعد ست سنوات فقط إلى عشرة آلاف فارس، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وبخاصة في البادية، ذلك لأن أهلها يهتمون باقتناء الخيول وتربيتها أكثر من أبناء المدن[٦١].

●●●

(٥٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٤٦٦، ٤٦٧).
(٥٧) انظر: المغازي (٣/ ٩٩٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٦٦).
(٥٨) انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٦٥٢)؛ الصراع مع الصليبيين ص٩٩.
(٥٩) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٤٥١)؛ شرح المواهب اللدنية (٣/ ٧٢).
(٦٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٢).
(٦١) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٠٠).



المبحث الثاني

أحداث في الطريق والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش وتوزيع المهام والألوية والرايات توجه الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله (ﷺ) إلى تبوك، ولم ينتظر أحدًا قد تأخر، وقد تأخر نفر من المسلمين يظن فيهم خيرًا وكلما ذكر لرسول الله اسم رجل تأخر قال (ﷺ): «**دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله (تعالى) بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»[٦٢].

أولاً: قصة أبي ذر الغفاري:

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله (ﷺ) سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «**دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله (تعالى) بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره.

فقال: «**دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**» وتلوّم[٦٣] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله (ﷺ) ماشيًا، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله (ﷺ): «**كن أبا ذرّ**»[٦٤]. فلما تأمّله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله (ﷺ): «**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**»[٦٥]، ومضى الزمان وجاء عصر عثمان ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الرَّبذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر، فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله (ﷺ): «**يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**»، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه[٦٦].

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- ما تعرض له أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من الصعوبات والمخاطر التي نجاه الله

---

(٦٢) انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء للكلاعي (٢/ ٢٧٦).
(٦٣) تلوّم على بعيره: تمهل.
(٦٤) كن أبا ذر: لفظ الأمر ومعناه الدعاء أرجو الله أن تكون أبا ذر.
(٦٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٨).
(٦٦) نفس المصدر (٤/ ١٧٨).

منها وقواه بالصبر عليها، لقد بذل أبو ذر جهدًا كبيرًا في المشي على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي (ﷺ) والمسلمين لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[٦٧].

٢- وفي قوله (ﷺ): **«رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده»**، ويبعث وحده، دلالة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار على صدق نبوة الرسول (ﷺ) إذ الإخبار بأمور لم تقع ثم تقع بعد الإخبار يدل على معجزة وتكريم من الله لهذا الرسول (ﷺ) وهذه الوسيلة من إثبات النبوة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة[٦٨].

٣- كما أن في القصة دلالة على علم ابن مسعود رضي الله عنه وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله (ﷺ) عما سيئوول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته رضي الله عنه[٦٩].

ثانيًا: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق: ... ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله (ﷺ) أيامًا إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[٧٠]، قد رشت كلٌّ واحدة منهما عريشها، وبرَّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله (ﷺ) في الضِّح[٧١]، والريح والحرّ، وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد، وطعام مُهَيَّأ وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله (ﷺ)، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدّم ناضحة[٧٢] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله (ﷺ) حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجُمحي في الطريق، يطلب رسول الله (ﷺ)، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تَخَلَّف عني حتى آتي رسول الله(ﷺ)، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله (ﷺ) وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله (ﷺ): **«كن أبا خيثمة»**، فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله (ﷺ)، فقال له رسول الله (ﷺ): **«أولى لك يا أبا خيثمة»**[٧٣]. ثم أخبر رسول الله (ﷺ) الخبر، فقال له رسول الله (ﷺ) خيرًا، ودعا له بخير[٧٤].

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعرًا، واسمه مالك بن قيس:

---

(٦٧) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٢٩)؛ التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ١١٤).

(٦٨) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٢٩).

(٦٩) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١١٤).

(٧٠) حائطه: أي بستانه.

(٧١) الضح: أي في الشمس.

(٧٢) ناضحة: أي جمله.

(٧٣) اجدر بك. (٧٤) انظر: البداية والنهاية

لما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيت التي كانت أعفَّ وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما
تركت خضيبا[٧٥] في العريش وصرمة[٧٦] ... صفايا[٧٧] كرامًا بُسْرُها قد تحمَّما[٧٨]
وكنت إذا شك المنافق أسمحت[٧٩] ... إلى الدين نفسي شطره حيث يَمما[٨٠]

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- المسلم صاحب ضمير حي:

فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أعدّت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة فتذكر رسول الله (ﷺ) وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر فأبصر وتذكر وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، ثم عزم على الخروج، وخرج وحده يقطع النيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجمحي ولعله كان قادمًا من مكة، فهذه الصورة تبين لنا مثلاً من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعدها أقوى إيمانًا مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم وفي بيان ذلك يقول الله (تبارك و(تعالى)): ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ (سورة الأعراف، آية: ٢٠١).

وقد تذكر سريعًا وخرج لعله يدرك ما فاته، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي (ﷺ) في تبوك وحصل على رضاه وسروره[٨١].

٢- معرفة الرسول بأصحابه وبمعادنهم:

إن قول الرسول (ﷺ) حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل: «**كن أبا خيثمة**»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، يدل على معرفة رسول الله (ﷺ) بأصحابه وأنه أعرفهم بمعادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب النائب إلى ربه إذا زل قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم، ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته[٨٢].

---

(٧٥) خضيبًا: مخضوبة وهي المرأة.
(٧٦) صرمة: جماعة النخل.
(٧٧) صفايا: كثيرة الثمر.
(٧٨) تحممًا: أخذ في الإرطاب فاسود.
(٧٩) أسمحت: انقادت.
(٨٠) انظر: البداية والنهاية (٥/٨).
(٨١) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١١١، ١١٢).
(٨٢) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٣٣).

٣- حزم أبي خيثمة وصبره ونفاذ عزيمته:

تأمل هذا القرار الذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله (ﷺ) وحده، في هذه الرحلة المضنية، في هذه الصحراء قليلة الماء ذات الحر اللافح، لقد اتخذ هذا القرار الحازم ونفذه بدقة، فدل على قوة عزيمته وعنفوان إرادته وعلى جلده وصبره(٨٣).

٤- عتاب القائد للجندي له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفًا بذنبه، يطرح السلاح على رسول الله (ﷺ) فعاتبه (ﷺ) معاتبة تحمل في طياتها اللوم والتأنيب والتهديد إذ قال له رسول الله (ﷺ): «**أولى لك يا أبا خيثمة**»، فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها دنوت من الهلكة.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوي كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود، لأن ذلك يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ، ومحاسبة مرتكبه وتقويمه وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين(٨٤).

ثالثًا: الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النبي (ﷺ) لم يجد أثرًا للحشود الرومانية ولا القبائل العربية، وبالرغم أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقًا في الدخول مع المسلمين في قتال، حتى القبائل العربية المتنصرة آثرت السكون، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية، فقد أرسل ملك أيلة للنبي (ﷺ) هدية وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه على الجزية.

وأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه على رأس سرية من الفرسان بلغ عددها أربعمائة وعشرين فارسًا إلى دومة الجندل، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أكيدر بن عبد الملك الكندي – ملكها– وهو في الصيد خارجها(٨٥)، فصالحه النبي (ﷺ) على الجزية(٨٦).

وقد تعجب المسلمون من قباء كان أكيدر يلبسه فقال الرسول (ﷺ): «**أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»(٨٧)، وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمانمائة من السبي وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح(٨٨)، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي (ﷺ) وهي بغلة بيضاء وبرد،

(٨٣) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٣٣، ١٣٤).
(٨٤) نفس المصدر ص(١٣٤).
(٨٥) انظر: الإصابة (١/ ٤١٢– ٤١٥) من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن.
(٨٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٠).
(٨٧) نفس المصدر(٤/ ١٨٠) بإسناد حسن.
(٨٨) انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٧) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة.

فصالحه على الجزية[٨٩]، وكتب رسول الله (ﷺ) معاهدات لكل من أهل جرباء وأذرح[٩٠]، ولأهل مقنا[٩١]، يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام، وتخضع لسلطان المسلمين، لقد انفرد رسول الله (ﷺ) بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة وعقد معها معاهدات وبذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية[٩٢]، وبهذه المعاهدات قصّ (ﷺ) أجنحة الروم، فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم ودخلوا في النصرانية، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يعتبر قصٌّ لهذه الأجنحة، وبتر لحبال تبعيتهم للروم، وتحرير لها من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئًا يعيشون به، وخوفًا من ظلمهم لقوتهم الباطشة وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يد وهم صاغرون[٩٣]، وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخضع لحكم المسلمين وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلامي في عهدهم ،فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[٩٤].

رابعًا: وصايا رسول الله (ﷺ) بالجيش عند مروره بحجر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاري رضي الله عنه: لما كنا في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فنادى في الناس: «الصلاة جامعة»، قال: فأتيت رسول الله (ﷺ) وهو ممسك بعيره، وهو يقول: «**ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم**»، فناداه رجل منهم: نعجب منهم يارسول الله، قال: «**أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله «(عز وجل)» لا يعبأ بعذابكم شيئًا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا**»[٩٥]

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الناس نزلوا مع رسول الله (ﷺ) أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله (ﷺ) أن يهريقوا ما استقوا من بئارها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[٩٦] وقال رسول الله (ﷺ): «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين**

(٨٩) انظر: المجتمع المدني للعمري ص(٢٤١).
(٩٠) المغازي (٣/١٠٣٢).
(٩١) انظر: الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص(١١٩- ١٢٤).
(٩٢) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٢١٧).
(٩٣) محمد صادق عرجون (٤/٤٧٩).
(٩٤) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(٢٢١).
(٩٥) انظر: الفتح الرباني (٢١/١٩٥).
(٩٦) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (٣٣٧٩).

حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر[٩٧] فأسرع حتى خلفها[٩٨] وهذا منهج نبوي كريم في توجيه رسول الله (ﷺ) صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وألا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء، لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقًا للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوات، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم، فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، من نقمة الله وغضبه.

إن الله (عز وجل) ما قص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى (عز وجل) وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى (سبحانه) أبلغ. ولهذا تسجى النبي صلوات الله وسلامه عليه بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة، واستحث خطا راحلته[٩٩] وقال لأصحابه: **«لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفًا أن يصيبكم ما أصابهم»**[١٠٠].

خامسًا: وفاة الصحابي عبد الله ذو البجادين[١٠١] رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول (ﷺ) في حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: **«أدنيا إلى أخاكما»**، فدلياه إليه، فلما هيأه بشقة، قال: **«اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه»**. قال (الراوي عن ابن مسعود) :قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[١٠٢].

قال ابن هشام: وإنما سمي ذو البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله (ﷺ) فلما كان قريبًا منه، شق بجاده باثنين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله (ﷺ) فقيل له: ذو البجادين، لذلك[١٠٣].

---

(٩٧) زجر: أي زجر ناقته ومعناه ساقها سوقًا شديدًا حتى خلفها أي جاوز المساكن.

(٩٨) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (٣٣٨١).

(٩٩) انظر: صور وعبرمن الجهاد النبوي في المدينة ص(٤٨٠).

(١٠٠) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (٣٣٨١).

(١٠١) البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

(١٠٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٩٨).

(١٠٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٢).

وفي هذه القصة دروس وحكم وفوائد منها:

١- تكريم النبي (ﷺ) لجنوده أحياء وأمواتا:

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النبي (ﷺ) على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة، لأنهم قدّموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، تاركين وراءهم أعز ما يملكون، فكانت تلك الرعاية مظهرًا من مظاهر تكريمهم في الدنيا، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذئاب وغيرها من دواب الأرض، لكي يكون هذا التكريم من الأسباب التي تدفع غيرهم إلى الاستبسال والإقدام في ميادين الجهاد، ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يجد من يدعو إلى تطبيقه إلّا في العصر الحديث. وبهذا يمكن أن يقال: إن رعاية القائد المسلم لشؤون جنده تعد سبقًا عسكريًا لم تعرفه النظم والدساتير الوضعية إلا بعد قرون طويلة من بزوغ الإسلام[١٠٤].

فهذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام، من يبرُّ ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فردًا من رعيته بيده فيْ مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضيًا عنه[١٠٥].

٢- جواز الدفن في الليل والغبطة مشروعة في الخير:

فقد دفن رسول الله (ﷺ) ذا البجادين ليلاً، والسنة أن يعجل في دفن الميت، كما أن الغبطة وهي أن تتمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تمنى زوال النعمة عن غيرك والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا في الخير[١٠٦] تأمل قول عبد الله بن مسعود (حينما سمع رسول الله (ﷺ) يقول في حق ذي البجادين: **«اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه»**، فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد[١٠٧]، إنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس[١٠٨].

سادسا: بعض المعجزات التي حدثت في الغزوة:

ظهرت في غزوة تبوك معجزات منها:

١- الله (تعالى) يرسل السحاب لدعاء نبيه بالسقيا:

لما جاوز النبي (ﷺ) حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله (ﷺ) فدعا رسول الله (ﷺ) ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله (سبحانه

---

(١٠٤) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص(٢٩٩).

(١٠٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص(٤٧٢).

(١٠٦) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٦٣، ١٦٤).

(١٠٧) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٥٩٨).

(١٠٨) انظر: معين السيرة ص(٤٥٢).

وتعالى) سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، فتحدث ابن إسحاق عمن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمه، وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضًا على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله (ﷺ) حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله (ﷺ) حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: «**سحابة مارة**»(١٠٩).

٢- خبر ناقة رسول الله (ﷺ):

لما كان رسول الله (ﷺ) سائرًا في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله (ﷺ) رجل من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم وكان عقبيًّا بدريًا، وهم عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، وكان منافقًا.

قال زيد بن اللُّصيت وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رسول الله (ﷺ): أليس محمد يزعم أنه نبي؟ ويخبركم عن السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله (ﷺ) وعُمارة عنده: «**إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها**»، فذهبوا فجاؤوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله (ﷺ) آنفًا، عن مقالة قائل، أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن اللصيت. فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله (ﷺ): زيد، والله، قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليّ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، اخرج، أيْ عدو الله(١١٠) من رحلي، فلا تصحبني. قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متَّهمًا بشرّ حتى هلك(١١١).

٣- الأخبار بهبوب ريح شديدة والتحذير منها:

أخبر رسول الله (ﷺ) أصحابه في تبوك بأن ريحًا شديدة ستهب وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم فلا يخرجوا حتى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تؤذى، وتحقق ما أخبر به رسول الله (ﷺ) فهبت الريح الشديدة وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد(١١٢)،

---

(١٠٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٦)؛ صور وعبر من الجهاد النبوي ص(٤٧٣).
(١١٠) انظر: إعلام النبوة للماوردي ص(١٠٠)؛ السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٧).
(١١١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٧).
(١١٢) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٤١).

فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حميد قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله (ﷺ): «**ستهب عليكم الليلة ريح شديدة**»، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ[١١٣].

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم معقبًا على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من أخباره (ﷺ) بالمغيب، وخوف الضرر من القيام وقت الريح[١١٤].

٤- تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه من خصب:

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال رسول الله (ﷺ): «**إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي**»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك[١١٥]، تبض[١١٦] بشيء من ماء، فسألهما رسول الله (ﷺ): «**هل مسستما من مائها شيئًا؟**» قالا: نعم، فسبهما النبي (ﷺ) وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله (ﷺ) فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استقى الناس[١١٧].

وقد قال رسول الله (ﷺ) لمعاذ بن جبل: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانًا**»[١١٨]، لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء ولكن الله (عز وجل) أجرى على يد رسوله (ﷺ) بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آنيًا لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله (ﷺ) -بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة ولقد تحقق ما أخبر به الرسول (ﷺ)- بعد فترة قليلة من الزمن، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقًا ولا يخبر إلا حقًا ولا ينبئ بشيء إلا ويتحقق[١١٩].

٥- تكثير الطعام:

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[١٢٠] فأكلنا وأدمنا، فقال لهم رسول الله

---

(١١٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٤٢)؛ مختصر مسلم رقم (١٥٤٣) .
(١١٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٤٢) .
(١١٥) الشراك: هو سير النعل ومعناه ماء قليل جدًا .
(١١٦) تبض: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ومعناه تسيل .
(١١٧) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٤١)، مختصر مسلم رقم (١٥٣٠) .
(١١٨) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٤١)، الفتح الرباني (٢١/ ١٩٦) .
(١١٩) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٤٢) .
(١٢٠) نواضحنا: جمع ناضح وهي الإبل التي يسقى عليها .

(ﷺ): **«افعلوا»**، فجاء عمر فقال: يا رسول الله إنهم إن فعلوا قل الظهر[١٢١]، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فدعا رسول الله (ﷺ): بنطع[١٢٢] فبسطه، ثم دعاهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجئ بكف الذرة، والآخر بكف التمر، والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع في ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: **«خذوا في أوعيتكم»**، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله (ﷺ): **«أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة»**[١٢٣].

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك تدل على صدق نبوته ورسالته وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه[١٢٤].

سابعًا: حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين أثناء الغزوة:

أ- قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء.. فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله (ﷺ) فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ)، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقًا بحقب[١٢٥] ناقة رسول الله والحجارة تنكبه[١٢٦]، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول (ﷺ) يقول: **«أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟»**.

وفي رواية قتادة قال: بينما رسول الله (ﷺ) في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات...!!، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبي الله (ﷺ): **«احبسوا على هؤلاء الركب»**. فأتاهم فقال: قلتم كذا وقلتم كذا، قالوا: فأنزل الله فيهم ما تسمعون[١٢٧] فأنزل الله (تعالى): ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ٦٤- ٦٥).

والاستفهام في قوله: ﴿**قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ**﴾ استفهام إنكاري.

---

(١٢١) الظهر: مايحمل عليه من الإبل.
(١٢٢) النطع: بساط من الجلد.
(١٢٣) الفتح الرباني (٢١/١٩٦- ١٩٨).
(١٢٤) انظر: الصراع مع الصليبيين ص١٤١.
(١٢٥) الحقب: حبل يشد به الرحل في بطن البعير.
(١٢٦) الحجارة تنكبه: تصيبه وتؤذيه.
(١٢٧) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٢٣٠).

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء موبخًا ومنكرًا: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم - كما تزعمون- سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذي جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟

ثم بين (سبحانه) أن استهزاءهم هذا أدى بهم إلى الكفر فقال: **﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾** (سورة التوبة، آية: ٦٦).

ومعنى الآية: أي لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرار بذنبكم فهو كما يقال: عذر أقبح من ذنب[١٢٨].

وقوله: **﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾** أي: إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم كمخشن بن حمير نعذب بعضًا آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه[١٢٩].

ب- إيذاء الرسول والمؤمنين ومحاولة اغتيال رسول الله:

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله (تعالى): **﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾** (سورة التوبة، آية: ٧٤).

وقد قال ابن كثير أن الضحاك قال: إن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي (ﷺ) وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية[١٣٠] وفي رواية الواحدي عن الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله (ﷺ) إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله (ﷺ) وأصحابه وطعنوا في الدين، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله (ﷺ)، فقال لهم رسول الله: «**يا أهل النفاق ما هذا الذي بلغني عنكم؟**» فحلفوا ما قالوا شيئًا من ذلك، فأنزل الله هذه الآية إكذابًا لهم[١٣١].

والمعنى الإجمالي للآية: (يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغي ذكرها...)[١٣٢].

أما همهم بما ينالوا فهو اغتيال رسول الله (ﷺ) في العقبة منصرفه من تبوك - ذاك أنه لما رجع رسول الله (ﷺ) قافلاً من تبوك إلى المدينة ... وسبب النزول السابق ذكره يوضح

(١٢٨) انظر: تفسير المراغي (٤/١٥٣).
(١٢٩) نفس المصدر (٤/١٥٣).
(١٣٠) تفسير ابن كثير (٢/٣٧٢).
(١٣١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص٢٥١.
(١٣٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٦٦٥).

ذلك وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ .

أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام وبعثة الرسول (ﷺ) فيهم شيئًا يقتضي الكراهة والهم بالانتقام، إلا أن أغناهم الله (تعالى) إياهم ورسوله من فضله بالغنائم التي هي عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة.

وقوله (تعالى): ﴿إِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ .

أي: فإن يتوبوا من النفاق وما يصدر عنه من مساوئ الأقوال والأفعال، يكن ذلك المتاب خيرًا لهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ .

أي: وإن يعرضوا عما دعوا إليه من التوبة وأصروا على النفاق وما ينشأ منه من المساوئ الخلقية والنفسية يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع(١٣٣).

●●●

(١٣٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦٦) .



المبحث الثالث

العودة من تبوك إلى المدينة
وحديث القرآن الكريم في المخلفين
عن الغزوة وعن مسجد ضرار

عـاد النبي (ﷺ) إلى المدينة بعد أن مكث في تبـوك عشرين ليلة[١٣٤] ،وقد أمـر النبي (ﷺ) بهدم مسـجد الضرار الذي بناه المنافقون وهو راجع إلى المديـنة، ولما اقترب من المدينة خرج الصبـيان إلى ثنية الوداع يتلقونه ودخل المـدينة، فصلى في مسجده ركـعتين ثم جلس للناس وجاء المخلفون لرسول الله (ﷺ) يقدمون له الاعتذار، وكانوا أربعة أصناف فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله (سبـحانه وتعالى)، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله (سبحانه وتعالى):

قـال (تعـالى): ﴿**لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ٩١- ٩٢).

بينت هذه الآيات الكريمة الذين تخلفوا عن غزوة تبـوك وكان لهم عذر شرعي بأنه ليس عليـهم حرج وليس عليـهم إثم في هذا التخلف، ذلك لأن لـهم عذرًا شرعـيًا منعـهم من الخروج ،وفي المراد بالضعفاء: أنهم الزَّمْنَى والمشايخ الكبار، وقيل: الصغار وقيل: المجانين، سموا ضعافًا لضعف عقولهم ذكر القولين الماوردي: والصحيح أنهم الذين يضعفون لزمانة أو عـمى، أو سن، أو ضـعف في الجسـم. والمرضى: الذين بهم أعـلال مانعـة من الخـروج للقتال[١٣٥].

وقوله: ﴿**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ**﴾.

أي: ليس على الذين لا يجدون نفقة تبلغهم إلى الغزو حرج أي إثم ﴿ **إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ أي إذا عرفوا الحق، وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه[١٣٦].

وقـوله: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾. قال الطبري: يقـول (تعالى) ليس على من أحسن فنصح لله ورسـوله في تخلفه عن رسول الله عن الجـهاد معه، لعـذر يعذر به طريق يتطرق عليه فيعاقب من قبله ﴿**وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

يقول (تعالى): والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغـمدها بعفوه لهم عنها، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها[١٣٧].

(١٣٤) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٠٣).
(١٣٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٨٥).
(١٣٦) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).
(١٣٧) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢١١).

وقال القرطبي: الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز، من جهة القوة أو العجز من جهة المال[١٣٨].

وقوله: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف الخاص على العام، اعتناءًا بشأنهم وجعلهم كأنهم لتميزهم جنس آخر، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك ﴿أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

أي: لاحرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون، إذا ما تخلفوا عن الجهاد، وكذلك لا حرج ولا إثم - أيضًا- على فقراء المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الرواحل التي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل ﴿قُلْتَ﴾ لهم يا محمد[١٣٩] ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأن لا يجدون المال الذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرواحل التي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك[١٤٠].

ثانيًا: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدث عن هؤلاء المخلفين وهي:

١- قوله (تعالى) ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٢).

ومعنى الآية الكريمة: أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم ،والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة. وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحًا وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفي قوله: ﴿عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي وهو عسى هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لأن الأطماع من الله (سبحانه) إيجاب لكونه أكرم الأكرمين: ﴿إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده[١٤١].

(١٣٨) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).

(١٣٩) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٢).

(١٤٠) نفس المصدر (٢/ ٦٧٣).

(١٤١) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٣٩٩).

٢- قوله (تعالى): ﴿وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللَّهِ إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٦).

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصحيحين هلال بن أمية، وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع . . وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله (ﷺ) لأمر ما مع الهم باللحاق به عليه الصلاة والسلام فلم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق وحاشاهم فقد كانوا من المخلصين فلما قدم النبي (ﷺ) وكان ما كان من المتخلفين قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له (ﷺ) ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري[١٤٢] وأمر رسول الله باجتنابهم وشدد الأمر عليهم كما سنعلمه إن شاء الله (تعالى)، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله (تعالى) فاعل بهم[١٤٣].

٣- قال (تعالى): ﴿وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ وظَنُّوا أن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلاَّ إلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة، آية: ١١٨).

والمراد بهؤلاء الثلاثة هم هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وفيهم نزلت هذه الآية[١٤٤]، وسوف نتحدث عن هذه القصة بإذن الله بنوع من التفصيل لما فيها من الدروس والعبر والحكم.

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله (تعالى): ﴿وجَاءَ المُعَذِّرُونَ مِنَ الأعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ٩٠).

ومعنى الآية: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو باطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله (ﷺ) بالتخلف عن الغزوة وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذر، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولا صدقوا، ثم توعدهم الله (سبحانه) فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا بل كذبوا بالله ورسوله: ﴿عَذَابٌ ألِيمٌ﴾ أي: كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا والآخرة[١٤٥].

ونزل فيهم قوله (تعالى): ﴿ومِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأعْرَابِ﴾ (سورة التوبة: ١٠١).

والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون،

---

(١٤٢) أي الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة وأصحابه .
(١٤٣) انظر: تفسير الآلوسي (١١/١٧) .
(١٤٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٦٧٧) .
(١٤٥) انظر: تفسير الشوكاني (٢/٣٩١) .

فاحترسوا منهم(١٤٦).

رابعًا: المخلفون من منافقي المدينة:

قال (تعالى): ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: (٨١-٨٣).

وتفسير الآيات السابقة كالآتي:

المخلفون: اسم مفعول مأخوذ من قولهم خلف فلان فلانًا وراءه إذا تركه خلفه بالمخلف: المتروك خلف من مضى(١٤٧)، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بقعودهم ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قال ابن الجوزي: فيها قولان:

أحدهما: أن معناه: بعد رسول الله (ﷺ).

والثاني: أن معناه: مخالفة رسول الله (ﷺ)، فالمعنى بأنهم قعدوا لمخالفة رسول الله (ﷺ)(١٤٨).

والمعنى: قال ابن كثير: يقول (تعالى) ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك وفرحوا بقعودهم بعد خروجه: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا أي بعضهم لبعض: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله (تعالى) لرسوله (ﷺ) ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر(١٤٩)، ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ تذييل قصد به الزيادة في توبيخهم وتحقيرهم(١٥٠).

وقوله: ﴿لْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

والمعنى: أنهم لو فرحوا وضحكوا طوال أعمارهم في الدنيا، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة، لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والمنقطع الفاني قليل بالنسبة إلى الدائم الباقي وقوله (تعالى): ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَفَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ

---

(١٤٦) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٨١).

(١٤٧) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٧٨).

(١٤٨) نفس المصدر (٣/ ٤٧٨).

(١٤٩) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).

(١٥٠) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٨٦).

﴿تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ .

والمراد بقوله: ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى تبوك والمراد بقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين لن تخرجوا إلى تبوك والمراد بقوله: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ .

قال الإمام الرازي ما ملخصه: ذكر في تفسير الخالف وجوها:

الأول: الخالفون جمع، واحدهم خالف، وهو من يخلف الرجل في قوم. ومعناه: فاقعدوا مع الخالفين من الرجال الذين يخلفون في البيت فلا يبرحونه.

الثاني: أن الخالفين فسر بالمخالفين: يقال: فلان خالفه أهل بيته إذا كان مخالفًا لهم، وقوم خالفون. أي: كثيروا الخلاف لغيرهم.

الثالث: أن الخالف هو الفاسد. قال الأصمعي: يقال: خلف عن كل خير يخلف خلوفًا إذا فسد، وخلف اللبن إذا فسد.

إذا عرفت هذه الوجوه الثلاثة فلا شك أن اللفظ يصلح حمله على كل واحد منها، لأن أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة(١٥١).

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرسول (ﷺ) في معاملته للمنافقين عندما اعتذروا له عن المسلمين ،حيث إنه (ﷺ) عامل المنافقين باللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة؟ ولا شك أن الشدة والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون، وكيف يستحق المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم ، على أي حال أنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا، من الدرك الأسفل في النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع (جل جلاله) أن ندعهم لما تظاهروا به ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم، وفيما معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يبدون لنا هم أيضًا، الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم قال ابن القيم: وهكذا يفعل الرب (سبحانه) بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عين الله وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة(١٥٢).

خامسًا: مسجد ضرار:

في أثناء عودة النبي (ﷺ) إلى المدينة راجعًا من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا

(١٥١) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ١٥١) بتصرف يسير .

(١٥٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٧٨) .

لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٧ - ١٠٨).

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله (ﷺ) إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله (ﷺ) مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارًا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله (ﷺ) ،فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب يوم أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله (عز وجل)، وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله (ﷺ) وأصيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ياعدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله (ﷺ) قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله (ﷺ) أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة ،وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول (ﷺ) في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي (ﷺ)، فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله (ﷺ) ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله (ﷺ) إلى تبوك وجاؤوا فسألوا رسول الله (ﷺ) أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «**إنّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**»، فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله (ﷺ) إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة[١٥٣]... هذا ما ذكره ابن كثير في سبب النزول.

أما معنى الآيات الكريمات: أخبر الله (سبحانه) أن الباعث لهم على بناء المسجد أربعة أمور:

١- الضرار لغيرهم، هو المضارّة.

---

(١٥٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٨٨).

٢- الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

٣- التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا ألا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة مالا يخفى.

٤- الإرصاد لمن حارب الله ورسوله. أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله[١٥٤]...

وقد خيب الله (تعالى) مسعاهم، وأبطل كيدهم، بأن أمر نبيه (ﷺ) بهدمه وإزالته.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة، وأقوالهم الكاذبة لذلك قال (تعالى): ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم نهى الله (تعالى) رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهيًا مؤكدًا فقال (سبحانه): ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

قال ابن عاشور: وقوله (سبحانه) ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ المراد بالقيام الصلاة لأن أولها قيام ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبي (ﷺ) فيه تكسب يمنًا وبركة فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزية عليه ولذلك أمر رسول الله (ﷺ) عمار ابن ياسر، ومالك بن الدخشم مع بعض أصحابه وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه» ففعلوا[١٥٥] وقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ احتراس مما يستلزمه النهي عن الصلاة فيه من إضاعة عبادة في الوقت الذي رغبوه للصلاة فيه فأمر الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار أن يصلي في مسجده أو في مسجد قباء، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم[١٥٦].

وفيه أيضًا دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول (ﷺ) بأنه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع، فقوله: ﴿أَحَقُّ﴾ وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة لأن النهي عن صلاته في مسجد الضرار أزال كونه حقيقًا بصلاته فيه أصلاً. ولعل نكتة الإتيان باسم التفضيل أنه تهكم على المنافقين لمجاراتهم ظاهرًا في دعوتهم النبي (ﷺ) للصلاة فيه بأنه وإن كان حقيقًا بصلاته بمسجد أسس على التقوى أحق منه، فيعرف من وصفه بأنه ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ أن هذا أسس على ضدها[١٥٧].

وقد رأى ابن عاشور أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى أنه مسجد هذا صفته لا مسجدًا واحدًا معينًا، فيكون هذا الوصف كليًا انحصر في فردين المسجد النبوي ومسجد

(١٥٤) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٤٠٣).

(١٥٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٤).

(١٥٦) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦١).

(١٥٧) انظر: التنوير والتحرير (١١/ ٣١).

قباء[(١٥٨)].

قوله (تعالى): ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ روى ابن ماجة أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله (ﷺ): «**يا معشر الأنصار إن الله (تعالى) قد أثنى عليكم في الطهور فما طهوركم؟**» قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ونستنجي بالماء. قال: «**فهو ذاك فعليكموه**»[(١٥٩)]، وفي قصة مسجد ضرار دروس وعبر وفوائد منها:

١- الكفر ملة واحدة:

وقد تبين هذا في موقف أبي عامر الراهب من الإسلام ومن المسلمين إذ غضب غضبًا شديدًا وتألم لهزيمة المشركين في بدر، فأعلن عداءه للرسول وتوجه إلى عاصمة الشرك مكة يحث أهلها على قتال المسلمين وخرج مقاتلاً معهم في أحد، وحاول تفتيت الصف الإسلامي[(١٦٠)] وصدق الله (تعالى) عندما قال: ﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٧٣).

٢- محاولة التدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضيفوا الشرعية على هذا البناء، وأنه مسجد بنوه لأسباب مقنعة في الظاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاؤوا يطلبون من الرسول (ﷺ) الصلاة في هذا البناء ليكون مسجدًا قد باركه رسول الله (ﷺ) بالصلاة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوب ماكر خبيث قد ينطلي على كثير من الناس[(١٦١)].

٣- فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين:

إن الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهية بالنبي (ﷺ)، فقد أطلعه الله (عز وجل) على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلى في البناء، فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله (ﷺ) صلى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالإشاعات[(١٦٢)].

٤- العلاج النبوي الحاسم:

إن ما قام به الرسول (ﷺ) من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنّة لقادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بالمسلمين

---

(١٥٨) نفس المصدر (١١/ ٣٢).
(١٥٩) سنن ابن ماجة، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالماء (١/ ١٢٧).
(١٦٠) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٧٩).
(١٦١) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٨١).
(١٦٢) نفس المصدر ص(١٨١).

وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج بحسمه وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلُّنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله (ﷺ) مع هذا المكر الخبيث هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول (ﷺ) بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد ضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم(١٦٣).

٥- ما يلحق بحكم مسجد ضرار:

ذكر المفسرون ما يلحق بمسجد الضرار في الحكم، فهذه بعض أقوالهم:

أ- قال الزمخشري: . . . وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار(١٦٤).

علق الدكتور عبد الكريم زيدان على قول الزمخشري فقال: ولكن هل يلحق بمسجد الضرار فيهدم، كما هدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة، وأمر النبي (ﷺ) بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنما يمكن أن يقال: إن المسجد الذي بنى لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى، والإخلاص الكامل لله (تعالى)(١٦٥).

ب- قال القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وكل مسجد بُني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه(١٦٦).

جـ- وقال سيد قطب في تفسيره: هذا المسجد - مسجد الضرار- الذي اتخذ على عهد رسول الله (ﷺ) مكيدة للإسلام والمسلمين . . هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى، يتخذ في صورة نشاط ظاهرة الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه . . . وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتَتَترَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحيه لهم من أن الإسلام بخير، وأن لا داعي للخوف أو القلق عليه(١٦٧).

٦- قاعدة لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار:

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: كل ما يتخذ مما هو في ظاهره مشروع، ويريد متخذوه تحقيق غرض غير مشروع، فهو ملحق بالمسجد الضرار، لأنه يحمل روحه وعناصره(١٦٨)،

---

(١٦٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٠).

(١٦٤) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٣١٠).

(١٦٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٤).

(١٦٦) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥٤).

(١٦٧) في ظلال القرآن (٣/ ١٧١٠، ١٧١١).

(١٦٨) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٦).

وإذا أردنا الإيجاز قلنا في هذه القاعدة: كل ما كان ظاهره مشروعًا ويريد متخذوه الإضرار بالمؤمنين فهو ملحق بالمسجد الضرار[١٦٩].

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضرار وما يلحق به، ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك، ومن أماكن المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمر والمنكرات ونحو ذلك، لأن هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به، وإن استحقت الإزالة كمسجد الضرار باعتبارها منكرات ظاهرًا وباطنًا[١٧٠].

٧- مساجد الضرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين، والمبشرين والمستعمرين يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة، والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب والقيم الخلقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة -لا سيما في بلاد إفريقيا- ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون[١٧١].

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق، والتشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم ويدمر مصيرهم الأخروي[١٧٢].

●●●

(١٦٩) نفس المصدر (٢/٥٠٧).
(١٧٠) المصدر السابق (٢/٥٠٧).
(١٧١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٠٨).
(١٧٢) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٨٢).



المبحث الرابع

قصة الثلاثة الذين خلفوا

وردت قصة الثلاثة الذين خلفوا على لسان كعب بن مالك رضي الله عنه في كتب السيرة والحديث والتفسير بروايات متقاربة في ألفاظها، ولقيت عناية فائقة في الشرح والتدريس وكان صحيح البخاري من أكثر الكتب دقة وتفصيلاً لهذه القصة(١٧٣).

ونترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدثنا بنفسه حيث قال: لم أتخلف عن رسول الله (ﷺ) في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله (ﷺ) يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله (ﷺ) ليلة العقبة(١٧٤) حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتها في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله (ﷺ) يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله (ﷺ) في حرّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، وعدوا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله (ﷺ) كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريدون الديوان- قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيٌ الله.

وغزا رسول الله (ﷺ) تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله (ﷺ) والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله (ﷺ) والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو(١٧٥)، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله (ﷺ) - فطفقت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله (ﷺ) حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: **«ما فعل كعب؟»** فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه(١٧٦). فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت: والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا

---

(١٧٣) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٨٧).

(١٧٤) ليلة العقبة: الليلة التي بايع رسول الله (ﷺ) الأنصار على الإسلام.

(١٧٥) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

(١٧٦) والنظر في عطفيه: أي جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

خيرًا، فسكت رسول الله (ﷺ): فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضًا[١٧٧] يزول به السراب[١٧٨]، فقال رسول الله (ﷺ) : «كن أبا خيثمة»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه[١٧٩] المنافقون فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله (ﷺ) قد توجه قافلاً[١٨٠] من تبوك حضرني بثي[١٨١]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: أن رسول الله (ﷺ) قد أطل قادمًا[١٨٢] زاح[١٨٣] عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه[١٨٤]، وصبح رسول الله (ﷺ) قادمًا، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله (ﷺ) علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب ثم قال: «**تعال**» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**» قال: قلت: يا رسول الله! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[١٨٥]، ولكني، والله! لقد علمت، لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن[١٨٦] الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه[١٨٧] إني لأرجو فيه عقبى الله[١٨٨]. والله! ما كان لي عذر، والله! ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله (ﷺ): «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**» فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا. لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله (ﷺ) بما اعتذر به إليه المخلفون. فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله (ﷺ) لك. قال: فوالله! ما زالوا يؤنبونني[١٨٩] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله (ﷺ) فأكذب نفسي.

---

(١٧٧) مبيضًا: لابس البياض.

(١٧٨) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان.

(١٧٩) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.

(١٨٠) توجه قافلاً: راجعًا.

(١٨١) حضرني بثي: حزني.

(١٨٢) أطل قادمًا: أقبل ودنا قدومه كأنه أبقى على ظله.

(١٨٣) زاح: أزال.

(١٨٤) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

(١٨٥) أعطيت جدلاً: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة.

(١٨٦) ليوشكن: ليسرعن.

(١٨٧) تجد عليّ فيه: تغضب.

(١٨٨) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيرًا ويثيبني عليه. (١٨٩) يؤنبونني: يلومونني أشد اللوم.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم. لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدرًا، فيهما أسوة.

قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض. فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا[١٩٠] وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم[١٩١]، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله (ﷺ)، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام، أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي. فسلمت عليه فوالله! ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله[١٩٢] هل تعلم إني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام[١٩٣]، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ. حتى جاءني فدفع إليّ كتابًا من ملك غسان. وكنت كاتبًا، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة[١٩٤]، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها :وهذا أيضًا من البلاء فتيممت[١٩٥] بها التنور، فسجرتها[١٩٦]، بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي[١٩٧]، إذا رسول رسول الله (ﷺ) يأتيني فقال: إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها. قال: فأرسل إلى صاحبيّ بمثل هذا.

قال: فقلت لأمرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت له: يا رسول الله! إن هلال بن أمية

---

(١٩٠) استكانا: خضعا .

(١٩١) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سنًا وأقواهم .

(١٩٢) أنشدك بالله: أسألك بالله .

(١٩٣) نبطي أهل الشام: فلاحو العجم .

(١٩٤) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك .

(١٩٥) تيممت: قصدت .

(١٩٦) فسجرتها: أحرقتها .

(١٩٧) استلبث الوحي: أبطأ .

شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: **«لا ولكن لا يقربنك»** فقالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.
قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله (ﷺ) في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه. قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله (ﷺ) وما يدريني ماذا يقول رسول الله (ﷺ) إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. قال: فلبثت بذلك عشر ليال. فكمل لنا خمسون ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله (عز وجل) منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[198]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج قال: فآذن[199] رسول الله (ﷺ) توبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا فذهب قبَل صاحبي مبشرون، وركض رجل إليَّ فرسًا، وسعى ساع من أسلم قبلي. وأوفى الجبلَ، فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم[200] رسول الله (ﷺ) يتلقاني الناس فوجا فوجا[201]، يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله (ﷺ) جالس في المسجد، وحوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب: فلما سلمت على رسول الله (ﷺ) قال: وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: **«أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»** قال: قلت: أمن عندك؟ يارسول الله! أم من عند الله؟ فقال: **«لا، بل من عند الله»** وكان رسول الله (ﷺ) إذا استنار وجهه كان قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع[202] من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله (ﷺ). فقال رسول الله (ﷺ): **«أمسك بعض مالك، فهو خير لك»** قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.
قال: وقلت: يا رسول الله: إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت قال: فوالله! ماعلمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه[203] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني الله به. والله ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله (ﷺ) إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.
قال: فأنزل الله (عز وجل): ﴿ **لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**

---

(١٩٨) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه، وسلع جبل بالمدينة معروف.
(١٩٩) فآذن: أي أعلمهم.
(٢٠٠) أتأمم: أي أقصد.
(٢٠١) فوجًا فوجًا: الفوج الجماعة.
(٢٠٢) أنخلع من مالي: أتصدق به.
(٢٠٣) أبلاه الله: أنعم عليه.

فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة، آية: ١١٧- ١١٨) حتى بلغ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة التوبة، آية:١١٩).

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد إذ هداني للإسلام، أعظم في نفسي، من صدقي رسول الله (ﷺ) ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، وقال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٩٥- ٩٦).

قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله (ﷺ) حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله (ﷺ) أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله (عز وجل): ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة، آية: ١١٨). وليس الذي ذكر الله مما خلفنا، تخلفنا عن الغزوة، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا[٢٠٤]، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[٢٠٥]، وفي هذه القصة دروس وعبر وفوائد كثيرة نذكر منها:

١- الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع:

لقد تمت صياغة هذا الحديث بأسلوب جميل، وبيان رائع، وأدب رفيع، وإنه ليعتبر مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك نماذج عالية للأدب العربي الرفيع، وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختارون هذه الأحاديث وأمثالها لتنمية مدارك الطلاب وتكوين الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلما قيل: إن رسول الله (ﷺ) قد أظلّ قادمًا زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه[٢٠٦].

٢- الصدق سفينة النجاة:

لقد أدرك كعب وهلال، ومرارة رضي الله عنهم خطورة الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرّضهم ذلك للتعب والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله

---

(٢٠٤) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا .

(٢٠٥) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٤١٨، صحيح السيرة النبوية ص(٦١٤) .

(٢٠٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٧) .

(تعالى) كبيرًا في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه[٢٠٧]، وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ١١٩).

٣- الهجر التربوي وأثره في المجتمع:

إن الهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة، ومنع أفراده من التورط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات أو فعل شيء من المحرمات، لأن من توقع أنه وقع في شيء من ذلك سيكون مهجورًا من جميع أفراد المجتمع فإنه لا يفكر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني، حيث توجد الدولة المهيمنة والمجتمع القوي، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طبق عليه هذا الحكم.

وهذا الهجر التربوي يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا فهذا دنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرمًا[٢٠٨]، لقول رسول الله (ﷺ): «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[٢٠٩]، ولقوله (ﷺ): «**من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه**»[٢١٠].

٤- تنفيذ أوامر القيادة في المجتمع المسلم:

استجاب المجتمع المسلم كله لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صدر من القائد الأعلى (ﷺ) وامتنعوا جميعًا عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة ووصف كعب لنا ذلك فقال: ... فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد[٢١١] ... وقد أطلق كعب السلام على ابن عمه أبي قتادة فلم يرد عليه السلام وناشده بالله مرارًا: هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي (ﷺ) بتطبيق الهجر التربوي ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي (ﷺ) فظهر ذلك على سلوكه[٢١٢].

---

(٢٠٧) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٨).
(٢٠٨) نفس المصدر (٨/ ١٣٩).
(٢٠٩) مسلم، كتاب البر، رقم (٢٥٦٠) ص(١٩٨٤).
(٢١٠) مسند أحمد (٤/ ٢٢٠).
(٢١١) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٩٥). (٢١٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٠).

وقد بلغ الالتزام بالأمر النبوي في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله (ﷺ) الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً فالتزم الجميع بذلك واستأذنت زوج هلال بن أمية وكان شيخًا طاعنًا في السن لا يجد من يخدمه فطلبت من الرسول (ﷺ) أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي (ﷺ) بذلك شريطة ألا يقربها فالتزمت رضي الله عنها[٢١٣].

٥- الولاء التام لله ورسوله:

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنيان ويقوض الأركان ،ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك رضي الله عنه وعقوبة رسول الله (ﷺ) له بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها، تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك[٢١٤]، فكان تعليق كعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضًا! قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجال من أهل الشرك! ثم أحرق الرسالة[٢١٥]، وهذا الموقف يدل على شدة ولاء كعب لله ورسوله وقوة إيمانه وعظمة نفسه، فقد أدرك أنها محنة جديدة أقسى من الأولى، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسلب، أو يرمي بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به في التنور ليصير رمادًا، ويصير كل ما به دخانًا يتبدد في الهواء، وخرج الرجل من محنته وهو أقوى ما يكون إيمانًا، وأصفى ما يكون روحًا، وأكرم ما يكون أخلاقًا، فيا لعظمة هذه النفوس المؤمنة الكبيرة[٢١٦]، لقد مرّ كعب من فوق هذا الاختبار والابتلاء عزيزًا قويًا بإسلامه، لم يتأثر به ولا انزلق فيه[٢١٧].

٦- توبة الله على العبد قيمة دينية يتطلع إليها الصادقون:

عندما نزلت الآيات الكريمة التي بينت توبة الله على هؤلاء الثلاثة كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله (ﷺ) حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة رضي الله عنهم حتى صاروا يتلقون كعبًا وصاحبيه أفواجًا يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة وجاء كعب إلى النبي (ﷺ) ووجهه يبرق من السرور فقال له: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، وهذا يعني مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام.

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله (تعالى) الذي هو أعلى هدف

---

(٢١٣) انظر: الصراع مع الصليبيين ص(١٩٦).
(٢١٤) البخاري، كتاب المغازي رقم(٤٤١٨).
(٢١٥) المغازي (٣/١٠٥١-١٠٥٢).
(٢١٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥١٧).
(٢١٧) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٣٠٧).

ينشده المسلم، وبالتالي فإنه يحظى بحفظه جل وعلا في الدنيا وتكريمه في الآخرة، لقد كانت توبة كعب عظيمة عبر عنها بنزع ثوبيه اللذين لا يملك يومئذ غيرهما وإهدائهما لمن بشره(٢١٨)، وعدم نسيان كعب لطلحة بن عبيد الله مصافحته وتهنئته له(٢١٩)، وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن كعبًا لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له(٢٢٠)، وقد جاء في رواية الواقدي: وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد، قال: وخرجت إلى بني واقف فبشرته فسجد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه(٢٢١).

٧- تشرع أنواع من العبادات شكرًا لله عند النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله (سبحانه وتعالى) عليه، لا تحدها حدود ولا تصورها مثل، وقد تفنن هو رضي الله عنه في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

أ- سجود الشكر:

حينما سمع كعب البشارة بتوبة الله عليه خرّ ساجدًا من فوره شكرًا لله (تبارك وتعالى)، فقد كان من عادة الصحابة رضي الله عنهم أن يسجدوا شكرًا لله (تعالى) كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة وقد تعلموا ذلك من رسول الله (ﷺ)(٢٢٢).

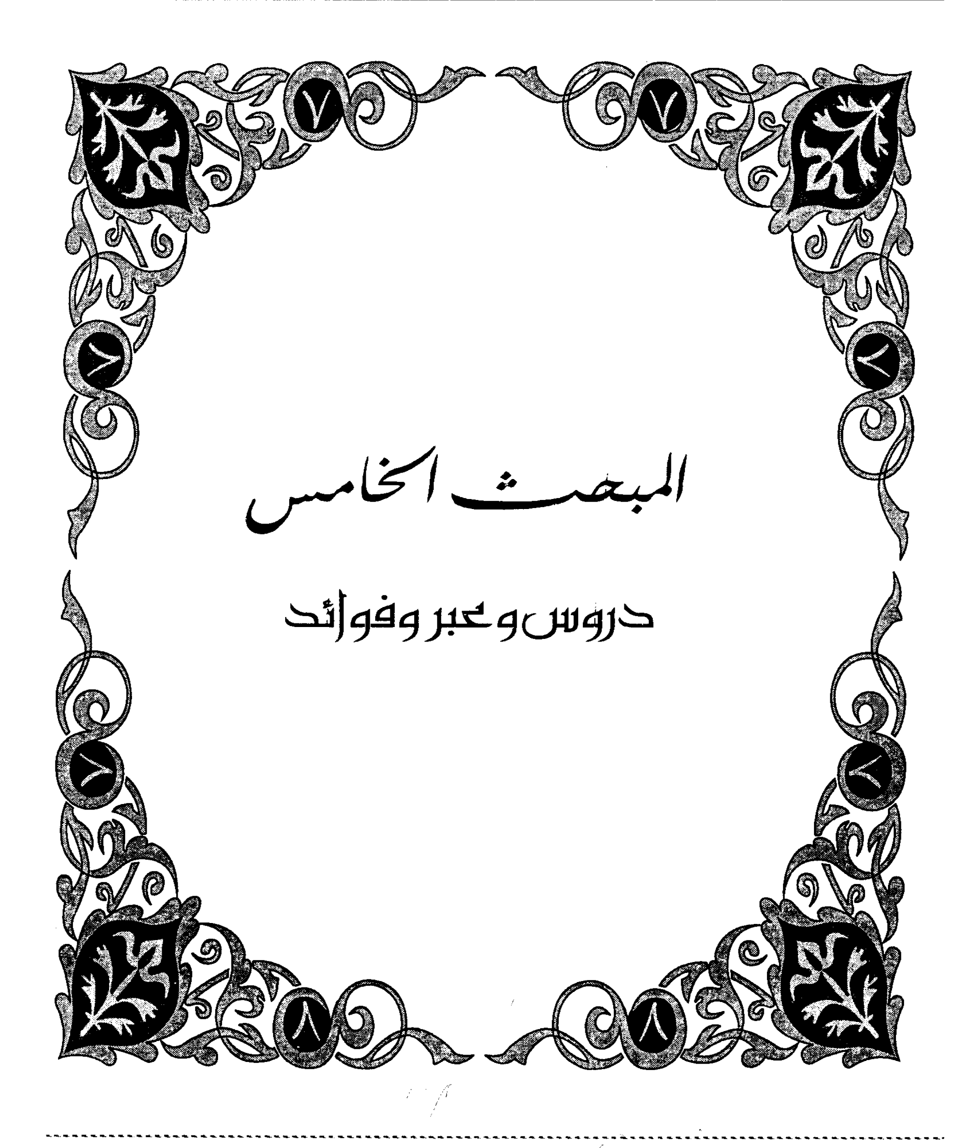
ب- مكافأة الذي يحمل البشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذ غيرهما، ثم استعار ثوبين، فلبسهما، ولا شك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة، فإن كان المبشر غنيًا كان له هدية، وإن كان فقيرًا كان له صدقة، وكلاهما إخراج المال شكرًا لله (تعالى)، على إنزاله الفرج(٢٢٣).

جـ- التصدق بالمال:

فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله صدقة لله (تعالى) لكنه - عليه الصلاة والسلام- لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**»، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله(٢٢٤)، وقد ثار الخلاف الفقهي فيمن نذر التصدق بجميع ماله، والصدقة مستحبة والنذر واجب الوفاء، ولم يذهب كعب إلى النذر وإنما استشار في الصدقة بكل المال، فأشار رسول الله (ﷺ) عليه بإمساك بعض ماله.

(٢١٨) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤١).
(٢١٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥١٨).
(٢٢٠) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٢).
(٢٢١) المغازي للواقدي (٣/ ١٠٥٤).
(٢٢٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي ص(٤٩٣).
(٢٢٣) نفس المصدر ص٤٩٣؛ الصراع مع الصليبيين ص(٢٠٢).
(٢٢٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي ص(٤٩٣).



المبحث الخامس

دروس وعبر وفوائد

أولاً: معالم من المنهج القرآني في الحديث عن غزوة تبوك:

إن الآيات التي أنزلها الله في كتابه المتعلقة بغزوة العسرة هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم، وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه، وإن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر مزلقة إلى الردة والنفاق[٢٢٥]، قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٨- ٣٩).

وعند التأمل في سورة التوبة يلاحظ القارئ أن لها معالم في عرضها لغزوة تبوك منها:

١- عاتب القرآن الكريم من تخلف عتابًا شديدًا، وتميزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأن الله حث على الخروج فيها وعاتب من تخلف عنها والآيات الكريمة جاءت بذلك كقوله (تعالى): ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٤١).

وقد ختمت الغزوات النبوية بهذه الغزوة وقد كان تطبيقًا عمليًا لوضع النص القرآني في قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة: ١٢٣) موضع التنفيذ[٢٢٦].

٢- ميز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها فسماها الله (تعالى) ساعة العسرة، قال (تعالى): ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، فقد كانت غزوة عسرة بمعنى الكلمة (سورة التوبة: ١١٧).

٣- من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة أن الله رد على المنافقين لمزهم فقراء الصحابة عندما جاء أحدهم بنصف صاع وتصدق به فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رئاء، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ٧٩).

٤- بين القرآن الكريم أن المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله (ﷺ) وعددهم يزيد عن الثلاثين ألفًا قد كتب الله لهم الأجر العظيم[٢٢٧]. قال (تعالى): ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ

(٢٢٥) انظر: فقه السيرة للغزالي ص٤٠٤.

(٢٢٦) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٧٠٢). (٢٢٧) نفس المصدر (٢/٧٠٣).

آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٨٨، ٨٩).

٥- رفع الله الحرج والإثم عن الضعفاء والمرضى ،والفقراء الذين لا يجدون رواحل يرتحلون عليها في هذا السفر الطويل .قال (تعالى) : ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٩٢).

ثانيًا: ممارسة الشورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله (ﷺ) في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصديق والفاروق في بعض النوازل التي حدثت في الغزوة ومن هذه النوازل:

أ- قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد:

قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ،حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عوّدك في الدعاء خيرًا، فادع الله، قال: «**أتحب ذلك؟**» قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر(٢٢٨).

ب- قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك فاستأذنوا النبي (ﷺ) في نحر إبلهم حتى يسدّوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي (ﷺ) في ذلك جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في هذه المسألة وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفذت رواحلهم وهم أحوج ما يكون إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر رضي الله عنه حلاً لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل (ﷺ) بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا(٢٢٩).

٣- قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النبي (ﷺ) إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فرّوا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلّل رأيه بقوله: إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرًا صعبًا، إذ أنه يتطلب تكتيكًا خاصًا، لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن

---

(٢٢٨) أخرجه ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك رقم ١٧٠٧ .

(٢٢٩) مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على من مات على التوحيد (١/٥٦) رقم ٢٧ .

بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفًا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنّه داخل المدن يعرّض جيش المسلمين للخطر(٢٣٠).

إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كافة شؤونها السياسية والعسكرية والاجتماعية . . إلخ منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى (ﷺ) في حياته.

ثالثًا: التدريب العملي العنيف:

كان خروج الرسول (ﷺ) بأصحابه إلى تبوك فيه فوائد كثيرة منها:

تدريبهم تدريبًا عنيفًا، فقطع بهم (ﷺ) مسافة طويلة في ظروف جوّية صعبة، حيث كانت حرارة الصيف اللاّهب بالإضافة إلى الظروف المعيشية التي كانوا يعانون منها، فقد كان هناك قلة في الماء حتى كادوا يهلكون من شدة العطش، وأيضًا كان هناك قلة في الزاد والظهر ولا شك في أنّ هذه الأمور تعد تدريبًا عنيفًا لا يتحمله إلاّ الأقوياء من الرجال، وفي هذا الدرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريبًا عنيفًا كاجتياز مواقع وعراقيل صعبة جدًّا، وقطع مسافات طويلة في ظروف جوية مختلفة، وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، لقد تحمل جيش العسرة مشقات لا تقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف، إن لم تكن أصعب منها بكثير، لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها وقطعوا مسافات طويلة شاقة في صحراء الجزيرة العربية صيفًا وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة.

إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين، كان غرض الرسول (ﷺ) منه إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، . . . فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول (ﷺ) فلا بد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى(٢٣١)، وقد ساعد هذا التدريب العملي الصحابة في عصر الخلفاء، فقاموا بفتح بلاد الشام وبلاد الفرس بقوة إيمانهم وثقتهم بخالقهم وساعدهم على ذلك لياقتهم البدنية العالية، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح، وأنواع الأسلحة في زمانهم.

رابعًا: أهم نتائج الغزوة

أ- يمكن للباحث أن يلاحظ أهم نتائج هذه الغزوة وهي:

١- إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعًا مسلمهم وكافرهم على السواء، لأن قوة الروم كانت في حس العرب لا تقاوم ولا تُغْلب، ومن ثم فقد فزعوا من ذكر الروم وغزوهم، ولعل الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكدة على ما ترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لا تقهر، فكان لا بد من هذا النفير العام

(٢٣٠) انظر: غزوة تبوك ص(١٧٦، ١٧٧)، باشميل.
(٢٣١) انظر: الرسول القائد ص(٢٨١، ٢٨٢).

لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب.

٢- إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالميًا - حينذاك- ليس بدافع عصبي أو عرقي، أو تحقيق أطماع زعامات معاصرة، وإنما بدافع تحريري حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالاً فحققوا انتصارًا للمسلمين دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة إيلة (مدينة العقبة حاليًا على خليج العقبة) وكتب رسول الله (ﷺ) بينه وبينهم كتابًا يحدد ما لهم وما عليهم[٢٣٢] وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتاثير الإسلامي، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة، ويعد ما حدث في تبوك نقطة البداية العملية للفتح الإسلامي لبلاد الشام[٢٣٣]، وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان والتي واصلها خلفاء رسول الله (ﷺ) من بعده، ومما يؤكد هذا أن الرسول (ﷺ) قبل موته جهّز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربه موجّهة صوب الروم، وطليعة لجيش الفتح، ضم هذا الجيش جلّ صحابة رسول الله ولكنه لم يقم بمهمته إلا بعد وفاته (ﷺ) ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه كما سيأتي[٢٣٤] بإذن الله عند الحديث في سيرة الصديق رضي الله عنه.

لقد وضع رسول الله (ﷺ) الأسس الأولى والخطوات المثلى لفتح بلاد الشام والفتوحات الإسلامية.

٣- توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول (ﷺ)، تأثر موقف القبائل العربية من الرسول (ﷺ) والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح مكة، وخيبر وغزوة تبوك، فبادر كل قوم بإسلامهم بعد ما امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم، ثم مصالحة نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة، ونظرًا لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي (ﷺ) من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها فقد سُمِّيَ العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بعام الوفود[٢٣٥].

---

(٢٣٢) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع ص(٢٠٩).
(٢٣٣) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد ص(١٢٠).
(٢٣٤) انظر: دراسات في عهد النبوة، للشجاع ص(٢٠٩).
(٢٣٥) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٩٥، ٣٩٦).

وبهذه الغـزوة المباركة ينتهي الحـديث عن غزوات النبي (ﷺ) التي قادها بـنفسه، فـقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعبر التي تتربى عليها أمته في أجيالها المقبلة[٢٣٦] ومليئة بالدروس والعبر في تربية الأمة وإقامة الدولة التي تحكم بشرع الله.

●●●

(٢٣٦) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٤٦٠).



المبحث السادس

أهم الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجة الوداع

أولاً: وفد ثقيف وإسلامهم:

لما انصرف الرسول (ﷺ) عن الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، فرموه بالنبل، فأصابه سهم فقتله ،ثم إنهم رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله (ﷺ)، فقدم عليه ستة منهم في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تسع(٢٣٧).

وكان الوفد يتكون من ستة من كبار بني مالك والأحلاف، ثلاثة لكل منهما وعلى رأسهم جميعًا عبد ياليل بن عمرو(٢٣٨) وتكوين هذا الوفد على هذا النحو يدل على فكر سياسي عميق ذلك لأن ثقيف تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أمية للتوسط في إقرار الصلح مع الرسول بسبب علاقة بني أمية التاريخية بالأحلاف(٢٣٩).

كان الصحابة يعرفون اهتمام الرسول (ﷺ) بإسلام ثقيف، ولذلك ما أن ظهر وفد ثقيف قرب المدينة، حتى تنافس كل من أبي بكر والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرسول، وتنازل المغيرة لأبي بكر(٢٤٠).

واستقبل الرسول الوفد راضيًا وبنى لهم خيامًا لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا، وكانت ضيافتهم على رسول الله (ﷺ) وكانوا يفدون على رسول الله (ﷺ) كل يوم، ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم، فكان عثمان، كلما رجعوا وقالوا بالهاجرة، عمد إلى رسول الله (ﷺ) فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآن، حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله (ﷺ) نائمًا عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله (ﷺ) وعجب منه وأحبه(٢٤١).

فمكث الوفد أيامًا يختلفون إلى النبي (ﷺ) والنبي (ﷺ) يدعوهم إلى الإسلام، فقال له عبد ياليل: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا؟ فقال رسول الله (ﷺ): **«نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم وإلا فلا قضيَّة ولا صلح بيني وبينكم»**.

قال عبد ياليل: أرأيت الزنى؟ فإنا قوم عُزَّاب بغَرْب(٢٤٢)، لا بد لنا منه، ولا يصبر

---

(٢٣٧) انظر: رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر ص(١٩٩) .

(٢٣٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٣).

(٢٣٩) انظر: رجال الادارة في الدولة الإسلامية، د . حسين محمد ص(٧٦) .

(٢٤٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٣) .

(٢٤١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي ص(٦٧٠) .

(٢٤٢) أي نذهب إلى بلاد بعيدة .

أحدنا على العُزْبة قال: «**هو مما حرّم الله على المسلمين**» يقول الله (تعالى): ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً**﴾ (سورة الإسراء، آية: ٣٢).

قال: أرأيت الربا؟ قال: «**الربا حرام!**» قال: فإن أموالنا كلها ربًا قال: «**لكم رؤوس أموالكم**»، يقول (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٧٨).

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنها عصيرُ أعانبنا، لابد لنا منها.

قال: «**فإنّ الله قد حرمها!**» ثم تلا رسول الله هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (سورة المائدة، آية: ٩٠).

فارتفع القوم، وخلا بعضهم ببعض، فقال عبد ياليل: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث! والله! والله لا تصبر ثقيف عن الخمر أبدًا، ولا عن الزنا أبدًا.

قال سفيان بن عبد الله: أيّها الرجل، إن يرد الله بها خيرًا تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا، فصبروا وتركوا ما كانوا عليه، مع أنا نخاف هذا الرجل، قد أوطأ الأرض غلبة ونحن في حصن في ناحية من الأرض والإسلام حولنا فاش. والله لو قام على حصننا شهرًا لمتنا جوعًا، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يومًا مثل يوم مكة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله (ﷺ) حتى كتبوا الكتاب، كان خالد هو الذي كتبه، وكان رسول الله (ﷺ) يرسل إليهم الطعام، فلا يأكلون منه شيئًا حتى يأكل منه رسول الله (ﷺ) حتى أسلموا.

قالوا: أرأيت الربَّة، ما ترى فيها؟ قال: «**هدمها**».

قالوا: هيهات! لو تعلم الربَّة أنا أوضعنا هدمها قتلت أهلنا. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إن الربَّة حجر لا يدري من عبده ممن لا يعبده. قال عبد ياليل: إنا لم نأتك يا عمر. فأسلموا، وكمل الصلح، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد، فلما كمُل الصُلح كلَّموا النبي (ﷺ) يدع الربَّة ثلاث سنين لا يهدمها، فأبى قالوا: سنتين! فأبى. قالوا: سنة! فأبى. قالوا: شهرًا واحدًا! فأبى أن يوقّت لهم وقتًا وإنما يريدون بترك الربة لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهدمها، فسألوا النبي (ﷺ) أن يعفيهم من هدمها[٢٤٣] فوافق رسول الله (ﷺ) على طلبهم ذلك. الصلاة، فقال رسول الله (ﷺ): «**لا خير في دين لا صلاة فيه**»[٢٤٤].

لقد طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله (ﷺ) من بعض الفرائض، وأن يحلل لهم بعض المحرمات إلا أنهم فشلوا في طلباتهم وخضعوا للأمر الواقع[٢٤٥].

---

(٢٤٣) انظر: المغازي للواقدي (٣/٩٦٨).

(٢٤٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٥٠)؛ المغازي للواقدي (٣/٩٦٨).

(٢٤٥) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة ص٢٢١- ٢٢٣.

وقد أكرم رسول الله (ﷺ) وفادتهم وأحسن ضيافتهم في قدومهم وإقامتهم وعند سفرهم، وأمرّ (ﷺ) عثمان بن أبي العاص على الطائف، فقد كان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين، وكان أصغرهم سنًا[٢٤٦]. ولقد تأثر الوفد من معاملة النبي (ﷺ) ومن اختلاطهم بالمسلمين حتى أنهم صاموا ما بقي عليهم من شهر ومكثوا في المدينة خمسة عشر يومًا ثم رجعوا إلى الطائف[٢٤٧]، وبعد رجوعهم جهّز رسول الله (ﷺ) سرية بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومشاركة المغيرة بن شعبة[٢٤٨] رضي الله عنه، وأبي سفيان ابن حرب رضي الله عنه[٢٤٩] وبعثهم في أثر الوفد[٢٥٠].

وبينما نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدخول في الإسلام وأخبروهم بمصير اللّات، وإذا بالسرية قد وصلت إلى الطائف ودخل المغيرة بن شعبة في بضعة عشر رجلاً يهدمون الربة[٢٥١]، وكان ذلك تحت حراسة مشددة من قومه بني معتب الذين قاموا دونه خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة بن مسعود[٢٥٢] وخرجت ثقيف عن بكرة أبيها رجالها ونساؤها وصبيانها حتى الأبكار من خدورهن، وكانوا لقرب عهدهم بالشرك لا ترى عامة ثقيف أنها مهدومة ويظنون أنها ممتنعة[٢٥٣].

وكان المغيرة رجلاً فيه دعابة وظرف فقال لأصحابه: والله لأضحكنّكم من ثقيف، فضرب بالفأس ثم سقط يركض، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة، وقالوا: أبعد الله المغيرة فقد قتلته الربة، وفرحوا حين رأوه ساقطًا[٢٥٤]. وقالوا مخاطبين أفراد السرية: من شاء منكم فليقترب وليجتهد على هدمها فوالله لا تستطيع أبدًا، فوثب المغيرة بن شعبة، وقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع[٢٥٥] حجارة ومدر، فأقبلوا عافية الله واعبدوه[٢٥٦].

أكمل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ومن معه هدم الطاغية حتى سووها بالأرض، وكان سادنها واقفًا على أحر من الجمر ينتظر نقمة الربّة وغضبها على هؤلاء العصاة[٢٥٧]،

---

(٢٤٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٩).
(٢٤٧) نفس المصدر (٢/ ٥١٩، ٥٢٠).
(٢٤٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٥).
(٢٤٩) نفس المصدر (٤/ ١٩٥).
(٢٥٠) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٠٣- ٣٠٤).
(٢٥١) المغازي (٣/ ٦٧١).
(٢٥٢) انظر: دلائل النبوة (٥/ ٣٠٤).
(٢٥٣) انظر: السرايا والبعوث ص(٣٠٠).
(٢٥٤) نفس المصدر ص(٣٠٠).
(٢٥٥) لكاع عند العرب: العبد ثم استعمل في الحمق والذم.
(٢٥٦) دلائل النبوة (٥/ ٣٠٣).
(٢٥٧) انظر: السرايا والبعوث ص(٣٠٠).

فما أن وصلوا إلى أساسها حتى صاح قائلاً: سترون إذا انتهى أساسها يغضب الأساس غضبًا يخسف بهم[٢٥٨]، فلما سمع المغيرة رضي الله عنه بذلك السخف قال لقائد السرية دعني أحفر أساسها فحفره حتى أخرجوا ترابها وانتزعوا حليتها، وأخذوا ثيابها، فبهتت ثقيف[٢٥٩]. وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوة على أعينهم[٢٦٠].

وأقبل الوفد حتى دخلوا على رسول الله (ﷺ) بحليتها وكسوتها فقسمه رسول الله (ﷺ) من يومه، وحمدوا الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه[٢٦١].

وتم القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشرك في الجزيرة العربية، وحل محلها بيت من بيوت الله (عز وجل) يوحد فيه الربُّ الذي لا إله إلا هو، وذلك بتوجيه كريم من رسول الله (ﷺ) إلى عثمان بن أبي العاص[٢٦٢] رضي الله عنه عامله على الطائف حيث أمره (بأن يجعل مسجد الطائف حيث كان طاغيتهم)[٢٦٣].

ثانيا: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن سلول):

مرض عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين، في ليال بقين من شوال ومات في ذي القعدة من السنة التاسعة[٢٦٤].

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله (ﷺ) على عبد الله بن أبي في مرضه نعوده، فقال له النبي (ﷺ): «قد كنت أنهاك عن حب يهود»، فقال عبد الله: فقد أبغضهم سعد ابن زرارة فمات[٢٦٥].

ولما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله (ﷺ)، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله (ﷺ) ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله (ﷺ)، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه؟ وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، فقال رسول الله (ﷺ): «إنما خيرني الله فقال: **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** (سورة التوبة، آية: ٨٠). وسأزيده على سبعين»، قال: إنه منافق، قال فصلى عليه رسول الله (ﷺ)، فأنزل الله (عز وجل) آية: **﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾**

---

(٢٥٨) انظر: المغازي (٣/ ٩٧٢).

(٢٥٩) انظر: دلائل النبوة (٥/ ٣٠٣).

(٢٦٠) انظر: السرايا والبعوث ص(٣٠١).

(٢٦١) انظر: تاريخ ابن شيبة (٢/ ٥٠٧) نقلاً عن السرايا والبعوث ص(٣٠١).

(٢٦٢) انظر: السرايا والبعوث ص(٣٠١).

(٢٦٣) انظر: دلائل النبوة (٥/ ٢٩٩- ٣٠٣)؛ المغازي (٣/ ٩٧٠- ٩٧٢).

(٢٦٤) انظر: تاريخ الاسلام للذهبي، المغازي ص٦٥٩.

(٢٦٥) أبو داود، كتاب الجنائز، باب في العيادة رقم (٣٠٩٤).

(سورة التوبة، آية: ٨٤)[٢٦٦].

وإنما صلى عليه رسول الله (ﷺ) إجراء له على حكم الظاهر وهو الإسلام، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله - وكان من خيار الصحابة وفضلائهم- وهو الذي عرض على النبي أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق كما بينا، ولما فيه من مصلحة شرعية، وهو تأليف قلوب قومه وتابعيه، فقد كان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين، فعسى أن يتأثروا ويرجعوا عن نفاقهم ويعتبروا ويخلصوا لله ولرسوله، ولو لم يجب ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سبة وعارًا على ابنه وقومه، فالرسول الكريم اتبع أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهى[٢٦٧].

وأما إعطاؤه (ﷺ) القميص فلأن الغنى به بخل بالكرم، وقد كان من خلق رسول الله (ﷺ) ألا يرد طالب حاجة قط، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول قميصه لما جيء به أسيرًا يوم بدر، وكان من خلق رسول الله (ﷺ) وآل بيته رد الجميل بخير منه[٢٦٨].

وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النفاق في المدينة حتى أننا لم نجد لهم حضورًا بارزًا في العام العاشر للهجرة، ولم يبق إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله (ﷺ) حذيفة بن اليمان[٢٦٩]، وكان عمر فيما بعد لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليه حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، وقد أخبره رسول الله بهم[٢٧٠].

كان العام التاسع حاسمًا لحركة النفاق في المجتمع الإسلامي، فقد وصل النظام الإسلامي إلى قوته ومن ثم لا بد من تحديد إطار التعامل مع كل القوى بوضوح[٢٧١]، ولهذا عبر الإمام ابن القيم عن خطة الإسلام أمام المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهي أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم[٢٧٢].

وجاءت هذه الخطة وفق النصوص القرآنية التي احتوتها سورة التوبة (براءة) (الفاضحة) حيث يستغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصف السورة فيفضح نواياهم وأعمالهم ووصف أحوالهم النفسية والقلبية، وموقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثنائها وما تلاها، وكشف

(٢٦٦) البخاري، كتاب تفسير القرآن رقم ٤٦٧٠ .
(٢٦٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٣٣، ٥٣٤) .
(٢٦٨) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٦٢١، ٦٢٢؛ السيرة لأبي شهبة (٢٨٥٣٤) .
(٢٦٩) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص(٢٢١) .
(٢٧٠) انظر: معين السيرة النبوية ص(٤٦٤) .
(٢٧١) انظر: دراسات في عهد النبوة ص(٢١٩) .
(٢٧٢) زاد المعاد (٢/ ٩١) .

حقيقة حيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد، وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصفوف، وإيذاء رسول الله (ﷺ) بالقول والعمل[٢٧٣].

ومن أهم الأحكام التي برزت في هذه المرحلة ضد المنافقين:

١- عدم الصلاة على من مات منهم، ودمغهم بالكفر: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٨٤- ٨٥).

٢- تهديم مسجدهم الذي بنوه للإضرار بين المسلمين، وهو مسجد الضرار وقد تحدثت عنه فيما مضى بنوع من التفصيل.

٣- إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة التحريم، آية: ٩)، وسواء أكان الجهاد بالقتال أم في المعاملة والمواجهة والكشف والفضح فإن طريقة التعامل مع المنافقين بعد سورة براءة، غير المعاملة قبلها.

٤- الكشف عن صفاتهم وأعمالهم بوضوح كما جاء في سورة التوبة أيضًا فهم الذين قالوا تثبيطًا للمسلمين: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٨١) وهم الذين يلمزون المطوعين في الصدقات ويؤذون رسول الله (ﷺ) في القول والفعل[٢٧٤]... الخ هذه معالم المنهج النبوي في التعامل مع حركة النفاق في المجتمع الإسلامي في العام التاسع الهجري.

ثالثًا: تخيير النبي (ﷺ) لزوجاته (دروس في بيوتات الرسول (ﷺ)):

قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب، آية: ٢٨- ٢٩).

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن نزول هاتين الآيتين كان بعد اعتزال النبي (ﷺ) لنسائه بعد أن أقسم ألا يدخل عليهن شهرًا، فاعتزلهن في مشربة له، وهي القصة المعروفة بقصة إيلائه[٢٧٥] من نسائه ،وكان تاريخ نزول هذه الآيات في العام التاسع للهجرة[٢٧٦].

وأما سبب نزولها هو طلب زوجاته (ﷺ) التوسعة عليهن في النفقة فقد أخرج مسلم

---

(٢٧٣) انظر: المنافقون، محمد جميل غازي ص(٩٢، ٩٣).

(٢٧٤) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص(٢٢٠).

(٢٧٥) الإيلاء: الحلف، قضايا نساء النبي والمؤمنات ص(٥١).

(٢٧٦) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات ص(٦٨).

عن جابر رضي الله عنه قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله (ﷺ)، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي (ﷺ) جالسًا حوله نساؤه واجمًا(٢٧٧) ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أضحك النبي (ﷺ)، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة(٢٧٨) سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها(٢٧٩)، فضحك رسول الله (ﷺ) وقال: **«هن حولي كما ترى يسألنني النفقة»**. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: أتسألن رسول الله (ﷺ) ما ليس عنده، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله شيئًا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية(٢٨٠).

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله (ﷺ) تجري على وتيرة واحدة بالرغم من إمكانية التوسع في بعض الأحيان، ونساء الرسول (ﷺ) هن من البشر، يرغبن بما يرغب به الناس، ويشتهين ما يشتهيه الناس(٢٨١)، فقد كان مساكنهن متواضعة بسيطة غاية البساطة فقد وصفها الدكتور أبو شهبة فقال: إن الرسول (ﷺ) بنى حجرًا حول مسجده الشريف لتكون مساكن له ولأهله ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوت من ترفع عن الدنيا وزخرفها، وابتغى الدار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وسقوفها من جذوع النخل والجريد، قريبة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده ،قال الحسن البصري - وكان غلامًا مع أمه خيرة مولاة أم سلمة: قد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي (ﷺ) بيدي، وكان لكل حجرة بابان: خارجي وداخلي من المسجد، ليسهل دخول النبي (ﷺ) إليه(٢٨٢).

وأما الإضاءة: فلم يكن هناك مصباح يستضاء به، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله (ﷺ) ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما، قالت: والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح(٢٨٣).

أما الفراش، الذي يأوي إليه هذا النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فهو عبارة عن رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، ووسادته من أدم حشوها ليف(٢٨٤)، فقد كانت معيشته (ﷺ) تدل على الشدة ،فعن أنس بن مالك رضي الله عنه

---

(٢٧٧) واجمًا: هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.

(٢٧٨) بنت زيد امرأة عمر جميلة بنت ثابت نسبها عمر إلى أحد أجدادها.

(٢٧٩) فوجأت عنقها: بمعنى طعنت عنقها.

(٢٨٠) مسلم في الطلاق (٢/ ١١٠٤).

(٢٨١) انظر: معين السيرة ص٤٦٥.

(٢٨٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة (٢/ ٣٥- ٣٦).

(٢٨٣) البخاري، كتاب الصلاة رقم (٥١٣).

(٢٨٤) البخاري، كتاب المظالم والغصب، رقم (٢٤٦٨).

قال: ما أعلم النبي (ﷺ) رأى رغيفًا مرققًا[٢٨٥] حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطًا[٢٨٦] بعينه قط[٢٨٧]، وعن عائشة قالت: إن كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله (ﷺ) نار، فقال لها عروة بن الزبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء[٢٨٨] هذا وقد فتح الله على المسلمين بعد خيبر وفتح مكة، وغزوة تبوك وقد قرأت زوجات النبي (ﷺ) آيات في كتاب الله تبيح التمتع بنعيم الله دون إسراف، فرغبن أن ينلهن حظ من ذلك كما في قوله (تعالى): ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٣١).

وحض على أكل الطيبات من الرزق قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٣٢).

ودعا إلى التوسط في الإنفاق والاعتدال فيه فقال (تعالى): ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٢٩). إلا أن هناك جانبًا آخر يتعلق به (ﷺ) ونمط من المعيشة اختاره بتوجيه من ربه (عز وجل)، فلم يلتفت لشيء من هذا، كما أدبه ربه (سبحانه وتعالى) بقوله: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الحجر، آية: ٨٨). وقوله (سبحانه): ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة طه، آية: ١٣١). ولذلك جاءت آيات التخيير، فوقف زوجاته (ﷺ) من قضية التخيير موقفًا حاسمًا لا تردد فيه، فإنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فقد كن يطلبن منه (ﷺ) التوسعة في النفقة، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن، فلما وصل الأمر إلى وضعهن أمام خيارين: الحياة الدنيا وزينتها، أو الله ورسوله والدار الآخرة لم يترددن لحظة واحدة في سلوك الخيار الثاني، بل قلن جميعهن بصوت واحد: نريد الله ورسوله والدار الآخرة[٢٨٩].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله (ﷺ) بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: «**إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن تعجلي حتى تستأمري أبويك**»، قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال إن الله جل ثناؤه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة

(٢٨٥) مرققًا: رقيقًا ضد الغليظ.

(٢٨٦) سميط: الذي أزيل شعره بالماء المسخن وشوي.

(٢٨٧) البخاري في الرقائق رقم (٦٤٥٧).

(٢٨٨) البخاري في الرقائق رقم (٦٤٥٩).

(٢٨٩) انظر: قضايا نساء النبي (ﷺ) والمؤمنات في سورة الأحزاب ص(٧٧).

الأحزاب، آية: ٢٨- ٢٩). قالت: فقلت: ففي أيّ هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج رسول الله (ﷺ) مثل ما فعلت[٢٩٠].

وهكذا تتجلى في موقفهن رضي الله عنهن صورة ناصعة لقوة الإيمان، واختبار حقيقي للإخلاص والصدق مع الله (تعالى)، فإن قوله (تعالى) في الآية الأولى من آيتي التخيير: ﴿**إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ**﴾ ، كالوعد بحصولهن على مبتغاهن في الحياة الدنيا وزينتها إن اخترن ذلك ولكنهن رفضن هذا، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة وفي قوله (تعالى) في الآية الثانية: ﴿**وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾، إشارة إلى أن ما ينلنه من الأجر سببه كونهن محسنات، ومن ذلك اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، إذ لا يكفي لحصولهن على هذا الأجر كونهن زوجات للرسول (ﷺ)[٢٩١].

وتنكير الأجر، ثم وصفه بأنه عظيم فيه ترغيب لهن بالكف عن التطلع إلى الحياة الدنيا وزينتها، فهذا الأجر لا يقدر قدره إلا الله، وهو شامل لخيري الدنيا والآخرة[٢٩٢].

ولقد اعتبر الخلفاء الراشدون قصة التخيير تلك معلم من معالم الإسلام ومنهج نبوي كريم ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمة. وإن النظرة الفاحصة في التاريخ لتبين أن هذا الجانب يعد معيارًا دقيقًا به يعرف القرب من الاستقامة أو البعد عنها وقد فهم قادة الأمة المؤمنون - حينما وجدوا- على امتداد تاريخ الإسلام، أهمية هذا الجانب فرعوه حق رعايته، وإن الأمثلة العملية من تاريخ الخلافة الراشدة هي من الوفرة والكثرة بمكان بحيث لا تتعب الباحث في التفتيش[٢٩٣] عنها.

إن قيادة الأمة تكليف ومغرم وليست مغنمًا ولا بد للذين يتولونها أن يحسبوا أهمية التعالي على حطام الدنيا، والشوق إلى الله والدار الآخرة[٢٩٤].

رابعًا: حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس:

كانت تربية المجتمع وبناء الدولة في عصر النبي (ﷺ) مستمرة على كافة الأصعدة والمجالات العقائدية والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية والعسكرية والتعبدية وكانت فريضة الحج لم تمارس في السنوات الماضية، فحجة عام ٨ هـ بعد الفتح كُلِّف بها عتّاب بن أسيد، ولم تكن قد تميزت حجة المسلمين عن حجة المشركين[٢٩٥]، فلما حل موسم الحج أراد الحج (ﷺ) ولكنه قال: «**إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحب أن**

---

(٢٩٠) البخاري، كتاب التفسير رقم (٤٧٨٦).
(٢٩١) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات في سورة الأحزاب ص(٧٩).
(٢٩٢) انظر: تفسير السعدي (٤/ ١٤٨).
(٢٩٣) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٣٦).
(٢٩٤) انظر: معين السيرة ص(٤٧٥).
(٢٩٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٣٦)؛ دراسات في عهد النبوة ص(٢٢٢).

أحج حتى لا يكون ذلك» فأرسل (ﷺ) الصدِّيق أميرًا على الحج سنة تسعة، فخرج أبو بكر ومعه عدد كبير من الصحابة[٢٩٦]، وساقوا معهم الهدي[٢٩٧] فلما خرج الصديق بركب الحجيج نزلت سورة براءة، فدعا النبي (ﷺ) عليًا رضي الله عنه وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول الله (ﷺ) العضباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي الحليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سارا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحج في هذا العام في ذي الحجة كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل، وقد خطب الصديق قبل التروية،ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول فكان يعرف الناس مناسكهم في وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات ... إلخ وعليّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك[٢٩٨]. وقد أمر الصدِّيق أبا هريرة في رهط آخر من الصحابة لمساعدة علي بن أبي طالب في إنجاز مهمته[٢٩٩].

إن نزول صدر سورة براءة يمثل مفاصلة نهائية مع الوثنية، وأتباعها، حيث منعت حجهم وأعلنت الحرب عليهم[٣٠٠].

قال (تعالى): ﴿**بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ (سورة التوبة، آية: ١- ٣).

وقد أمهل المعاهدون لأجل معلوم منهم إلى انتهاء مدتهم فقال (تعالى): ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ٤).

كما أمهل من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حرب مع المسلمين قال (تعالى): ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة: آية ٥).

---

(٢٩٦) انظر: نظرة بالنعيم (١/ ٣٩٨)؛ الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨).

(٢٩٧) انظر: فتح الباري (٨/ ٨٢).

(٢٩٨) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٢٥).

(٢٩٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٣٧).

(٣٠٠) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٩٩).

وقد كلف النبي (ﷺ) عليًا بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحج مراعاة لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاة للإسلام فلذلك تدارك النبي (ﷺ) الأمر وأرسل عليًا بذلك فهذا هو السبب في تكليف علي بتبليغ صدر سورة براءة لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن عليًا أحق بالخلافة من أبي بكر وقد علق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبة فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير أم مأمور[٣٠١]؟ وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير[٣٠٢].

وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع[٣٠٣]، لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله (تعالى)، فبعد هذا الإعلان الذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد[٣٠٤].

خامسًا: عام الوفود (٩هـ):

لما افتتح رسول الله (ﷺ) مكة، وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، وضرب رسول الله (ﷺ) أمد أربعة أشهر لقبائل العرب المشركين لكي يقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل ان تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفًا معينًا، ضربت إليه وفود العرب آباط الإبل من كل وجه معلنة إيمانها وولاءها[٣٠٥]، وقد اختلف العلماء في تاريخ مقدم الوفود على رسول الله (ﷺ) وفي عددها حيث أشارت المصادر الحديثية والتاريخية إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخ مبكر عن السنة التاسعة، ولعل ذلك مما أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد عن ستين وفدًا عند البعض، وليرتفع فيبلغ أكثر من مائة وفد عند آخرين، ولعل البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم[٣٠٦]، فقد أورد محمد بن إسحاق أنه: لما فتح رسول الله (ﷺ) مكة المكرمة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه[٣٠٧].

وقد استقصى ابن سعد في جمع المعلومات عن الوفود، كما فصل كثيرًا وقدم ترجمات وافية عن رجال الوفود، ومن كانت له صحبة منهم، وما ورد عن طريقهم من آثار، ولا تخلو أسانيد ابن سعد أحيانًا من المطاعن، كما أن فيها أسانيد من الثقات أيضًا[٣٠٨]، ولا

(٣٠١) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٢٤).
(٣٠٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٤٠).
(٣٠٣) نفس المصدر (٢/ ٥٤٠).
(٣٠٤) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية ص(٢٨٣).
(٣٠٥) نفس المصدر ص(٢٨٤).
(٣٠٦) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٩٦).
(٣٠٧) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤٦، ٤٧).
(٣٠٨) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٩٧).

شك في أن الأخبار التي أوردها المؤرخون ليست ثابتة بالنقل الصحيح المعتمد وفق أساليب المحدثين، رغم أن عددًا كبيرًا من المرويات عن تلك الوفود ثابتة وصحيحة[٣٠٩]، فقد أورد البخاري معلومات عن وفد قبيلة تميم وقدومه إلى النبي (ﷺ) ووفود أخرى مثل: عبد القيس وبني حنيفة، ووفد نجران، ووفد الأشعريين وأهل اليمن، ووفد دوس[٣١٠]، وتعززت أخبار هذه الوفود بمعلومات إضافية وردت في مصادر تاريخية إلى جانب ما ورد عنها في كتب السير والمغازي[٣١١].

وقد أورد مسلم أخبارًا عن أغلب الوفود المذكورة آنفًا[٣١٢] كما أوردت بقية الكتب الستة معلومات أوسع شملت عددًا كبيرًا من الوفود[٣١٣].

إن قصص الوفود وأخبارها وكيفية تعامل رسول الله (ﷺ) معها من الأهمية بالمكان الكبير[٣١٤]، وتبقى مسألة الحاجة الماسة إلى نقد تاريخي لمتون الأخبار المفصلة التي وصلتنا عن الوفود[٣١٥]، لقد تركت لنا تلك الأخبار والقصص منهجًا نبويًا كريمًا في تعامله (ﷺ) مع الوفود، يمكننا الاستفادة من هديه (ﷺ) في تعامله مع النفسية البشرية وتربيته ودقته وتنظيمه ففيها ثروة هائلة من الفقه الذي يدخل في دوائر التعليم والتربية والتثقيف وبعد النظر وجمع القلوب على الغاية وربط أفراد بأعيانهم بالمركز، بحيث تبقى في كل الظروف والأحوال مرتكزات قوية إلى الإسلام إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كل الحقول نفسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وإداريًا وسياسيًا وعسكريًا تعطي لكل عامل في جانب من هذه الجوانب دروسًا تكفيه وتغنيه[٣١٦].

هذا وقد تميز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة وقد استعدت الدول الإسلامية لاستقبالهم وتهيئة المناخ التربوي لهم، وقد تمثل هذا الاستقبال، بتهيئة مكان إقامة لهم وكانت هناك دار للضيافة[٣١٧]، ينزل فيها الوافدون، وهناك مسجد رسول الله (ﷺ) الذي كان ساحة للاستقبال، ثم كان هناك تطوع أو تكليف رسول الله (ﷺ) لأحد الصحابة باستضافة بعض القادمين[٣١٨] واهتم (ﷺ) بتلك الوفود وحرص على تعليمها وتربيتها، وقد كانت تلك الوفود حريصة على فهم الإسلام وتعلم شرائعه وأحكامه، وآدابه، ونظمه في

---

(٣٠٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٤٢).

(٣١٠) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٣٦٥، ٤٣٦٨، ٤٣٧٢، ٤٣٩٢).

(٣١١) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤٠- ٩٨) مثلاً.

(٣١٢) انظر: نظرة النعيم (١/ ٣٩٨).

(٣١٣) نفس المصدر (١/ ٣٩٨).

(٣١٤) انظر: السيرة النبوية الأساس في السنّة (٢/ ١٠١٤).

(٣١٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٤٤).

(٣١٦) انظر: الأساس في السنّة (٢/ ١٠١٤).

(٣١٧) انظر: المدينة النبوية وفجر الإسلام والعصر الراشدي، محمد شُرّاب (٢/ ٤٠٠).

(٣١٨) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص٢٢١.

الحياة، وتطبيق ما علّمـوه تطبيقا عمليًا، جعلهم نماذج حياة لفضـائله، وقد كان لكثير منهم سؤالات عن أشـياء كانت شائعـة بينهم ابتغاء مـعرفة حـلالها وحرامهـا، وكان النبي (ﷺ) حريصًا أشد الحرص على تفقيههم في الدين، وبيان ما سألوه عنه، وكان (ﷺ) يدني منهم من يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهًا فيه ويقول لأصحابه: «**فقِّهوا إخـوانكم**»[٣١٩]، وكان (ﷺ) يسأل عمن يعرف من شرفـائهم، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق، وحثّهم على الاعتصـام بالصبر، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوِّي بينـهم فإذا رجعـوا إلى أقوامهم رجـعوا هُداة دعـاة، مشرقـة قلوبهم بنور الإيمان، يعلمونهم مما علِّموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي وبره وبشره واستنارة وجهه سرورًا بمقدمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم وتحاببهم ومواساة بعضهم بعضًا ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله (ﷺ)، ولقاء أصحابه، ويحببوا إليهم التأسي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم[٣٢٠]، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيـتها كـوفود نصارى نجران ووافـقت على دفع الجزية، ونحاول أن نتـحدث عن بعض الوفود لما في ذلك من الـفقه والدروس والعبـر كوفد عـبد قيس، وبني سـعد بن بكر ووفد نصارى نجران:

أ- وفد عبد قيس:

وقد تحدث ابن عباس رضي الله عنهما عن قدومهم فقال:

إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ) «من الوفد؟» -أو «من القـوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحبًـا بالقوم»[٣٢١]، أو «بالوفد غير خزايا ولا ندامى»[٣٢٢]. قال: فقالوا: يا رسول الله: إنا نـأتيك من شقة بعيدة[٣٢٣]، وإن بيننا وبيـنك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل[٣٢٤] نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، قال: فـأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع. قـال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محـمدًا رسـول الله، وإقام الصـلاة، وإيتاء الزكـاة، وصوم رمـضان، وأن تؤدوا خـمسًـا من المغنم» ونهـاهم عن الدباء[٣٢٥]، والحنـتم[٣٢٦]، والمزفـت[٣٢٧]، وربما قـال

---

(٣١٩) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٥٢٠).

(٣٢٠) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٥٢١).

(٣٢١) مرحبًا بالقوم: صادفت رحبًا وسعة.

(٣٢٢) غير خزايا ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخر عن الإسلام ولا عناد.

(٣٢٣) شقة بعيدة: السفر البعيد، قيل: المسافة البعيدة.

(٣٢٤) أمر الفصل: البين الواضح الذي ينفصل به المراد.

(٣٢٥) الدباء: القرع اليابس أي الوعاء فيه.

(٣٢٦) الحنتم: أصح الأقوال فيها: الجرار الخضر وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.

(٣٢٧) المزفت: الأوعية التي فيها الزفت.

النقير[٣٢٨]، أو المقير وقال: **«احفظوا وأخبروا به من وراءكم»**[٣٢٩]، وفي رواية: أن الأشج ابن عبد قيس تخلف في الركاب حتى أناخهـا، وجمع متاع القوم، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله (ﷺ) فقبلها، فقال له النبي (ﷺ): **«إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله»**، فقال: جبل جبلت عليه أم تخلقًا مني؟ قال: **«بل جبلٌ»** قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله[٣٣٠].

وقد انشغل رسول الله (ﷺ) بمقدمهم وأخر صلاة السنة البعدية بعد الظهر وصلاها بعد العصر[٣٣١].

ب- وفد ضمامة بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: بينما نحن جلوس مع النبي (ﷺ) في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم علقه ثم قال لهم: أيكم محمد - والنبي (ﷺ) متكئ بين ظهرانيهم- فـقلنا :هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبـد المطلب. فقال له النـبي (ﷺ): **«قد أجبتك»** فقـال الرجل للنبي (ﷺ): إني أسألك فمـشدد عليك في المسألة، فلا تجد[٣٣٢] عليّ في نفسك فقال: **«سل عما بدا لك»**. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: **«اللهم نعم»**.

قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: **«اللهم نعم»**.

قال: أنشدك بالله. آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: **«اللهم نعم»**.

قال: أنشـدك بالله. آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقـة من أغنيائنا فتقـسمها في فـقرائنا؟ فقال النبي (ﷺ): **«اللهم نعم»**.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مـن ورائي من قومي وأنا ضمام ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر[٣٣٣].

وفي رواية ابن عباس: . . . حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محـمداً رسـول الله (ﷺ) وسأؤدي هذه الفـرائض وأجتنب ما نهـيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص.

قال: ثم انصرف راجعًا إلى بعيره، فقال رسول الله (ﷺ) حين ولى: **«إن يصـدق ذو**

---

(٣٢٨) النقير: جذع ينقر وسطه ثم ينبذ فيها الرطب والبسر.
(٣٢٩) البخاري، كتاب الإيمان رقم (٥٣).
(٣٣٠) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٣١).
(٣٣١) نفس المصدر ص(٦٣٥).
(٣٣٢) تجد: تحقد وتحمل البغضاء.
(٣٣٣) البخاري، كتاب العلم رقم (٦٣).

العقيصتين[٣٣٤] **يدخل الجنة**»، قال: فأتى إلى بعيره، فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: صه يا ضمام اتق البرص والجذام، اتق الجنون. قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله (عز وجل) قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال :فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا، قال: يقول ابن عباس رضيالله عنهما: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام ابن ثعلبة[٣٣٥].

وتدل قصة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربية، حتى جاء ضمام لا ليسأل عنها ولكن جاء ليستوثق منها، معددًا لها الواحدة تلو الأخرى، مما يدل على استيعابه لها قبل مجيئة إلى الرسول (ﷺ)[٣٣٦].

جـ- وفد نصارى نجران:

كتب رسول الله (ﷺ) إلى نجران[٣٣٧] كتابًا قال فيه: «**أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية. فإن أبيتم آذنتكم بحرب. والسلام**»[٣٣٨].

فلما أتى الأسقف الكتاب، جمع الناس وقرأه عليهم، وسألهم عن الرأي فيه؟ فقرروا أن يرسلوا إليه وفدًا يتكون من أربعة عشر من أشرافهم، وقيل: ستين راكبًا، منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذين يصدرون عن رأيه، والسيد وهو صاحب رحلتهم، وأبو الحارث أسقفهم، وحبرهم وصاحب مدارسهم، فقدموا على النبي (ﷺ) فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المَشرق، فقال رسول الله (ﷺ): «**دعوهم**».

ثم أتوا النبي (ﷺ)، فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيِّكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا، ثم غدَوا عليه بزي الرهبان فسلّموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبي (ﷺ): «**يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدًا**»[٣٣٩] وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم، والنبي يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة وكان مما قالوه لرسول

---

(٣٣٤) لأنه فرق شعره فرقتين.

(٣٣٥) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٦٣٠، مسند أحمد (١/ ٢٦٤).

(٣٣٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٦٥٠.

(٣٣٧) نجران بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن.

(٣٣٨) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤٨).

(٣٣٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧).

الله (ﷺ): مالك تشتم صاحبنا وتقول أنه عبدالله، فقال: أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط من غير أب فإن كنت صادقًا فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الرد عليهم قوله سبحانه: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ٥٩ - ٦٠).

فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه[٣٤٠] فلما لم تجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة[٣٤١]، امتثالاً لقوله (تعالى): **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾** (سورة آل عمران: ٦١).

وخرج النبي (ﷺ) ومعه علي، والحسن، والحسين، وفاطمة وقال: «**وإذا أنا دعوت، فأمِّنوا**»[٣٤٢] فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقًا، وأنه ما باهل قوم نبيًا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر[٣٤٣]، ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا للنبي (ﷺ): ابعث معنا رجلاً أمينًا ليقبض منهم مال الصلح، فقال لهم: «**لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين**»، فاستشرق له أصحاب رسول الله (ﷺ) فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال: «**هذا أمين هذه الأمة**»[٣٤٤].

سادسًا: بعوث رسول الله لتعليم مبادئ الإسلام وترتيب أمور الإدارة والمال:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية ويتعلمون ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم، وكان (ﷺ) يرسل معهم من يعلمهم دينهم، وشرع (ﷺ) يبعث دعاته في شتى الجهات واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن لتعليمها مبادئ الإسلام وأحكامه ،فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ومختلف أطرافها، وأصبحت الحاجة داعية إلى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام[٣٤٥] لكي تتطهر قلوبهم وتشفى صدورهم من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة وامتنعت قبيلة بني الحارث ابن كعب عن الدخول في الإسلام، فأرسل إليهم رسول الله (ﷺ) خالد في سرية دعوية جهادية.

---

(٣٤٠) انظر: زاد المعاد (٣/٦٣٣)؛ السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٤٧).

(٣٤١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٤٧).

(٣٤٢) نفس المصدر (٢/٥٤٧).

(٣٤٣) المصدر السابق (٢/٥٤٧).

(٣٤٤) البخاري، كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٧٤٥).

(٣٤٥) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٣٢٢).

أ- بعث خالد إلى بني الحارث بن كعب (١٠هـ):

كان بنو الحارث بن كعب يسكنون بنجران ولم يقبل منهم أحد الإسلام، فبعث رسول الله (ﷺ) إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادي سنة عشر، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فإن استجابوا قبل منهم، وإن لم يفعلوا قاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) كما أمره رسول الله (ﷺ) ثم كتب خالد إلى رسول الله (ﷺ) يعلمه بإسلامهم وأنه مقيم فيهم حتى يكتب إليه رسول الله (ﷺ)، فجاءه كتاب رسول الله (ﷺ) يأمره بأن يقبل إلى المدينة ومعه وفد منهم ففعل، فلما قدموا أمر عليهم قيس بن الحصين، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة، ومعالم الإسلام[٣٤٦] وفي رواية: أنه (ﷺ) أرسل عليًا بدلاً من خالد وعندما وصل إلى قبائل همدان قرأ عليهم كتاب رسول الله (ﷺ) فأسلمت همدان جميعًا، فكتب علي إلى رسول الله (ﷺ) بإسلامهم فلما قرأ رسول الله (ﷺ) الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان السلام على همدان[٣٤٧]، كان رسول الله (ﷺ) حريصًا على الجبهة الجنوبية للدولة وأن تدخل قبائل اليمن في الإسلام ،وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة التي حققتها الدعوة في كثرة عدد الوفود التي كانت تنساب من كل أطراف اليمن متجهة إلى المدينة مما يدل على أن نشاط المبعوثين إلى اليمن كان متصلاً وبعيد المدى، وكانت سرايا رسول الله (ﷺ) تساند هذا النشاط الدعوي السلمي حيث بعث خالد بن الوليد ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في هذا السياق[٣٤٨].

إن الوثائق التي عقدها النبي (ﷺ) مع قبائل اليمن وحضرموت قد بلغت عددًا كبيرًا ضمّنها محمد حميد الله (رحمه الله) في كتابه (مجموعة الوثائق السياسية)[٣٤٩].

إن التركيز على مفاصل القوى، ومراكز التأثير في المجتمعات وبناء الدول منهج نبوي كريم حرص النبي (ﷺ) على ممارسته في حياته.

ب- بعث معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن رضي الله عنهما:

١- بعث رسول الله (ﷺ) معاذ بن جبل الأنصاري أعلم الصحابة في علم الحلال والحرام إلى اليمن قاضيًا ومفقهًا، وأميرًا، ومصدقًا[٣٥٠]، وجعله على أحد مخلافيها[٣٥١]

(٣٤٦) انظر: السيرة لابن هشام (٤/ ٢٥٠) .

(٣٤٧) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٤٩) .

(٣٤٨) انظر: الفقه السياسي للوثائق النبوية ص(٢٣١) .

(٣٤٩) انظر: الوثائق السياسية، حميدالله رقم (١١١) ص(٢٣٠).

(٣٥٠) المصدّق: آخذ الزكاة .

(٣٥١) المخلاف: الأقليم والكورة والرستاق .

وهو الأعلى. ولما خرج معاذ قاصدًا اليمن خرج معه رسول الله (ﷺ) يودعه ويوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله (ﷺ) يمشي تحت راحلته، فأوصاه بوصايا كثيرة ورسم له منهجًا دعويًا عظيمًا حيث قال له: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[٣٥٢]. وفي هذا الحديث إرشاد من النبي (ﷺ) للدعاة إلى الله بالتدرج والبدء بالأهم فالأهم، فالدعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله (تعالى) ورسوله إيمانًا يثبت في القلوب ويهيمن على الأفكار والسلوك، ثم تكون الدعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العملية التي ترسخ هذا الإيمان وتنميه، ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات، فيتقبل الناس تكاليف الإسلام التي قد تكون مخالفة لهوى النفس لأن قلوبهم قد عمرت بالإيمان واليقين قبل ذلك[٣٥٣].

وهذا منهج نبوي كريم رسمه (ﷺ) لمعاذ ولمن يريد أن يسير على هدى الصحابة الكرام، وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدي النبوي يترسمون خطاه، ويستوعبونه فهما ووعيًا، وتطبيقًا، وحينئذ تكون خطاهم في الطريق الصحيح[٣٥٤] ولما فرغ رسول الله (ﷺ) من وصاياه لمعاذ قال له: «**يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري**»[٣٥٥]. فبكى معاذ خَشَعًا لفراق الرسول (ﷺ)، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرسول، فقد أقام معاذ باليمن ولم يقدم إلا بعد وفاة الرسول (ﷺ)[٣٥٦].

٢- وبعث رسول الله (ﷺ) أبا موسى الأشعري اليمني إلى مخلاف اليمن الآخر وهو الأسفل، قاضيًا ومفقهًا وأميرًا ومصدِّقًا، وأوصاه ومعاذًا فقال: «**يسِّرا ولا تعسرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[٣٥٧].

وهذا منهج نبوي كريم أرشد إليه رسول الله معاذًا وأبا موسى بأن يأخذا بالتيسير على الناس ونهاهما عن التعسير عليهم، وأمرهما بالتبشير ونهاهما عن التنفير[٣٥٨].

جـ- ترتيب أمور الإدارة والمال:

إن النظام جزء من هذا الدين، وداخل في كل أموره، لأن النظام يجمع الأشتات،

(٣٥٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٣٤٧).
(٣٥٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٨٧).
(٣٥٤) انظر: معين السيرة ص(٤٨٦).
(٣٥٥) انظر: صحيح السيرة ص(٦٥٤).
(٣٥٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٥٩).
(٣٥٧) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٤٢).
(٣٥٨) انظر: التاريخ الاسلامي للحميدي (٨/ ١٨٦).

وتحقق به الأهداف والغايات، فالنظام سمة يتميز بها الإسلام منذ اللحظة الأولى حيث يدخل في جميع جوانب الإسلام التصورية والشعائرية والتعبدية وفي الشرائع الحياتية كلها، فكان (ﷺ) يضع من يدير المدينة في حالة غيبته عنها، وكلما فتح منطقة وضع عليها أميرًا، وكانت الوفود تأتي إلى رسول الله (ﷺ) فيعين عليها أميرًا من قبله، ثم يترك لهم من يعلمهم دينهم ويرسل إليهم من يجمع صدقاتهم[٣٥٩]، وكان يختار عمّاله من الصالحين وأولي العلم والدين، ومن المنظور إليهم من العرب وذوي الشخصيات المؤثرة في قبائلهم، فقد كان عامله على مكة عتاب بن أسيد وعلى الطائف عثمان بن العاص، وبعث عليًّا وأبا موسى إلى اليمن وأقر الرسول في بعض الحالات أمراء وملوك القبائل التي أسلمت أو قبلت الجزية ومنهم باذان بن ساسان ولد بهرام الذي أقرّه الرسول (ﷺ) على اليمن بعد إسلامه ولما بلغه موته قسم عمله على جماعة من الصحابة، فولى على صنعاء شمر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى همذان، عامر بن شمر الهمذاني، وعلى ما بين نجران وزمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو ابن حزام، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي وعلى السكاسك والسكون عكاشة ابن ثور[٣٦٠]، وكان (ﷺ) يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف، وحدّد (ﷺ) لبعض عماله رواتب، منهم عتاب بن أسيد والي مكة درهمًا كل يوم[٣٦١]، ولما استعمل عليه الصلاة والسلام قيس بن مالك على قومه همذان خصص له قطعة من الأرض يأخذ خراجها، وكانت رواتب عماله تتغير بتغير أحوال المعيشة فهي ليست ثابتة[٣٦٢]، قال رسول الله (ﷺ) : «**من ولي لنا ولاية ولم يكن له بيت فليتخذ بيتًا، أو لم تكن له زوجة فليتخذ زوجة، أو لم تكن له دابة فليتخذ دابة**»[٣٦٣]. وهذه هي الحاجات الرئيسية لوليّ الأمر في ذلك الوقت منعًا لأخذ الرشوة، وهذه قاعدة قانونية جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة في بنودها وهي أن الهدية للحاكم رشوة صريحة[٣٦٤].

• • •

(٣٥٩) انظر: دراسات في عهد النبوة ص٢٢١ للشجاع .
(٣٦٠) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر (٢/ ٥٩) .
(٣٦١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٥٣) .
(٣٦٢) انظر: الدولة العربية الإسلامية، منصور الحرابي ص٤٤ .
(٣٦٣) انظر: الدولة العربية الإسلامية ص(٤٤)؛ التراتيب الإدارية للكتاني (١/ ٢٢٧) .
(٣٦٤) انظر: الدولة العربية الإسلامية ص(٤٤) .



المبحث السابع

حجة الوداع (١٠هـ)

يعتبر الحج أحد الأركان الخمسة، وقد فرض في العام العاشر وهذا ما ذهب إليه ابن القيم[٣٦٥] واستدل بأدلة قوية وهو اللائق بهديه (ﷺ) في عدم تأخير ما هو فرض، لأن الله (تعالى) يقول: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾(آل عمران : ٩٧). وقد نزلت عام الوفود، أواخر سنة تسع[٣٦٦].

لم يحج النبي (ﷺ) من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأنه (ﷺ) ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ، لأنه عليه السلام بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام، وقواعده شيء إلا وقد بينه، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عليه بعرفة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣)[٣٦٧].

ولما نزلت هذه الآية بكى بعض الصحابة - ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكأنهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرسول (ﷺ)، ولما قيل لسيدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[٣٦٨]، وكان عدد الذي مع رسول الله أكثر من مائة ألف[٣٦٩].

أولاً: كيف حج النبي (ﷺ):

عزم رسول الله (ﷺ) على الحج، وأعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا وذلك في شهر ذي القعدة سنة عشر للخروج معه، وسمع بذلك من حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع الرسول (ﷺ) ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، مد البصر، وخرج من المدينة نهارًا بعد الظهر لخمس بقين من ذي القعدة يوم السبت، بعد أن صلى الظهر بها أربعًا[٣٧٠].

وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه ثم سار وهو يلبي، ويقول: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك**

(٣٦٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).

(٣٦٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٦٨٠)؛ زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).

(٣٦٧) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٠٧).

(٣٦٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٧٥).

(٣٦٩) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٨٦).

(٣٧٠) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٦٤)؛ السيرة النبوية للندوي، ص(٣٨٦).

لـك»[٣٧١] والناس معه يزيدون وينقصون، وهو يقرهم، ولا ينكر عليهم، ولزم تلبيته ثم مضى حتى نزل بـ (العرج) ثم سار حتى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سرف) ثم نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى) فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة فدخلها نهارًا من أعلاها، ثم سار، حتى دخل المسجد، وذلك ضحى[٣٧٢]، فاستلم الركن[٣٧٣] (ﷺ) فرمل ثلاثًا[٣٧٤]، ومشى أربعًا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم[٣٧٥] عليه السلام. فقرأ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(البقرة: ١٢٥). فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين قل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:١٥٨) وأبدأ بما بدأ الله به»، فبدأ بالصفا. فرقى عليه، حتى إذا رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره. وقال: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»** ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذه ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت[٣٧٦] قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا[٣٧٧] مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: **«لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة»**[٣٧٨].

فقال سراقة بن مالك بن جعشم: يا رسول الله! ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله (ﷺ) أصابعه واحدة في الأخرى. وقال: **«دخلت العمرة في الحج»** مرتين **«لا بل لأبد أبد»**[٣٧٩] وأقام بمكة أربعة أيام: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء فلما كان يوم الخميس ضحى، توجه بمن معه من المسلمين إلى منى ونزل بها، وصلى بها الظهر والعصر، والمغرب والعشاء والفجر ومكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له

---

(٣٧١) البخاري، كتاب الحج، باب التلبية رقم (١٥٥٠).

(٣٧٢) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣٨٧.

(٣٧٣) مسلم، كتاب الحج باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم رقم ١٢١٨.

(٣٧٤) الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا.

(٣٧٥) نفذ إلى مقام إبراهيم: بله ماضيًا في زحام.

(٣٧٦) انصبت قدماه: انحدرت.

(٣٧٧) صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.

(٣٧٨) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي رقم (١٢١٨).

(٣٧٩) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي رقم (١٢١٨)؛ صحيح السيرة النبوية ص(٦٥٩).

بنمرة[٣٨٠]، فسار رسول الله (ﷺ) ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام[٣٨١]، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز[٣٨٢] رسول الله (ﷺ) حتى أتى عرفه، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة. فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له، فأتى بطن الوادي[٣٨٣]، فخطب الناس وقال: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس ابن عبد المطلب، فإنه موضوع كله فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن في فرشكم أحدًا تكرهونه[٣٨٤]، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح[٣٨٥]، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكثها[٣٨٦] إلى الناس: «**اللهم اشهد. اللهم اشهد**»، ثلاث مرات[٣٨٧]، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب رسول الله (ﷺ)، حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات[٣٨٨] وجعل جبل المشاة بين يديه[٣٨٩]، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص[٣٩٠]، وذكر أبو الحسن الندوي: لما فرغ رسول الله (ﷺ) من صلاته والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس، وكان في دعائه رافعًا يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين، يقول فيه: «**اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف**

(٣٨٠) نمرة: موضع بجنب عرفات وليست من عرفات.

(٣٨١) المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه، ولا تقف مع العرب في عرفات ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف عرفات.

(٣٨٢) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها، وإنما توجه إلى عرفات.

(٣٨٣) بطن الوادي: وادي عرنة، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء إلا مالكًا قال: من عرفات.

(٣٨٤) أي لا يجوز للمرأة أن تدخل أحدًا إلى بيت زوجها من قريب أو بعيد أو امرأة إلا من يرضى عنه زوجها.

(٣٨٥) الضرب المبرح: الشديد الشاق.

(٣٨٦) ينكثها: يقلبها ويرددها إلى الناس مشيرًا إليهم.

(٣٨٧) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٦١)؛ مسلم كتاب الحج، رقم(١٢١٨).

(٣٨٨) الصخرات: صخرات في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات.

(٣٨٩) جبل المشاة: مجتمعهم. وقيل: جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرجالة.

(٣٩٠) حتى غاب قرص الشمس: حتى غابت الشمس وذهبت الصفرة.

الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه، وذل جسده، ورغم أنفه لك، اللهم! لا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رؤوفا رحيما، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين»[٣٩١].

وهنالك أنزلت عليه: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾**(المائدة: ٣). فلما غربت الشمس أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة ضم إليه زمام ناقته، حتى أن رأسها ليصيب طرف رحله، وهو يقول: «**أيها الناس عليكم السكينة**»[٣٩٢]، وكان يلبي في مسيره ذلك، لا يقطع التلبية حتى أتى المزدلفة، وأمر المؤذن بالأذان فأذن، ثم أقام، فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم، أمر، فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء، ثم نام، حتى أصبح، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جدًا، وذلك قبل طلوع الشمس، ثم سار من مزدلفة، مردفًا للفضل بن عباس، وهو يلبي في مسيره، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات، فلما أتى بطن محسر، حرك ناقته، وأسرع السير[٣٩٣]، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فرماها راكبًا بعد طلوع الشمس، وقطع التلبية[٣٩٤]، ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبة بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفارًا، يضرب بعضهم رقاب بعض وأمر بالتبليغ عنه[٣٩٥] وقد جاء في هذه الخطبة: «**أتدرون أي يوم هذا؟**» قلنا: **الله** ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه فقال: «**أليس ذو الجمعة؟**» قلنا: بلى، قال: «**أي بلد هذا؟**» قلنا: **الله** ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: فقال: «**أليس ذو الحجة**» قلنا: بلى، قال: «**أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليست بالبلدة الحرام؟**» قلنا: بلى، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم - وفي رواية أعراضكم- عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟**» **قالوا: نعم قال: «اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»**[٣٩٦].

---

(٣٩١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٨٩).

(٣٩٢) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٦٢).

(٣٩٣) نفس المصدر ص٦٦٢، السيرة النبوية للندوي ص(٣٨٩).

(٣٩٤) انظر: صحيح السيرة النبوية للندوي ص(٣٨٩).

(٣٩٥) نفس المصدر ص(٣٩٠).

(٣٩٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٠)؛ السيرة النبوية لأبي شهبة.

ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره، ثم أمسك وأمر عليًا أن ينحر ما بقي من المائة، فلما أكمل نحره استدعى بالحلاق، فحلق رأسه، وقسم شعره بين من يليه، ثم أفاض إلى مكة راكبًا، وطاف طواف الإفاضة[٣٩٧]، فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: «أنزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم»، فناولوه دلوًا فشرب منه[٣٩٨] ثم رجع إلى منى من يومه ذلك، فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار، فبدأ بالجمرة الأولى ثم الوسطى ثم الجمرة الثالثة، وهي جمرة العقبة، وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر، وخطبة ثانية في ثاني يوم النحر[٣٩٩]، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النحر بمنى، والواقع أن تكرار الخطب في حجة الوداع كان أمرًا لا بد منه لحاجة المسلمين، فهي الحجة الوحيدة التي حجّها الرسول (ﷺ)، وقد عزّ فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النافذة في الجزيرة كلها، كما كانت الوداع الأخير فما أشد حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التذكير والنصح والتوصية وإلى تكرار القول والتأكيد عليه حتى يعوه ويحفظوه ولا ينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة[٤٠٠].

هذا وقد تأخر رسول الله (ﷺ) حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلاً سحرًا، وأمر الناس بالرحيل، وتوجه إلى المدينة[٤٠١]. وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول (ﷺ) الناس في غدير خُمّ قريبًا من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وقد جاء في هذه الخطبة: «**أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله. واستمسكوا به**، فحث على كتاب الله ورغب فيه، **ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»[٤٠٢]، وفي رواية ... أخذ بيد علي رضي الله عنه وقال: «**من كنت وليه، فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه**»[٤٠٣]، وفي رواية: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[٤٠٤]، وكان علي قد أقبل من اليمن وشهد حجة الوداع[٤٠٥]، وقد اشتكى بعض الجند عليًا وأنه اشتد في

(٣٩٧) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٩٠).

(٣٩٨) مسلم، كتاب الحج رقم (١٢١٨)؛ صحيح السيرة النبوية ص(٦٦٣).

(٣٩٩) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٩٠).

(٤٠٠) انظر السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٧٩)؛ المستفاد من قصص القرآن.

(٤٠١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٩٠).

(٤٠٢) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبي طالب رقم(٢٠٤٨).

(٤٠٣) النسائي في خصائص علي ص(٢١)؛ صحيح السيرة النبوية ص(٦٨٨).

(٤٠٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٠).

(٤٠٥) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٠٩).

معاملتهم وكان قد استرجع منهم حللاً وزعها عليهم نائبه، فأوضح لهم النبي (ﷺ) في غدير خم مكانة علي ونبه على فضله لينتهوا عن الشكوى[٤٠٦]، فقد كان الحق مع علي في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته لأنها أموال صدقات وخمس[٤٠٧].

ولما أتى رسول الله (ﷺ) ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات، وقال: «**لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»، ثم دخلها نهارا[٤٠٨].

ثانيًا: الدروس والعبر والفوائد:

١- مرحلة النضج التي وصلت إليها الأمة:

وصلت الأمة الإسلامية في السنة العاشرة مرحلة من النضج متقدمة وكان ذلك يقتضي لمسات أخيرة، فوسع (ﷺ) في العام التاسع والعاشر من الهجرة دائرة التلقي المباشر من خلال استقباله الوفود ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته وقد تلقت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رحى الإسلام دائرة وإلى الأبد[٤٠٩]، ففي حجة الوداع كانت اللمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ).

٢- تربية الأفراد على قطع الصلة بالجاهلية والابتعاد عن الذنوب:

أ- فقد أشار (ﷺ) إلى أهمية قطع المسلم علاقته بالجاهلية، أوثانها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك ولم يكن حديثه (ﷺ) مجرد توصية بل كان قرارًا أعلن عنه للملأ كله لأولئك الذين كانوا من حوله والأمم التي ستأتي من بعده وهذه هي صيغة القرار: «**ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدمي موضوع، دماء الجاهلية موضوعة ... وربا الجاهلية موضوع**»[٤١٠]، لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لا صلة لها برجس الماضي وأدرانه[٤١١].

ب- وقد حذر (ﷺ) من الذنوب والخطايا والآثام، ما ظهر منها وما بطن، لأن الذنوب والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدو بعدوه فهي سبب مصائبه في الدنيا: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ (الشورى: ٣٠) فترديه في نار جهنم في

---

(٤٠٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥١).

(٤٠٧) انظر: السيرة النبوية لابي شهبة (٢/ ٥٨١).

(٤٠٨) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٣٩١) نقلاً عن زاد المعاد (١/ ٢٤٩).

(٤٠٩) انظر: الأساس في السنّة (٢/ ١٠٥٤).

(٤١٠) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٣٣١).

(٤١١) قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي ص(٣٠٣).

الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السيف، وأعلن رسول الله (ﷺ) أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام، لأن العقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا والذنوب، حتى تردي صاحبها في المهاوي(٤١٢).

٣- تربية المجتمع على مبادئ أساسية:

أ- الأخوة في الله هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (الحجرات: ١٠) فقد قال (ﷺ) : «**أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم**» . وقال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض**» (٤١٣).

ب- الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى (ﷺ) في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء(٤١٤)، فقد شدّد (ﷺ) في وصيته بالإحسان إلى الضعفاء(٤١٥)، وأوصى خيرًا بالنساء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية(٤١٦).

جـ- التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبدًا حبشيًا، فإن في ذلك الصلاح والفلاح، والنجاة في الدنيا والآخرة(٤١٧)، فقد بين (ﷺ) العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنها تعتمد على السمع والطاعة ما دام الرئيس يحكم بكتاب الله وسنة رسوله(ﷺ) ، فإذا مال عنهما فلا سمع ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله (تعالى)(٤١٨).

د- المساواة بين البشر: فقد قال (ﷺ) : «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب**»(٤١٩)، حيث حدد أن أساس التفاضل لا عبرة فيه لجنس، ولا لون، ولا وطن، ولا قومية، . . . وإنما أساس التفاضل قيمة خلقية راقية ترفع مكانة الإنسان إلى مقامات رفيعة

(٤١٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية ص(٣٠٣) .
(٤١٣) مسلم، كتاب الحج رقم (١٢١٨) .
(٤١٤) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية ص(٣٠٤) .
(٤١٥) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص(٥٧٥) .
(٤١٦) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٣٣٢) .
(٤١٧) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص(٥٧٦) .
(٤١٨) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٣٣٣) .
(٤١٩) مسند أحمد (٣/ ٤١١) إسناده صحيح .

جداً[٤٢٠].

هـ- تحديد مصدر التلقي: وقد حدد (ﷺ) مصدر التلقي والطريقة المثلى لحل مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم في الرجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما، الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفًا على عصر دون آخر، وأنه لا ينبغي أن يكون لأيّ تطور حضاري أو عرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما[٤٢١].

لقد وصف (ﷺ) الداء والدواء ووضع العلاج لكل المشكلات بالالتزام التام بما جاء من أحكام في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ): «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي**». هذا هو العلاج الدائم وقد كرر (ﷺ) نداءه للبشرية عامة عبر الأزمنة، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب والسنة في حل جميع المشكلات التي تواجه البشرية، فإن الاعتصام بهما يجنب الناس من الضلال، ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمستقبل، لقد اجتازت تعاليم رسول الله (ﷺ) وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزمن، وأسوار القرون، وظل يتردد صداها حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه فيقول لهم: (أيها المؤمنون، أيها المسلمون أيها الحجاج بل كان يقول لهم: يا أيها الناس) وقد كرر نداءه إلى الناس كافة مرات متعددة دون أن يخصصه بجنس أو بزمان أو مكان أو لون، فقد بعثه الله للناس كافة وأرسله رحمة للعالمين[٤٢٢].

٤- الأساليب التعليمية من خطب حجة الوداع:

أ- التعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علّم رسول الله (ﷺ) صحابته الكرام مناسك الحج بصورة عملية، بأن قام بها وباشرها فعلاً، ولم يكتف بأن يعلمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «**خذوا عني مناسككم**»[٤٢٣]، وعلى هذا فيستحسن من الدعاة وهم يعلمون الناس معاني الإسلام أن يعلموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشرعية، أو بعضها في الأقل بصورة عملية كالوضوء، والصلاة، وتعليم قراءة القرآن بصورة سليمة[٤٢٤].

ب- تكرار الخطب:

لاحظنا أن النبي (ﷺ) كرر خطبه، فقد خطب في عرفة، وفي منى مرتين، كما كرر

---

(٤٢٠) انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام، عرجون (٢/ ٨٧٦).

(٤٢١) انظر: فقه السيرة للبوطي ص(٣٣٣).

(٤٢٢) انظر: الجانب السياسي في حياة الرسول ص١٣١، أحمد محمد باشميل.

(٤٢٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٤٩)؛ مسلم (٢/ ٩٤٢) رقم (١٢٩٧).

(٤٢٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٨).

معاني بعض هذه الخطب، فعلى الدعاة أن يقتدوا برسول الله (ﷺ)، فيكرروا خطبهم ويكرروا بعض معانيها التي يروا حاجة لتكرارها، حتى يستوعبها السامعون ويحفظوها، لأن القصد من خطب الخطيب إفادة السامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصل أو لا تتم إلا بتكرار الخطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكررها الداعية، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديد في خطبه ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معاني معينة في أذهان السامعين، إن الداعية همه أن يفيد السامعين وليس همه أن يظهر براعته في الخطب، وفي تنوع معانيها دون نظر ولا اعتبار إلى ما يحتاجه السامعون، ودون اعتبار لفهمهم هذه المعاني واستيعابهم لها[٤٢٥].

حـ- فليبلغ الشاهد الغائب:

وفي هذا توجيه نبوي كريم لكي تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس فهذا من باب التعاون على الخير، ولأن الغائب قد يكون أوعى للعلم، وأكثر فهمًا له من الحاضر الذي سمع وعلى الدعاة والعلماء عندما يلقون درسًا أو محاضرة لإخوانهم أو لعامة الناس فمن المستحسن أن يقولوا للحاضرين: فليبلغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه[٤٢٦].

د- جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النبي (ﷺ) الحاضرين عن اسم اليوم الذي هم فيه، وكذا عن الشهر والبلد وهم يعرفونها مما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة فيصغون إليه إصغاءً تامًا.

قال القرطبي: سؤال النبي (ﷺ) عن الثلاثة: أي عن اليوم والشهر والبلد، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه ... فعلى العلماء والدعاة أن يقدموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السامعين ويشدهم إلى كلامهم[٤٢٧].

٥- بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من حجة الوداع:

جاءت حجة الوداع حافلة بالأحكام الشرعية وخاصة ما يتعلق بالحج وبالوصايا والأحكام التي وردت في خطبة عرفات، لذلك اهتم العلماء بحجة الوداع اهتمامًا كبيرًا واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك وغيرها مما تحفل به كتب الفقه وكتب شروح الحديث وخصص بعضهم مؤلفات مستقلة في حجة الوداع[٤٢٨].

ونشير إلى بعض هذه الأحكام باختصار شديد فمن هذه الأحكام:

---

(٤٢٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٥١٧، ٥١٨).

(٤٢٦) البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي: «رُبَّ مُبَلَّغ أَوْعَى من سَامع» رقم ١٠٥.

(٤٢٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/٥١٨).

(٤٢٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٤٩)، ما ألفه الألباني حجة النبي وغيره.

أ- إفطار الحاج يوم عرفة:

قالت ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها زوج النبي (ﷺ) : إن الناس شكوا في صيام رسول الله (ﷺ) يوم عرفة، فأرسلت إليه ميمونة بحلاب[٤٢٩] اللبن، وهو واقف في الموقف فشرب منه، والناس ينظرون إليه[٤٣٠].

ب- كيف يفعل بمن توفي محرمًا؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينما رجل واقف مع رسول الله (ﷺ) بعرفة إذ وقع عن راحلته، فأوقصته أو قال فأقعصته[٤٣١]، فذكر ذلك للنبي (ﷺ) فقال: «**اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه**[٤٣٢]، **ولا تخمروا**[٤٣٣] **رأسه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا**»[٤٣٤].

جـ- هل يجوز الحج عن الغير؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل رديف رسول الله (ﷺ)، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي (ﷺ) يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة. أفأحج عنه؟ قال: «**نعم**». وذلك في حجة الوداع[٤٣٥].

د- منهج التيسير لا حرج لا حرج:

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: وقف رسول الله (ﷺ) على راحلته، فطفق ناس يسألونه فيقول القائل: يا رسول الله! إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر فنحرت قبل الرمي، فقال رسول الله (ﷺ): «**فارم ولا حرج**» قال: وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر، فيقول: «**انحر ولا حرج**» قال: فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر، مما ينسى المرء ويجهل، من تقديم بعض الأمور قبل بعض، وأشباهها، إلا قال رسول الله (ﷺ): «**افعل، ولا حرج**»[٤٣٦].

هذه بعض الأحكام المختصرة ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه الألباني عن حجة الوداع

---

(٤٢٩) الإناء الذي يحلب فيه .

(٤٣٠) البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم عرفة حديث رقم (١٩٨٩) .

(٤٣١) فأقعصته: قتلته في الحال .

(٤٣٢) لا تحنطوه: لا تضعوا عليه من الطيب شيئًا .

(٤٣٣) لا تخمروا: لا تغطوا رأسه .

(٤٣٤) البخاري، كتاب الجنائز باب الكفن في ثوبين رقم (١٢٦٥) . ملبيًا: يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها .

(٤٣٥) البخاري في الحج، باب وجوب الحج وفضله رقم (١٥١٣) .

(٤٣٦) البخاري في العلم، باب الفتيا على الدابة رقم ٨٣ .

فقد لخص الحجة في اثنتين وسبعين مسألة[٤٣٧]، وكتاب (الوصية النبوية للأمة الإسلامية) للدكتور فاروق حمادة فقد جمع من المصادر الأدبية والحديثية وكتب أهل السير ثمانية وثلاثين بندًا ثم قام بتحليلها وتخريجها وتوثيق نصوصها بميزان الجرح والتعديل الذي اعتمده أئمة المسلمين منذ الصدر الأول لأن الأمر دين وشرع كما قال وقد أجاد وأفاد[٤٣٨].

٦- فوائد في تسمية أيام الحج:

كان يقال لليوم السابع من ذي الحجة: يوم الزينة، لأنه يُزين فيه البُدن التي تهدى بالجلال وغيرها، واليوم الثامن يقال له: يوم التروية لأنهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف وما بعده، لأن هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذ آبار ولا عيون، أما الآن ففيها الماء الكثير والحمد لله، واليوم التاسع: يوم عرفة للوقوف فيه بها. واليوم العاشر: يوم النحر ويوم الأضحى ويوم الحج الأكبر، واليوم الحادي عشر: يوم القر لأنهم يقرون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس لأنهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي، وهو أول أيام التشريق. وثاني أيام التشريق يقال له: يوم النَّفر الأول لجواز الخروج فيه إلى مكة لمن يريد التعجيل، وثالث أيام التشريق يقال له يوم النَّفر الثاني[٤٣٩] قال (عز شأنه): **﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** (البقرة: ٢٠٣).

***

(٤٣٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٦٨٣.
(٤٣٨) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٦٨١.
(٤٣٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٧٩).



المبحث الثامن

مرض رسول الله (ﷺ) ووفاته

إن الأرواح الشفافة الصافية القوية لتدرك بعض ما يكون مخبوءًا وراء حجب الغيب بقدرة الله (تعالى)، والقلوب الطاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزمان، والعقول الذكية المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات وتلميحات ولنبينا محمد(ﷺ) من هذه الصفات الحظ الأوفر، وهو منها بالمحل الأرفع الذي لا يسامى ولا يطاول[٤٤٠].

ولقد جاءت بعض الآيات القرآنية مؤكدة على حقيقة بشرية النبي(ﷺ)، وأنه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ويعاني سكراته كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء ولقد فهم (ﷺ) من بعض الآيات اقتراب أجله، وقد أشار(ﷺ) في طائفة من الأحاديث الصحيحة إلى اقتراب وفاته، منها ما هو صريح الدلالة على الوفاة ومنها ما ليس كذلك، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الآحاد من كبار الصحابة الأجلاء كأبي بكر والعباس ومعاذ رضي الله عنهم[٤٤١].

أولاً: الآيات والأحاديث التي أشارت إلى وفاته (ﷺ):

١- الآيات:

أ- قال (تعالى): ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾(آل عمران: ١٤٤).

قال القرطبي: فأعلم الله (تعالى) في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدًا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل، وإن فقد الرسل بموت أو قتل[٤٤٢].

ب- قال (تعالى): ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ (الزمر: ٣٠).

قال ابن كثير: هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول (ﷺ) حتى تحقق الناس موته[٤٤٣].

جـ- قال (تعالى): ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾ (سورة الأنبياء، آية: ٣٤) ثم أعقب ذلك ببيان أن الموت حتم لازم وقدر سابق فقال (عز وجل): ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء:

---

(٤٤٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٨٧).

(٤٤١) انظر: مرض النبي ووفاته، خالد أبو صالح ص(٣٣).

(٤٤٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

(٤٤٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣).

٣٥). فهذه الآيات صريحة ونصت على وفاته (ﷺ)، وهناك بعض الآيات أشارت إلى ذلك وإن لم تصرح منها:

د- قال (تعالى) : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (سورة الضحى، آية: ٤- ٥).

هـ- قال (تعالى) : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٢٦-٢٧) قال (تعالى): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).

فهذه الآيات تبين أن جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنة الله في موت خلقه لن يتخلف عنهم أحدًا أبدًا.

و- قال (تعالى): ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة، آية: ٣).

وقد بكى عمر بن الخطاب حين نزلت الآية فقيل ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان!! وكأنه استشعر وفاة النبي (ﷺ)[٤٤٤].

ز- قال (تعالى): ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(سورة النصر، آية: ١- ٣).

فقد سأل عمرُ ابنَ عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

فقال: أجل رسول الله (ﷺ) أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٤٤٥]، وفي رواية الطبراني قال ابن عباس: نعيت إلى رسول الله (ﷺ) نفسه حين نزلت فأخذ بأشد ما كان قط اجتهادًا في أمر الآخرة[٤٤٦].

٢- أما الأحاديث التي أشارت إلى ذلك:

أ- قالت عائشة رضي الله عنها: اجتمع نساء رسول الله (ﷺ) عنده، لم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها فقال: مرحبًا يا بنيتي، فأقعدها يمينه أو شماله، ثم سارّها فبكت، ثم سارّها فضحكت. فقلت لها: خصك رسول الله بالسِّرار وأنت تبكين؟ فلما أن قامت قلت لها: أخبريني ما سارّك؟ فقالت: ماكنت لأفشي سرّ رسول الله (ﷺ) فلما توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتيني. قالت: أما الآن فنعم، قالت: سارّني في الأول قال لي: «**إن جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة، وقد عارضني في هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري، فنعم السلف أنا لك**»، فبكيت ثم سارني فقال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو**

(٤٤٤) انظر: البداية والنهاية (٥/١٨٩).

(٤٤٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٣٠).

(٤٤٦) مجمع الزوائد (٩/٢٦) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحد أسانيده رجاله ثقات.

سيدة نساء هذه الأمة؟ فضحكت»[٤٤٧] .

وفي هذا الحديث دليل قاطع وإشارة واضحة إلى اقتراب أجل رسول الله (ﷺ)، وأن ساعة الفراق قد باتت قريبة إلا أن النبي (ﷺ) قد اختص ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله (ﷺ)[٤٤٨] .

ب- قال جابر رضي الله عنه: رأيت النبي (ﷺ) يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: **«لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحُج بعد حجتي هذه»**[٤٤٩] .

قال النووي: فيه إشارة إلى توديعهم وإعلامهم بقرب وفاته (ﷺ)، وحثهم على الاعتناء بالأخذ عنه وانتهاز الفرصة من ملازمته وتعلم أمور الدين، وبهذا سميت حجة الوداع[٤٥٠] .

وقال ابن رجب: وما زال (ﷺ) يعرض باقتراب أجله في آخر عمره، فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: **«خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»**، فطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع[٤٥١] .

جـ- قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: خطب رسول الله (ﷺ) للناس وقال: **«إن الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ذلك العبد ما عند الله»** . قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله (ﷺ) عن عبد خير، فكان رسول الله (ﷺ) هو المخيَّر وكان أبو بكر أعلمنا[٤٥٢] .

قال الحافظ ابن حجر: وكأن أبا بكر رضي الله عنه فهم الرمز الذي أشار به النبي (ﷺ) من قرينة ذكره ذلك في مرض موته فاستشعر منه أنه أراد نفسه، فلذلك بكى[٤٥٣] .

د- قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: رأيت في المنام كأن الأرض تنزع إلى السماء[٤٥٤] بأشطان[٤٥٥] شداد فقصصت ذلك على النبي (ﷺ) فقال: **«ذاك وفاة ابن أخيك»**[٤٥٦] . وفي هذا الحديث إخبار النبي (ﷺ) بقرب وفاته، وفيه صدق رؤيا المؤمن، واستشعار بعض الصحابة وفاته عليه الصلاة والسلام[٤٥٧] .

هـ- وعن معاذ أن النبي (ﷺ) لما بعثه إلى اليمن خرج راكبًا والنبي (ﷺ) يمشي تحت

---

(٤٤٧) البخاري، كتاب الاستئذان رقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦).
(٤٤٨) انظر: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته ص(٣٥) .
(٤٤٩) مسلم، كتاب الحج، رقم (١٢٩٧) .
(٤٥٠) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ٤٥) .
(٤٥١) انظر: لطائف المعارف ص(١٠٥) .
(٤٥٢) البخاري، كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٦٥٤) .
(٤٥٣) فتح الباري (٧/ ١٦) .
(٤٥٤) تنزع إلى السماء: أي تجذب . وأصل النزع: الجذب والقلع .
(٤٥٥) بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن وهو الحبل .
(٤٥٦) البزار (١/ ٣٩٧)؛ كشف الأستار رقم (٨٤٤)؛ مجمع الزوائد (٩/ ٢٤) رجاله ثقات .
(٤٥٧) انظر: مرض النبي ووفاته ص(٣٧) .

راحلته فقال: «**يا معاذ عسى إنك ألا تلقاني بعد عامي هذا، فتمرّ بقبري ومسجدي**» فبكى معاذ لفراقه (ﷺ). فقال: «**لا تبك يا معاذ فإن البكاء من الشيطان**»(٤٥٨). وفي الحديث إخبار النبي (ﷺ) معاذ بن جبل باقتراب أجله، وأنه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا، وفيه شدة محبة الصحابة للنبي (ﷺ) وبكائهم إذا ذكروا فراقه(٤٥٩).

ثانيًا: مرض الرسول (ﷺ):

١- بدء الشكوى:

رجع رسول الله (ﷺ) من حجة الوداع في ذي الحجة، فأقام بالمدينة بقيته والمحرم وصفرًا، من العام العاشر فبدأ بتجهيز جيش أسامة وأمّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلم البعض في تأميره وهو مولى وصغير السن على كبار المهاجرين والأنصار، فلم يقبل الرسول (ﷺ) طعنهم في إمارة أسامة(٤٦٠)، فقال (ﷺ): «**إن يطعنوا في إمارته فقد طعنوا في إمارة أبيه وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحبّ الناس إليّ وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إليّ بعده**»(٤٦١)، وبينما الناس يستعدون للجهاد في جيش أسامة ابتدئ رسول الله (ﷺ) شكواه الذي قبضه الله فيه، وقد حدثت حوادث ما بين مرضه ووفاته منها:

أ- النبي في البقيع وزيارته قتلى أحد وصلاته عليهم:

عن أبي مويهبة مولى رسول الله (ﷺ) قال: بعثني رسول الله (ﷺ) من جوف الليل فقال: «**يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي**»، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: «**السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شرٌ من الأولى**»(٤٦٢) ثم أقبل عليّ فقال: «**يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة**». قال: فقلت: بأبي أنت وأمي خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: «**لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة**». ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله (ﷺ) وجعه الذي قبضه الله فيه(٢٦٣)، ومن حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: إن رسول الله (ﷺ) صلى على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء، والأموات، ثم طلع المنبر، فقال: «**إني بين أيديكم**

---

(٤٥٨) مجمع الزوائد (٩/ ٢٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٤٩٧ .

(٤٥٩) انظر: مرض النبي ووفاته ص٣٨ .

(٤٦٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٢) .

(٤٦١) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي (٤/ ٢١٣) .

(٤٦٢) أي الفتن الآخرة .

(٤٦٣) الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٥، ٥٦)، صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي .

فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه وأنا في مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها». فقال عقبة: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله (ﷺ)[٤٦٤].

ب- استئذانه (ﷺ) أن يمرَّض في بيت عائشة وشدة المرض الذي نزل به:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما ثقل رسول الله (ﷺ) واشتد وجعه استأذن أزواجه في أن يُمرَّض في بيتي، فأذنَّ له فخرج وهو بين رجلين، تخطُّ رجلاه في الأرض، بين عباس ورجل آخر[٤٦٥]، ولما دخل بيتي اشتد وجعه. قال: «**أهريقوا عليّ من سبع قرب لم تُحلل أوكيتهن**[٤٦٦]، **لعلي أعهد إلى الناس**»، فأجلسناه في مخضَب[٤٦٧] لحفصة، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم[٤٦٨]، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله (ﷺ)[٤٦٩]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: دخلت على رسول الله (ﷺ) وهو يوعك فمسسته بيدي. فقلت: يا رسول الله! إنك لتوعك وعكًا شديدًا، فقال رسول الله (ﷺ): «**أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**» قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين: فقال رسول الله (ﷺ): «**أجل**» ثم قال رسول الله (ﷺ): «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**»[٤٧٠].

ثالثا: من وصايا رسول الله في أيامه الأخيرة:

١- وصيته (ﷺ) بالأنصار:

مرّ العباس رضي الله عنه بقوم من الأنصار يبكون حين اشتد برسول الله (ﷺ) وجعه فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسنا من رسول الله (ﷺ)، فدخل العباس عليه (ﷺ) فأخبره فعَصَّب بعصابة دسماء[٤٧١]، أو قال: بحاشية برد، وخرج وصعد المنبر ولم يصعد بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي**[٤٧٢] **وعيبتي**[٤٧٣]، **وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم،**

---

(٤٦٤) البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد رقم (١٣٤٤).

(٤٦٥) قال ابن عباس: الرجل الآخر هو علي بن أبي طالب.

(٤٦٦) جمع الوكاء، وهو مايشدّ به رأس القربة.

(٤٦٧) مخضب: بكسر الميم وهي الإجانة التي تغسل فيها الثياب.

(٤٦٨) البخاري، كتاب الوضوء رقم (١٩٨).

(٤٦٩) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٦٩٥).

(٤٧٠) البخاري، كتاب المرض، باب شدة المرض رقم ٥٦٤٧.

(٤٧١) بعصابة دسماء: أي سوداء.

(٤٧٢) كرشي وعيبتي: أراد أنهم بطانته وموضع سره وأمانته، والذي يعتمد عليهم في أموره واستعار الكرش والعيبة لذلك.

(٤٧٣) العيبة: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده.

وتجاوزوا عن مسيئهم»[٤٧٤]، وفي الحديث شدة محبة الأنصار لرسول الله (ﷺ)، وبكاؤهم لمرضه وحرمانهم من مجلسه[٤٧٥].

٢- إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:

لقد ازدادت شدة المرض على رسول الله، بحيث كان يغمى عليه في اليوم الواحد مرات عديدة، ومع ذلك كله أحبّ (ﷺ) أن يفارق الدنيا وهو مطمئن على أمته أن تضل من بعده فأراد أن يكتب لهم كتابًا مفصلاً ليجتمعوا عليه ولا يتنازعوا فلما اختلفوا عنده (ﷺ) عدل عن كتابة ذلك الكتاب وأوصاهم بأمور ثلاثة ذكر الراوي منها اثنين:

* أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.
* وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم به[٤٧٦].

٣- النهي عن اتخاذ قبره مسجدًا:

كان من آخر ما تكلم به رسول الله (ﷺ) قوله: «**قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب**»[٤٧٧].

٤- إحسان الظن بالله:

قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول قبل موته بثلاث: «**أحسنوا الظن بالله (عز وجل)**»[٤٧٨].

٥- الوصية بالصلاة وما ملكت أيمانكم:

قال أنس رضي الله عنه: كانت وصية رسول الله (ﷺ) حين حضره الموت: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»، حتى جعل يغرغر بها في صدره، ولا يفيض بها لسانه[٤٧٩].

٦- لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا:

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كشف رسول الله (ﷺ) السِّتر، ورسول الله (ﷺ) معصوب في مرضه الذي مات فيه، فقال: «**اللهم بلغت**» -ثلاث مرات- **أنه لم يبق من مبشِّرات النبوة إلا الرؤيا، يراها العبد الصالح أو ترى له ألا وإني قد نهيت عن القراءة في الركوع والسجود، فإذا ركعتم فعظموا الله، وإذا سجدتم فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قَمِن**[٤٨٠]**، أن يستجاب لكم**»[٤٨١].

---

(٤٧٤) البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٩٩).
(٤٧٥) انظر: مرض النبي ووفاته ص(٦٥).
(٤٧٦) البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٣٠٣٥).
(٤٧٧) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٧١٢)؛ البخاري، كتاب الصلاة رقم(٤٣٥).
(٤٧٨) مسلم (٤/٢٢٠٨) كتاب الجنة رقم (٢٨٨٠).
(٤٧٩) سنن ابن ماجة، كتاب الوصايا (٢/ ٩٠٠، ٩٠١) رقم (٢٦٩٧).
(٤٨٠) قَمِن: أي جدير وحقيق. (٤٨١) مسلم (١/٣٤٨) كتاب الصلاة رقم (٢٠٧).

رابعاً: أبو بكر يصلي بالمسلمين:

ولما اشتد المرض بالنبي (ﷺ) وحضرت الصلاة، فأذن بلال قال النبي (ﷺ): «**مروا أبا بكر فليصلّ**»، فقيل: إن أبا بكر رجل أسيف[٤٨٢] إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «**إنكن صواحب يوسف**[٤٨٣]، **مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فخرج أبو بكر فوجد النبي (ﷺ) في نفسه خفّة فخرج يهادي بين رجلين، كأني أنظر إلى رجليه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي (ﷺ) أن مكانك ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه. قيل للأعمش: فكان النبي (ﷺ) يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر! فقال برأسه: نعم[٤٨٤].

خامساً: الساعات الأخيرة من حياة المصطفى:

١- كان أبو بكر يصلي بالمسلمين، حتى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوف في صلاة الفجر، كشف النبي (ﷺ) ستر الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوف أمام ربهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده، وكيف نشأت أمة تحافظ على الصلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيها وغيبته، وقد قرت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النجاح الذي لم يقدر لنبي أو داع قبله، واطمأن أن صلة هذه الأمة بهذا الدين وعبادة الله (تعالى) صلة دائمة، لا تقطعها وفاة نبيها، فملئ من السرور ما الله به عليم واستنار وجهه وهو منير[٤٨٥]، يقول الصحابة رضي الله عنهم: (كشف النبي (ﷺ) ستر حجرة عائشة ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظننا أن النبي (ﷺ) خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا أن أتموا صلاتكم، ودخل الحجرة، وأرخى الستر[٤٨٦] وانصرف بعض الصحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة - إحدى زوجتيه- وكانت تسكن بالسّنح[٤٨٧]، فركب على فرسه وذهب إلى منزله[٤٨٨].

٢- في الرفيق الأعلى:

واشتدت سكرات الموت بالنبي (ﷺ)، ودخل عليه أسامة بن زيد وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة، فعرف أنه يدعو له، وأخذت السيدة عائشة رسول الله وأوسدته إلى صدرها بين سحرها[٤٨٩] ونحرها، فدخل

---

(٤٨٢) أسيف: من الأسف وهو شدة الحزن والمراد أنه رقيق القلب .

(٤٨٣) والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف مافي الباطن .

(٤٨٤) البخاري، كتاب الأذان رقم (٧١٢) .

(٤٨٥) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٤٠١) .

(٤٨٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٤٨) .

(٤٨٧) السنح: خارج المدينة كان للصديق مال فيه وبيت .

(٤٨٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٩٣) .

(٤٨٩) السحر: الرئة . النحر: الثغرة التي في أسفل العنق .

عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده سواك، فجعل رسول الله ينظر إليه، فقالت عائشة: آخذه لك، فأشار برأسه نعم، فأخذته من أخيها ثم مضغته ولينته وناولته إياه فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك وكل ذلك وهو لا ينفك عن قوله: «**في الرفيق الأعلى**»[٤٩٠]، وكان (ﷺ) يدخل يده في ركوة ماء أو علبة فيها ماء، فيمسح بها وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله .. إن للموت سكرات**» ثم نصب يده فجعل يقول في الرفيق الأعلى . . حتى قبض ومالت يده[٤٩١]، وفي لفظ أن النبي (ﷺ) كان يقول: «**اللهم أعني على سكرات الموت**»[٤٩٢].

وفي رواية: أن عائشة سمعت النبي (ﷺ) وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند ظهره يقول: «**اللهم اغفر لي، وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى**»[٤٩٣].

وقد ورد أن فاطمة رضي الله عنها قالت: واكرب أباه. فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**». فلما مات قالت: يا أبتاه . . أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه . . جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه . . إلى جبريل ننعاه، فلما دفن (ﷺ) قالت لأنس: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله (ﷺ) التراب[٤٩٤].

٣- كيف فارق رسول الله الدنيا؟

فارق رسول الله (ﷺ) الدنيا وهو يحكم جزيرة العرب، ويرهبه ملوك الدنيا، ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم وما ترك عند موته دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا، ولا أمة، ولا شيئًا، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه وأرضًا جعلها صدقة[٤٩٥].

وتوفي (ﷺ) ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير[٤٩٦].

وكان ذلك يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ للهجرة بعد الزوال[٤٩٧] وله (ﷺ) ثلاث وستون سنة[٤٩٨]، وكان أشد الأيام سوادًا ووحشة ومصابا على المسلمين، ومحنة كبرى للبشرية، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس[٤٩٩].

يقول أنس رضي الله عنه: كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله (ﷺ) المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء[٥٠٠]، وبكت أم أيمن فقيل لها

(٤٩٠) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٣٧) .
(٤٩١) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٤٩) .
(٤٩٢) الترمذي، كتاب الجنائز رقم (٩٧٨) .
(٤٩٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٤٠) .
(٤٩٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٦٢) .
(٤٩٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٦١) .
(٤٩٦) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٤٠٣) .
(٤٩٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٢٣) .
(٤٩٨) مسلم، كتاب الفضائل (٤/ ١٨٢٥) .
(٤٩٩) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٤٠٤) .
(٥٠٠) الترمذي (٥/ ٥٤٩) رقم (٣٦١٨) .

ما يبكيك على النبي قالت: إني قد علمت أن رسول الله (ﷺ) سيموت ولكن إنما أبكي على الوحي الذي رفع عنا(٥٠١).

٤- هول الفاجعة وموقف أبي بكر منها:

قال ابن رجب: ولما توفي رسول الله (ﷺ) اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أعتُقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية(٥٠٢).

قال القرطبي مبينًا عظم هذه المصيبة وما ترتب عليها من أمور:

من أعظم المصائب المصيبة في الدين . . قال رسول الله (ﷺ): «**إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بي فإنها أعظم المصائب**»(٥٠٣)، وصدق رسول الله (ﷺ)، لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه(٥٠٤).

لقد أذهل نبأ الوفاة عمر رضي الله عنه فصار يتوعد وينذر من يزعم أن النبي مات ويقول: ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم، والله ليرجعنَّ رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات(٥٠٥).

ولما سمع أبو بكر الخبر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح، حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلّم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمّم رسول الله (ﷺ) وهو مُغشّى بثوب حبَرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمعَ الله عليه موتتين، أما الموتة التي عليك فقد متها(٥٠٦)، وخرج أبو بكر وعمر يتكلم فقال: اجلس يا عمر، وهو ماض في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في الناس خطيبًا بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أما بعد: فإن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ (سورة آل عمران، آية ١٤٤).

---

(٥٠١) مسلم (١٩٠٧/٤) .
(٥٠٢) انظر: لطائف المعارف ص(١١٤) .
(٥٠٣) انظر: السلسلة الصحيحة للألباني رقم (١١٠٦) .
(٥٠٤) انظر: تفسير القرطبي (١٧٦/٢) .
(٥٠٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٩٤) .
(٥٠٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٥٢) .

قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمت أن رسول الله (ﷺ) قد مات[٥٠٧].

قال القرطبي: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي (ﷺ) فظهرت شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله (ﷺ) منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنح[٥٠٨].

فرحم الله الصدِّيق الأكبر، كم من مصيبة درأها عن الأمة، وكم من فتنة كان المخرج على يديه، وكم من مشكلة ومعضلة كشفها بشهب الأدلة من القرآن والسنة، التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه، فاعرفوا للصديق حقه، واقدروا له قدره. وأحبوا حبيب رسول الله (ﷺ)، فحبه إيمان وبغضه نفاق[٥٠٩].

٥- بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسول الله (ﷺ) هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة، وشملهم منتظم، وعليهم أمير يتولى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله (ﷺ) ودفنه[٥١٠] والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدخول في عصر الخلفاء الراشدين إن شاء الله (تعالى).

٦- غسل رسول الله (ﷺ) وكفنه، والصلاة عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أرادوا غسل النبي (ﷺ) قالوا: ما ندري أنجرّده من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره فكلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو !! أن اغسلوا رسول الله (ﷺ) وعليه ثيابه، فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكون بالقميص دون أيديهم. قالت عائشة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه[٥١١].

وكفن (ﷺ) في ثلاثة أثواب سحولية، من ثياب سحول - بلدة باليمن- ليس فيها

---

(٥٠٧) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٥٤).

(٥٠٨) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

(٥٠٩) انظر: مرض النبي ووفاته ص(٢٤).

(٥١٠) انظر: السيرة النبوية للندوي ص(٤٠٦).

(٥١١) المستدرك للحاكم (٣/ ٥٩، ٦٠) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

قميص ولا عمامة[٥١٢]، وقد صلى عليه المسلمون قال ابن عباس: لما مات رسول الله (ﷺ) أدخل الرجال، فصلوا عليه بغير إمام أرسالاً، حتى فرغوا، ثم أدخل النساء فصلين عليه، ثم أدخل الصبيان فصلوا عليه ثم أدخل العبيد فصلوا عليه أرسالاً، لم يؤمهم على رسول الله (ﷺ) أحد[٥١٣].

قال ابن كثير: وهذا الصنيع، وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمهم أحد عليه، أمر مجمع عليه لا خلاف فيه[٥١٤].

٧- موقع دفنه وصفة قبره ومن باشر دفنه؟ ومتى دفن؟

اختلف المسلمون في موقع دفنه فقال بعضهم: يدفن عند المنبر، وقال آخرون: بالبقيع، وقال قائل: في مصلاه[٥١٥]، فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فحسم مادة هذا الخلاف أيضًا بما سمعه من رسول الله (ﷺ) قالت عائشة وابن عباس: لما قُبض رسول الله (ﷺ) وغسل اختلفوا في دفنه فقال أبو بكر: ما نسيتُ ما سمعت من رسول الله (ﷺ) يقول: «**ما قبض الله نبيًا إلا في الموضع الذي يجب أن يدفن فيه**»، ادفنوه في موضع فراشه[٥١٦]، وهذا الحديث وإن كان مختلف في صحته إلا أن دفن النبي (ﷺ) في موضعه الذي توفى فيه أمر مجمع عليه[٥١٧].

وقال ابن كثير: قد علم بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام دفن في حجرة عائشة التي كانت تختص بها، شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثم دفن فيها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما[٥١٨].

وقد لحد[٥١٩] قبر رسول الله (ﷺ)، وقد أجمع العلماء على أن اللحد والشق[٥٢٠] جائزان، لكن إذا كانت الأرض صلبة لا ينهار ترابها فاللحد أفضل، وإن كانت رخوة تنهار فالشق أفضل[٥٢١].

وقد قال الألباني (رحمه الله): ويجوز في القبر اللحد والشق لجريان العمل عليهما في عهد النبي (ﷺ)، ولكن الأول أفضل[٥٢٢]، لأن الله (تعالى) لا يختار لنبيه إلا

(٥١٢) انظر: مختصر سيرة الرسول ص٣٧؛ تهذيب الأسماء للنووي ص(٢٣)؛ مسلم (٢/ ٦٥٠) كتاب الجنائز رقم (٤٥).
(٥١٣) انظر: دلائل النبوة (٧/ ٢٥٠) وسنن ابن ماجة رقم (١٦٢٨) والحديث فيه ضعف.
(٥١٤) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٣٢).
(٥١٥) الموطأ رقم ٥٤٥؛ ابن سعد (٢/ ٢٩٣).
(٥١٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٧٢٧).
(٥١٧) انظر: مرض النبي ووفاته ص(١٦٠).
(٥١٨) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٣٨).
(٥١٩) اللحد: الشق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت.
(٥٢٠) والشق: أي يحفر في وسط الأرض.
(٥٢١) انظر: المجموع للنووي (٥/ ٢٨٧).
(٥٢٢) انظر: أحكام الجنائز ص(١٤٤).

الأفضل[٥٢٣]، وأما صفة قبره فقد كان مُسَنَّمًا[٥٢٤]، أي مرتفعًا وذهب جمهور العلماء إلى أن المستحب في بناء القبور هو التسنيم وأنه أفضل من التسطيح[٥٢٥] وفي المسألة خلاف طويل ليس هذا محله وقد قرب ابن القيم (رحمه الله) بين المذهبين فقال: وكانت قبور أصحابه لامشرفة، ولا لائطة، وهكذا كان قبره الكريم، وقبر صاحبيه، فقبره (ﷺ) مُسَنَّم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء، لا مبني ولا مطين، وهكذا قبر صاحبيه[٥٢٦]، وقد كان قبره (ﷺ) مرتفعًا قليلاً عن سطح الأرض[٥٢٧].

وأما الذين باشروا دفنه (ﷺ) قال ابن إسحاق: وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله (ﷺ) علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقُثَم بن عباس، وشقران مولى رسول الله (ﷺ)[٥٢٨]، وزاد النووي[٥٢٩]، والمقدسي[٥٣٠]: العباس، قال النووي: ويقال: كان أسامة ابن زيد وأوس بن خَوْلي[٥٣١] معهم. ودفن في اللحد، وبنى عليه (ﷺ) في لحده اللَّبِن، يقال: إنها تسع لبنات، ثم أهالوا التراب[٥٣٢] وأما وقت دفنه، فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه دفن ليلة الأربعاء قال ابن كثير: والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنه عليه السلام توفي يوم الإثنين ودفن ليلة الأربعاء[٥٣٣].

لقد كان لوفاة رسول الله (ﷺ) أثر على الصحابة الكرام فقد قال أنس رضي الله عنه: . . . وما نفضنا عن النبي (ﷺ) الأيدي - إنا لفي دفنه- حتى أنكرنا قلوبنا[٥٣٤].

سادسًا: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرسول (ﷺ):

١- ما قاله حسان رضي الله عنه في موت رسول الله:

لقد نافح حسان بن ثابت عن رسول الله (ﷺ) في حياته، ودافع عن الإسلام والمسلمين بقصائده الرائعة التي هزت عرب الجزيرة وفعلت فيهم الأفاعيل، ولقد تأثر بموت حبيبنا (ﷺ) فرثاه بقصائد مبكية حزينة، حفظها لنا التاريخ ولم تهملها الليالي ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون فمما قاله:

يبكي رسول الله (ﷺ):

مَا بالُ عينك لا تنام كأنها ... كُحلَتْ مآقيها[٥٣٦] بكُحْلِ الأرْمَد[٥٣٧]

جزعًا على المهدي أصبح ثاويًا ... يا خير من وطئ الحصَى لا تبعَد

وجهي يقيك التراب ليتني ... غُيِّبْتُ قبلك في بقيع الغرقد[٥٣٨]

(٥٢٣) انظر: مرض النبي ووفاته ص(١٦٠) وقد استفدت من هذا الكتاب فائدة كبرى في مبحث مرض ووفاة الرسول.
(٥٢٤) البخاري، كتاب الجنائز رقم (١٣٩٠).
(٥٢٥) انظر: مرض النبي ووفاته ص(١٦٤).
(٥٢٦) انظر: زاد المعاد (١/ ٥٢٤).
(٥٢٧) انظر: تهذيب السنن لابن القيم (٤/ ٣٣٨).
(٥٢٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٢١).

بأبي وأمي من شهدت وفاته … في يوم الإثنين النبيُّ المهتدي
فَظَلْتُ بعد وفاته متبلداً … متَلَدِّداً[٥٣٩] ياليتني لم أولد
أأُقيمُ بعدك بالمدينة بينهم … يا ليتني صُبِّحْتُ[٥٤٠] سَمَّ الأسود[٥٤١]
أو حلَّ أمر الله فينا عاجلاً … في روحة من يومنا أو في غد
فتقوم ساعتُنا فنلقى طيِّبًا … محضًا ضرائبه[٥٤٢] كريم المحتد[٥٤٣]
يا بكر آمنةَ المبارك بكرُها … ولدته مُحْصَنَةً بسعد الأسعدُ
نورًا أضاء على البرية كلِّها … من يهد للنور المبارك يهتدي
يا ربُّ فاجمعنا معًا ونبينا … في جنة تُثنى[٥٤٤] عيون الحُسَّد
في جنة الفردوس فاكتبها لنا … يا ذا الجلال وذا العلا والسؤدد
والله أسمع ما بقيت بهالك … إلا بكيت على النبي محمد
يا ويح أنصار النبي ورهطه … بعد المغيب في سواء المَلْحد[٥٤٥]
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا … سودًا وجوههم كلون الإثمدَ[٥٤٦]
ولقد ولدناه[٥٤٧] وفينا قبره … وفضولُ نعمته بنا لم تجْحَد
والله أكرمنا بِه وهدى به … أنصاره في كل ساعة مشهد
صلى الإله ومن يحفُّ بعرشه … والطيبون على المبارك أحمد[٥٤٨]

---

(٥٢٩) انظر: تهذيب الأسماء ص(٢٣) .
(٥٣٠) انظر: مختصر السيرة ص(٣٥) .
(٥٣١) انظر: مرض النبي ووفاته ص(١٧٣) .
(٥٣٢) انظر: تهذيب الأسماء للنووي ص(٢٣) .
(٥٣٣) انظر: البداية والنهاية (٥/٢٣٧)؛ صحيح السيرة النبوية ص(٧٢٨) .
(٥٣٥) انظر: صحيح السيرة النبوية ص(٧٢٩) .
(٥٣٦) المآقي: جمع مأق ومؤق وهي مجاري الدمع من العين .
(٥٣٧) الأرمد: الذي يشتكي وجع العين .
(٥٣٨) بقيع الغرقد: المكان الذي يدفن فيه أهل المدينة موتاهم .
(٥٣٩) متلدد: متحير .
(٥٤٠) صبحت: سقيت صبحًا .
(٥٤١) الأسود: ضرب من الحيات .
(٥٤٢) الضرائب: الطبائع .
(٥٤٣) المحتد: الأصل .
(٥٤٤) تثني عيون الحُسَّد: تصرفها وتدفعها .
(٥٤٥) سواء الملحد: وسطه .
(٥٤٦) الأثمد: كحل أسود .
(٥٤٧) أي بني النجار أخوال النبي (ﷺ) من قبل آبائه .
(٥٤٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٣٢٨)

وقال أيضًا:

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثلَ الرسول نبي الأمة الهادي
ولا يرى الله خلقًا من بريته ... أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذي كان فينا يستضاء به ... مبارك الأمر ذا عَدل وإرشادَ(٥٤٩)

إلى أن قال:

٢- ومما قاله أبو بكر الصديق يبكي النبي (ﷺ):

لما رأيت نبينا متجندلا ... ضاقت عليّ بعرضهن الدور
فارتاع قلبي عند ذاك لموته ... والعظم مني ما حييت كسير
أعتيق ويحك!!! إن خلَّك قد ثوى ... والصبر عندك ما بقيت يسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي ... غُيِّبتُ في لحد عليه صخور
فلتحدُثَنّ بدائع من بعده ... تعيا لهن جوَّانح وصدور(٥٥٠)

٣- وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم يبكي رسول الله (ﷺ):

أرقتُ فبات ليلي لا يزول ... وليلُ أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتُنا وجَلَّت ... عشية قيل: قد قبض الرسولُ
وأضحت أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميلُ
فقدنا الوحي والتنزيل فينا ... يروح به ويغدو جبرائيلُ
وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوسُ الناس أو كادت تسيلُ
نبيٌّ كان يجلو الشكّ عنَّا ... بما يُوحَى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ملامًا ... علينا والرسول لنا دليل
أفاطمُ إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعي فهو السبيل
فقبرُ أبيكِ سيدُ كلِّ قبر ... وفيه سيد الناس الرسول(٥٥١)

---

(٥٤٩) الصادي: العاطش، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٢٩).
(٥٥٠) انظر: المستطرف للأبشيهي ص٣٦٦؛ ديوان أبي بكر الصديق، طبع حديثًا حققه وشرحه راجي الأسمر ص٣٢، ٣٣.
(٥٥١) انظر: الاكتفاء للكلاعي (٢/ ٤٥٦).

٤- وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي رسول الله (ﷺ) :

ألا يا رسـول الله كنت رجـاءنا … وكنت بنا برًا ولم تك جـافيـا
وكنت رحـيـمـا هاديًا ومـعلِّمًا … ليـبك عـليك اليـوم من كـان باكـيا
لعـمـرك ما أبكي النبي لفـقـده … ولكن لما أخشى من الهرج(٥٥٢) آتيـا
كـأن على قلبي لذكـرِ محـمـد … ومـا خـفت من بعـد النبي المكاويا
أفـاطـم صلى الله ربُّ محـمـد … على جـدث أمـسى بيـثـرب ثاويا
فـدىً لرسـول الله أمي وخـالتي … وعـمـي وآبائي ونـفـسي ومـاليـا
صَـدقتَ وبلغتَ الرسالة صـادقًا … ومتّ صليبَ العـود أبلج صـافيـا
فلو أن ربَّ النـاس أبقى نبـيـنا … سـعـدنا ولكن أمـره كـان مـاضيـا
عليك من الله السـلام تحـيـةً … وأُدخلت جنات من العدن راضيا(٥٥٣)

●●●

(٥٥٢) الهرج والفتن .
(٥٥٣) انظر : تفسير القرطبي (٤/ ٢١٩، ٢٢٠) .

الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب فيما يتعلق «بالسيرة النبوية دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة» فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فاستغفر الله (تعالى) وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصًا ألا أقع في الخطأ وعسى ألا أُحرم من الأجر.

وأدعو الله (تعالى) أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرأه في دعائه فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله (تعالى) وأختم هذا الكتاب بقول الله (تعالى): ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الحشر: ١٠).

ويقول الشاعر:

إلهي أنت للإحسان أهلُ ... ومنك الجود والفضل الجزيل
إلهي بات قلبي في هموم ... وحالي لا يُسَرّ به خليل
إلهي تُبْ وجُدْ وارحمْ عُبيدًا ... من الأوزار مدمعُهُ يسيل
إلهي ثوبُ جسمي دنّسته ... ذنوبٌ حملها أبدًا ثقيل
إلهي جُدْ بعفوك لي فإني ... على الأبواب منكسرٌ ذليل
إلهي خانني جلدي وصبري ... وجاء الشيب واقترب الرحيل
إلهي داوني بدواء عفو ... به يُشفي فؤادي والغليل
إلهي ذاب قلبي من ذنوبي ... ومن فعل القبيح أنا القتيل
إلهي قلت ادعوني أجبْكم ... فهاك العبد يدعو يا وكيل
إلهي هذه الأوقاتَ تمضي ... بأعمار لنا وبها تزول

وبقول الشاعر:

اطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخير على أهل الكسل
احتفل للفقه في الدين ولا ... تشتغل عنه بمال وخَوَلْ
واهجر النوم وحصله فمن ... يعرف المطلوب يحقر ما بذل
لا تقل قد ذهبت أربابه ... كل من سار على الدرب وصل

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك

المصادر والمراجع

(أ)

١- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دراسة مقارنة، دار الفكر، الطبعة الثالثة،(١٤٠١هـ-١٩٨١م).

٢- آثار تطبيق الشريعة، د. محمد عبد الله الزاحم. دار المنار، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ- ١٩٩١م).

٣- آفات على الطريق، محمد سيد نوح، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط: الخامسة، (١٤٠٠هـ- ١٩٩٠م).

٤- أسد الغابة في معرفة الصحابة، علي بن أبي الكرام بن الأثير.

٥- الأم، محمد إدريس الشافعي سنة (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م)، طبعة دار الفكر بيروت- لبنان.

٦- الإتقان في علوم القرآن عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت- لبنان، بدون تاريخ.

٧- الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب، د. فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي، عمان، الطبعة الثانية (١٤١٨هـ- ١٩٩٨م).

٨- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة مصر.

٩- الاعتصام للإمام الشاطبي، دار الفكر، الناشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

١٠- الإعلام في صدر الإسلام، د. عبد اللطيف حمزة، دار الفكر.

١١- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، للشيخ أحمد بن علي المقريزي، صححه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة (١٩٤١م).

١٢- الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، صالح الرفاعي، دار الخضيري، المدينة، الطبعة الثالثة (١٤١٨هـ).

١٣- أحكام الجنائز وبدعها للألباني -المكتب الإسلامي- بيروت.

١٤- أحكام السوق في الإسلام، أحمد الدريويش، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

١٥- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، (ط١/١٤٠٨هـ). دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦- الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.

١٧- الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية، محمد محمد الجوهري.

١٨- الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية، سعيد حوى، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

١٩- الأساس في السنة، سعيد حوى، دار السلام، مصر.

٢٠- أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، د. الحسين جرنو محمود جلو، مؤسسة الرسالة، دار العلوم الإنسانية، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م).

٢١- أسباب النزول للواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م).

٢٢- أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا سيلا، سلسلة الحكمة البريطانية، الطبعة الأولى. (١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م).

٢٣- الاستخبارات العسكرية في الإسلام، عبد الله علي السلامة مناصرة مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، الطبعة الثانية، (١٤١٢- ١٩٩١م).

٢٤- الإسلام في خندق، مصطفى محمود، دار أخبار اليوم القاهرة، مصر، (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م).

٢٥- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، التجاني عبد القادر حامد، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ- ١٩٩٥م)، عمان -الأردن، دار النشر.

٢٦- أضواء على الهجرة، توفيق محمد سبع، مطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م).

٢٧- إعلام النبوة للماوردي، الكليات الأزهرية.

٢٨- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة أولى، (١٤٠٨هـ- ١٩٩٨م).

٢٩- الاكتفاء بما تضمنه مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء، تأليف أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، علم الكتب، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ- ١٩٩٧م).

٣٠- الأموال لأبي عبيد، أبو عبيد القاسم بن سلام، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت.

٣١- الانحرافات العقدية والعلمية، علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة، الطبعة الثانية، (١٤١٨هـ- ١٩٩٨م).

٣٢- أنساب الأشراف للبلاذري، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف.

٣٣- الأنساب للسمعاني، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند (١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م).

٣٤- الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي

اليماني، نشر مجلس دائرة المعارف- الهند.

٣٥- أهمية الجهاد في نشر الدعوة، د. علي العلياني، دار طيبة، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

٣٦- الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة العاشرة، (١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م).

(ب)

٣٧-البحر الرائق في الزهد والرقائق، أحمد فريد، دار البخاري، القصيم بالسعودية، الطبعة الأولى (١٤١١هـ- ١٩٩١م).

٣٨- بدائع السالك في طبائع الملك، أبو عبد الله بن الأزرق تحقيق وتعليق علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية.

٣٩- البداية والنهاية، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، دار الريان للتراث.

٤٠- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الآلوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية.

٤١- بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق رمضان، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

٤٢- بهجة المحافل وبغية الأماثل في تخليص المعجزات والسير والشمائل، شرح جمال الدين محمد الأشخر اليمني، دار صادر - بيروت.

(ت)

٤٣- تأملات في سورة الكهف للشيخ أبو الحسن الندوي، دار القلم.

٤٤- تأملات في سيرة الرسول (ﷺ) د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م).

٤٥- تاريخ الإسلام للذهبي المغازي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م).

٤٦- التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

٤٧- التاريخ السياسي والحضاري، د. السيد عبد العزيز سالم.

٤٨- التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول (ﷺ)، استراتيجية الرسول السياسة والعسكرية، د. علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م).

٤٩- تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان- بيروت.

٥٠- تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، طبعة القاهرة (١٩٢٧م).

٥١- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف- ١٩٦٧م).

٥٢- تاريخ دولة الإسلام الأولى، فايد حماد عاشور، سليمان أبو عزب، دار قطري ابن الفجاءة، الدوحة، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

٥٣- تاريخ صدر الإسلام عبد الرحمن عبد الولي شجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ- ١٩٩٩م).

٥٤- التحالف السياسي في الإسلام، منير محمد الغضبان، دار السلام، الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).

٥٥- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور- دار الكتب الشرقية تونس.

٥٦- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري، مطبعة الاعتماد، نشر محمد عبد المحسن الكتبي، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان.

٥٧- تحفة الأشراف، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي، الدار القيمة.

٥٨- التربية القيادية، منير الغضبان، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ- ١٩٩٨م).

٥٩- تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لقاضي القضاة أبي السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا- الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض- مطبعة السعادة- القاهرة.

٦٠- تفسير ابن كثير، ابن كثير القرشي، دار الفكر ودار القلم، بيروت -لبنان، الطبعة الثانية.

٦١- تفسير الآلوسي، المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي (محمود الآلوسي البغدادي)، إدارة الطباعة المصطفائية بالهند، بدون ذكر سنة الطبع.

٦٢- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، الإمام أبو محمد الحسين الفراء البغوي الشافعي، دار المعرفة، بيروت -لبنان.

٦٣- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل تأليف الإمام ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي سنة الطبع (١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م) دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع.

٦٤- تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

٦٥- تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف، سنة الطبع (١٩٦٧م)، دار المعرفة.

٦٦- تفسير السعدي المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن ناصر السعدي، المؤسسة السعدية بالرياض، (١٩٧٧م).

٦٧- تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، (١٩٦٥م).

٦٨- تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، طبع دار الفكر -بيروت- الطبعة الثالثة.

٦٩- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت -لبنان.

٧٠- التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، (١٤١١هـ- ١٩٩١م). الطبعة الأولى.

٧١- تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل -تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمد النسفي، المتوفي سنة (٧١٠هـ). الناشر دار الكتاب العربي بيروت.

٧٢- تفسير ابن عطية المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق عطية الأندلسي، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ- ١٩٩١م).

٧٣- تفسير سورة فصلت .د. محمد صالح علي مصطفى، دار النفائس، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

٧٤- تلقيح فهوم أهل الأثر، لابن الجوزي، مكتبة الآداب، القاهرة، دون ذكر الطبعة.

٧٥- التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد حمد يوسف، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٧٦- تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، صالح أحمد العلي، مجلة المجتمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر، بغداد (١٩٦٩م).

٧٧- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار إحياء الكتب.

٧٨- تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

(ج)

٧٩- جامع الأصول، لابن الأثير (أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري) المتوفى سنة (٦٠٦هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، طبع مكتبة الحلواني سوريا- عام (١٣٩٢هـ).

٨٠- جامع العلوم والحكم، للإمام ابن رجب الحنبلي، دار الفكر، بيروت.

٨١- الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف بالرياض، (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).

٨٢- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد خير هيكل، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ- ١٩٩٣م)، دار البيارق، عمان- بيروت.

٨٣- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ، مطابع المجد.

٨٤- جوامع السير لابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، المتوفى (٤٥٦هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار إحياء السنة باكستان ١٣٦٨هـ.

٨٥- جيل النصر المنشود، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهية، القاهرة -مصر، الطبعة السادسة، (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

(ح)

٨٦- حاشية ابن عابدين، مطابع مصطفى البابي وأولاده.

٨٧- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار، عبد الرحمن بن علي محمد الشيباني بن الربيع، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري.

٨٨- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار، لابن الديبع الشيباني، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري.

٨٩- حديث القرآن في غزوات الرسول (ﷺ)،د. محمد بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى.

٩٠- الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول (ﷺ) في مكة، د. عبد الوهاب كحيل، عالم الكتب بيروت، الطبعة الأولي (١٤٠٦هـ- ١٩٩٧م).

٩١- الحركة السنوسية في ليبيا، علي محمد الصلابي، دار البيارق، عمان طبعة أولى (١٩٩٩م).

٩٢- حقوق النبي (ﷺ) على أمته، د. محمد بن خليفة التيمي، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

٩٣- الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ- ١٩٩٥م).

٩٤- الحكومة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي -ترجمة أحمد إدريس- المختار الإسلامي للطباعة والنشر -القاهرة- الطبعة الأولى، (١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م).

٩٥- حلية الأولياء، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة، مصر،

(١٣٥١هـ- ١٣٧٥م).

٩٦- حوار الرسول مع اليهود، د. محسن الناظر، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ -١٩٩٢م)، دار الوفاء.

(خ)

٩٧- خاتم النبيين (ﷺ)، للشيخ محمد أبي زهرة، الطبعة الأولى، (١٩٧٢م)، دار الفكر بيروت.

٩٨- الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

٩٩- الخصائص الكبرى، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية بيروت.

(د)

١٠٠- دائرة المعارف الكاثوليكية، مقال التثليث.

١٠١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت -لبنان.

١٠٢- دراسات في السيرة النبوية، د. عماد الدين خليل، الطبعة الحادية عشرة، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، دار النفائس بيروت.

١٠٣- دراسات في عهد النبوة، د. عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر المعاصر -صنعاء، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ- ١٩٩٩م).

١٠٤- دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة الخامسة، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

١٠٥- دراسة تحليلية لشخصية الرسول، د. محمد قلعجي، الطبعة الأولى، سنة (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، دار النفائس.

١٠٦- الدرر في اختصار المغازي والسير، يوسف بن عبد البر، وزارة الأوقاف بمصر، لجنة إحياء التراث، (١٤١٢هـ- ١٩٩٤م)، القاهرة.

١٠٧- دروس في الكتمان، محمد شيت خطاب، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة العاشرة. (١٩٨٨م).

١٠٨- دستور الأمة في القرآن والسنة، د. عبد الناصر العطار، مؤسسة علوم القرآن، الشارقة، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ- ١٩٩٣م).

١٠٩- الدعوة الإسلامية، عبد الغفار عزيز.

١١٠- دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. علي جريشة، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة

الأولى، (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

١١١- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ)، دار الكتب العلمية بيروت.

١١٢- دور المرأة في خدمة الحديث، آمال قرادش، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ) الدوحة قطر.

١١٣- دولة الرسول (ﷺ) من التكوين إلى التمكين، كامل سلامة الدقس، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ- ١٩٩٤م).

١١٤- الدولة العربية الإسلامية، منصور الحرابي، الطبعة الثانية، (١٩٨٣م)، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا.

١١٥- ديوان أبي بكر الصديق، حققه وشرحه راجي الأسمر، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م).

١١٦- ديوان شوقي، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، طبعة (١٩٨٧م).

١١٧- ديوان عنترة، فاروق الطباع، دار القلم، بيروت -لبنان،

(ر)

١١٨- الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية، أسامة عبد القادر.

١١٩- الرؤيا ضوابطها وتفسيرها، هشام الحمصي، دار الكلم الطيب، دمشق بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

١٢٠- رجال الإدارة في الدولة الإسلامية. د. حسين محمد سليمان، دار الإصلاح، الدمام بالسعودية.

١٢١- الرحيق المختوم، لطفي الدين عبد الرحمن المباركفوري، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م)، مؤسسة الرسالة -لبنان.

١٢٢- رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر، دار الحكمة دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

١٢٣- الرسول القائد، محمد شيت خطاب -الطبعة الثانية، سنة الطبع (١٩٦٠م)، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة بغداد.

١٢٤- الرسول المبلغ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق،الطبعة الأولى (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

١٢٥- الرسول المعلم وأساليبه في التعليم للشيخ عبد الفتاح أبي غدة، دار مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب - الأولى (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

١٢٦-روح المعاني (تفسير الآلوسي)، محمود الآلوسي البغدادي، دار الفكر، طبعة

(١٤٠٢هـ).

١٢٧- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة (١٣٨٧هـ).

(ز)

١٢٨- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي القرشي البغدادي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م).

١٢٩- زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بـ (ابن قيم الجوزية).

١٣٠- زاد اليقين لأبي شنب، لآشين أبو شنب، دار النشر، طنطا -مصر، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ- ١٩٩٣م).

١٣١- الزهد، أحمد بن حنبل، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).

١٣٢- زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن، صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

(س)

١٣٣- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد. لجنة إحياء التراث الإسلامي، (١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م).

١٣٤- السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، د. بريكك محمد بريكك، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

١٣٥- السفارات النبوية، د. محمد العقيلي، دار إحياء العلوم -بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

١٣٦- سفراء الرسول، محمد شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

١٣٧- سنن أبي داود: الإمام أبو داود سليمان السجستاني، تحقيق وتعليق عزت الدعاس، (١٣٩١هـ)، سوريا.

١٣٨- سنن ابن ماجه: الحافظ أبو عبد الله محمد بن زيد القزويني، دار الفكر.

١٣٩- سنن الترمذي: الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر، (١٣٩٨هـ).

١٤٠- سنن النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مطبعة مصطفى الحلبي. القاهرة، (١٩٦٤م).

١٤١- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ).

١٤٢- السير والمغازي لابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، طبعة الأولى (١٩٧٨م).

١٤٣- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة.

١٤٤- سيرة الرسول (ﷺ)، صور مقتبسة من القرآن الكريم -تأليف الأستاذ محمد عزة دروزة، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري، طبعة على نفقته خليفة حمد آل ثاني- حاكم قطر، المؤتمر العالمي للسيرة النبوية (١٤٠٠هـ) الدوحة.

١٤٥- السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة.

١٤٦- السيرة النبوية دراسة وتحليل، محمد أبو فارس، دار الفرقان الطبعة الأولى (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م)، عمان.

١٤٧- السيرة النبوية، للذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة هلال بيروت.

١٤٨- السيرة النبوية الصحيحة، د، أكرم العمري، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م) مكتبة المعارف والحكم بالمدينة المنورة.

١٤٩- السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).

١٥٠- السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

١٥١- السيرة النبوية في دور القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

١٥٢- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله زحمد، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.

١٥٣- السيرة النبوية لأبي حاتم البستي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

١٥٤- السيرة النبوية لابن هشام، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر، بدون تاريخ.

١٥٥- السيرة النبوية، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ)، دار الفكر بيروت -لبنان.

١٥٦- السيرة النبوية، لمحمد الصوياني، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ-

١٩٩٩م).

(ش)

١٥٧- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٨- شرح السنة للبغوي لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (١٩٦٥م)، القاهرة.

١٥٩- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، تحقيق وتعليق وتخريج أحاديث وتقديم د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط. ط٤، (١٤١٢هـ-١٩٩٢م)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٦٠- شرح المعالقات للحسن الزوزني، تحقيق يوسف على بدوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ- ١٩٨٩م).

١٦١- شرح المواهب اللدنية للقسطلاني، لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار المعرفة بيروت.

١٦٢- شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي (أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف)، المتوفي (٦٧٦هـ) طبع المطبعة المصرية ومكتبتها -القاهرة- عام (١٣٤٩هـ).

١٦٣- شرح رسالة التعاليم، محمد عبد الله الخطيب، دار الوافاء.

١٦٤- الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، الإمام القاضي عياض، استانبول، عثمانية.

(ص)

١٦٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

١٦٦- الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري، تأليف محمد علي كابتي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ- ١٩٩٩م).

١٦٧- صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى (١٤١١هـ- ١٩٩١م).

١٦٨- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الألباني، الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، المكتب الإسلامي، بيروت -لبنان.

١٦٩- صحيح السيرة النبوية للطرهوي، محمد رزق، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ).

١٧٠- صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، دار النفائس، الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ-

١٩٨٨م).

١٧١- صحيح سنن ابن ماجه: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).

١٧٢- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى، (١٣٤٧هـ- ١٩٢٩م).

١٧٣- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، الطبعة الثانية، (١٩٧٢م).

١٧٤- الصراع مع الصليبين لأبي فارس، محمد عبد القادر أبو فارس، دار البشير، طنطا طبعة عام (١٤١٩هـ- ١٩٩٩م).

١٧٥- الصراع مع اليهود، محمد أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الأولى (١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

١٧٦- صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق: محمود خوري، ومحمد رواسي قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ).

١٧٧- صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ- ١٩٩١م).

١٧٨- صفوة التفاسير للصابوني، محمد علي محمد جميل، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى -عام (١٤٠١هـ).

١٧٩- صلاح الدين الأيوبي، عبد الله علوان.

١٨٠- صلح الحديبية، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، الطبعة، الثالثة (١٩٧٣م- ١٣٩٣هـ).

١٨١- صور من حياة الرسول، أمين دويدار، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

١٨٢- صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، تأليف: د. محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة، الأولى (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م).

(ض)

١٨٣- ضوابط المصلحة، محمد رمضان سعيد البوطي، ط(٤)، سنة (١٤٠٢هـ)، مؤسسة الرسالة.

(ط)

١٨٤- الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع، محمد بن العثمين، غزوة أحد.

١٨٥- طبقات الشعراء الجاهلين والإسلاميين، بدون معلومات نشر، أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي.

١٨٦- طبقات ابن سعد الكبرى، محمد بن سعد الزهري، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، (١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م).

١٨٧- طريق النبوة والرسالة، د. حسين مؤنس، دار الرشاد، الطبعة، الثانية (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

١٨٨- الطريق إلى المدائن، عاد كمال، دار النفائس، الطبعة، الخامسة (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م)، بيروت -لبنان.

١٨٩- الطريق إلى المدينة، محمد العبدة، دار الجوهرة، عمان، الطبعة، الثانية (١٩٩٩م).

١٩٠- الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن بن علي جابر، الطبعة، الخامسة (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م)، دار الوفاء بالمنصورة في مصر.

(ظ)

١٩١- ظاهرة الإرجاء، سفر الحوالي، مكتبة الطيب، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ)، القاهرة -مصر.

(ع)

١٩٢- العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية عشر، (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

١٩٣- عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة، الثانية (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م).

١٩٤- العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، محمد فرج ط الثالثة، سنة (١٩٧٧م)، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٩٥- عقيدة أهل السنة في الصحابة د. ناصر حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ- ١٩٩٣م).

١٩٦- علاج القرآن الكريم للجريمة د. عبد الله الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ).

١٩٧- العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد عبد الله حارب المهري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ- ١٩٩٥م).

١٩٨- علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية د. سعاد الصالح، الناشر تهامة جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

١٩٩- عمدة القارئ، شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني.

٢٠٠- العهد والميثاق في القرآن الكريم د. ناصر العمري، دار العاصمة، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ).

٢٠١- عون المعبود، شرح سنن أبي داود، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر بيروت.

٢٠٢- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت.

(غ)

٢٠٣- الغرباء الأولون، سلمان العودة، الطبعة الثالثة، عام (١٤١٢هـ- ١٩٩١م)، دار ابن الجوزي، الدمام السعودية.

٢٠٤- غزوة أحد أحمد عز الدين.

٢٠٥- غزوة أحد دراسة دعوية، محمد عذظة بن سعيد بن مذجح، دار إشبيليا، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).

٢٠٦- غزوة أحد لأبي فارس، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م).

٢٠٧- غزوة الأحزاب لأبي فارس، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م)

٢٠٨- غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، الطبعة الخامسة (١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م).

٢٠٩- غزوة بدر الكبرى الحاسمة، محمد خطاب.

٢١٠- غزوة بدر الكبرى، محمد أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م).

٢١١- غزوة بدر الكبرى، محمد أحمد باشميل، طبعة دار الفكر، الطبعة السادسة (١٩٩٧م).

٢١٢- غزوة تبوك، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، بيروت.

(ف)

٢١٣- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت -لبنان.

٢١٤- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الشهاب، القاهرة، بدون تاريخ.

٢١٥- الفتح الرباني، للساعاتي، أحمد عبد الرحمن الساعاتي، في ترتيب مسند الإمام أحمد، أحمد عبد الرحمن الساعاتي، مطبعة الفتح الرباني بالقاهرة، الطبعة الأولى.

٢١٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر.

٢١٧- الفصل في الملل والنحل، لابن حزم، مكتبة السلام العالمية.

٢١٨- فصول في السيرة النبوية، عبد المنعم السيد.

٢١٩- فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، عام (١٤٠٣هـ).

٢٢٠- فقه الابتلاء، محمد أبو صعيليك، دار البيارق، عمان -بيروت،الطبعة، الأولى (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).

٢٢١- فقه التمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار البيارق، عمان الطبعة الأولى (١٩٩٩م).

٢٢٢- فقه الدعوة إلى الله، عبد الحليم محمود، دار الوفاء، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م) .

٢٢٣- فقه الدعوة الفريدة، د. سيد محمد نوح، دار اقرأ، صنعاء.

٢٢٤- فقه الزكاة للقرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الحادية والعشرون، (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م) .

٢٢٥- الفقه السياسي للوثائق النبوية، خالد الفهداوي، دار عمار، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م) .

٢٢٦- فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.

٢٢٧- فقه السيرة للبوطي، محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الحادية عشرة، (١٩٩١م)، دار الفكر، دمشق- سوريا .

٢٢٨- فقه السيرة للغزالي، الطبعة الرابعة، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، دار القلم، دمشق -سوريا .

٢٢٩- فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة هادي، مكة المكرمة، طبعة عام (١٤٠٩هـ).

٢٣٠- الفوائد لابن القيم، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الريان للتراث، القاهرة -مصر، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م) .

٢٣١- في السيرة النبوية جوانب الحذر والحماية، الدكتور إبراهيم علي محمد أحمد،

الطبعة الأولى رجب (١٤١٧هـ)، وزارة الأوقاف بدولة قطر.

٢٣٢- في ظلال السيرة النبوية، الهجرة النبوية، الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان -الأردن، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).

٢٣٣- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة، (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).

(ق)

٢٣٤- القاموس المحيط، مجد الدين محمد الفيروز آبادي، مطبعة البابي وأولاده، بمصر الطبعة الثانية، (١٣٧١هـ- ١٩٥٢م).

٢٣٥- قراءة سياسة السيرة النبوية، محمد قلعجي، دار النفائس، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م)، بيروت، لبنان.

٢٣٦- قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير وأثرها في التراث العربي، تأليف د. السيد إبراهيم محمد، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

٢٣٧- قضايا في المنهج، سلمان العودة، دار مكتبة القدس، الطبعة الثالثة، (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).

٢٣٨- قضايا نساء النبي(ﷺ) والمؤمنات حفصة بنت عثمان الخلفي، دار المسلم الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

٢٣٩- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ت٦٦٠)، المكتبة الحسنية المصرية، بجوار الأزهر، الطبعة الأولى، (١٣٥٣هـ- ١٩٣٤م).

٢٤٠- القول المبين في سيرة سيد المرسلين، د. محمد الطيب النجار، دار اللواء، الرياض، (١٤٠١هـ- ١٩٨١م).

٢٤١- قيادة الرسول القيادية والعسكرية، أحمد راتب عرموش، دار النفائس، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ- ١٩٨٩م).

٢٤٢- القيادة العسكرية في عهد الرسول (ﷺ)، دار القلم، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م).

(ك)

٢٤٣- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، دار صادر- بيروت.

(ل)

٢٤٤- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.

٢٤٥- لقاء المؤمنين، عدنان النحوي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض -السعودية، الطبعة الثالثة، (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م) .

(م)

٢٤٦- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن علي الحسني الندوي، الطبعة السابعة، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م) .

٢٤٧- المال في القرآن الكريم، سليمان الحصين، دار المعراج الدولية، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ- ١٩٩٥م) .

٢٤٨- مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار السلم، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م) .

٢٤٩- مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق- سوريا.

٢٥٠- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثامنة، (١٤٠١هـ- ١٩٨١م) .

٢٥١- مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين عبد الرازق، مكتبة الخدمات الحديثة، جدة- السعودية، الطبعة الأولى بدون تاريخ.

٢٥٢- مبادئ نظام الحكم في الإسلام، عبد الحميد متولي، الطبعة الأولي دار المعارف.

٢٥٣- المبسوط للسرخسي، شمس الدين السرخسي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى.

٢٥٤- المجتمع المدني في عهد النبوة، د. أكرم العمري، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م) .

٢٥٥- مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم (٢٤٨)، (١٧ صفر ٣٩٩هـ).

٢٥٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الطبعة الثالثة، سنة (١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م)، دار الكتاب العربي، بيروت .

٢٥٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي النجدي، المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

٢٥٨- مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، دار النفائس، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م) .

٢٥٩- محاسن التأويل للقاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.

٢٦٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، أبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، طبعة (١٣٩٥هـ)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

٢٦١- محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون، دار القلم، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ- ١٩٩٥م) .

٢٦٢- محمد رسول الله، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٧٥م).

٢٦٣- محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان السويكت، مكتبة التوبة الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م) .

٢٦٤- المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز، دار الأنصار القاهرة، الطبعة الثانية، (١٩٧٨م) .

٢٦٥- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة، لابن قيم الجوزية، اختصره محمد المصلي، مكتبة الرياض الحديثة.

٢٦٦- مختصر سيرة الرسول (ﷺ)، لمحمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود .

٢٦٧- مختصر صحيح مسلم للحافظ زكي عبد العظيم عبد القوي بن سلامة المنذري، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني -الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م) .المكتب الإسلامي -دمشق.

٢٦٨- المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، محمد جمال الدين علي محفوط، مطابع الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة.

٢٦٩- مدخل لفهم السيرة، د. يحيى اليحيى، أخذها المؤلف من صاحب الكتاب قبل أن يطبعها.

٢٧٠- المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس، دار الفرقان، عمان.

٢٧١- المدينة المنورة فجر الإسلام والعصر الرشيدي، محمد حسين شراب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ- ١٩٩٤م) .

٢٧٢- المدينة المنورة والعصر الرشيدي، محمد حسن شراب، دار القلم، دمشق الدار الشامية ببيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ- ١٩٩٤م) .

٢٧٣- المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٩٩٣م) بيروت.

٢٧٤- مرض النبي (ﷺ) ووفاته وأثره على الأمة خالد أبو صالح، دار الوطن، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٢٧٥- مرويات غزوة أحد، حسين أحمد الباكري، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية، إشراف د. أكرم العمري -عام (١٩٨٠م- ١٤٠٠هـ).

٢٧٦- مرويات غزوة الحديبية، د. حافظ الحكمي، دار ابن القيم، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ- ١٩٩١م) .

٢٧٧- مرويات غزوة بدر، أحمد باوزير، مكتبة طيبة، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م) .

٢٧٨- مرويات غزوة بني المصطلق، إبراهيم القريبي، طبع المجلس العلمي بالجامعةج الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى عام (١٤٠٢هـ).

٢٧٩- مساجد القاهرة ومدارسها، أحمد فكري، طبعة الإسكندرية، (١٩٦١م).

٢٨٠- المستدرك على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله النيسابوري بذيله التلخيص للذهبي طبعة، (١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م)، دار النشر مكتب المطبوعات الإسلامية .

٢٨١- المستشفيات الإسلامية، د. عبد الله عبد الرازق مسعود العيد دار الضياء للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م) .عمان -الأردن.

٢٨٢- المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين الأبشيهي، مكتبة الحياة -بيروت.

٢٨٣- المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م) .

٢٨٤- المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد سالم، دار الفكر الغربي، طبعة، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م) .

٢٨٥- المسند، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٨٦- المشروع الإسلامي لنهضة الأمة قراءة في فكر حسن البنا، لمجموعة من الباحثين لم تطبع حتى كتابة هذا البحث.

٢٨٧- مشكاة المصابيح، المكتب الإسلامي، دمشق الطبعة الأولى، (١٣٨١هـ- ١٩٦١م) .

٢٨٨- مصعب بن عمير، الداعية المجاهد، محمد حسن بريغش، دار القلم- دمشق، الطبعة الرابعة، ، (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م) .

٢٨٩- مصنف عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الأولى.

٢٩٠- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

٢٩١- معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، الطبعة الرابعة(١٩٨٩م)، المؤسسة العربية للدراسة والنشر.

٢٩٢- معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، د. مصطفى مسلم محمد، دار المسلم،

الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ- ١٩٩٤م) .

٢٩٣- المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، د. محمد الديك، الطبعة الثانية، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م)، دار الفرقان للنشر والتوزيع .

٢٩٤- معجم البلدان، الياقوت الحموي، دار صادر، ودار بيروت، (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م) .

٢٩٥- معجم الطبراني، سليمان بن أحمد الطبراني، دار العربية، بغداد، (١٣٩٨هـ) .

٢٩٦- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (٢٦٠هـ- ٣٦٠هـ)، دار مكتبة العلوم والحكم، طبعة(٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م).

٢٩٧- معركة الوجود بين القرآن والتلمود، عبد الستار فتح الله السعيد، مكتبة المنار.

٢٩٨- المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منها، د. سميرة محمد حجوم، دار المجتمع جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م) .

٢٩٩- المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار ، للزهري، دار الفكر ، دمشق (١٤٠١- ١٩٨١م).

٣٠٠- مغازي رسول الله (ﷺ)، عروة بن الزبير، تحقيق: د. محمد الأعظمي، نشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ- ١٩٨١م) .

٣٠١- المغازي للواقدي، محمد عمر بن واقد المتوفي (٢٠٧هـ) تحقيق د. مارسدن جونس. عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م) .

٣٠٢- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق القاهرة، الطبعة الثامنة، (١٤١٣هـ- ١٩٩٣م) .

٣٠٣- المفصل في أحكام النساء، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ- ١٩٩٣م) .

٣٠٤- مقاصد الشريعة الإسلامية، د. محمد سعد اليوبي، دار الهجرة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ- ١٩٩٨م) .

٣٠٥- المقلصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، الدار العلمية للكتاب الإسلامي ط٢، سنة (١٤١٥هـ -١٩٩٣م)، الرياض.

٣٠٦- مقدمة ابن الصلاح وشرحها للحافظ العراقي، لأبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح، طبع دار الكتب العلمية بيروت -لبنان.

٣٠٧- مقدمة اين خلدون، للعلامة عبد الرحمن محمد بن محمد بن خلدون، ط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة بدون تاريخ.

٣٠٨- مقومات الداعية الناجح، د. علي بادحدح، دار الأندلس الخضراء، جدة،

الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م) .

٣٠٩- مقومات السفراء في الإسلام، حسن فتح الباب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، (١٩٧٠م).

٣١٠- مقومات النصر، د. أحمد أبو الشباب، المكتبة العصرية، لبنان، (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م) .

٣١١- مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، للأستاذ أحمد الشريف.

٣١٢- ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، عدنان النحوي، الطبعة الثانية.

٣١٣- من معين السيرة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م) .

٣١٤- من هدي سورة الأنفال، محمد أمين المصري- طبع دار الأرقم- الكويت.

٣١٥- المنافقون، محمد جميل غازي، مكتبة المدني ومطبعتها، (١٩٧٢م)، جدة -السعودية.

٣١٦- منامات الرسول (ﷺ)، عبد القادر الشيخ إبراهيم، دار القلم العربي بحلب، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ- ١٩٩٩م) .

٣١٧- مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم، د. عبد الرحمن البر، دار اليقين المنصورة، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م) .

٣١٨- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٣١٩- منهاج السنة النبوية، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م) .

٣٢٠- المنهاج القرآني في التشريع ، عبد الستار فتح الله سعيد، مطابع دار الطباعة الإسلامية، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م) .

٣٢١- منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، سليم حجازي، دار المنارة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م) .

٣٢٢- منهج الإسلام في تزكية النفس، د. أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم، الطبعة الثانية، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م) .

٣٢٣- المنهج التربوي للسيرة النبوية التربية الجهادية، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ- ١٩٩١م).

٣٢٤- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة الخامسة،

(١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).

٣٢٥- المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

٣٢٦- منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه، السيد محمد نوح، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ- ١٩٩٠م)، نشرته جامعة الإمارات العربية المتحدة.

٣٢٧- الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن، للإملم ابن قيم الجوزية، تحقيق مجدي فتحي السيد.

٣٢٨- الموافقات في أصول الأحكام، لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشاطبي، دار الفكد، (١٣٤١هـ).

٣٢٩- الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد صاددق عرجون، ط الثانية، (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م)، الدار السعردية للنشر والتوزيع جدة.

(ن)

٣٣٠- نشأة الدولة الإسلامية، د. عون الشريف قاسم، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط٢، (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).

٣٣١- نصب الراية في أحاديث الهداية -بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي المكتب الإسلامي -دمشق، (١٣٩٣هـ).

٣٣٢- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظلفر القاسمي، دار النفائس، الطبعة السادسة، (١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

٣٣٣- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، محمد عبد الحي الكتاني، دار الأرقم، بيروت -لبنان، الطبعة الثانية.

٣٣٤- النظام السياسي في الإسلام لأبي فارس، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الثانية، (١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م).

٣٣٥- نظرات في السيرة للإمام حسن البنا، مكتبة الاعتصام، القاهرة الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م)، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور.

٣٣٦- نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن حميد، دار الوسيلة، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

٣٣٧- نفوس ودروس في إطار التطوير القرآني، توفيق محمد سبع، مجمع البحوث الإسلامية القاهرة -مصر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

٣٣٨- النكت والعيون تفسير الماوردي -لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، تحقيق خضر محمد خضر - نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والتراث الإسلامي بالكويت.

٣٣٩- النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي.

٣٤٠- نور اليقين، محمد الخضري، دار القلم، دمشق- سوريا.

٣٤١- نيل الأوتار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ، محمد بن علاي الشوكاني، دار الحديث، القاهرة.

(هـ)

٣٤٢- الهجرة الأولى في الإسلام، د. سليمان العودة، دار طيبة للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

٣٤٣- هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة، أحمد عبد الغني النجولي الجمل، دار الوفاء، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

٣٤٤- الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة -مصر، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

٣٤٥- الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون جازولي، مكتبة الرسد الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

٣٤٦- هذا الحبيب محمد (ﷺ) يا محب، لأبي بكر الجزائري، مكتبة لينة.

٣٤٧- هذا الدين، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة -مصر، الطبعة الرابعة، (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).

(و)

٣٤٨- واقعنا المعاصر، لمحمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م).

٣٤٩- الوحي والرسالة، د. يحيى اليحيى، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع.

٣٥٠- الوسطية في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار النفائس، دار البيارق، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ- ١٩٩٩م).

٣٥١- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، أبو الحسن بن عبد الله السمهوري، دار المصطفى، طبعة القاهرة (١٣٢٦هـ).

٣٥٢- الوفود في العهد المكي وأثره الإعلامي، لعلي رضوان أحمد الأسطل، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م)، دار المنار -الأردن عمان.

٣٥٣- وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، دار طيبة، الطبعة الثالثة، (١٤١٧هـ- ١٩٩٧م).

٣٥٤- وقفات تربوية من السيرة النبوية، عبد الحميد البلالي، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ- ١٩٩١م)، المنار، الكويت.

٣٥٥- الولاءوالبراء في الإسلام، محمد سعيد القحطان، دار طيبة الرياض، الطبعة السادسة، (١٤١٣هـ).

٣٥٦- ولاية الشرطة في الإسلام، نمر محمد الحمداني، دار عالم الكتب، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م).

(ي)

٣٥٧- يقظة أولي الإعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار، لصديق حسن.

٣٥٨- اليهود في السنة المطهرة، د. عبد الله الشقاوي، دار طيبة، الرياض، طبعة أولى، (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

٣٥٩- اليوم الآخر في الجنة والنار، د. عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).

●●●

فهرس الكتاب

فهرست الجزء الثاني